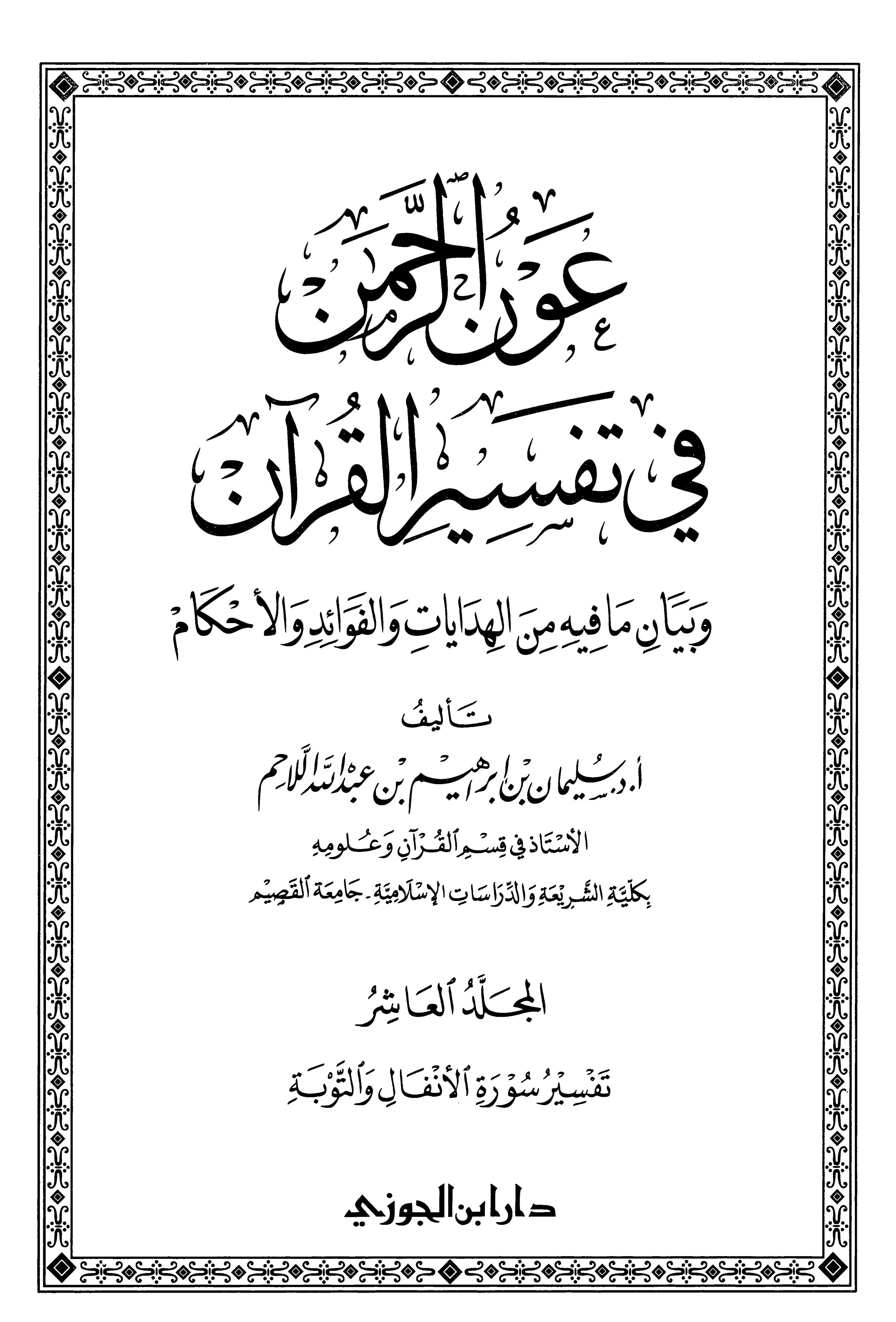


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبدالله اللاحم

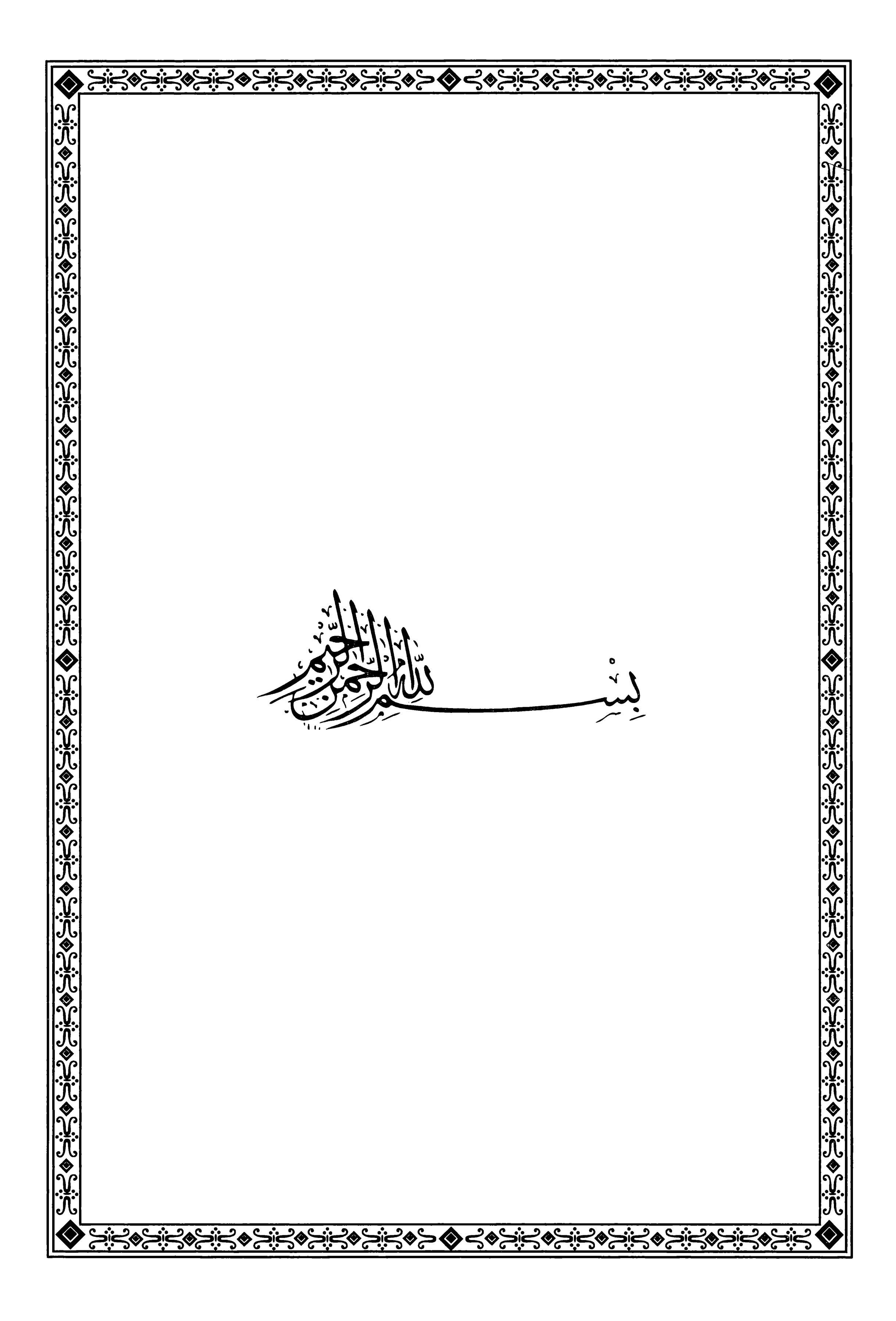
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

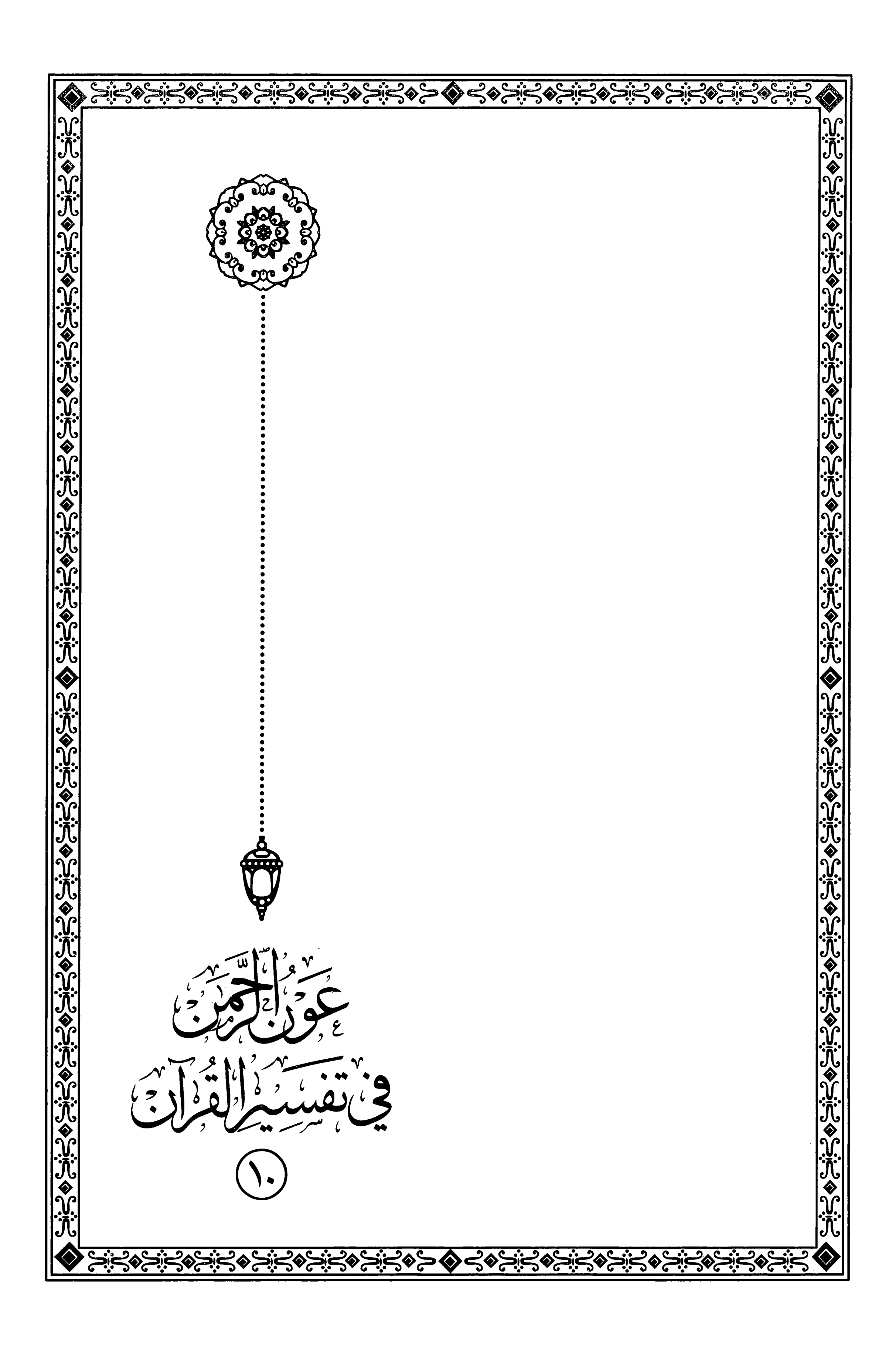
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد العاشر

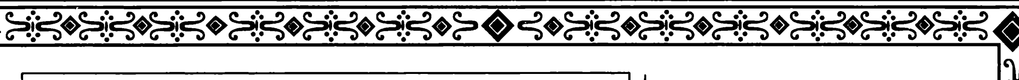
تفسير سورة الأنفال والتوبة

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



عون الرحمن
في تفسير القرآن
١٠





دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي : ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

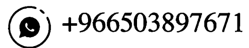
مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com

+966503897671



aljawzi

eljawzi

aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ

٥٣٢ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام

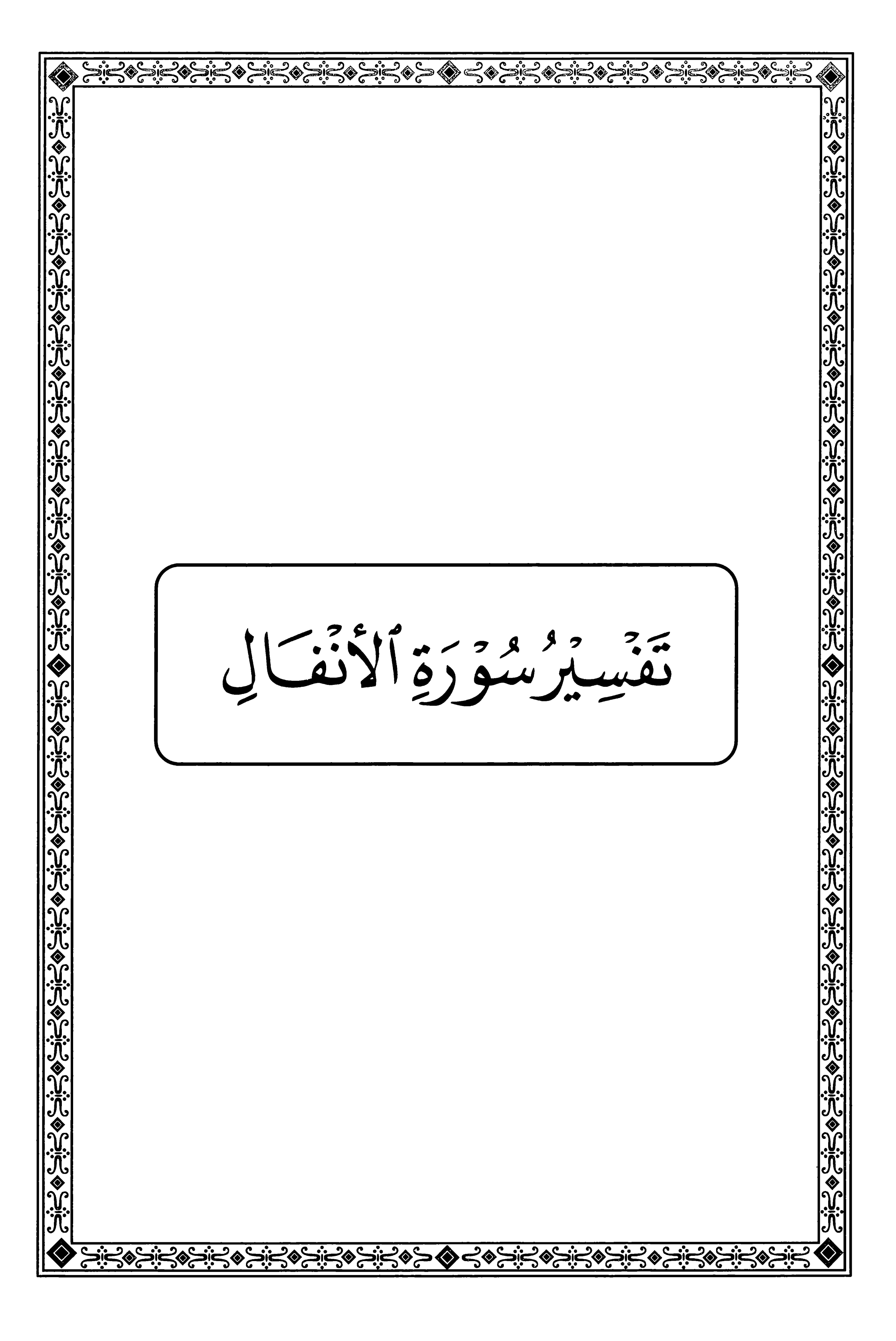
أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

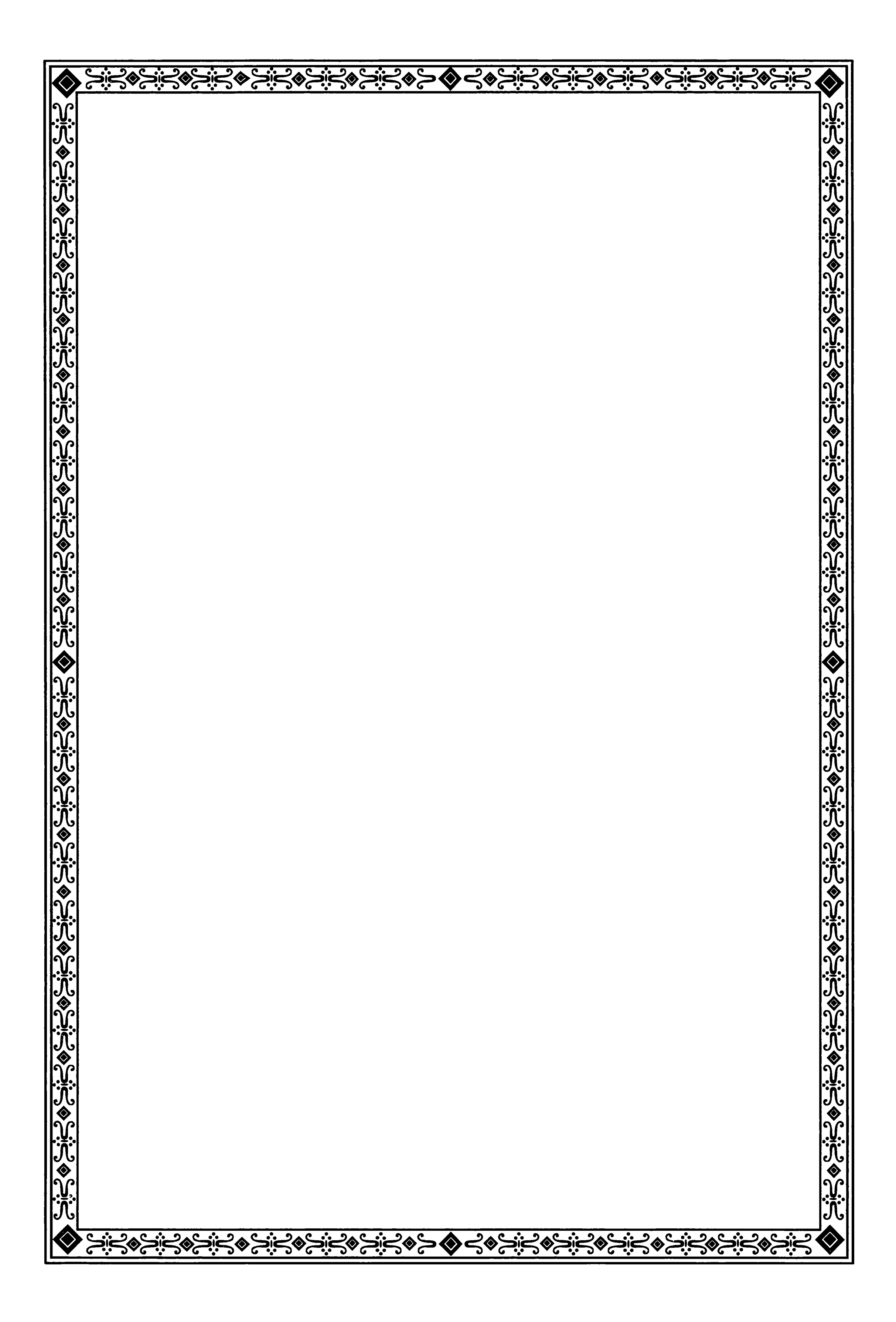
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلۡأَنفَالِ



المقدمـة

أ-اسـم السـورة:

سميت سورة الأنفال بهذا الاسم لذكر الأنفال في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ وبيان لمن تكون الأنفال وكيفية تقسيمها.

وتسمى سورة «بدر»؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سورة الأنفال سورة بدر»[1].

ب-مكان نزولها:

نزلت سورة الأنفال بالمدينة، فهي مدنية كلها. وقيل: نزلت بعض آياتها في مكة. والأظهر أنها كلها مدنية، وما جاء في بعض آياتها من ذكر أفعال بعض المشركين كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ [الآية: ٣٠] ونحو ذلك فهذا- والله أعلم- إنما هو من باب تذكير النبي ﷺ بأفعال المشركين ومواقفهم المخزية، والامتنان عليه بما آل إليه أمره وأصحابه من النصر والتمكين؛ ولهذا صح عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن هذه الآية مدنية[2].

جـ-موضوعاتها:

تحدثت سورة الأنفال بمجموع آياتها عن غزوة بدر الكبرى فذكرت أحداثها ووقائعها الظاهرة وتمام قدرة الله تعالى ونعمته فيما هيأ من بشارات النصر وأسبابه، وكيفية قسمة الغنائم، وملابسات ما قبل هذه الغزوة وما بعدها.

١- ابتدأت السورة بذكر سؤالهم عن الأنفال لمن تكون وكيف تقسم، وإجابتهم بأن حكمها لله والرسول فعليهم التسليم لذلك، وأمرهم بتقوى الله، وإصلاح ذات بينهم وطاعة الله ورسوله، ووصف المؤمنين حقاً بأنبل الصفات، والترغيب بالاتصاف بها ببيان ما لهم من درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم.

٢- تشبيه حالهم في اختلافهم في قسمة الأنفال والغنائم بحالهم عند خروجهم لاعتراض العير، وكراهية بعضهم للقتال أول الأمر؛ لأنهم لم يستعدوا له ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنفال (٤٦٤٥)، ومسلم في التفسير (٣٠٣١).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٣٤-١٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٦).

بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الآيتان: ٥، ٦].

٣- وعد الله تعالى لهم إحدى الطائفتين: العير، أو النفير، ومودتهم أن تكون لهم غير ذات الشوكة وهي العير، ويريد الله أن يكون لهم النفير ويحصل القتال، والخيرة فيما اختاره الله؛ ليحق الله ﴿ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الآيتان: ٧، ٨].

٤- ذكر استغاثتهم ربهم واستجابته لهم بوعدهم بإمدادهم بألف من الملائكة مردفين، وبيان أن هذا إنما هو بشرى لهم، وأن النصر من عنده عز وجل، والامتنان عليهم بما أعطاهم من أسباب النصر: من تغشية النعاس لهم أماناً لهم، وإنزال المطر عليهم من السماء؛ ليطهرهم به، ويذهب عنهم رجز الشيطان، وليربط على قلوبهم ويثبت به الأقدام، وأمره- عز وجل- الملائكة بتثبيتهم، ووعده بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، والحض على ضرب أعناقهم وقتلهم لمشاقتهم الله ورسوله، ولهم في الآخرة عذاب النار.

٥- نهي المؤمنين عن الفرار من الزحف عند ملاقاة الذين كفروا، ووعيد من فعل ذلك ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الآية: ١٦].

٦- التوجيه إلى الاعتماد على الله تعالى مع فعل الأسباب، وبيان أن ما حصل من هزيمة وقتل للكفار في بدر ليس بحول المؤمنين وقوتهم وإنما ذلك بحول الله تعالى ونصره ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ [الآية: ١٧].

٧- وعيد الكافرين وتحذيرهم من العودة لقتال المؤمنين والاغترار بكثرتهم، وتهديدهم بالهزيمة وبيان أن الله مع المؤمنين.

٨- حث المؤمنين على لزوم طاعة الله ورسوله وعدم التولي عنه وهم يسمعون، ونهيهم أن يكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، الذين هم شر الدواب عند الله، الصم عن سماع الحق، البكم عن النطق به، الذين لا يعقلون، الذين لا خير فيهم البتة،

المعرضون عن كلام الله تعالى. والمقصود من هذا النهي: التعريض بذم الكافرين.

٩- أمر المؤمنين بالاستجابة لله والرسول إذا دعاهم لما يحييهم من الإيمان بالله وطاعته وطاعة رسوله ﷺ، والجهاد في سبيل الله، والعلم بأن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه يحشرون، وتحذيرهم من فتنة تعم الظالم وغيره، والطالح والصالح، بسبب ترك الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٠- تذكيرهم نعمة الله عليهم إذ كانوا مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس فآواهم وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات ليشكروه.

١١- تحذيرهم من خيانة الله والرسول، وخيانة أماناتهم وهم يعلمون، وتحذيرهم من فتنة الأموال والأولاد، وبيان أنهم إن يتقوا الله يجعل لهم ما يفرقون به بين الحق والباطل، ويكفر عنهم سيئاتهم ويغفر لهم والله ذو الفضل العظيم.

١٢- تذكير النبي ﷺ بما وقع له من مكر المشركين به وكيدهم له ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، والامتنان عليه بذكر مكر الله تعالى بهم، وإنجائه منهم، وذكر مكابرتهم في أنهم لو شاؤوا لقالوا مثل هذا القرآن، وزعمهم أنما هو أساطير الأولين، ودعائهم على أنفسهم بالهلاك إن كان هذا هو الحق من عند الله، وبيانه- عز وجل- الحكمة في عدم تعذيبهم وهم أهل للعذاب، لصدهم عن المسجد الحرام واستهزائهم بالمكاء والتصدية عنده، وبيان أنهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الآية: ٣٦].

١٣- بيان أن الله شرع القتال، ليميز الخبيث من الطيب والمؤمن من الكافر والصادق من الكاذب ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الآية: ٣٧]، وبيان فتح باب التوبة لمن تاب من الكافرين: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الآية: ٣٨].

١٤- التحضيض على قتال الكافرين ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

﴿مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الآيتان: ٣٩، ٤٠].

١٥- ثم عادت السورة للتفصيل في قسمة الغنائم بعد التمهيد لذلك في أول السورة بالبيان الإجمالي أنها لله والرسول، فبينت أن خمسها يقسم أخماساً، لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وسكت عن الأربعة الأخماس منها في دلالة واضحة أنها للمجاهدين.

١٦- ثم ذكرهم الله- عز وجل- بوقائع المعركة وأحداثها وما لله تعالى من حكم في ذلك: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الآية: ٤٢]، ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ﴾ [الآيتان: ٤٣، ٤٤]. وأمرهم بالثبات عند لقاء العدو وذكر الله تعالى كثيراً؛ ليفلحوا، وبطاعته تعالى وطاعة رسوله، وعدم التنازع، فيفشلوا وتذهب ريحهم، وأمرهم بالصبر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الآية: ٤٦].

١٧- التعريض بذم الكفار بنهي المؤمنين أن يكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس للصد عن سبيل الله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الآية: ٤٨].

١٨- تظاهر المنافقين ومرضى القلوب مع الكفار في الكيد للمؤمنين، قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الآية: ٤٩].

١٩- بيان سوء حال الذين كفروا حين تتوفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ

لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [الآيتان: ٥٠، ٥١]، ثم بين أن حال هؤلاء المكذبين كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا وكذبوا بآيات الله فأخذهم الله وأهلكهم بذنوبهم، وأغرق آل فرعون وكلٌّ كانوا ظالمين.

٢٠- بيان أنهم شر الدواب عند الله فهم لا يؤمنون و﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الآية: ٥٦]، وحضه ﷺ على التنكيل بهم في الحرب، ليكونوا عبرة لمن خلفهم لعلهم يذكرون، وأمره إذا خاف من قوم خيانة أن ينبذ إليهم عهدهم على سواء؛ لأن الله لا يحب الخائنين، وبيان أنهم لن يعجزوا الله، وأمر المؤمنين أن يعدوا لهم ما استطاعوا من قوة لإرهاب عدو الله وعدوهم وآخرين من دونهم لا يعلمهم ﷺ، والله يعلمهم، وحضهم على الإنفاق في سبيل الله.

٢١- ثم رغبه في السلم إذا جنح إليه العدو: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الآية: ٦١].

وبيَّن له أنهم إن إرادوا أن يخدعوه في طلب السلم فإن حسبه الله، وذكَّره بمنته عليه بتأييده بنصره وبالمؤمنين، وتأليفه عز وجل بين قلوبهم، وبيَّن أنه سبحانه كافيه ومن اتبعه من المؤمنين.

٢٢- حثه ﷺ على تحريض المؤمنين على القتال، وأن يصابر الواحد منهم عشرة من الكفار؛ لأنهم قوم لا يفقهون، ثم خفف- عز وجل- عنهم وعلم أن فيهم ضعفاً ونسخ ذلك بمصابرة الواحد منهم لاثنين من الكفار، والله مع الصابرين.

٢٣- ثم عاتبه- عز وجل- في شأن الإبقاء على الأسرى، وأخذ الفداء منهم، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الآيتان: ٦٧، ٦٨].

وأمرهم بالأكل من الغنائم ممتناً عليهم بإباحتها لهم، وحاثًّا لهم على تقوى الله، وأمره أن يقول لمن في أيديهم من الأسرى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الآية: ٧٠].

والإشارة إلى أنه لا تؤمن خيانتهم بقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الآية: ٧١].

٢٤- ثم ختمت السورة بالثناء على المؤمنين كما أثنت عليهم في أولها بعد أن بينت أن المهاجرين الذين هاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والأنصار الذين آووا ونصروا بعضهم أولياء بعض، وأن الذين آمنوا ولم يهاجروا ما على المؤمنين المهاجرين والأنصار من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، ويجب على المؤمنين نصرهم إذا استنصروهم ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الآية: ٧٢].

ثم بينت أن الذين كفروا بعضهم أولياء بعض، يجب على المؤمنين معاداتهم، والحذر من موالاتهم.

وختمت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ﴾ [الآيتان: ٧٤، ٧٥].

٢٥- ثم ختمت الآية الأخيرة بما يشبه الاحتراز من أن الموالاة بين المؤمنين المهاجرين والأنصار تقضي على الموالاة بالأرحام، فبين عز وجل أن الموالاة بالأرحام باقية وبخاصة في الميراث بينهم فهم أولى به من غيرهم: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الآية: ٧٥].

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾.

سبب النزول:

عن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: «نزلت فيَّ أربع آيات: أصبت سيفاً فأتى به النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نفلنيه، فقال: «ضعه» ثم قام. فقال له النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته» ثم قام، فقال: نفلنيه يا رسول الله. فقال: «ضعه» فقام، فقال: يا رسول الله، نفلنيه، أأجعل كمن لا غناء له؟ فقال له النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾»[1].

وفي رواية عن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: «لما كان يوم بدر، وقتل أخي عمير، وقتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة[2]، فأتيت به النبي ﷺ. فقال: «اذهب فاطرحه في القَبَض»[3]، قال: فرجعت، وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي، وأخذ سلبي. قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «اذهب فخذ سيفك»[4].

وفي رواية عن سعد- رضي الله عنه- قال: يا رسول الله، قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال: «إن هذا السيف ليس لك ولا لي، ضعه»، فوضعته ثم رجعت، قلت: عسى أن يعطي هذا السيف من لم يبل بلائي، قال: إذا رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله فيَّ شيئاً؟ قال: «كنت سألتني السيف،

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٤٨)، وأبوداود في الجهاد- باب في النفل (٢٧٤٠)، والترمذي في تفسير سورة الأنفال (٣٠٧٩)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٨).

(٢) ذا الكتيفة: السيف العريض.

(٣) القَبَض: بفتح القاف والباء، بمعنى المقبوض، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٨٠)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٦-١٧)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٥٥).

وليس هو لي، وإنه قد وهب لي فهو لك» قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾»[١].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «**من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا**». قال: فتقدم الفتيان، ولزم المشيخة الرايات، فلم يبرحوها، فلما فتح الله عليهم، قال المشيخة: كنا ردءاً لكم[٢] لو انهزمتم لفئتم إلينا، فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى، فأبى الفتيان، وقالوا: جعله رسول الله ﷺ لنا، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ إلى قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾ يقول: فكان ذلك خيراً لهم، فكذلك أيضاً فأطيعوني فإني أعلم بعاقبة هذا منكم»[٣].

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ الخطاب للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ بصيغة المضارع دال على تكرار السؤال وكثرة السائلين.

والسؤال معناه الطلب، فإن عُديَ بنفسه فمعناه طلب إعطاء الشيء كما يقال: أسألك درهماً، أي: أعطني درهماً.

وإن عُديَ بـ«عن» كما في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ فمعناه طلب معرفة الشيء وحكمه ونحو ذلك.

فقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ معناه: يسألونك عن حكم الأنفال من يستحقها؟ وكيف تقسم؟ وعلى مَن تقسم؟ ونحو ذلك.

و«الأنفال» جمع «نَفَل» والنَّفَل والنافلة: الزيادة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، أي: زيادة وخصوصية لك.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٨)، وأبوداود في الجهاد- باب في النفل (٢٧٤٠)، والترمذي في تفسير سورة الأنفال (٣٠٧٤)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٥-١٦) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أي: نصراً وعوناً لكم.

(٣) أخرجه أبوداود في الجهاد- باب في النفل (٢٧٣٧)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٢-١٣)، والحاكم (٢/ ١٣١-١٣٢) وصححه، والبيهقي في «سننه» (٦/ ٢٩١، ٢٩٢).

قال لبيد[(١)]:

إن تقوى ربنا خير نَفَلْ   وبإذن الله ريثي والعَجَلْ

فالأنفال: الزيادات في العطاء.

وتطلق أيضاً عند العرب على الغنائم في الحرب، كأنهم يرون أنها زيادة على المقصود من الحرب، وهو هزيمة الأعداء والقضاء عليهم وإضعافهم، كما قال أوس بن حجر[(٢)]:

نكصتم على أعقابكم ثم جئتمُ   تُرَجُّون أنفال الخميس العرمرم

وقال عنترة بن شداد[(٣)]:

إنا إذا احمر الوغى نرْوي القنا   ونَعِفّ عند مقاسم الأنفال

وهو يريد بالأنفال المغانم؛ ولهذا قال في معلقته[(٤)]:

يُخبركِ من شهد الوقيعة أنني   أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ولهذا فسر بعض السلف الأنفال بالزيادات التي يُنفل بها بعض المجاهدين زيادة على نصيبه من الغنيمة قبل المعركة أو بعدها كالسلب والفرس وغير ذلك لبلاء أبلاه.

وفسرها بعض السلف وأكثر أهل العلم بعدهم بالغنائم[(٥)]. وهذا أقرب وأعم؛ لأن ما يُنفل به بعض المجاهدين هو أيضاً من الغنائم، ولأن الغنائم زيادة في أموال المسلمين، نفلها الله- عز وجل- لهذه الأمة، أي: أباحها لهم دون غيرهم كما في حديث جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**وأعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**- وذكر منهن: **وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي**»[(٦)].

---

(١) انظر: «ديوانه» (٢/ ١١).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص١٢٤).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص١٩٣).

(٤) انظر: «ديوانه» (ص١٦١).

(٥) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٥-١٩)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٥٣-١٥٦١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٤٥).

(٦) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

قال أبوعبيد[١]: «أما الأنفال فهي المغانم وكل نَيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب».

وقال السعدي[٢]: «الأنفال هي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات قد نزلت في قصة بدر، أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ كيف تقسم؟ وعلى مَن تقسم؟».

﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾

أي: قل: الأنفال ملك لله والرسول، والحكم فيها لله ورسوله، يضعانها حيث شاءا، فعليكم الرضا والتسليم لما حكم الله ورسوله فيها، ولهذا قال بعده: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ﴾ ولم يقل: «قل هي» لمزيد العناية والاهتمام، كما أظهر اسم الرسول ﷺ فقال: ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ ولم يقل: «ولي» تعظيماً له ﷺ.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الفاء للتفريع، أي: فاتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك الرضا والتسليم لحكم الله ورسوله في الأنفال وغير ذلك.

﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ معطوف على ما قبله.

وإصلاح الشيء: جعله صالحاً، أي: وأصلحوا حالكم وما بينكم من الاختلاف والتنازع في الأنفال وغير ذلك. وفي الآية ما يشعر بالعتاب لهم على ما وقع منهم من الخلاف والنزاع في الأنفال، كما جاء في بعض روايات سبب النزول.

وإصلاح ذات البين من أوجب الأعمال وأفضلها؛ لأن فساد ذات البين، كما قال ﷺ: «**هي الحالقة**»[٣].

---

(١) في «الأموال» (ص٤٢٦).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٤١).

(٣) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩)، وأحمد (٦/ ٤٤٤، ٤٤٥)، من حديث أبي الدرداء- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح».

وفي رواية قال: «**هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»[(١)].

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ معطوف على ما قبله.

والطاعة الامتثال بفعل المأمور وترك المحظور، أي: افعلوا ما أمركم الله به ورسوله، واتركوا ما نهاكم الله عنه ورسوله.

وهي بمعنى التقوى، وحيث اجتمع في هذه الآية الأمر بتقوى الله والأمر بطاعة الله ورسوله، فالأولى حمل الأمر بالتقوى هنا على اجتناب النواهي، وحمل الأمر بالطاعة على فعل الأوامر، أي: وأطيعوا الله ورسوله في قسمة الغنائم وفي غير ذلك.

وعطف قوله: ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، ﴿إِن﴾ شرطية، و﴿كُنتُم﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم مؤمنين ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

فمن شرط الإيمان تقوى الله وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله.

الفوائد والأحكام:

١- تشريف الله- عز وجل- وتكريمه لنبيه ﷺ بخطابه له بقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾.

٢- تولي الله- عز وجل- الإجابة عما يوجه إلى النبي ﷺ من أسئلة، وفي هذا إثبات لرسالته ﷺ ودفاع عنه، وبيان أنه ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل، وفيه رد على من زعموا أنه تقوّل القرآن وافتراه من عند نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾.

٣- حرص الصحابة- رضي الله عنهم- على تعلّم أمر دينهم.

٤- ينبغي أن يتوجه بالسؤال في أمر الدين إلى الأنبياء، وهكذا فعل الصحابة رضي الله

---

(١) ذكرها الترمذي في الموضع السابق بقوله: «ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**».

عنهم، ويتوجه به بعدهم إلى العلماء فهم ورثة الأنبياء.

٥- أن الأنفال ملك لله والرسول، والحكم فيها لله والرسول؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وقد بيّن عز وجل حكمها في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١].

٦- وجوب تقوى الله بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٧- وجوب إصلاح ذات البين بين المسلمين والقضاء على أسباب النزاع والاختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

٨- حرص التشريع الإسلامي على أن يعيش أتباعه في وئام وانسجام، وأخوة وأُلفة ومحبة، بعيدين عن أسباب النزاع والاختلاف والافتراق.

٩- في الأمر بإصلاح ذات البين على وجه الخصوص دلالة على أهمية ذلك وخطر فساد ذات البين، فهي كما قال ﷺ: «**لا تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**»[1].

١٠- وجوب طاعة الله ورسوله بفعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ والأولى حمل الطاعة هنا على فعل المأمورات، وحمل التقوى على ترك المحظورات حيث اجتمعا في آية واحدة، تفادياً للقول بالتكرار.

١١- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

١٢- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله بالواو التي تقتضي التشريك في باب الطاعة؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى.

١٣- أن من شرط الإيمان تقوى الله، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

ذكر عز وجل أن من شرط الإيمان تقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله، ثم أتبع ذلك ببيان صفات المؤمنين حقًّا في هاتين الآيتين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، والحصر: «إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه»، وهي: كافة ومكفوفة، أي: أن «ما» دخلت على «إن» فكفتها عن العمل.

والمعنى: إنما المؤمنون كاملو الإيمان، الذين عندهم الإيمان المطلق، لا مطلق الإيمان هم المتصفون بالصفات المذكورة في الآيتين.

والإيمان لغة: التصديق، كما قال إخوة يوسف- عليه السلام- فيما ذكر الله عنهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧]، أي: وما أنت بمصدق لنا، وكقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] أي: ويصدق للمؤمنين.

والإيمان شرعاً: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هذه هي الصفة الأولى من صفات المؤمنين، أي: الذين إذا ذكر الله عندهم، بذكر ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وآياته الشرعية والكونية، وذُكِّروا به ووعظوا بذكر عظمته ووعده ووعيده.

﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، الوجل: الخوف والفزع، كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحجر: ٥٢، ٥٣].

ومعنى ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: فرقت وخافت وفزعت قلوبهم تعظيماً لله عز وجل، وخوفاً منه، فأقبلوا على طاعته وابتعدوا عن معاصيه.

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤،

٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ هذه هي الصفة الثانية من صفات المؤمنين، أي: وإذا قرئت عليهم آيات الله الشرعية؛ آيات القرآن الكريم ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، أي: كانت سبباً في زيادة إيمانهم وقوة يقينهم، تصديقاً ويقيناً في قلوبهم، وإقراراً واعترافاً بألسنتهم، وعملاً بجوارحهم.

وذلك لشهودهم لتلاوة القرآن وتدبرهم له بأسماعهم وقلوبهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤﴾ [التوبة: ١٢٤].

وهذا بخلاف حال كثير من الناس اليوم يقرأ الواحد منهم القرآن كله، أو يسمعه من فاتحته إلى خاتمته لا يحرك منه ساكناً، بينما يبكي بعضهم أو يتباكى عند سماع دعاء ختم القرآن ولو كان بأدعية لم تؤثر، بل لا تخلو من الاعتداء. فلينتبه لهذا.

وفي الآية دلالة على زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضله في القلوب كما هو مذهب أهل السُّنَّة وعليه عامة الأمة، قال ابن كثير(١): «بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد».

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذه هي الصفة الثالثة من صفات المؤمنين، أي: وعلى ربهم، خالقهم ومالكهم ومدبرهم ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾.

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٥٥٢). وقد استدل بهذه الآية البخاري على ما ذكر في أول كتاب الإيمان.

وقدم المتعلق ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لإفادة القصر، أي: وعلى ربهم وحده يتوكلون لا على غيره.

ومعنى ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: يفوضون أمورهم إليه ويعتمدون عليه في جلب النفع ودفع الضر، مع تمام الثقة به- سبحانه، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون غيره، ولا يلوذون إلا به، ولا يطلبون حوائجهم إلا منه، موقنين أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، متجاوزين الأسباب إلى مسببها من غير إهمال لها، بخلاف حال كثير من الخلق، فإنهم يفزعون في حوائجهم إلى الأسباب الظاهرة، وينسون مسبب الأسباب.

وجاء التعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ للدلالة على استمرارهم على ذلك في الحال والاستقبال.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- صفات المؤمنين في اعتقادهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ ثم أتبع ذلك بذكر صفاتهم في أعمالهم، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ وقدم أعمال القلوب لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، وهي سبب لصلاح أعمال الجوارح.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذه هي الصفة الرابعة من صفات المؤمنين.

وقوله: ﴿يُقِيمُونَ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على استمرارهم على إقامة الصلاة والمحافظة عليها.

والمعنى: الذين يحافظون على الصلاة ويقيمونها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها- بمواقيتها، وجماعتها، وركوعها وسجودها، والخشوع فيها، وغير ذلك؛ لتحصل فوائدها، وتجنىٰ ثمارها ومنافعها؛ ولهذا جاء التعبير بقوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل: «يصلون»، وهذا كما هو الغالب في القرآن التعبير بإقام الصلاة؛ لأن المقصود إقامة الصلاة إقامة تامة كما شرعها الله عز وجل.

وقدَّم عز وجل وصفهم بإقام الصلاة، وخصَّها من بين سائر الأعمال والعبادات البدنية؛ لأنها أعظم العبادات بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام، وقاعدته العظيمة التي يدور عليها رحاه، وهي سر اجتماع الأمة وقوَّتها وفلاحها وصلاحها ونجاحها، وهي جماع الخير كله.

وإقامتها كما شرع الله- عز وجل- في المساجد مع جماعة المسلمين سبب التوفيق والفلاح والعز والنصر والنجاح، والرزق والراحة والطمأنينة، و العون على أمور الدين والدنيا، والقيام بما عداها من الأعمال الصالحة، وقبولها والسلامة من الشرور.

والصلاة في اللغة: الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وهي في الشرع: التعبد لله- عز وجل- بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم.

والصلاة: تشمل الفرائض وغيرها من النوافل.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذه هي الصفة الخامسة من صفات المؤمنين، أي: ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون.

وفي قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ تنبيه وتذكير بأن المال مال الله، وأنه عارية مردودة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧].

قال لبيد(١):

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يوماً أن ترد الودائع

﴿يُنفِقُونَ﴾، أي: يخرجون المال في وجوهه المشروعة، الواجب منها كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد ومن تجب النفقة عليه من الأقارب ونحو ذلك.

وفي وجوهه المستحبة كالصدقة والهدية، وغير ذلك من وجوه البر.

(١) انظر: «ديوانه» (ص٨٨).

فجمعوا بين الإحسانين؛ الإحسان في عبادة الله تعالى بإقام الصلاة؛ إخلاصاً لله تعالى ومتابعة للرسول ﷺ، وبين الإحسان إلى عباد الله، بالإنفاق عليهم من رزق الله. وهذا غاية ما يطلب من المؤمن، أن يكون محسناً في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ ﴾ الجملة مؤكدة لمضمون الآية قبلها، فالإشارة فيها للمؤمنين الذين حُصر الإيمان فيهم ووصفوا بالصفات المذكورة في الآية السابقة. وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لشأنهم، وتنويهاً بهم، وفيها حصر الإيمان فيهم مرة أخرى وتأكيده بثلاث مؤكدات، وهي: كون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم».

﴿حَقّٗاۚ﴾ مفعول مطلق، مؤكد لمضمون جملة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾، أو لمصدر محذوف، أي: إيماناً حقًّا، أي: أولئك المؤمنون الموصوفون بتلك الصفات هم المؤمنون حق الإيمان، الذين ثبت لهم وصف الإيمان المطلق الكامل، وكانوا أحق به؛ حيث جمعوا بين العلم والعمل، والإيمان والإسلام، وصلاح الباطن والظاهر، والإحسان في عبادة الله- عز وجل- والإحسان إلى عباده.

ومفهوم الحصر في الآيتين أن من لم يتصف بالصفات المذكورة فليس بمؤمن الإيمان الكامل، بل هو ناقص الإيمان، عنده مطلق الإيمان، لا الإيمان المطلق.

﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾.

بعدما ذكر الله- عز وجل- صفات المؤمنين حقًّا، بيَّن ما أعدَّ لهم من الأجر والمثوبة.

﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ الجملة خبر ثان؛ لقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾.

واللام: للاستحقاق، أي: درجات مستحقة لهم، ونكِّرت ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ للتعظيم، أي: لهم منازل عالية، ومراتب رفيعة في الجنة حسب إيمانهم وأعمالهم.

﴿عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾، أي: منه- عز وجل- وعنده- وفي هذا تعظيم لها، فهي منازل عالية ومراتب رفيعة، ويزيدها عظمة كونها من ربهم الجواد الكريم ذي الفضل العظيم،

ويزيدها علوًّا ورفعة كونها عند ربهم؛ حيث يأمنون ويطمئنون بقربه، وينعمون بجواره، نسأل الله الكريم من فضله، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين**»[(١)].

فلهم درجات ومراتب ومنازل ومقامات عند ربهم في الجنة حسب منازلهم في الإيمان، واتصافهم بتلك الصفات.

لكن من نِعم الله- عز وجل- وفضله على أهل الجنة أن من كان منهم أعلى منزلة يرى ما فَضَّله الله به على من دونه، بينما المفضَّل عليه لا يرى أن هناك أحداً أفضل منه؛ لأن الله- عز وجل- أذهب عن أهل الجنة الغم والحزن- كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ معطوفة على درجات، ونكِّرت للتعظيم، أي: ولهم مغفرة عظيمة واسعة لذنوبهم، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في المناجاة، وتقرير العبد بذنوبه، وفيه «**فيقول الله- عز وجل: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[(٢)].

ومنه سمي «المغفر»، وهو: البيضة التي توضع على الرأس حال القتال؛ تستره وتقيه السهام.

﴿وَرِزْقٌ﴾ نكِّر للتعظيم، والرزق العطاء، ﴿كَرِيمٌ﴾ واسع كثير، أي: ولهم عطاء من ربهم عظيم واسع، كثير، لا يقدر قدره إلا من أعطاهم إياه، وهو الرب

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، ومسلم في الجنة- ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء (٢٨٣١).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم و الغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

العظيم الواسع الكريم- سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ عن الجنة: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[١].

وعن أسامة بن زيد- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه: «**ألا مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلَل كثيرة، في مقامٍ أبداً في حَبْرَةٍ ونَضْرَةٍ في دُورٍ عالية سليمة بهية**» قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله، قال: «**قولوا: إن شاء الله**» ثم ذكر الجهاد وحضَّ عليه[٢].

قال ابن القيم[٣]:

فحيّ على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم
وحيّ على السوق الذي فيه يلتقي ... المحبون ذاك السوق للقوم مُعلم
فما شئت خذ منه بلا ثمن له ... فقد أسلف التجار فيه وأسلموا
وحيّ على يوم المزيد الذي به ... زيارة رب العرش فاليوم موسم
وحيّ على وادي هنالك أفيح ... وتربته من أذفَرِ المسك أعظم
منابر من نور هناك وفضة ... ومن خالص العقيان لا يتقصم
وكثبان مسك قد جعلن مقاعداً ... لمن دون أصحاب المنابر تُعلم
فبينا هم في عيشهم وسرورهم ... وأرزاقهم تجري عليهم وتقسم
إذا هم بنور ساطع أشرقت له ... بأقطارها الجنات لا يتوهم
تجلى لهم رب السموات جهرة ... فيضحك رب العرش ثم يكلم
سلام عليكم يسمعون جميعهم ... بآذانهم تسليمه إذ يُسلم

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٥)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.
(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٣٣٢).
(٣) انظر: مقدمة «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» ص(٣١-٣٢).

يقول سلوني ما اشتهيتم فكل ما ... تريدون عندي إنني أنا أرحم
فقالوا جميعاً نحن نسألك الرضا ... فأنت الذي تولى الجميل وترحم
فيعطيهم هذا ويشهد جمعهم ... عليه تعالى الله فالله أكرم
فيا بائعاً هذا ببخسٍ مُعجّل ... كأنك لا تدري بلى سوف تعلم
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ... وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وقدَّم قوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾؛ لبيان منازلهم وعلوّها ورفعتها في الجنة.

ثم أتبعه بقوله: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾؛ لبيان ما لهم من النعيم في هذه المنازل فبيَّن أولاً المنزل، ثم بين ما للنازل فيه من الضيافة.

وقدَّم المغفرة؛ لأن فيها التخلية وزوال المرهوب، ثم أتبعها بالرزق الكريم الذي به التحلية وحصول المطلوب- نسأل الله الكريم من فضله.

قال السعدي[1]: «ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان- وإن دخل الجنة فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة».

الفوائد والأحكام:

١- حصر الإيمان المطلق الكامل بمن اتصفوا بالصفات المذكورة في الآيتين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

٢- فضل أعمال القلوب؛ لهذا قدَّمها على أعمال الجوارح من الصلاة والنفقات؛ لأنها أصل لأعمال الجوارح، وسبب لصلاحها.

٣- أن الأعمال من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ وفي هذا رد على المرجئة.

٤- الترغيب بذكر الله- عز وجل- والتذكير به، وخوفه ورجائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٤٤).

﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾.

٥- الترغيب بتلاوة القرآن والاستماع له وتدبره؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾.

٦- إثبات زيادة الإيمان ونقصانه، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً للمعتزلة؛ لقوله تعالى: ﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾.

٧- وجوب التوكل على الله- عز وجل- والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه في جلب النفع، ودفع الضر- مع تمام الثقة به؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٨- وجوب إقامة الصلاة المفروضة، والترغيب في صلاة النوافل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٩- وجوب إخراج النفقات الواجبة في المال كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد ونحو ذلك، والترغيب في الصدقة في وجوه البر كلها وفي الهدية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾.

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ بيان أن الرزق من الله عز وجل. وأنه عارية مردودة، وفي ذلك حض على الإنفاق منه وعدم البخل فيه.

١١- عظم مكانة الصلاة والإنفاق من رزق الله، لهذا خصهما بالذكر، فالصلاة أعظم العبادات البدنية، والإنفاق بإخراج الزكاة والنفقات أعظم العبادات المالية، وفي الصلاة الإحسان في عبادة الله عز وجل، وفي الإنفاق بإخراج الزكاة وغيرها الإحسان إلى عباد الله.

١٢- أن الصلاة أعظم من الزكاة وغيرها من النفقات، بل هي أعظم العبادات بعد الشهادتين، لهذا قدم إقام الصلاة على الإنفاق.

١٣- تأكيد كمال إيمان من اتصفوا بالصفات المذكورة وبلوغهم درجة الإيمان المطلق؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾. ويفهم من هذا أن من لم يتصف بهذه الصفات ليس بكامل الإيمان، وإنما عنده مطلق الإيمان.

١٤- رفعة درجات المؤمنين ومنازلهم عند ربهم في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وأمنهم فيها وعليها بقربهم من ربهم وجوارهم له.

١٥- تفاوت درجات أهل الجنة ومنازلهم حسب تفاوت إيمانهم وأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

١٧- مغفرة الله- عز وجل- العظيمة الواسعة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾.

١٨- عظم ما أعده الله للمؤمنين من العطاء وكثرته وسعته في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

١٩- عظم فضل الله- عز وجل- وعفوه وجوده وكرمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

٢٠- أن معرفة المنزل ومكانته تسبق معرفة ما للنازل فيه من النعيم، لهذا قدَّم في الآية قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ على قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

٢١- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدَّم المغفرة على الرزق الكريم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨ ﴾.

روى ابن إسحاق عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله أن ينفلكموها، فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً. وكان أبوسفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغِفَارِي، فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له: «ذَفِران» فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاهم الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش. فقام أبوبكر- رضي الله عنه- فقال، فأحسن، ثم قام عمر- رضي الله عنه- فقال، فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: امض لما أمرك الله، فنحن معك، فوالله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى «بَرْك الغِماد»(١)- يعني مدينة الحبشة- لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليَّ أيها الناس- وإنما يريد الأنصار- وذلك أنهم

---

(١) «بَرْك الغِماد» بكسر الغين وضمها، والكسر أشهر موضع إلى الجنوب من مكة، على نحو مائتي كيلومتر مما يلي البحر، وقيل: موضع بأقصى أرض هجر.

كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم. فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسِر بنا على بركة الله. فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم غداً»[1].

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾، الكاف: للتشبيه بمعنى: «مثل» و«ما»: مصدرية، أي: مثل إخراج ربك لك من بيتك بالحق، أي: كما أمرك ربك بالخروج قدراً وشرعاً.

﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾، أي: من منزلك في المدينة .

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الباء للملابسة والمصاحبة، أي: إخراجاً ملابساً ومصاحباً للحق، موافقاً للمصلحة، وعين الحكمة والصواب.

فشبه- والله أعلم- اختلاف المؤمنين في قسمة الغنائم، وما حصل بين بعضهم من التنازع فيها حتى جعل الله الأمر فيها له ولرسوله ﷺ، فقسمها على العدل والسوية، فكان في ذلك المصلحة التامة لهم- شبه هذا بخروجه ﷺ إلى بدر وكراهية بعض المؤمنين للقتال، ومجادلتهم بالحق بعد ما تبين، فكان عاقبة كراهتهم للقتال أن قدره الله لهم، وجمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، فكان النصر والفتح للمسلمين، فلله

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤١-٤٣)، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٠٦-٦٠٧).

الحكمة في هذا وفي هذا.

وقد قيل العكس، أي: أن الله شبه إخراجه ﷺ يوم بدر بما حصل بين المؤمنين من اختلاف في أمر الغنائم.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾، الواو: للحال، أي: والحال إن جماعة من المؤمنين ﴿لَكَٰرِهُونَ ﴾، أي: لكارهون للقتال، واللام: للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾، ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾: حال من ﴿فَرِيقًا﴾ أو من الضمير في «كارهون»، بصيغة المضارع لحكاية حالة المجادلة زيادة في التعجب منها.

أي: يخاصمونك وينازعونك في الحق، وهو ما أمرك الله به من القتال بقولهم: لم نعلم أننا نلقى العدو، فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا للعير، ونحو ذلك[1].

﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾، أي: بعد ما تبين لهم أن الله هو الذي أخرجك، وهو الذي أمرك بالقتال لحكمة يعلمها.

أو بعد ما تبين لهم الحق وظهر أن الله قدر لهم النصر حيث وعدهم إحدى الطائفتين العير أو النفير، ثم أخبرهم أن العير قد أخطأتهم، فبقي النفير، وقد وعدوا بالنصر عليه.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ الجملة حال من الضمير في «كارهون»، أو من فاعل ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾، أي: حال كونهم في كراهتهم القتال ومجادلتهم في الحق بعدما تبين كحال من يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

والمعنى: كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون، أي: كمن يساق إلى الموت وهو ينظر أسبابه، وذلك لقلة عددهم، وعدم تأهبهم مقارنة بالمشركين، وفي الآية: تعريض بأنهم إنما يساقون ويسار بهم إلى النصر والغنيمة والوعد الحق.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٨).

قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾، الواو عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾، أو استئنافية، و«إذ» ظرف بمعنى: «حين» متعلق بفعل محذوف تقديره: «اذكروا».

﴿يَعِدُكُمُ اللَّهُ﴾ بوحيه إلى نبيه ﷺ. ووعد الله- عز وجل- لا يتخلف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

والوعد يكون بالخير- غالباً، وقد يكون بالشر، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧] بخلاف الوعيد فإنه يكون بالشر.

﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ الطائفة: الجماعة من الناس، أي: إحدى الجماعتين من عدوكم، إما العير التي مع أبي سفيان فيها تجارة قريش، وإما النفير من المشركين الذين خرجوا لحمايتها وعلى رأسهم أبو جهل.

﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾، أي: أنها معطاة لكم، فإما أن تظفروا بالعير وما تحمله من التجارة، وإما أن تظفروا بالنفير الذين خرجوا لحمايتها وتنتصروا عليهم.

وهذا مقتضى وعد الله لهم، فهم رابحون في الحالين.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، أي: وتحبون وترغبون أن الطائفة ﴿غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾، أي: غير صاحبة الشوكة.

والشوكة في الأصل واحدة الشوك، وهو ما يؤذي من النبات بإبره الحادة.

والمعنى: وتحبون أن الطائفة غير ذات البأس والقوة والعدد والسلاح ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾، أي: تكون من نصيبكم، وهي العير التي ليس معها سوى نحو أربعين رجلاً غير مقاتلين، فتحصل لكم غنيمة باردة بلا حرب، وكسب بلا قتال. وهذا من طبيعة النفس البشرية الرغبة بما هو أيسر وأقل كلفة.

ومفهوم هذا أنهم يكرهون أن تكون لهم الطائفة ذات الشوكة والبأس والقوة والعدة والعدد، والتي قوامها نحو ألف مقاتل، وهي النفير.

ولكن الله- عز وجل- بعلمه وحكمته أراد أمراً هو خير وأعظم وأعلى مما أحبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧﴾.

أي: ويريد الله إرادة شرعية كونية ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «يريد»، وتقديره: ويريد الله إحقاق الحق أي: أن يظهر الدين الحق، وهو الإيمان بالله وتوحيده وما جاء به رسوله ﷺ.

﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ كلمات الله تنقسم إلى قسمين: كلمات كونية، وهي: أوامره الكونية القدرية، وكلمات شرعية، وهي: وحيه إلى أنبيائه ورسله.

والمراد هنا ما يشمل كلماته الكونية والشرعية، من آيات القرآن المنزلة في قتال الكفار، وإمداد المؤمنين بالملائكة، وأمرهم بتثبيت المؤمنين ونصرهم، وغير ذلك من أسباب النصر.

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قطع دابر الشيء: إزالته إزالة تامة حتى لا يبقى منه شيء.

فقوله: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: يستأصلهم بالهلاك عن آخرهم فلا يبقي منهم أحداً، كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ولهذا قدَّر لكم لقاء الطائفة ذات الشوكة وجمع بينكم وبينهم على غير ميعاد، كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن يثبت الدين الحق ويظهره، وفيه تأكيد لما وعدهم به من النصر والظفر في بدر، ووعدهم بإحقاق الحق وتثبيته وتأييده.

﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾، أي: ويزيل الباطل وهو الكفر والشرك، ويمحوه ويزهقه، بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه، وبخذلان أهله وقطع دابرهم.

وهذا توكيد لقوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ لأن الباطل ضد الحق، فإذا جاء الحق وظهر؛ زهق الباطل واضمحل، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وفي كل من قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾، ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ جناس اشتقاق، وبينهما مقابلة بين: «يحق»، و«يبطل»، و«الحق»، و«الباطل».

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أي: ولو كره ذوو الإجرام من المشركين والكفار إحقاق الحق وإبطال الباطل، وعاندوا وخالفوا فلا يبالي الله بهم.

الفوائد والأحكام:

١- الإشارة إلى أن لله الحكمة فيما قدر من اختلاف بعض المؤمنين حول قسمة الغنائم وتنازعهم في ذلك حتى جعل الله الأمر فيها له ولرسوله ﷺ، كما أن له- عز وجل- الحكمة في إخراجه ﷺ ومن معه من المدينة وكراهية بعض المؤمنين للقتال فكان عاقبة ذلك أن قدره لهم وجمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، فكان النصر للمسلمين، لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾.

٢- تشبيه ما حصل من تساؤل عن الأنفال، وما حصل من تنازع حول قسمتها حتى جعل الله الأمر فيها له ولرسوله ﷺ بخروجه ﷺ لبدر ومن معه من المؤمنين وكراهية فريق منهم القتال، ومجادلتهم في أنهم لم يخرجوا لقتال، وجمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، وما أعقب ذلك من النصر؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية- ولله الحكمة في ذلك كله.

٣- أن خروجه ﷺ يوم بدر هو بأمر الله- عز وجل- قدراً وشرعاً؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه وتكريمه بخطابه- عز وجل- له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾.

٥- أن خروجه ﷺ من بيته لبدر خروج مصاحب ومتلبس بالحق ولإحقاق الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٦- كراهية فريق من المؤمنين في بادئ الأمر للقتال ومجادلتهم للنبي ﷺ بقولهم: لم نعلم أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا لطلب العير، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾.

ولكنهم- رضي الله عنهم- سرعان ما انشرحت صدورهم، واطمأنت قلوبهم لذلك.

٧- أن ما أمر الله- عز وجل- به رسوله ﷺ من القتال يوم بدر هو الحق الذي بيَّنه الله؛ ولهذا عاتب الله- عز وجل- من جادل فيه من المؤمنين بعد بيانه؛ لقوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝﴾.

٨- التحذير من المجادلة بالحق بعد تبينه وظهوره.

٩- في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ إشارة إلى أن كراهتهم للقتال ومجادلتهم ليس لأجل مخالفته ﷺ، ولا جبناً منهم أو نكوصاً عن الجهاد، وإنما لكونهم لم يستعدوا للقتال.

١٠- وعد الله- عز وجل- للمؤمنين بإحدى الطائفتين؛ إما العير، وإما النفير، بما أوحاه الله- عز وجل- إلى رسوله ﷺ وتذكيرهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾.

١١- مودة المؤمنين ومحبتهم أن تكون لهم الطائفة غير ذات الشوكة والقوة والبأس، وهي العير؛ ليحصلوا على الغنيمة بلا قتال؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.

ومفهوم هذا كراهتهم أن تكون لهم الطائفة ذات الشوكة والقوة والبأس.

وهذا لأن من طبيعة النفس الميل لما هو أيسر، ولا لوم في ذلك، ما لم يترتب على ذلك محذور. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً»[1].

١٢- إرادة الله- عز وجل- كوناً وشرعاً إحقاق الحق وتثبيته، وإظهار دينه بكلماته الشرعية بأمره بالجهاد وكلماته الكونية بتقديره وكتابته النصر للمؤمنين وقطع دابر

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبو داود في الأدب (٤٧٨٥).

الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٣- إثبات الإرادة لله- عز وجل- بقسميها الكونية، والشرعية، وتقدير الله- عز وجل- للمقادير؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

١٤- أن ما أراده الله- عز وجل- كوناً كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

١٥- أن ما جاء به ﷺ من الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده ونبذ الشرك هو الحق.

١٦- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله- عز وجل- وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾.

١٧- تقرير وتوكيد قوة الحق وثباته، وضعف الباطل أمام قوة الحق وبطلانه واضمحلاله.

١٨- إرغام أنوف المجرمين بإحقاق الحق وإظهاره، وإبطال الباطل، ولو كرهوا ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

*   *   *

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنهما- قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»، قال: فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبوبكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله- عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ فأمدَّه الله بالملائكة.

قال أبوزُمَيْلٍ: فحدثني ابن عباس، قال: بينما رجل من المسلمين يومئذٍ يشتد في أَثَر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حَيزُوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِمَ أنفه، وشُقَّ وجهه، كضربة السوط، فاخْضَرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة**» فقَتَلُوا يومئذٍ سبعين، وأسروا سبعين»[1].

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد- الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣)، وأبوداود في الجهاد- فداء الأسير بالمال (٢٦٩٠)، والترمذي في تفسير سورة الأنفال (٣٠٨١)، وأحمد (١/ ٣٠-٣١)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥١). وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب»، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٥٩): «وصححه علي بن المديني والترمذي، وقالا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني».

قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، «إذ»: ظرف بمعنى «حين»، متعلق بـ«تودون»، أو بـ«يريد» أو بمحذوف تقديره: اذكروا.

ومعنى ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، أي: تطلبون الغوث من ربكم، وهو: التخلص من الشدة، والنصر على أعدائكم بدعائكم إياه، كما في قوله ﷺ: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني**»[١].

وقوله ﷺ: «**اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعْبَد بعد اليوم**»، فأخذ أبوبكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححْتَ على ربك، وهو في الدِّرْعِ، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦)﴾»[٢].

وجاءت الاستغاثة باسم «الرب»؛ لأنه الخالق المالك المتصرف الذي بيده النصر، والأمر كله.

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾.

والسين والتاء فيه للمبالغة، فاستجاب أبلغ من «أجاب»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى- غالباً- أي: فاستجاب لاستغاثتكم وأجاب دعاءكم ووعدكم بالإغاثة.

﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ وهذا وعد من الله- عز وجل- بإمدادهم بألف من الملائكة، وهو وعد مطلق لم يعلق بشرط، كما علق الإمداد في قصة أحد بقوله تعالى- في سورة آل عمران: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾ [الآيتان: ١٢٤، ١٢٥].

فلما فات شرطه وهو الصبر والتقوى فات الإمداد[٣].

﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾، أي: بأني ممدكم.

---

(١) سبق تخريجه قريباً- من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «زاد المعاد» غزوة بدر (٣/ ١٧٧-١٧٨).

ومعنى ﴿مُمِدُّكُم﴾ معطيكم ومزودكم، فالإمداد: العطاء والزيادة من الخير، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠].

و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جمع ملَك بفتح اللام، وهم خلق من خلق الله، خلقهم الله من نور، كما قال ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»(١).

﴿مُرْدِفِينَ﴾، قرأ نافع وأبوجعفر ويعقوب بفتح الدال: «مردَفين»، أي: يردفهم غيرهم من الملائكة بعدهم.

وقرأ الباقون بكسر الدال: ﴿مُرْدِفِينَ﴾، أي يكون هؤلاء الألف رِدْفاً لغيرهم قبلهم.

والإرداف: الاتباع والإلحاق، أي: متتابعين بعضهم إثر بعض.

فالمعنى على قراءة فتح الدال: أن هؤلاء الألف من الملائكة يأتي بعدهم من يردفهم، أي: يتبعهم.

والمعنى على قراءة كسر الدال: أن هؤلاء الألف يأتون ردفاً، أي: تبعاً لمن قبلهم.

ويؤخذ من معنى القراءتين: أن الإمداد ليس محصوراً في هذا العدد من الملائكة وهم الألف، بل هناك زيادة وإمداد بأكثر منهم ممن يأتون بعدهم، أو ممن جاؤوا قبلهم.

فهذا المدد من الملائكة يُردِف ويتبع ويلحق بعضهم بعضاً أرسالاً، لم يأتوا دفعة واحدة، وذلك أرهب وأهيب للعدو.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مُجَنِّبة**»(٢).

وعن علي- رضي الله عنه- قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ، وفيها أبوبكر رضي الله عنه، ونزل ميكائيل- عليه السلام- في ألف من الملائكة

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٦)، من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) سيأتي تخريجه كاملاً. ومجنبة الجيش: هي التي تكون في الميمنة والميسرة.

عن ميسرة النبي ﷺ، وأنا فيها»[١].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما في سبب النزول: قوله ﷺ: «ذلك من مدد السماء الثالثة».

وعن ابن عباس- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**»[٢].

وعن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه، وكان أبوه من أهل بدر، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ، فقال: «**ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين، أو كلمة نحوها- قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة**»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، الواو استئنافية، أو عاطفة على ما تقدم، و«ما»: نافية، و«جعل» هنا بمعنى: «صير»، والمراد بالجعل هنا: الجعل الكوني، والضمير في «جعله» يعود إلى الوعد بالإمداد بالملائكة، وهو مفعول أول لـ«جعل».

أي: وما جعل الله وعدكم بالإمداد بالملائكة إلا بشرى، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هو إلا بشرى.

و﴿بُشْرَىٰ﴾ مفعول ثانٍ لـ«جعل»، أو مفعول لأجله، أي: لأجل البشرى.

ولم يقل هنا «لكم» كما قال في سورة آل عمران: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾؛ لأنه سبق في قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، فأغنى عن إعادته مرة ثانية.

وقال بعض أهل العلم: لم يُقيد البشرى هنا بقوله: «لكم» لأن هذه الآية عامة وباقية في الأمة، فأخبر عز وجل أنه جعل الإمداد بُشرى ولم يقيده.

وأما قوله في قصة أحد في آل عمران ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- شهود الملائكة بدراً (٣٩٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في المغازي- شهود الملائكة بدراً (٣٩٩٢).

﴿بِهِۦ﴾ فإنه يقتضي خصوصية البشرى بهم؛ لقوله: ﴿لَكُمْ﴾.

ولهذا قدم قوله: ﴿قُلُوبُكُم﴾ على ﴿بِهِۦ﴾ في قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٢٦](١).

والبشرى والبشارة: الخبر السار، مأخوذة من البَشَرة؛ لأن الإنسان إذا سُر اتسعت بشرته، واستنار وجهه، كما قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «فلما سلمت على رسول الله ﷺ، وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»(٢).

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾، الواو عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولأجل أن تطمئن به قلوبكم، واطمئنان القلوب: أن تسكن ويزول عنها الخوف، وتوقن بنصر الله.

وقدم المتعلِّق ﴿بِهِۦ﴾؛ للاهتمام بذلك الوعد، وإفادة الاختصاص، أي: أن قلوبهم لا تطمئن إلا به، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود أيضاً إلى الوعد بالإمداد بالملائكة.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، الواو عاطفة، و﴿مَا﴾ نافية، و﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، أي: وما النصر إلا من عند الله، فهو الذي ينصر من يشاء، وليس ذلك لكثرة العدد ولا العدة ولا بحولكم وقوتكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الجملة مستأنفة، أي: إن الله ذو العزة التامة المطلقة؛ عزة القوة، وعزة الغلبة والقهر، وعزة الامتناع، يعز وينصر من يشاء بفضله، ويخذل ويذل من يشاء بعدله، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (٣/ ١٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٢٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في تفسير سورة التوبة (٣١٠٢).

﴿ حَكِيمٌ ﴾، أي: ذو الحكم التام، بأقسامه الثلاثة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة، بقسميها؛ الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فهو- عز وجل- ذو الحكم التام والحكمة البالغة، فيما خلق وقدر وحكم، وفيما شرع وأمر ونهى.

فبعزته- عز وجل- ينصر أولياءه المؤمنين، ومن حكمه وحكمته أن شرع الجهاد في سبيل الله لقتال الكفار؛ ابتلاءً وامتحاناً للمؤمنين- مع قدرته- عز وجل- على إهلاك الكفار واستئصالهم بدون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]. وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير المؤمنين باستغاثتهم به- عز وجل- وإجابته لهم وإمدادهم بالملائكة امتناناً منه- عز وجل- عليهم- وتذكيراً لهم بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾.

والمنة منه- عز وجل- على أول هذه الأمة منَّة منه على من جاء بعدهم.

٢- أن الاستغاثة إنما تكون بمن بيده الغوث والإمداد والنصر وهو الرب الخالق المالك المتصرف- سبحانه وتعالى، ولا تجوز بغيره.

٣- الترغيب بالاستغاثة به- عز وجل- وطلب المدد والعون منه، والنصر على الأعداء، والالتجاء إليه.

٤- قرب إجابته- عز وجل- لمن استغاثه ودعاه؛ لأن الله رتب الإجابة في الآية ترتيب الجواب على الشرط.

٥- أن وعد الله- عز وجل- للمؤمنين بإمدادهم بالملائكة إنما هو بشارة لهم ولتطمئن به قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾.

٦- شهود الملائكة مع المؤمنين في بدر وتتابعهم أرسالاً ألفاً أو أكثر لنجدة المسلمين، والقتال معهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

٧- أن النصر حقًّا ما هو إلا من عند الله- عز وجل- وبيده، لا بكثرة العدد والعدة ونحو ذلك- وإن كانت هذه الأسباب لا ينبغي إغفالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٨- الجمع بين التوكل على الله، وفعل الأسباب، فالنصر من عند الله- عز وجل- وبيده سبحانه- لكن الإمداد بالملائكة من أسباب النصر معنويًّا؛ لتقوية عزائم المؤمنين، وحسيًّا لشهودهم المعركة ومقاتلتهم مع المؤمنين.

٩- إثبات صفة العزة التامة لله- عز وجل- بأقسامها الثلاثة؛ عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾.

١٠- إثبات صفة الحكم التام لله- عز وجل- بأقسامه الثلاثة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة لله- عز وجل- بقسميها؛ الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

١١- في اجتماع صفة العزة والحكم والحكمة- في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال، فعزته مقرونة بالحكمة، وحكمه مقرون بالعزة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

ذكَّر الله- عز وجل- بالآيات السابقة المؤمنين باستغاثتهم به ممتناً عليهم باستجابته لهم وإمداده بالملائكة، ثم ذكَّرهم في هذه الآيات ممتناً عليهم- أيضاً- بإلقائه النعاس عليهم أمنة لهم، وإنزال الماء عليهم تطهيراً لهم وإزالة لرجس الشيطان عنهم، وربطاً على قلوبهم، وتثبيتاً لأقدامهم، كما ذكرهم بوحيه- عز وجل- إلى الملائكة أني معكم، وأمرهم بتثبيت المؤمنين، ووعده بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو بفتح الياء والشين وألف بعدها: ﴿يغشَاكُمُ﴾ و﴿النُّعَاسُ﴾ بالرفع.

وقرأ نافع وأبوجعفر بضم الياء، وإسكان الغين، وكسر الشين: ﴿يُغْشِيكم﴾ و﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ بالنصب.

وقرأ الباقون بضم الياء، وفتح الغين، وكسر الشين مشدّدة: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾، و﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ بالنصب.

و﴿ إِذْ ﴾ ظرف بمعنى: «حين» متعلق بمحذوف تقديره «اذكر»، أي: اذكر حين يغشيكم النعاس. وقوله: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ بالمضارع؛ لاستحضار الحالة.

والنعاس: هو النوم غير الثقيل، مثل السِّنَة. والتغشية: التغطية.

فالمعنى على قراءة الرفع «إذ يغشاكم النعاسُ»، أي: إذ يغطيكم النعاسُ، أي: يغطي عقولكم.

وعلى قراءة النصب، أي: إذ يغشيكم الله النعاس، أي: إذ يلقي الله النعاس عليكم،

ويجعله يغطي عقولكم.

﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾، أي: أماناً، والضمير في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ يعود إلى الله، أي: أماناً من الله- عز وجل- لكم.

و﴿أَمَنَةً﴾ منصوب على المفعول لأجله على قراءة نصب ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾، أي: لأجل تأمينكم وإذهاب الخوف من قلوبكم وطمأنتها بنصر الله، وعلى الحال على قراءة رفع النعاس، أي: حال كونه أمنة من الله- عز وجل- لكم.

وهذه الآية كقوله تعالى- في قصة أحد في سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [الآية: ١٥٤].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصدِّيق- رضي الله عنه- وهما يدعوان، أخذت النبي ﷺ سِنة من النوم، ثم استيقظ متبسماً فقال: «**أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل، على ثناياه النَّقْع**»، ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥]»[(١)].

وعن علي- رضي الله عنه- قال: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح»[(٢)].

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

هذه هي المنة والنعمة الثالثة التي امتنَّ الله بها عليهم من أسباب النصر، وهي: إنزال المطر عليهم، مع إمدادهم بالملائكة، وإلقاء النعاس عليهم أمنة منه لهم.

﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يطهركم به طهارة ظاهرة من الحدث الأصغر والأكبر والنجاسات الحسية.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٦٣). وقد سبق تخريجه عند **تفسير قوله تعالى**: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٢٥).

﴿وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، أي: ويزيل عنكم بهذا المطر رجز الشيطان ووساوسه وخواطره السيئة، من تخذيلكم، وقوله: ليس لكم بهؤلاء طاقة ونحو ذلك. وهي طهارة باطنة معنوية.

﴿وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ﴾، أي: ولأجل أن يربط على قلوبكم، أي: يثبتها ويقويها، فإن ثبات القلب أصل ثبات البدن وقوته.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾، أي: ويثبت بهذا المطر أقدام الناس ودوابهم عند السير حيث لبد المطر الأرض، واشتدت فسهل السير عليها- بعد أن كانت رخوة ووحلاً.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «نزل النبي ﷺ- يعني حين سار إلى بدر، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعْصة، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه بألف من الملائكة، فكان جبريل- عليه السلام- في خمسمائة من الملائكة مجنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مجنِّبة»[1].

وعن علي- رضي الله عنه- قال: «أصابنا من الليل طش من مطر- يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر، فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف، نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه- عز وجل- ويقول: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد**» قال: فلما أن طلع الفجر نادى: «الصلاة عباد الله» فجاء الناس من تحت الشجر والحجَف، فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال»[2].

قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٦٤)، وأخرجه بأخصر من هذا (١١/ ٦٥-٦٦) من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٦٦٥)، وأحمد (١/ ١١٧)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٦٢-٦٣).

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

هذا مما امتنَّ الله به وأنعم على رسوله ﷺ والمؤمنين حيث أمدهم بالملائكة وأوحى إليهم بأنه معهم وأمرهم بتثبيت الذين آمنوا وضرب أعناق الذين كفروا وكل بنان منهم.

قوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ﴾، ﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى: «حين» متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، أو متعلق بقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، وقيل: متعلق بقوله: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

والوحي: الإعلام بسرعة وخفاء.

والخطاب في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ للنبي ﷺ، وفيه وفي إضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ تشريف وتكريم له، وإثبات ربوبيته- عز وجل- الخاصة له.

﴿إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أي: إلى الملائكة الذين أمد الله بهم المؤمنين. ووحي الله لهم إما بإلقاء هذا الأمر في نفوسهم، أو إبلاغهم ذلك بواسطة.

﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾، أي: بأني معكم، والخطاب للملائكة، وفيه إثبات معية الله- عز وجل- الخاصة لملائكته وأوليائه؛ معية النصر والتأييد والتوفيق والتسديد، أي: أني معكم بالنصر والتسديد والتأييد.

﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾الأمر للملائكة- أي: قووا قلوب الذين آمنوا على الصبر والجلاد والجهاد، وبشروهم بالنصر، وآزروهم وقاتلوا معهم.

﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ الجملة مستأنفة فيها وعد وبشارة من الله- عز وجل- بهزيمة الكفار من داخلهم، أي: سألقي وأدخل في قلوب الذين كفروا الخوف والفزع.

وهذه والله أعظم هزيمة لهم، وحافز معنوي للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

وقال ﷺ: **«نصرت بالرعب مسيرة شهر»**[1].

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢) - =

وذلك لأن الرعب إذا دخل القلوب، انهارت القوى والأعصاب؛ فلا يستطيع المرء أن يعمل شيئًا، وربما سقط على الأرض حتى لا يستطيع الحركة.

﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ الخطاب للملائكة، أو للمؤمنين، أو لهم جميعاً، و«الأعناق»: الرقاب، أي: فاضربوا أعالي رقاب الكفار، أو فاضربوا رقابهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].

وقال بعضهم: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾، أي: فوق الرؤوس. والمعنى الأول أظهر.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين: ضرب الرقاب وقطعها، وضرب الرؤوس وفلق الهام؛ لأنها كلها مذابح.

وقد روي أن رسول الله ﷺ كان يمر بين القتلى يوم بدر، فيقول:

نُفَلِّـق هامـاً... ... ...

فيقول أبو بكر الصديق:

... ... مــن رجــالٍ أعــزةٍ   علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

فيبتدئ ﷺ بأول البيت، ويستحسن من أبي بكر- رضي الله عنه- إنشاد آخره؛ لأنه ﷺ لم يُعلَّم الشعر، ولا يليق به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩][(١)].

﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ معطوف على ما قبله، والبنان: جمع بنانة، قال الشاعر:

ألا ليتنــي قطّعــتُ منــي بنانــةً   ولاقيْتُهُ في البيت يَقْظانَ حاذِرا[(٢)]

والبنان: الأصابع، أو أطراف الأصابع من اليدين والرجلين، أي: اضربوهم كيفما اتفق من المقاتل وغيرها.

من حديث جابر رضي الله عنه.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٦٥-٥٦٦).

والبيت المذكور للحصين بن الحمام المري، وهو شاعر جاهلي. انظر: «الشعر والشعراء» (٢/ ٦٤٨).

(٢) البيت بلا نسبة في «مجاز القرآن» (١/ ٢٤٢)، و«جامع البيان» (١١/ ٧٢)، وفي «اللسان» مادة «بنن».

فضرب الأعناق فيه القضاء على الكفار، وضرب كل بنان منهم فيه القضاء على مقاومتهم؛ لأن ضرب البنان فيه تعطيل لعمل اليد وقدرتها على حمل السلاح.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ ﴾ الإشارة لما سبق من الأمر بضرب أعناق الكفار وضرب كل بنان منهم.

والباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ للسببية، أي: بسبب أنهم، فالجملة تعليلية، أي: إنما أمرنا بضربهم فوق الأعناق، وضرب كل بنان منهم، عقوبة لهم، بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله، وفي هذا تحذير من مسلكهم، وترغيب في لزوم طاعة الله تعالى.

ومعنى ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾، أي: خالفوا وعصوا الله ورسوله.

والمشاقة: مأخوذة من الشِّق، وهو الجانب؛ لأن المخالف يأخذ شقًّا غير شق صاحبه، وجانباً غير جانبه، ومنه شق العصا، أي: جعلها فرقتين.

وعطف هنا اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم الله- عز وجل- بالواو التي تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لأن مشاقة الرسول ﷺ مشاقة لله تعالى كما أن طاعته طاعة لله تعالى.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، الواو: استئنافية، و«من»: شرطية، أي: ومن يعص ويخالف الله ورسوله.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، أي: فإن الله شديد العقاب لمن شاق الله ورسوله، وعصى وخالف أمر الله ورسوله، بتسليط أوليائه عليهم، وقتلهم وإنزال أنواع العقوبات فيهم في الدنيا، وتخليدهم في النار في الآخرة.

وفي هذا تحذير وتهديد لكل من شاق الله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ ، الإشارة والضمير للعقاب المذكور، والمأخوذ من قوله: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ والخطاب: للذين كفروا

وشاقوا الله ورسوله- على طريق الالتفات- وفيه تبكيت وإهانة لهم حيث يقال لهم هذا حال قتلهم وضربهم.

﴿فَذُوقُوهُ﴾، أي: تجرعوا وقاسوا مرارته، وأحسوا بشدته وألمه في الدنيا.

﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ الجملة معطوفة على المشار إليه في قوله: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾، أي: ذلكم العقاب الدنيوي، وأن للكافرين في الآخرة عذاب النار.

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾، ولم يقل: «وأن لكم»؛ لتأكيد كفرهم، وبيان شمول هذا الوعيد بالنار لهم ولغيرهم من الكفار.

فعذبهم الله- عز وجل- بهذا العذاب الدنيوي في بدر، وتوعدهم هم وغيرهم من الكفار بعذاب النار في الآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير الله- عز وجل- المؤمنين بما منَّ به عليهم في بدر من أسباب النصر، ومن ذلك تغشيتهم النعاس، أماناً لهم، وطمأنة لقلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ الآية.

٢- امتنان الله- عز وجل- على المؤمنين وعنايته بهم بإنزال المطر عليهم في بدر، لتطهيرهم من الأحداث والنجاسات الحسية والمعنوية، وإذهاب رجز الشيطان ووساوسه عنهم، والربط على قلوبهم وتقويتها، وتثبيت أقدامهم أثناء السير وأقدام دوابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

٣- وحي الله- عز وجل- إلى الملائكة الذين أمدَّ الله بهم المؤمنين بأنه- عز وجل- معهم بنصره وتأييده لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾.

٤- أمر الله- عز وجل- الملائكة بتثبيت وتقوية قلوب المؤمنين في بدر ومؤازرتهم والقتال معهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهكذا حصل ولله الحمد.

٥- تحفيز الملائكة والمؤمنين بوعدهم وبشارتهم بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، والذي يعد من أعظم أسباب هزيمتهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾.

٦- أمر الله الملائكة والمؤمنين وحضهم على ضرب أعناق الكفار، وكل بنان منهم، وتقطيع أطرافهم نكاية بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾.

٧- أن ما أمر الله به من ضرب أعناق الكفار وضرب كل بنان منهم والنكاية بهم بسبب كفرهم ومشاقتهم لله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿(١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٨- التحذير من مشاقة الله ورسوله، والتهديد الأكيد بالعقاب الشديد لمن شاق الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

٩- جواز عطف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم الله في باب المشاقة والمعصية بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن مشاقة الرسول ﷺ ومعصيته مشاقة ومعصية لله عز وجل.

١٠- شدة عقاب الله- عز وجل- لمن عصاه وخالف أمره وأمر رسوله، وأنه لا طاقة لأحد بعقاب الله.

١١- تبكيت الكافرين وإهانتهم معنوياً مع ما لقوا من العقاب والنكال الحسي في بدر من ضرب أعناقهم، وضرب كل بنان منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾.

١٢- الجمع للكافرين يوم بدر بين العذاب الدنيوي بضرب أعناقهم وكل بنان منهم وبين عذاب النار في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

١٣- الوعيد لجميع الكافرين من قريش وغيرهم بعذاب النار؛ للإظهار مقام الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ذكَّر الله- عز وجل- المؤمنين في الآيات السابقة ممتنًّا عليهم بما منحهم في بدر من أسباب النصر، من الإمداد بالملائكة، وتغشيتهم النعاس أماناً لهم، وإنزال المطر عليهم، وإعلام الملائكة أنه معهم، وأمرهم بتثبيت المؤمنين، وإلقائه الرعب في قلوب الذين كفروا، ثم أتبع ذلك بنهي المؤمنين عن تولية الكفار الأدبار والوعيد لمن فعل ذلك.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، «يا» حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب، و«الذين» صفة لـ«أي»، أو بدل منها.

والإيمان في اللغة: التصديق، كما قال إخوة يوسف- فيما حكى الله عنهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف: ١٧]، أي: وما أنت بمصدق لنا، وقال تعالى: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦١]، أي: يصدق لهم.

وهو في الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا ﴾، «إذا» ظرفية شرطية، أي: إذا لقيتم الذين كفروا للقتال والنزال.

﴿زَحۡفٗا ﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿لَقِيتُمُ ﴾، أو من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، أو منهما معاً.

الزحف: الدنو والتقارب قليلاً قليلاً، وهو في الأصل الزحف على البطن، وعلى الإلية، ولهذا يطلق الزحف على الجيش الكثير، لثقل تنقله.

والمعنى: إذا لقيتم الذين كفروا متزاحفاً ومتقارباً بعضكم إلى بعض.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾، أي: فلا تفروا وتولوهم ظهوركم، بل اثبتوا لقتالهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا**»[١].

والأدبار: جمع دبر، وهي الظهور، قال تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥]، أي: من خلف ظهره. والتعبير بـ«الأدبار» دون «الظهور»؛ لتقبيح الفرار والانهزام.

قال الحصين بن الحمام:

تأخرتُ استبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياةً مثلَ أن أتقدما[٢]

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾، الواو عاطفة، و«من»: شرطية، أي: ومن يول الكفار ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم الزحف واللقاء.

﴿دُبُرَهُۥٓ﴾ قفاه وظهره، بأن يفر من المعركة وينهزم.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ منصوب على الاستثناء المتصل من قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ﴾، أو على الحال: أي: إلا حال كونه متحرفاً لقتال، أي: متحيلاً لأجل القتال، والتحرف: الحيلة الحربية، والفر لأجل الكر؛ لأن الحرب خدعة.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ معطوف على ﴿مُتَحَرِّفًا﴾، أي: أو إلا متحيزاً إلى فئة، أي: منحازاً ومنضماً إلى جماعة أخرى من المسلمين؛ ليستعين بهم أو ليعينهم.

عن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: «كنت في سرية من سرايا رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٣١)، من حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الأغاني» (١٢/ ٤٥٩).

ﷺ فحاص الناس حيصة[١] وكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع، وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كان لنا توبة، وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج، فقال من القوم؟ فقلنا: نحن الفرارون. فقال: لا، بل أنتم العكَّارون[٢]، أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين. قال: فأتيناه، حتى قبَّلنا يده»[٣].

وفي رواية زيادة: «وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾»[٤].

ولهذا لما قتل أبوعبيد- رضي الله عنه- على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو انحاز إليَّ كنت فئته».

وفي رواية أنه قال: «أنا فئة كل مسلم»[٥].

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ﴾.

والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«قد»، والباء في قوله: ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للملابسة، أي: فقد رجع ملابساً لغضب الله تعالى عليه، واستحق عقاب الله، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾، أي: ومصيره الذي يأوي إليه ومرجعه ﴿جَهَنَّمُ﴾، أي: النار، وسميت بذلك؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: وقبح وساء المصير والمأوى والمرجع جهنم.

وفي هذا الوعيد بغضب الله والنار ما يدل على شدة تحريم التولي يوم الزحف وأنه من

---

(١) الحيص: الحيد عن الشيء والرجوع عنه، وحاصوا عن العدو: انهزموا.

(٢) العكارون: العطّافون، وهو جمع عكّار، وهو الذي يفر لأجل أن يرجع ويكر.

(٣) أخرجه أبوداود في الجهاد- التولي يوم الزحف (٢٦٤٧)، والترمذي في الجهاد (١٧١٦)، وأحمد (٢/ ٧٠، ٨٦).

(٤) أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧١).

(٥) أخرجها عبدالرزاق في «المصنف» (٩٥٢٢، ٩٥٢٤، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٥٣٦)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٨٠، ٨١).

كبائر الذنوب، كما قال ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**، وذكر منهن: **التولي يوم الزحف**»(١).

ولهذا عاتب الله المؤمنين على ما حصل منهم يوم أحد فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

ذَكَر الله- عز وجل- في الآيات السابقة ما أمدَّ به المؤمنين من الملائكة وغير ذلك من أسباب النصر على الكفار، ثم أتبع ذلك ببيان أن ما حصل لهم من قتل الكفار يوم بدر والانتصار عليهم إنما هو من الله عز وجل، ليجمع المؤمن بين فعل الأسباب والتوكل على الله.

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بسكون النون في الموضعين من قوله: «ولكنْ»، وقرأ الباقون بتشديدها ﴿وَلَٰكِنَّ﴾.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾، أي: فلم تقتلوا المشركين بحولكم وقوتكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾، أي: أظفركم بهم، وسدد رميكم وسهامكم، وصوب سلاحكم نحوهم، ونصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[آل عمران:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ الآية [التوبة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقدَّم لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ دون أن يقول: ولكن قتلهم الله؛ للاهتمام ببيان معرفة فاعل القتل بعد أن نفى أنهم قتلوهم، وتعظيماً لنفسه عز وجل.

فهو- عز وجل- موجد الأسباب ومسبباتها، وهو خالق أفعال العباد وفي هذا

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٧)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٧٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦٧١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرد على القدرية الذين ينفون أن الله خالق أفعال العباد، ويزعمون أنهم هم الذين يخلقون أفعالهم.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «رفع رسول الله ﷺ يديه- يعني يوم بدر- فقال: «**يا رب، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً**» فقال له جبريل عليه السلام: خذ قبضة من التراب، فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين»[1].

فالخطاب في الآية للرسول ﷺ. والمنفي في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ هو التسديد وإصابة الهدف، ولهذا قال بعده: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فأثبت أنه رمى، وفَعَل السبب، ولكن إصابة هذا السبب هدفه هو فِعْل مسببِ الأسباب، وهو الله- عز وجل- ولهذا قال:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾، أي: سدد رميك وصوبه نحو وجوه المشركين وعيونهم وأنوفهم وأفواههم. فهو- عز وجل- هو الذي جعل هذه القبضة من التراب تصيب وجوه القوم وتعمهم، وتكون من أسباب هزيمتهم- وهذا آية من آيات الله- عز وجل- ومعجزة له ﷺ.

﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ معطوف على محذوف يدل عليه ما سبق، أي: فَقَتْلُ المشركين وإصابة أعينهم كان الغرض منه هزيمتهم، وله علة أخرى، وهي: أن يُبليَ المؤمنين، فاللام في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾، للتعليل، أي: ولأجل أن يبلي المؤمنين، والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ يعود إلى الله عز وجل، ويجوز عوده على القتل والرمي فتكون «من»: للسببية، أي: وليبلي المؤمنين بسببه بلاءً حسناً.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٣)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٨٥)- وقال في «مجمع الزوائد» (٦/ ٤٨): «ورجاله رجال الصحيح».

وروي بنحوه من حديث حكيم بن حزام- رضي الله عنه- أخرجه ابن إسحاق، كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٠)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٠٣)، وقال الهيثمي (٦/ ٨٤): «إسناده حسن».

والمعنى: ولينعم على المؤمنين بالظفر والنصر والغنيمة والأجر المضاعف؛ ليشكروه.

قال زهير[(١)]:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم   وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

قال ابن القيم: «فالبلاء الحسن هنا هو النعمة، بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء، وليس من الابتلاء الذي هو الامتحان بالمكروه، بل مِن: أبلاه بلاءً حسناً، إذا أنعم عليه، يقال: أبلاك الله، ولا ابتلاك. فأبلاه بالخير، وابتلاه بالمكاره- غالباً، كما في الحديث: «**إني مبتليك، ومبتلٍ بك**[(٢)]»[(٣)].

وقال السعدي[(٤)]: «إن الله قادر على انتصار المسلمين من الكافرين من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسناً، وثواباً جزيلاً».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الجملة مستأنفة فيها معنى التعليل لما قبلها.

أي: إن الله ذو سمع واسع، يسع جميع الأصوات، كما قالت عائشة- رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها، فكان يخفى عليَّ كلامها، فأنزل الله- عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١]»[(٥)].

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾ [طه: ٩٨].

أحاط عز وجل علماً بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل الوجود، وبعد الوجود،

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١٠٩).

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها والصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢، ٢٦٦)، من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٢٩).

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٥٢).

(٥) أخرجه النسائي- في الطلاق (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٨).

وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

ولهذا لما سئل موسى- عليه السلام- عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢].

وقدَّم عز وجل السمع على العلم؛ لأن السمع من أدوات العلم وطرقه وأسبابه.

وفي اقتران كمال السمع مع كمال العلم زيادة كماله- عز وجل- إلى كمال.

ومن سمعه- عز وجل- وعلمه أن سمع استغاثة المؤمنين ودعاءهم، وعلم حالهم، وحاجتهم لنصره فنصرهم، وعلم من يستحق الخذلان فخذلهم.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره: ذلكم الإبلاء حق.

والإشارة في قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إلى ما أمد الله به المؤمنين، وما أنعم به عليهم وأبلاهم به من النصر وأسبابه وقتل المشركين ونحو ذلك.

وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تعظيماً له.

وافتتح الكلام باسم الإشارة؛ للتنبيه على أهمية ما بعده، كما في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص: ٥٥] ونحو ذلك. والخطاب للمؤمنين.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وابن كثير وأبوعمرو «موهِّنٌ» بفتح الواو، وتشديد الهاء وبالتنوين، ونصب «كيدَ».

وقرأ حفص عن عاصم بإسكان الواو، وتخفيف الهاء من غير تنوين، وخفض «كيدِ» على الإضافة: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾.

وقرأ الباقون بإسكان الواو وتخفيف الهاء وبالتنوين: «مُوهِنٌ»، ونصب «كيدَ».

والواو في قوله: ﴿وَأَنَّ ﴾ عاطفة، و«أن» وما بعدها في تأويلِ مصدر في محل جر بلام التعليل المحذوفة، والتقدير: ولتوهين كيد الكافرين، أي: وليبلي المؤمنين.. وليوهن كيد الكافرين. ويجوز كون «أن» وما بعدها في محل رفع عطفاً على ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾.

ومعنى ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: مضعف مكرهم، ومصغر أمرهم، والكيد في الأصل: المكر الخفي، والمراد به هنا ما يشمل المكر الخفي والجلي، وهذا وعد وبشارة من الله تعالى للمؤمنين بعد نصرهم في بدر بإضعاف كيد الكافرين ومكرهم في المستقبل، وفيه ما لا يخفى من تحفيز المؤمنين وتشجيعهم ورفع معنوياتهم.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

عن عبدالله بن ثعلبة بن صُعَير- رضي الله عنه- قال: «لما التقى الناس، ودنا بعضهم من بعض قال أبوجهل: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف فأَحِنْه الغداة. فكان هو المستفتح»(١).

قوله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ الآية.

الخطاب للمشركين، أي: إن تطلبوا الفتح والفصل والحكم بينكم بإهلاك وعقاب من كان أقطع للرحم وأظلم من الطائفتين.

﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ هذا على سبيل التهكم بهم، أي: فقد بان لكم الفتح وظهر، وهو الفتح للمؤمنين ونصرهم عليكم، والفصل بينكم وبينهم.

﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: وإن تنتهوا عن الاستفتاح، وعما أنتم عليه من الكفر والتكذيب والمحادة لله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ٣٤٧) (٢٣٦٦١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥) (٣٦٦٨١)، وأحمد (٥/ ٤٣١)، والنسائي في «الكبرى» في كتاب التفسير- قوله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ (١١٢٠١)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٩٣، ٩٤)، والحاكم (٢/ ٣٢٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص(١٥٧).

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: فانتهاؤكم خير لكم خيرية مطلقة من جميع الوجوه في دينكم ودنياكم وأخراكم، وهذا من استعمال التفضيل بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل؛ لأن استمرارهم على ما هم عليه من الاستفتاح والكفر والتكذيب والمحادة لله ورسوله شر محض ليس فيه شيء من الخير لهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]. فليس في النار شيء من الخير، بل هي شر محض.

وقوله: ﴿لَّكُمْ﴾؛ لأن منفعة ذلك تعود في المقام الأول إليهم، وإن كان في انتهائهم عما هم عليه من الكفر خير للمؤمنين حيث يسلمون من شرهم وأذاهم.

﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، أي: وإن ترجعوا إلى الاستفتاح والعناد والقتال ﴿نَعُدْ﴾، أي: نعد لكم بمثل هذه الواقعة التي وقعت بكم يوم بدر، وإلى هزيمتكم ونصر المؤمنين عليكم.

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، الواو عاطفة، و﴿تُغْنِيَ﴾ تنفع وتدفع، ﴿فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم وأنصاركم، ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم نفي أي شيء مهما كان صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً.

أي: ولن تغني عنكم جماعتكم أي شيء مهما كان بجلب النفع لكم، أو دفع الضر عنكم ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، أي: ولو كثر عددها، كما لم تغن عنكم كثرتكم يوم بدر.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وحفص عن عاصم بفتح الهمزة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾، وقرأ الباقون بكسرها: «وإن الله» على الاستئناف.

أي: وأن الله مع المؤمنين معية خاصة، بتوفيقه وتأييده لهم، وإمدادهم ونصرهم، وإن قل عددهم وعدتهم، كما أيَّد عز وجل حواريِّي عيسى ابن مريم- عليه السلام- وأنصاره مع قلتهم، قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

كما يوفِّق ويؤيِّد بهذه المعية الخاصة أولياءه المتقين الصابرين، وعباده المحسنين، وإن كانوا هم الأقلين، كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم

مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٨].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٣- أن الثبات عند ملاقاة الكفار زحفاً من مقتضيات الإيمان، وأن الفرار من الزحف يُعد نقصاً في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾ الآية.

٤- تحريم الفرار من الزحف عند ملاقاة الكفار، والتنفير منه، وأنه من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

٥- الوعيد الشديد لمن فر من الزحف وولى الكفار دبره لما رتب على ذلك من غضب الله والمصير إلى جهنم- وهو في هذا تحت مشيئة الله إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، ولا يخلد في النار؛ لأنه لا يخلد فيها إلا المشرك، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

٦- في النهي عن تولية الكفار الأدبار عند الزحف والوعيد الشديد عليه إشارة وتنبيه إلى عظم أثر ذلك؛ لما فيه من تعريض المسلمين للهزيمة والفت في عضد المجاهدين وتحطيم معنوياتهم، وإضعاف عزائمهم.

٧- تأكيد وجوب الثبات عند لقاء العدو، وأنه سبب لمرضاة الله- عز وجل- والوقاية من نار جهنم؛ لمفهوم قوله تعالى فيمن ولى الكفار دبره: ﴿فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

٨- إثبات صفة الغضب لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

٩- إثبات جهنم وأنها معدة لتعذيب الكافرين والعصاة، وشدة ظلمتها وحرها وبعد قعرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾.

١٠- ذم جهنم وأنها بئس المصير والمرجع؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلا يعلم مدى بؤسها وقبحها إلا من وصفها بذلك، وهو العليم الخبير.

١١- ليس من الفرار من الزحف تولية الكفار الدبر تحرفاً واحتيالاً لقتال، أو تحيزاً إلى فئة ليناصرهم ويناصروه ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾.

١٢- أن الحرب حيلة وخدعة؛ لقوله تعالى: ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾.

١٣- أن ما حصل للمسلمين من نصر على المشركين في بدر، وقتل لهم إنما هو من الله عز وجل لا بحولهم ولا قوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾.

١٤- أن ما حصل من رميه ﷺ بالقبضة من التراب وجوه المشركين وإصابتهم جميعاً بذلك هو من الله- عز وجل- وتسديده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

١٥- إثبات أن الله- عز وجل- خالق أفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون إن العباد يخلقون أفعالهم.

١٦- إثبات الأسباب ومسبباتها، وأن على العبد فعل السبب والتوكل على الله- عز وجل- فالأمر كله بيده.

١٧- نعمة الله- عز وجل- العظيمة على المؤمنين، وإبلاؤه لهم البلاء الحسن في نصرهم على عدوهم مع كثرته، وقلة عددهم، ليعرفوا قدر نعمة الله- عز وجل- عليهم، ويشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

١٨- قدرة الله- عز وجل- التامة على الانتقام من الكافرين بقوله للشيء: «كن» لكنه- عز وجل- أمر المؤمنين بقتالهم ليجزل لهم الأجور، ويعظم لهم المثوبة.

١٩- إثبات صفة السمع الواسع لله- عز وجل- فهو- عز وجل- يسمع الدعاء وجميع

الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾.

٢٠- إثبات صفة العلم الواسع لله- عز وجل- فهو- عز وجل- ذو العلم الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ ومن ذلك علمه- عز وجل- بمن يستحق النصر، ممن يستحق الخذلان.

٢١- في اجتماع صفة السمع الواسع لله- عز وجل- مع العلم الواسع زيادة كماله- عز وجل- إلى كمال.

وفي تقديم وصفه با لسميع على وصفه بالعليم إشارة إلى أن السمع من وسائل وطرق العلم وأدواته.

٢٢- وعد الله- عز وجل- وبشارته للمؤمنين بإضعاف كيد الكافرين ومكرهم، وفي هذا تحفيز معنوي للمؤمنين وتشجيع لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

٢٣- الإشارة إلى عظمة ما منَّ الله به على المؤمنين في بدر من النصر وأسبابه؛ لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ بإشارة البعيد. وأعظم بذلك من منة ونعمة فقد كانت بدر الفاصلة الكبرى بين الحق والباطل والإيمان والشرك، ويومها يوم الفرقان.

٢٤- استفتاح الكفار بطلب الفتح والفصل بينهم وبين المؤمنين بإهلاك من كان أقطع للرحم وأظلم من الطائفتين، ومجيء الفتح من الله بنصر المؤمنين عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾.

٢٥- جواز التهكم بأهل الكفر والباطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ فهذا على سبيل التهكم والسخرية بهم، فالفتح جاء ولكن ليس لهم، ولكن للمؤمنين عليهم.

٢٦- ترغيب الكفار بالرجوع عن الاستفتاح، وعما هم عليه من الكفر والتكذيب والمحادة لله ورسوله إلى الإيمان والطاعة، وبيان أن ذلك خير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٢٧- إطلاق التفضيل بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل مطلقاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فليس في عدم انتهائهم عما هم عليه من الكفر خير

البتة، بل هو شر محض.

٢٨- تحذير الكفار وتهديدهم من العود إلى ما هم عليه من المحاربة لله ورسوله، والاستمرار على ذلك، بالإيقاع بهم وهزيمتهم- كما حصل لهم في بدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾.

٢٩- هزيمة الكفار أمام قوة الحق والإيمان، مهما كثرت جموعهم وأنصارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾.

٣٠- إثبات معية الله- عز وجل- الخاصة بالمؤمنين، بتأييده وتوفيقه ونصره لهم، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين في مطلع السورة بطاعة الله ورسوله بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وذكر ما كان منهم من كراهية الخروج إلى بدر، ومودتهم لقاء العير لا النفير، وما تلا ذلك من تأييد الله- عز وجل- لهم بأسباب النصر، بسبب طاعتهم لله ورسوله، وهزيمة المشركين بسبب مشاقتهم لله ورسوله، ثم أكد في هذه الآية الأمر بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وحذر من التولي والمخالفة، وفي هذا تحقيق معية الله الخاصة للمؤمنين التي ذكرها الله في الآية السابقة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، الطاعة: الامتثال، بفعل الأمر، وترك النهي، أي: أطيعوا الله ورسوله بفعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، والأمر في الآية للوجوب.

وقد عطف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم «الله» بالواو، وهي تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى، بل هي طاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ولتأكيد هذا المعنى لم يكرر الفعل «أطيعوا».

وهذا بخلاف باب المشيئة، فلا يجوز أن يقال: ما شاء الله ورسوله، ونحو ذلك؛ لأن مشيئة الرسول ﷺ وجميع الخلق إنما هي تابعة لمشيئة الله- وليست منها.

ولهذا لما قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال ﷺ: «**أجعلتني والله عَدْلاً؟ ما شاء الله وحده**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤)، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وفي حديث قَتِيلة أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تُنَدِّدون، وإنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، «**فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولون: ما شاء الله ثم شئت**»[1].

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾، الواو: عاطفة و«لا» ناهية، وهذه الجملة توكيد للأمر بطاعة الله ورسوله.

و﴿تَوَلَّوْا﴾ أصلها «تتولوا» فحذفت إحدى التائين تخفيفاً. والتولي: الانصراف بالبدن، والإعراض بالقلب.

والضمير في قوله: ﴿عَنْهُ﴾ يعود إلى الله، أو إلى رسوله، ويجوز عوده إلى الأمر بطاعة الله ورسوله.

والمراد النهي عن المخالفة وعصيان الله ورسوله، فهو توكيد للأمر بطاعتهما.

﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾، الواو حالية، أي: والحال أنكم تسمعون ما يتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره ونواهيه، ومواعظه وحججه وبراهينه، مما تقوم به عليكم الحجة.

فالمراد هنا السماع الذي تقوم به الحجة، والذي هو مناط التكليف.

وفي هذا النهي- مع اكتنافه بالكلام عن الكافرين- زجر للمؤمنين عن مخالفة أمر الله تعالى ورسوله، والتشبه بالكافرين المعاندين.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ فالنهي فيها للمؤمنين، أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون كالذين قالوا من المشركين والمنافقين ونحوهم ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، والمقصود التعريض بذم من هذه صفتهم، والتحذير من مسلكهم.

وقولهم: ﴿سَمِعْنَا﴾، أي: سمعنا سماعاً مطلقاً بالآذان والقلوب.

هكذا يزعمون، وهم في الحقيقة إنما سمعوا بآذانهم ما تقوم به الحجة عليهم،

---

(١) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور (٣٧٧٣)، وأحمد (٦/ ٣٧١-٣٧٢).

لكنهم لم يسمعوا بقلوبهم ولم ينتفعوا، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، أي: لم ينتفعوا بها سمعوه بقلوبهم وجوارحهم، فصاروا كمن لا يسمع، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أي: لا يسمعون بها سماع انتفاع، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن التشبه بالذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون، وهم الكفار، ثم بيَّن أن هؤلاء هم شر الدواب وشر الخلق؛ تأكيداً لوجوب البُعد عن التشبه بهم.

قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾، الدواب: جمع دابة، وهي: كل ما دب ويدب على الأرض، ويمشي عليها من الحيوانات الناطق منها والبهيم. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام: ٣٨].

أي: إن شر ما يدب على الأرض من المخلوقات والحيوانات.

و﴿شَرَّ﴾ اسم تفضيل، كما هو في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠]. وأصله «أشر» فحذفت همزته تخفيفاً، كما حذفت همزة «خير».

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: في علم الله- عز وجل- وحكمه.

﴿ٱلصُّمُّ﴾ جمع أصم، والأصم: الذي لا يسمع، والمراد: الصم عن سماع الحق، أي: عن الإصغاء إليه والانتفاع به.

﴿ٱلْبُكْمُ﴾، أي: البكم عن فهم الحق والنطق به. فهم عمي القلوب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: الذين لا يعقلون عقلاً ينفعهم، فعندهم عقل الإدراك

الذي هو مناط التكليف، وليس عندهم عقل الانتفاع الذي هو مناط المدح، ولهذا شبهوا بالصم لعدم انتفاعهم بما يسمعون، وبالبكم، لعدم فهمهم الحق والنطق به، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وفي الآية إشارة أيضاً لانقطاع حجتهم عن رد الحق، كما صمت آذانهم عن سماعه، وخرست ألسنتهم عن النطق به، وعميت قلوبهم عن فهمه والانتفاع به، فهؤلاء هم شر الدواب وهم شر البرية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

وإنما كان الكفار والمنافقون ونحوهم شر الدواب وشر البرية، لأنهم خلقوا لعبادة الله- عز وجل- وحده، فكفروا به، بينما كل من سواهم من المخلوقات أطاعت وانقادت لما خُلِقَت له، كما قال- عز وجل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٣]، أي: هدى كل مخلوق لما خُلِق له.

ولهذا قال تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الآية: ١٨].

فسبحان الله- العظيم- إنها لحكمة بالغة أن تطيع وتنقاد جميع المخلوقات وتخضع لربها سوى كثير من الناس- مع ما ميَّز الله به الإنسان وكرَّمه على سائر المخلوقات من العقل وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾، الواو استئنافية، و«لو»: حرف امتناع لامتناع متضمن معنى الشرط. و﴿خَيْرًا﴾ نكرة تعم أيَّ خير، أي: ولو علم الله فيهم أيَّ

خير، من صدق ورغبة في الإيمان وغير ذلك. ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾، اللام واقعة في جواب «لو» أي: لأسمعهم سماع تدبر وفهم بقلوبهم، واستجابة وانقياد بجوارحهم.

ومفهوم هذا أنه- عز وجل- لم يعلم فيهم أيَّ خير مهما قل.

وإذا لم يعلم الله فيهم أيَّ خير، فهم لا شك لا خير فيهم البتة، ولهذا لم يسمعهم بالمعنى المذكور، أما إسماعهم بالآذان الذي تقوم به الحجة عليهم فهو حاصل لهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ [الأنفال: ٢١].

قال ابن القيم- في كلامه على الآية: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾-:

«فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها، ووقع عليها، كما يصل الغيث النازل من السماء، ويقع على الأرض الغليظة العالية، التي لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فلا هي قابلة للماء، ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له»[1].

﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ معطوفة على الجملة قبلها، فيها تأكيد لانتفاء أي خير عنهم، أي: ولو قُدِّر أن الله أسمعهم سماع فهم- وهم بهذا الوصف لا خير فيهم- ﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

واللام في قوله: ﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ واقعة في جواب الشرط «لو»، أي: لتولوا بأبدانهم.

﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾، الواو للحال، أي: حال كونهم معرضين بقلوبهم عن قصد؛ استكباراً وعناداً، فجمعوا بين التولي بالأبدان والإعراض بالقلوب.

والمتولي ببدنه قد يرجع، لكن المعرض بقلبه لا أمل في رجوعه مهما سمع، وهذا هو محض عدم الخيرية التي علمها الله تعالى فيهم، وحالت دون إسماعهم.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٢٩).

قال ابن القيم: «فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى، وهي الكبر والإعراض، وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتبعوا الحق، ولم يعملوا به، فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة، لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة»[1].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان للتكريم والتشريف لهم والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وامتثال ما بعد هذا النداء من أمر أو نهي، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٢- وجوب طاعة الله تعالى ورسوله، بامتثال ما أمر الله به ورسوله، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٣- أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى حيث عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم «الله»، بالواو التي تقتضي التشريك، ويؤكد هذا عدم تكرار العامل مع قوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾.

٤- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه وتكريمه بإضافته إلى ضميره عز وجل.

٥- نهي المؤمنين عن التولي عن الله ورسوله، وعن أمر الله عز وجل ورسوله، وهم يسمعون كلام الله عز وجل وما فيه من الأمر والنهي والحجج والبراهين والمواعظ، وهذا توكيد للأمر بطاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾.

٦- أن التولي عن طاعة الله ورسوله مع قيام الحجة بسماع الحق- أعظم وأشد، بل هو الذي يؤاخذ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾.

٧- التعريض بذم الكفار، الذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون، وتحذير المؤمنين من مسلكهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

٨- أن السماع قسمان: سماع بالآذان به تقوم الحجة على المكلفين، وسماع تدبر وانتفاع

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٣٠).

وتعقل، وهو مناط المدح، وضده مناط الذم.

٩- أن شر الدواب عند الله وشر الخليقة الصم عن سماع الحق، البكم عن النطق به وفهمه وتعقله من الكفار والمنافقين ونحوهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

١٠- أن العقل عقلان: عقل هو مناط التكليف، وبدونه لا يكلف الإنسان، كما قال ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصغير حتى يبلغ**»[1].

وعقل هو مناط المدح والذم يثبته الله- عز وجل- للمؤمنين ويمتدحهم به، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨].

وينفيه- عز وجل- عن الكافرين، ويذمهم بذلك كما في هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وهو العقل الذي تطالب به الفئتان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

١١- طاعة جميع المخلوقات وخضوعها لربها، واهتداؤها لما خلقت له، سوى الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ولله في ذلك حكمة.

١٢- انعدام الخيرية مطلقاً عند هؤلاء الكفار، مما حال بينهم وبين فهم القرآن والانتفاع به؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾، أي: لأسمعهم سماع فهم وتدبر، أما سماع الآذان الذي تقوم عليهم به الحجة فهو موجود عندهم كغيرهم.

١٣- شدة عناد المذكورين وبُعدهم عن الحق وقطع الأمل في استجابتهم، حتى لو

(١) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٤٠٣)، والترمذي في الحدود (١٤٢٣)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٢)، من حديث علي- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

أسمعهم الله وأفهمهم القرآن لجمعهم بين التولي بالأبدان والإعراض بالقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

١٤- من كتب الله عليه الضلالة فلا سبيل إلى هدايته، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ ﴾.

هذا فيه توكيد لما سبق من أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله، والترغيب في ذلك ببيان أن في ذلك حياتهم.

﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾ بمعنى: أجيبوا، قال الشاعر:

وداع دعـا يـا مـن يجيـب إلى النـدى ... فلـم يسـتجبه عنـد ذاك مجيـب[1]

﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾ أبلغ من «أجيبوا»؛ لأن زيادة المبنى تدل- غالباً- على زيادة المعنى، فالتاء والسين فيه للتأكيد والمبالغة، وعدي باللام- كما هو الغالب- إذا اقترن بالسين والتاء.

والمعنى: اسمعوا وأجيبوا وانقادوا لله وللرسول. والأمر للوجوب.

﴿لِلَّهِ﴾، أي: فيما يأمركم به وينهاكم عنه، فامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه.

﴿وَلِلرَّسُولِ﴾، أي: واستجيبوا للرسول فيما يأمركم به وينهاكم عنه.

وفي عطف قوله ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ دون إعادة العامل ﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾ دلالة على أن الاستجابة للرسول ﷺ استجابة لله عز وجل.

وفي إعادة العامل وهو لام الجر في قوله ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ إشارة إلى وجوب الاستجابة لما أمر به ﷺ استقلالاً، وإن لم يأت الأمر به في القرآن الكريم؛ لأنه ﷺ لا ينطق عن

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي. انظر: «الأصمعيات» (ص١٤).

الهوى، ولا يأمر إلا بما أوحاه الله تعالى إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾، ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية، وفاعل ﴿دَعَاكُمْ﴾ ضمير مستتر يعود إلى الله عز وجل، أو إلى الرسول ﷺ، وهو الأظهر؛ لأنه أقرب مذكور، وهو المباشر لدعوتهم، وهو مبلغ عن الله عز وجل، وإجابته إجابة لله عز وجل.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، اللام حرف جر، و«ما»: موصولة، أي: للذي يحييكم، أي: يحيي قلوبكم وأرواحكم وأبدانكم، وبه صلاح أمر دينكم ودنياكم وأخراكم.

وهو ما أنزل الله- عز وجل- على رسوله ﷺ من الوحي في الكتاب والسنة، وما فيهما من الهدى والعلم النافع والعمل الصالح الذي به حياة القلوب والأبدان، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وعن أبي سعيد بن المعلى- رضي الله عنه- قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: «**ألم يقل الله:** ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾»، ثم قال: «**لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد**، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «**الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**»[1].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح:٢٨، الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع الذي به حياة القلوب والعمل الصالح الذي به حياة الأبدان.

وقد أحسن القائل:

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنفال (٤٤٧٤)، وأبوداود في الصلاة (١٤٥٨)، والنسائي في الافتتاح (٩١٣)، وابن ماجه في الأدب (٣٧١٥).

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأً لم يحي بالعلم ميت فليس له قبل النشور نشور[(١)]

وكذا ما فيهما، أي: الكتاب والسنة من الأمر بالجهاد الذي هو سبب الحياة قبل الممات وبعده، فإن بالجهاد حياة الناس وسلامتهم من قتل عدوهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، كما أن الاستشهاد فيه سبب للحياة بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ افتتحت هاتان الجملتان الخبريتان بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾؛ للاهتمام بهما والحث على معرفة مضمونهما وتصديق خبرهما، وهذا كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ [الحديد: ١٧].

وقال ﷺ لأبي مسعود البدري رضي الله عنه: «**اعلم أبا مسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام**»[(٢)].

والمصدر المؤوّل من «أن» المؤكدة وما بعدها في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ﴾ في محل نصب سد مسد مفعولي «علم».

والحول بين الشيئين: منع اتصال أحدهما بالآخر، كما قال تعالى في قصة نوح- عليه السلام- وابنه ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣].

والمعنى أنه- عز وجل- يملك على المرء قلبه، ويصرفه كيف يشاء، فيحول بينه وبين الكفر إن أراد هدايته، وبينه وبين الإيمان إن أراد ضلاله، كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان»[(٣)].

---

(١) انظر: «تفسير السمعاني» (٢/ ١٤١).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٥٩)، وأبوداود في الأدب (٥١٥٩)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٠٨)، من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٠٨)، والحاكم (٢/ ٣٢٨).

وفي هذا تحذير من عدم المبادرة إلى الاستجابة لله وللرسول؛ لأن ذلك قد يكون سبباً في أن يحول الله بينه وبين قلبه فيمنعه من الاستجابة في ثاني الحال لَـمَّا امتنع منها في أول الحال، كما قال تعالى في الكفار: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١].

كما أن في الآية ترغيباً في الإكثار من الدعاء المأثور: «يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك»، «يا مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك» كما في حديث عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك**»(1).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: «كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك**» قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلِّبها كيف يشاء**»(2).

وعن النواس بن سمعان- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه**»، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك**»، قال: «**والميزان بيد الرحمن يرفع أقواماً، ويخفض آخرين إلى يوم القيامة**»(3).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها: «**يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**». قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر

---

(١) أخرجه مسلم في القدر- تصريف الله القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤)، وأحمد (٢/ ١٦٨، ١٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، والترمذي في القدر- ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٢٢٢٦)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٤)- وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، وابن ماجه في المقدمة- فيما أنكرت الجهمية (١٩٩).

تدعو بهذا الدعاء. فقال: «**إن قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله عز وجل، فإذا شاء أزاغه، وإذا شاء أقامه**»[(١)].

كما أن في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ إشارة إلى علمه- عز وجل- بما تنطوي عليه القلوب، وتحذير من مخالفة الباطن للظاهر، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، أي: واعلموا أنه- عز وجل- إليه وحده دون غيره تجمعون فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم، فالمآب إليه، والحساب عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وفي هذا إشارة إلى أنه لا ملجأ ولا منجى منه- عز وجل- إلا إليه، ووعد لمن استجاب لله وللرسول، ووعيد لمن استكبر وتولى، وتحذير من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦، المجادلة: ٩].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين في الآية السابقة بالمبادرة للاستجابة لله وللرسول محذراً لهم من ترك ذلك، أو إضمار ما يخالف الباطن، مما قد يكون سبباً للحيلولة بينهم وبين الاستجابة بعد ذلك، ومذكراً لهم بأن مردهم إليه فيجازيهم على أعمالهم.

ثم حذرهم في هذه الآية من عقوبة عاجلة تعم الظالم وغيره إذا كثر الشر والفساد وظهر المنكر ولم يغير.

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾، الواو: عاطفة، والخطاب للمؤمنين. والتقوى: الحذر من الشيء الضار والمخوف، واتخاذ وقاية منه.

والفتنة: الابتلاء والاختبار، وتكون بالشر والخير، كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٩١)، وأخرجه بمعناه وأطول منه (٦/ ٣٠١-٣٠٢)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

والمراد بها هنا الابتلاء بالعقوبة، أو ما يكون سبباً لها كإقرار المنكر وترك الجهاد ونحو ذلك.

أي: واحذروا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واتقوها بالاستجابة لله ورسوله، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاستغفار، وفعل المأمورات وترك المنهيات.

وقوله: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، ﴿لَّا﴾ نافية، والجملة صفة لـ﴿فِتْنَةً﴾، ﴿خَآصَّةً﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: لا تصيبن الذين ظلموا منكم إصابة خاصة بهم، أو حال، أي: حال كونهم خاصة، بل تصيبهم وغيرهم.

والمعنى: إذا أصابتكم لا تختص إصابتها بالذين ظلموا بارتكاب المعاصي ﴿مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، بل تعم الظالم وغيره، والصالح والطالح إذا كثر الظلم وانتشر، ولم ينكر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم، فيعمهم الله بالعذاب»[1].

وهذا من سنن الله الكونية أن العقوبات إذا كثر الخَبَث وظهر المنكر ولم يغير تعم فاعل المنكر وتارك الإنكار، فالأول لفعله المنكر، والثاني لإقراره وعدم إنكاره.

كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

وعن زينب بنت جحش- رضي الله عنها- أنها قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخَبَثُ**»[2].

وعن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل القائم على**

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٥).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٦)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٠)، والترمذي في الفتن (٢١٨٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٣).

حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ مَن فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[١].

وعن حذيفة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه، فلا يستجيب لكم**»[٢].

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمَّهم الله بعذاب من عنده. فقلت: يا رسول الله، أما فيهم أُناس صالحون؟ قال: بلى. قلت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان**»[٣].

وعن جرير- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي هم أَعَزُّ وأكثر ممن يعمله، لم يغيروه؛ إلا عمَّهم الله بعقاب**»[٤].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عُمِل المنكر جهاراً استحقوا العقوبة كلهم**»[٥].

والخطاب في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ عام لجميع المؤمنين من الصحابة ومن بعدهم.

وقد روى مطرف قال: «قلنا للزبير: يا أبا عبدالله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قُتِل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضي الله عنه: إنا قرأنا على رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٩٣)، والترمذي في الفتن (٢٢٦٤)، وأحمد (٤/ ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨، ٣٨٩)، والترمذي في الفتن (٢١٦٩)، وقال: «حديث حسن».

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٤).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦١، ٣٦٤)، وأبوداود في الملاحم- الأمر والنهي (٤٣٣٩)، وابن ماجه في الفتن- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٩).

(٥) ذكره ابن العربي في «أحكام القرآن» (٢/ ٨٤٧).

ﷺ، وأبي بكر وعمر وعثمان- رضي الله عنهم: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ لم نكن نحسب أنَّا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت»[1].

وفي رواية عن الزبير- رضي الله عنه- قال: «لقد خوفنا بها- يعني قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾». وفي رواية: «لقد نزلت وما نرى أحداً منا يقع بها، ثم خلفنا حتى أصابتنا خاصة»[2].

وفي رواية عن الزبير- رضي الله عنه- قال: «لقد قرأت هذه الآية زماناً، وما أرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾»[3].

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة»[4].

وهذه الآثار عن الزبير وابن عباس- رضي الله عنهما- إن صحت فغايتها إنما تدل على أن الصحابة من جملة المعنيين في الآية، وهذا لا إشكال فيه، أما قصرها على الصحابة وما وقع بينهم أيام عثمان أو أيام علي- رضي الله عنهما- فهذا ليس بصحيح؛ لأن الآية عامة لجميع الأمة.

فالزبير- رضي الله عنه- فيما رُويَ عنه وربما روي عن غيره من الصحابة ما كانوا يتوقعون أن هذه الفتنة تقع فيهم. وهكذا حال كثير من الناس الذين هم أقل منزلة وإيماناً من الصحابة عندما يُخوفون بالفتن قد يستبعدون وقوعها فيهم، ثم ما تلبث أن تقع بهم، وكانوا يظنون أن تقع في غيرهم، أو أنها لا تدركهم؛ ولهذا حذر الله- عز وجل- منها، وحذر منها نبيه المصطفى ﷺ.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٦٥).

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٤، ١١٦).

(٣) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٢).

(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٧٨).

صُدر هذا الخبر بالأمر بالعلم مع التوكيد بـ«أن» للاهتمام وشدة التحذير من عقاب الله تعالى أي: واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره ولم يستجب لله ولرسوله ﷺ، وعرض نفسه للفتن وعقاب الله وعذابه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين بالطاعة والاستجابة له ولرسوله ﷺ وحذرهم فتنة تعم الصالح والطالح، وعقابه الشديد، ثم ذكّرهم حالهم حين كانوا قلة مستضعفين خائفين، فأنعم عليهم وأحسن إليهم، فآواهم وكثَّرهم وأيَّدهم ونصرهم ورزقهم من الطيبات ليشكروه.

قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوف على ما قبله، والخطاب للمؤمنين، وبخاصة المهاجرين منهم، و﴿إِذۡ﴾ ظرف بمعنى «حين».

أي: واذكروا أيها المؤمنون، أي: تذكروا.

﴿إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ عددكم.

﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: يستضعفكم الكفار ويقهرونكم ويؤذونكم، وأنتم أبناء العم والعشيرة. وقد قيل:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على النفس من وقع الحسام المهند[1]

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: في أرض مكة، وفي أي أرض نزلتم. فأنتم ضعفة تحت حكم غيركم.

﴿تَخَافُونَ﴾، أي: تخافون بسبب قلتكم وشدة ضعفكم.

﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ﴿تَخَافُونَ﴾، أي: تخافون تخطف الناس لكم، والتخطف: شدة الخطف، والخطف: الأخذ بسرعة، قال تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٠]، أي: يأخذها

(١) البيت لطرفة بن العبد. انظر: «ديوانه» (ص٢٧).

بشدة وبسرعة.

والمعنى: تخافون تخطف الناس لكم من المشركين وغيرهم وأخذهم لكم، ونيلهم منكم بالمكروه في أنفسكم وأموالكم وأعراضكم، كما قال تعالى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾، أي: فجعل لكم مأوى تأوون إليه، بأن أذن لكم في الهجرة إلى المدينة، وقيَّض لكم الأنصار، آووكم، وواسوكم، ونصروكم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ [الأنفال: ٧٢، ٧٤].

فأعزكم بهم بعد الذلة، وكثَّركم بعد القلة، وذلك من أعظم أسباب القوة.

ولهذا قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ﴾ [الأعراف: ٨٦].

قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر[1]

وقالوا في المثل: «الكثرة تغلب الشجاعة».

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾، أي: قوَّاكم وثبَّتكم بنصره لكم في بدر بأسباب النصر كلها من الإمداد بالملائكة وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢٣﴾ [آل عمران: ١٢٣].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: وأعطاكم من الطيبات؛ من الحلال، وما يستلذ ويستطاب بمشاطرة الأنصار لكم أموالهم، وبما غنمتم من أموال المشركين يوم بدر، وبما أدرَّ الله عليكم من الخيرات، وسعة الرزق بسبب الأمن، وأغناكم به بعد الفقر العيلة.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: لأجل أن تشكروا الله- عز وجل- على هذه النعم العظيمة والآلاء الجسيمة بطاعته والاستجابة له- عز وجل- ولرسوله ﷺ.

فأمر الله- عز وجل- المؤمنين بتذكر حالهم حين كانوا مستضعفين في الأرض

---

(١) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» (ص١٤٣).

خائفين تخطف الناس وأخذهم لهم- ثم ذكر ما امتنَّ به عليهم من إيوائهم إلى المدينة وتكثيرهم بالأنصار بعد القلة، وتأييدهم وتقويتهم بنصره لهم بعد الضعف والذلة، ورزقه لهم بعد الفقر والعيلة.

وهذا وذاك؛ ليقارنوا حالهم الأولى بحالهم الثانية، فيعرفوا عظم قدر نعمة الله عليهم، ويشكروه حق شكره؛ لأنه لا يعرف قدر النعمة تماماً إلا من جرَّب فقدها، وتجرع مرارة ضدها.

ولهذا امتنَّ الله- عز وجل- على نبيه ﷺ وذكَّره بنحو مما ذكَّر المؤمنين وامتنَّ عليهم به، فقال تعالى في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: ٦-٨].

فقد نشأ ﷺ يتيم الأبوين فسخَّر الله له جده عبدالمطلب، فكفله وآواه، ثم عمه أبا طالب، ثم بايعه الأنصار- رضي الله عنهم- على أن يؤووه ويناصروه في العقبة الأولى والثانية، وهاجر مَن هاجر من المؤمنين إلى الحبشة فآواهم النجاشي- رحمه الله، إلى أن حصل لهم الإيواء التام والنصر المبين، والرزق الوفير بعد هجرتهم إلى المدينة.

وهكذا قال عز وجل في سورة النور في وعد المؤمنين: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

كما قال عز وجل قبل ذلك كله لقريش: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣، ٤].

وقد قيل: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى»، و«بضدها تتميز الأشياء».

الفوائد والأحكام:

١- العناية بخطاب المؤمنين وتشريفهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٢- أن من مقتضى الإيمان الاستجابة لله وللرسول وتقوى الله وشكره، وامتثال ما ذكر بعد هذا النداء.

٣- وجوب الاستجابة لله وللرسول؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.

٤- أن الحياة الحقيقية كل الحياة، فيما دعا الله ورسوله إليه فيما أنزل من الكتاب والسنة، ففي ذلك حياة القلوب والأرواح والأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

٥- أن من لم يستجب لله ورسوله، فهو كالميت؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

٦- في عطف قوله: «للرسول» دون إعادة العامل ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟﴾ دلالة على أن الاستجابة للرسول ﷺ استجابة لله عز وجل.

كما أن في إعادة لام الجر إشارة إلى أن الاستجابة للرسول ﷺ تجب استقلالاً وإن لم يرد ذلك في القرآن الكريم.

٧- إثبات أن الله يحول بين المرء وقلبه، وأنه يقلب القلوب ويصرفها كيف يشاء بين الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾.

٨- التأكيد على وجوب الاستجابة لله وللرسول والمبادرة إلى ذلك بالعمل الصالح والاستغفار، والعلم بأن الله قد يحول بين المرء وقلبه، وقد يعرض للإنسان ما يمنعه من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾.

٩- إثبات خلق الله- عز وجل- لأفعال العباد كلها خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن الخلق يخلقون أفعالهم.

١٠- إثبات المعاد وجمع الخلائق وحشرهم إلى الله عز وجل، ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

١١- تحذير المؤمنين من الصحابة ومَن بعدهم من فتنة تعم المسيء وغيره، وتشمل الصالح والطالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

١٢- إذا ظهرت المعاصي، ولم تنكر عمت الفتنة والعقوبة الصالح والطالح؛ لقوله

تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ وهذا من سنن الله الكونية، مما يوجب الحذر من ذلك.

١٣- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- مع استطاعته ذلك فهو شريك في الإثم والعقوبة لمن ترك المعروف وارتكب المنهي.

١٤- تأكيد شدة عقاب الله وعذابه لمن خالف أمره وعصاه، والحث على العلم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾..

١٥- تذكير المؤمنين بما هم عليه في أول الإسلام وقبله من القلة والضعف والفقر والخوف من تخطف الناس لهم، وما منَّ الله به عليهم بعد ذلك من إيوائهم المدينة وتكثيرهم بالأنصار وتأييدهم وتقويتهم بنصره لهم في بدر وتوسيع رزقهم، ليشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾.

١٦- أن القلة سبب للاستضعاف وتسلط الآخرين واعتدائهم؛ لهذا ذَكَّر الله المؤمنين بحالهم حين كانوا قلة مستضعفين يخافون تخطف الناس لهم.

وفي المقابل فالكثرة سبب للقوة، ولهذا ذكر شعيب عليه السلام قومه بنعمة الله عليهم بتكثيرهم فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ﴾ [الأعراف:٨٦].

ولكن هذا ليس على إطلاقه، فقد تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهكذا نصر الله المؤمنين في بدر وهم قلة أذلة.

١٧- أن الأمن أهم من الرزق، بل هو سبب الرزق، لهذا قَدَّم قوله تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

وقال ﷺ في الحديث: «**من أصبح آمناً في سربه معافىً في بدنه عنده قوت يومه**

فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»(١)، فذكر الأمن أولاً، وقال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [الآية: ٩٧]، أي: جعلها سبباً لأمنهم تقوم به أمور دينهم ودنياهم.

١٨- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٩- لا يعرف قدر النعمة تماماً إلا مَن جرَّب فقدها، وذاق مرارة ضدها.

* * *

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦)، وابن ماجه في الزهد (٤١٤١)، من حديث سلمة بن عبيدالله بن محصن الخطمي عن أبيه رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآيات السابقة المؤمنين بالطاعة والاستجابة لله ولرسوله، ثم حذَّرهم في هذه الآية من خيانة الله والرسول بعدم امتثال ذلك، أو بإظهار الطاعة والاستجابة مع إضمار ما يخالف ذلك في الباطن.

رُويَ عن الزهري، وعبدالله بن أبي قتادة: «أن هذه الآية نزلت في أبي لبابة بن عبدالمنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقه، أي: أنه الذبح، ثم فطن أبولبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقاً، وربط نفسه في سارية مسجد المدينة حتى أنزل الله توبته، وحل رسول الله ﷺ رباطه بيده»[1].

والعبرة بعموم اللفظ لو صح هذا السبب.

قوله: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، ﴿لَا﴾ ناهية، والخيانة: النقض، والنقض: ضد الوفاء والأمانة.

وخيانة الله والرسول: عدم القيام بما أوجب الله ورسوله أو ارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله.

و«ال» في الرسول: للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود محمد ﷺ.

وعطفه على اسم الله دون إعادة العامل «تخونوا»؛ لأن خيانة الرسول ﷺ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٢١-١٢٢، ٦٥٧)، وعبدالرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٤)، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص(١٥٧-١٥٨) وروى غير ذلك.

خيانة لله تعالى.

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ معطوفة على جملة النهي قبلها.

والأمانات: جمع أمانة، وهي كل ما ائتمن عليه الإنسان مما بينه وبين الله، ومما بينه وبين الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وخيانة الأمانات: التفريط فيها وإضاعتها، وعدم حفظها والقيام بحقها.

والأمانات قسمان: واجبات يجب القيام بها والمحافظة عليها وعدم تضييعها، كالصلاة والزكاة والصيام والحج، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وحفظ حقوق الأولاد والأزواج، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوفاء بالعهود، وحفظ الودائع وردها إلى أصحابها، والقيام بما أنيط بالإنسان من حقوق الأمة على الوجه المطلوب، وغير ذلك.

والقسم الثاني من الأمانات: المنهيات التي يجب تركها والبعد عنها واجتنابها كالشرك بالله، والربا والقتل وأكل مال اليتيم والسحر وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، واليمين الغموس ونقض العهود والحسد والظلم والغش والزنا والسرقة، وغير ذلك.

وهي تنقسم من وجه آخر إلى قسمين أيضاً: أمانات فيما بين الخلق وبين الله كإخلاص التوحيد لله والبُعد عن الشرك، وكالصلاة والصيام ونحو ذلك.

وأمانات بين الخلق فيما بينهم يجب عليهم الوفاء بها، كالعقود والعهود فيما بينهم، وحقوق بعضهم على بعض كحق الوالدين والأولاد والأزواج وصلة الأرحام وحقوق المسلمين، وحفظ الودائع، ونحو ذلك.

وهذه الحقوق وإن كانت للخلق، فإنها داخلة تحت حق الله- عز وجل؛ لأن الله- عز وجل- هو الذي أوجبها.

ويحتمل أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ ما بين الخلق من أمانات فيما بينهم وهذا أولى؛ لقوله قبله: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ من عطف العام على الخاص فيشمل جميع الأمانات فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم مع بعضهم البعض.

ومن أعظم الأمانات التي ضعف القيام بها، وعظم التفريط فيها: الصلاة، وصلاة الجماعة خاصة، والتي هي في الحقيقة قاصمة الظهر، وسبب اختلال التوازن في حياة الأفراد والجماعات والأمة قاطبة، فإن الصلاة هي عمود الإسلام وقاعدته العريضة، التي يدور عليها رحاه، فهي أُس مقومات السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وإقامتها والمحافظة عليها هي السبب الأول لنجاح الإنسان في دينه ودنياه وأخراه، مع الأخذ بالأسباب، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هو: ١٢٣].

فعبادة الله تعالى: فعل السبب لسعادة الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار. والتوكل على الله: الاعتماد على الله والثقة به، بعد فعل السبب.

فالتوفيق للأعمال الصالحة مرهون بالصلاة، والبعد عن المعاصي مرهون بالصلاة، والرزق مرهون بالصلاة، وقبول الأعمال مرهون بالصلاة، فلا عز ولا سعادة ولا فلاح ولا نجاح ولا طمأنينة ولا حياة طيبة إذا اختل أمر الصلاة.

فاحفظ أخي المسلم صلاتك وأقمها كما شرع الله، ثم انطلق لتكميل أمور دينك، وتحصيل أمور دنياك على ظهر سفينة النجاة بإذن الله- الصلاة- تجد التوفيق والتسديد من الله تعالى في أمور دينك ودنياك وأخراك.

ومن أعظم الأمانات التي حصل فيها التفريط أيضاً: حقوق العمل في الأمة ومصالحها، والذي هو في الحقيقة من أعظم حقوق الله تعالى والذي ضعف القيام به لدى كثير من المسلمين، مما أضر بمصالح الأمة الإسلامية، وأَخَّرها عن ركب الحضارة، وجعلها في مؤخرة الأمم، وإنه لمن المؤسف، ومما يندى له جبين كل مسلم غيور، ومما يُخجل أن نرى كثيراً من المؤسسات في البلاد غير الإسلامية تسير وفق نظام دقيق بسبب الانضباط في أداء الأعمال بينما نرى الفوضى في كثير من المؤسسات في البلاد الإسلامية بسبب تخلي كثير من العاملين عن القيام بأعمالهم، وهذا لعمر الله عين الخيانة.

يُرشح للأعمال في تلك الدول الأكفأ فالأكفأ، بينما يُرشح في كثير من البلاد العربية والإسلامية لاعتبارات أخرى.

تُنجز المعاملات في تلك البلاد بأسرع وقت بشكل منظم مرتب، بينما تتأخر المعاملات في كثير من المؤسسات في البلاد الإسلامية الأيام والأسابيع، وربما الشهور

والأعوام، بسبب الأنانية وعدم الانضباط.

قطع العالم شوطاً بعيداً في التقدم والانتظام في الأعمال والمواعيد وغير ذلك، ومازال كثير من المسلمين في مؤخرة الركب في هذا الميدان.

يجب أن نعمل جميعاً على استشعار عظم المسؤولية في أعمال الأمة ومصالحها، وأن نعلم أن قيام كل فرد بما أنيط به من هذه الأعمال من أعظم الواجبات، وهو من الجهاد الذي يؤجر المسلم عليه، إذ عليه مدار رقي الأمة ونهضتها وأخذها مكانها بين الأمم، إذ لا مكان لحياة الجهل والفوضى والتخلف.

والعجيب أن كثيراً من الناس لو استودع أو استدان بما قيمته خمسون ريالاً لاهتم لأداء ذلك- وهذا أمر محمود- لكنه في مجال العمل لا يبالي أن يقرب هذا، ويبعد هذا، ويُخَلِّص معاملة هذا، ويؤخر هذا، ويتأخر في الحضور، ويخرج أثناء الدوام، وينصرف قبل انتهائه، وهذا- والله- من أعظم الخيانة- وقد يفوق بأضعاف مضاعفة إنكار ما لديه من وديعة لفلان من الناس؛ لأن التفريط في أعمال الأمة والمحاباة فيها ضرره أعم، فهو أعظم وأعظم، فهو هدم في كيان الأمة وأعمالها يؤدي إلى ضعف الأمة وتخلفها وتسلط الأعداء عليها.

وأعجب مما ذكر أن كثيراً ممن هذه حالهم يتباكون ويتلاومون على واقع الأمة، وهم أصل بلائها وسبب دائها، كالسوس ينخر في الأمة من داخلها، ويهدم في كيانها؛ لأن الأمة لا تقوم إلا على مؤسساتها، فإذا صلحت مؤسساتها بدءاً من المساجد والمدارس والوزارات والدوائر العامة والخاصة نهضت الأمة.

وصلاح مؤسسات الأمة مبني على صلاح أفرادها، وصلاح الأفراد يحتاج إلى العمل على رفع مستوى الوعي، بتوسيع مدلول الخطاب التعليمي والتوجيهي والديني ليشمل جميع جوانب الحياة، وأعمال الأمة في منظومة واحدة متكاملة.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الجملة في موضع نصب على الحال، أي: والحال أنكم تعلمون أن عملكم هذا خيانة لله والرسول، ولأماناتكم، وهي حال كاشفة بمنزلة الصفة، المقصود منها تشديد النهي، وتشنيع المنهي عنه كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا

بُرۡهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة- رضي الله عنه- لما كتب كتاباً وأرسله إلى المشركين يخبرهم فيه بعزم رسول الله ﷺ على فتح مكة، قال عمر رضي الله عنه: «دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق»، وفي بعض الروايات: «لقد خان الله ورسوله». فقال ﷺ: «**قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فلقد غفرت لكم**»(١).

وقد استعاذ ﷺ من الخيانة- كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه ﷺ قال: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَـٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٢٨﴾ كقوله تعالى في سورة التغابن: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَـٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝١٥﴾ [التغابن: ١٥].

نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن خيانة الله والرسول وخيانة أماناتهم، ثم أتبع ذلك ببيان أنها أموالهم وأولادهم فتنة؛ لأن الأموال والأولاد من أعظم ما يحمل على الخيانة، ومما تقع فيه الخيانة، ولهذا قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمۡ﴾: «أمانات الأولاد».

قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَـٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ الأمر للمؤمنين، وأمروا بالعلم بهذا الخبر للتنبيه والاهتمام وتأكيد التحذير.

﴿أَنَّمَآ﴾ أداة حصر، أي: ما أموالكم وأولادكم إلا فتنة.

وجعلت الأموال والأولاد نفس الفتنة وحصرت في ذلك للمبالغة في التحذير من

---

(١) أخره البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٥٠)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٣٠٥)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبوداود في الصلاة (١٥٤٧)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٦٨)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٥٤).

فتنتها؛ لأن غالب الفتنة إنما يكون بسبب الأموال والأولاد، وإلا فإن من الأموال والأولاد ما هو خير ونعمة.

﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾، الأموال: اسم لكل ما يتمول ويملك من نقد، وعين منقولة كالأثاث والسيارات وغير ذلك، أو غير منقولة كالعقار.

﴿وَأَوْلَٰدُكُمْ﴾، الأولاد: جمع ولد، ويشمل الذكر والأنثى من أولاد الإنسان وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور، هذا من حيث الأصل، فهم الذين ينسبون إلى الشخص، وهم الذين يرثونه.

كما قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد(١)

أما من حيث العموم ومن حيث كونهم فتنة فقد يدخل فيهم أيضاً أولاد البنات، وإن نزلوا.

﴿فِتْنَةٌ﴾، أي: ابتلاء، وامتحان من الله لكم هل تشكرون الله عليها وتؤدون حقها، وتطيعون الله فيها، أو تُقصِّرون في حقها وتنشغلون بها عن طاعة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ [التغابن: ١٤].

قال عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ﴾ [التغابن: ١٥]: «ما من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن»(٢).

والفتنة في الأموال والأولاد من وجوه عديدة:

---

(١) انظر: «الإنصاف في مسائل الخلاف» (١/ ٥٦)، «التذييل والتكميل» (٣/ ٣٣٧).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٦، ١٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٥).

فالمال فتنة: من حيث كسبه إذ قد يؤدي حبه والحرص عليه إلى اكتسابه من أي طريق كان، حتى ولو كان مشتبهاً أو محرماً كالربا والقمار والرشوة والغش والاحتكار والسرقة والغصب، والمساهمات المختلطة والمشبوهة ونحو ذلك.

وهو فتنة من حيث الانشغال به وبجمعه عن طاعة الله تعالى والقيام بحقوقه، وحقوق خلقه من الوالدين والأزواج والأولاد والأقارب والجيران، وحقوق المسلمين وغير ذلك.

وهو فتنة من حيث إنفاقه فيما لا يجوز إنفاقه فيه، أو الإسراف في إنفاقه أو التقتير في إنفاقه ومنع حق الله فيه من الزكاة والصدقة، وغير ذلك من الحقوق الواجبة والمستحبة للأهل والأولاد وغيرهم.

إلى غير ذلك من وجوه فتنة المال، وهذه الثلاثة أهمها، ولا يسلم منها إلا مَن رحم الله.

كما أن الفقر وفقدان المال فتنة لبعض الناس، فربما يجزع ويتسخط بسبب ذلك، وربما سلك بعض الطرق الملتوية والمحرمة بحثاً عن المال إلا مَن رحم الله.

والأولاد فتنة: من حيث الولع في محبتهم والعطف عليهم والمبالغة في ذلك، وتقديم ذلك على محبة وطاعة الله ورسوله.

وهم فتنة من حيث الحاجة إلى الصبر والمجاهدة فيهم؛ لتربية أجسامهم وعقولهم وتوجيههم وتأديبهم حال صغرهم.

وهم فتنة بعد بلوغهم ومراهقتهم يحتاجون إلى مجاهدة أكبر وصبر وتحمل أعظم في توجيههم وحملهم على ما ينفعهم وإبعادهم عما يضرهم.

وهم فتنة في هذه الحال وبعدها إذ قد يحمل بعضهم والديه على التساهل فيما لا ينبغي مراعاةً وإرضاءً لهم، وكم جر الأولاد والديهم إلى أمور لا تحمد عقباها في دينهم ودنياهم.

وهم فتنة بعد كبرهم، هم وأولادهم وأزواجهم في علاقتهم مع والديهم، بِراً بهم ورحمة ووفاء، أو عقوقاً لهم وغلظة وجفاء.

إلى غير ذلك من وجوه فتنة الأولاد ما داموا على قيد الحياة هم ووالدوهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ

بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال ﷺ: «**إن الولد مبخلة مجبنة**»(١).

كما أن عدم الأولاد فتنة لبعض الناس، فيتعب في طلبهم والبحث عنهم، وقد يجزع ويتسخط على ما قدّره الله عليه من العقم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

بيّن- عز وجل- أن الأموال والأولاد فتنة، ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ لئلا تحمل الأموال والأولاد والديهم على التقصير في حق الله تعالى أو الانشغال عن طاعة الله، فما عند الله من الأجر العظيم خير من المنافع المرجوة من الأموال والأولاد، ومن الدنيا وما فيها.

أي: وأن الله عنده ثواب عظيم من حيث كميته وكيفيته ونوعه وديمومته وغير ذلك، ومن عظمته أنه من العظيم- سبحانه وتعالى- وعنده، ولهذا لا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠، الشورى: ٣٦].

وفي تسميته- عز وجل- ما أعدّه من الثواب للمؤمنين بالأجر توكيد لالتزامه- عز وجل- بذلك لهم وإيجابه ذلك على نفسه- مع أنه- عز وجل- في الأصل لا يجب عليه شيء لخلقه، وإنما أوجب ذلك على نفسه تفضلاً منه وكرماً، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: بفعل أوامره واجتناب نواهيه والدوام على طاعته.

﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾، «الجعل» ينقسم إلى قسمين: شرعي، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٦٦٦)، من حديث يعلى العامري رضي الله عنه.

وكوني، كما في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الفرقان: ٦١].

وقوله: ﴿فُرْقَانًا﴾، أي: نوراً تفرقون به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وبين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وتنجون به من فتنة الأموال والأولاد، ومن الحيرة والاضطراب والتبلبل والشك، وتسعدون به في دنياكم وأخراكم، وهو نور القرآن والهدى والعلم والإيمان المثمر للعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ [النور: ٣٥]، أي: مثل نور الإيمان الذي يلقيه الله في قلب المؤمن، كمشكاة فيها مصباح؛ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥].

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، أي: ويمح عنكم سيئاتكم، ويتجاوز عنها، و«سيئات» جمع سيئة، وهي الذنوب، سميت بذلك؛ لأنها تسوء صاحبها، وقد تسوء غيره.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ﴾، أي: ويغفر لكم ذنوبكم، أي: يسترها عن الناس.

ويجوز أن يكون المعنى ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، أي: ويمح ويزل صغائر ذنوبكم، كما قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١]، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ﴾، أي: ويغفر لكم كبائر الذنوب بالتجاوز عنها وسترها.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، ﴿ذُو﴾ بمعنى: صاحب، و«الفضل» الزيادة والإحسان والكرم والجود والإنعام.

﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾، أي: الفضل العظيم من كل وجه؛ كماً وكيفاً ونوعاً وديمومة، وغير ذلك، الذي لا فضل أعظم منه، ولا يقدر قدر عظمة فضله إلا الذي وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم- سبحانه وتعالى.

فوعدهم عز وجل إن اتقوه بأربعة أشياء كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان، وهو النور والهدى الذي يفرقون به بين الحق والباطل والهدى والضلال والحلال والحرام، ونحو ذلك.

والثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب صغيرها وكبيرها.

والرابع: الفضل العظيم والثواب الجسيم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ [الحديد: ٢٨].

الفوائد والأحكام:

١- نهي المؤمنين وتحذيرهم من خيانة الله والرسول وخيانة أماناتهم، وأن ذلك مما يخالف مقتضى الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

٢- تأكيد وتشديد النهي عن الخيانة وتشنيعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، أي: والحال أنكم تعلمون أن ذلك من الخيانة.

٣- وجوب طاعة الله تعالى ورسوله بفعل الواجبات والبُعد عن المنهيات، ووجوب أداء حقوق الخلق، لمفهوم النهي عن خيانة الله والرسول وخيانة الأمانات.

٤- أن خيانة الرسول ﷺ خيانة لله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ ووجه ذلك عطف «الرسول» على لفظ الجلالة «الله» دون إعادة العامل «تخونوا».

٥- التحذير من فتنة الأموال والأولاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾.

٦- إثبات أن الأموال والأولاد فتنة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ وذلك من وجوه عديدة.

٧- عظم ما عند الله- عز وجل- من الأجر العظيم للمؤمنين- مما لا يقدر قدره إلا هو سبحانه، ومن عظمته أنه منه- عز وجل- وعنده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

٨- التنبيه إلى أنه لا ينبغي الانشغال بالأموال والأولاد عن طاعة الله تعالى أو تقديمها على محبة الله تعالى وطاعته فما عند الله من الأجر العظيم خير من المنافع المرجوة من الأموال والأولاد، ومن الدنيا وما فيها.

٩- تكفّل الله- عز وجل- بثواب المؤمنين وضمانه لهم، لهذا سمّاه أجراً، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين فيما سبق بتذكر حالهم إذ كانوا مستضعفين في الأرض خائفين فآواهم ونصرهم ورزقهم من الطيبات، وأمر رسوله ﷺ هنا بتذكر نعمته عليه بإنجائه وحفظه من كيد الكافرين ومكرهم، والمنة والنعمة عليه ﷺ منة ونعمة على أمته.

قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، الواو استئنافية، و«إذ» ظرف بمعنى «حين» متعلق بمحذوف تقديره: «اذكر»، والخطاب للنبي ﷺ، أي: اذكر ما منَّ الله به عليك. وجاء التعبير بصيغة المضارع «يمكر» لاستحضار الحالة التي دبروا فيها المكر.

والمكر: الكيد والتدبير لإيقاع الضرر خفية.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: الذين كفروا بالله وكذبوا رسوله، وأنكروا ما جاء به، والمراد بهم هنا كفار مكة، وبخاصة سادتهم وكبراؤهم، كأبي جهل، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأُبيّ بن خلف، وأمثالهم.

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾، الإثبات: الحبس والتقييد والإيثاق، أي: ليحبسوك ويقيدوك ويوثقوك؛ ليمنعوك من الخروج.

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾، فيستريحوا منك- بزعمهم.

﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾، أي: يُجْلُوك من بلدك مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦)﴾ [الإسراء: ٧٦].

فهم مترددون هل يثبتونه، أو يقتلونه، أو يخرجونه؟

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح، قالوا: أجل، ادخل، فدخل معهم، فقال: انظروا شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أموركم بأمره- قال: فقال قائل: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك، كما هلك من كان قبله من الشعراء، زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم. قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي، فقال: والله ما هذا لكم برأي، والله ليُخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم. قالوا: فانظروا في غير هذا. قال: فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع، وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم- ثم استعرض العرب، لتجتمعن عليكم، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم، ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق والله، فانظروا رأياً غير هذا. قال: فقال أبوجهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره. قالوا: ما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاماً وسيطاً شابًّا نهداً[1]، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل[2]، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القول ما قال الفتى، لا أرى غيره. قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له. قال: فأتى جبريل النبي ﷺ، فأمره ألا يبيت في مضجعه

---

(١) الوسيط: الشريف الحسيب في قومه. والنهد: الكريم الذي ينهض في معالي الأمور.

(٢) أي: الديـة.

الذي كان يبيت فيه تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكره نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

وأنزل في قولهم: تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠]. وكان يسمى ذلك اليوم: «يوم الزحمة» للذي اجتمعوا عليه من الرأي»[(١)].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: ما يبكيك يا بنية؟ قالت: يا أبت، ما لي لا أبكي، وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر يتعاقدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلوك، وليس منهم إلا من عرف نصيبه من دمك. فقال: يا بنية، ائتيني بوضوء، فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد. فلما رأوه قالوا: إنما هو ذا، فطأطؤوا رؤوسهم، وسقطت أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم. فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فحصبهم بها، وقال: شاهت الوجوه، فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً»[(٢)].

وعن مقسم مولى ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ قال: «تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق- يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه على ذلك. فبات علي- رضي الله عنه- على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج رسول الله ﷺ، حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليًّا يحسبون أنه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوه عليًّا رد الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٣٤-١٣٥)، ورواه ابن إسحاق. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٨٠-٤٨٣).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ولا أعرف له علة» ذكره عنهما ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٨٦).

أدري. فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاث ليال»(١).

قال ابن كثير(٢): «وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به، وأرادوا به ما أرادوا، أتاه جبريل- عليه السلام- فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فأمره أن يبيت على فراشه، وأن يتسجى ببرد له أخضر، ففعل. ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب، فجعل يذرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ، وهو يقرأ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩]».

﴿وَيَمۡكُرُونَ﴾، أي: والحال أنهم يمكرون، ﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [الآية:٥٤].

والمعنى: أنهم يدبرون ويكيدون خفية، ﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾، أي: ويمكر الله بهم على وجه المجازاة لهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل: ٥٠، ٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم: ٤٥].

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾، أي: خير المجازين بالمكر، وأعظم مكراً وتأثيراً بمن يمكرون ويكيدون للرسول ﷺ وللحق وأهله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣١﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٨)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٣٧).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٥٨٦) وقال: «قال الحافظ أبوبكر البيهقي: وروي عن عكرمة ما يؤكد هذا».

ذكر الله- عز وجل مكر الذين كفروا وكيدهم للرسول ﷺ، ومكر الله- عز وجل- بهم، ودفاعه عن نبيه، ثم أتبع ذلك بذكر استخفافهم بما جاءهم به من الآيات، وتكذيبهم بها، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا﴾ الآية.

وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث[١].

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا﴾، الواو: استئنافية، و«إذا»: ظرفية شرطية ﴿تُتْلَىٰ﴾ تقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي: على الذين كفروا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم كفار قريش ﴿ءَايَـٰتُنَا﴾، أي: آيات القرآن الكريم.

وتكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه المستحق لكمال العظمة كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله- عز وجل: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري**»[٢].

وفي حديث أبي سعيد وأبي هريرة- رضي الله عنهما- قالا: قال رسول الله ﷺ: «**العز إزاره والكبرياء رداؤه**»[٣].

والمعنى: وإذا تقرأ على هؤلاء الكفار آياتنا القرآن الكريم الدالة على صدق ما جاء به الرسول ﷺ.

﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا﴾، أي: قد سمعنا ما يتلى علينا، أو ما تتلو علينا، وأكدوا قولهم بـ«قد» التي تفيد التحقيق، لكن سمعهم هنا لا يتجاوز الآذان، بلا عقل، ولا فهم، ولهذا لم ينتفعوا به، بل صار حجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى محذراً المؤمنين عن صفتهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: ٢١]، أي: لا يفهمون ولا يفقهون ما سمعوا، ولا ينتفعون به.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾، أي: لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن، وهم كذبة مبطلون ويعلمون أنهم لا يستطيعون ذلك، وإلا فما الذي منعهم أن يشاؤوا قول مثله،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٤١-١٤٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٨٧).

(٢) أخرجه أبوداود في اللباس (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٢٠).

ولكنهم إنما يقولون هذا من باب المكابرة والعناد، والتبرير لباطلهم، والتغرير بغيرهم، وقد تحداهم الله- عز وجل- أن يأتوا بمثل القرآن، بل بعشر سور مثله، بل بسورة مثله، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

﴿إِنْ ﴾ نافية بمعنى «ما»، ﴿هَٰذَآ﴾، أي: القرآن، ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، ﴿إِلَّآ ﴾ أداة حصر، و﴿أَسَٰطِيرُ﴾ جمع أُسطورة بضم الهمزة.

والمعنى: ما هذا القرآن إلا أساطير الأولين، أي: حكاياتهم التي تُذكر للتسلي، ولا حقيقة لها، ولا أصل، ومما سطروه في كتبهم من أخبار وخرافات؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «قال أبو جهل: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ إلى آخر الآية»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنفال (٤٦٤٨)، ومسلم في صفات المنافقين- قول الله تعالى: ﴿ وَمَا
=

وهذه المقالة التي صدرت من أبي جهل، أو منه ومن النضر بن الحارث كما قيل ذلك، ليست هي سبب نزول هذه الآية، لكن فيها تذكير بما حصل منهم، لأن الآية مدنية، وما حصل منهم كان بمكة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: «اذكر»، أي: واذكر إذ قال الكفار كأبي جهل والنضر بن الحارث وأضرابهما: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ يشيرون بـ﴿هَٰذَا﴾ إلى ما يتلى عليهم من آيات القرآن الكريم، وما جاء به الرسول ﷺ من الوحي. وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ لتأكيد الخبر وتقويته.

﴿مِنْ عِندِكَ ﴾ حال من الحق، أي: منزلاً من عندك، فهم يطعنون في كون القرآن حقًّا، وفي كونه منزلاً من عند الله عز وجل.

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، هذا من شدة جهلهم وتكذيبهم وعنادهم، وضعف عقولهم، وكان الأجدر بهم والأليق أن يقولوا: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه» فيدعوا لأنفسهم بالهداية إليه.

ولكنهم مبالغة منهم في التكذيب والتهكم والسخرية، ونفي أن يكون القرآن حقًّا من عند الله، استفتحوا على أنفسهم، ودعوا عليها بالعقوبة، واستعجلوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ١، ٢].

كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾ (٢٧٩٦)، والواحدي في أسباب النزول ص(١٥٨). وروي أنها نزلت في النضر بن الحارث- كما ذكر هذا الواحدي ص(١٥٨).

وهذا من كفار قريش كما قال سفهاء قوم شعيب- عليه السلام: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: أنزل علينا حجارة تعذبنا بها، كما قال تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: ١٣].

﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، ﴿أَوِ﴾ عاطفة، أي: أو ائتنا بعذاب مؤلم موجع أيَّ عذاب يكون.

وهذا من ذكر العام بعد الخاص، فطلبوا أولاً عقوبة خاصة، وهي مطر الحجارة، ثم عمموا في طلب أيِّ عذاب أليم. وهذا مبالغة منهم في نفي كون القرآن حقًّا منزلاً من عند الله.

رُويَ عن معاوية- رضي الله عنه- أنه قال لرجل من سبأ: «ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة. قال: أجهل من قومي قومك، قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ﴾، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له»(١).

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت، يقولون: لبيك، لبيك لا شريك لك. فيقول النبي ﷺ: «**قد قد**». فيقولون: إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾»(٢).

---

(١) انظر: «محاسن التأويل» (٥/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٥١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٩١)، والبيهقي في سننه (٥/ ٤٥).

وهذا- إن صح- فهو كما سبق ليس هو سبب نزول الآية وإنما فيه ذكر ما حصل من المشركين؛ لأن الآية مدنية وما حصل منهم كان بمكة.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ بيان للموجب لإمهالهم وعدم إجابة دعائهم على أنفسهم.

الواو: عاطفة، و«ما»: نافية. واللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ لتأكيد النفي.

والواو في قوله: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ للحال، أي: والحال أنك فيهم، وفيه تكريم وتشريف له ﷺ بمخاطبته بقوله: ﴿وَأَنتَ﴾ دون أن يقول: «ورسولي فيهم».

والمعنى: وما كان الله ليعذبهم وأنت بين ظهرانيهم، أي: حتى يخرجك من بينهم، فوجوده ﷺ بينهم كان أمنة لهم من العذاب، وهكذا قضت حكمته أن لا يعذب أمة وبينهم نبيهم حتى يخرجه من بين أظهرهم؛ لأن العذاب إذا نزل يعم.

وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم.

والعذاب يشمل العذاب السماوي، وما يوقعه- عز وجل- عليهم بأيدي عباده، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، الواو: عاطفة، و«ما» نافية كسابقتها، ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الجملة حاليه، أي: والحال أنهم يستغفرون.

والمعنى: وما كان الله معذبهم لو استغفروا، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال بعض المفسرين: وما كان الله معذبهم وفيهم من سبق له من الله الدخول في الإيمان والصلاة والاستغفار.

وفي حديث ثوبان- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله زَوَى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكهم بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا**

يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال: من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»[١].

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك، ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**»[٢].

فالتوبة والاستغفار أمان من عذاب الله، ومما تُستجلب به النعم وتدفع به النقم.

ولهذا جاء في حديث جندب بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فيدركه، فيكبه في نار جهنم**»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيتين السابقتين استفتاح المشركين ودعاءهم على أنفسهم بالعقوبة بحجارة من السماء، أو إتيانهم بعذاب أليم، وبين أنه- عز وجل- ما كان ليعذبهم والرسول ﷺ بين ظهرانيهم، وما كان معذبهم وهم يستغفرون، ثم أتبع ذلك ببيان أنهم أهل للعذاب ومستحقون له لصدهم عن المسجد الحرام.

قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾، الواو: استئنافية، أو عاطفة على قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾.

و«ما»، استفهامية، والاستفهام للإنكار، أي: أيّ شيء يمنعهم أن يعذبهم الله، أي: أنه لا شيء يمنعهم من عذاب الله، وليس عدم نزوله فيهم بسبب أنهم غير

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢١٧٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩).

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٦٥٧)، والترمذي في الصلاة (٢٢٢).

مستحقين له بأنفسهم.

﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم يصدون الناس، أي: يمنعونهم عن المسجد الحرام، حيث صدوا النبي ﷺ وأصحابه الذين هم أولى به منهم، فيمنعونهم من الوصول إلى البيت والصلاة فيه، والطواف والسعي والاعتكاف والعبادة فيه.

فعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: انطلق سعد بن معاذ معتمراً، قال: فنزل على أمية بن خلف أبي صفوان وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمرَّ بالمدينة نزل على سعد، فقال أمية: انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت فبينما سعد يطوف إذ أتاه أبوجهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد: أنا سعد، فقال أبوجهل: تطوف بالكعبة آمناً وقد آويتم محمداً وأصحابه»[1] الحديث.

والمعنى: أنهم قد استحقوا العذاب واستوجبوه بصدهم الرسول ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام وعن عبادة الله- عز وجل- فيه، وتوحيده، وهذا أعظم الإلحاد فيه والظلم، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر هو من العذاب الذي استحقوه، ولكن من رحمة الله- عز وجل- بهذه الأمة ببركة نبيها ﷺ لم يستأصلهم بعامة تحقيقاً لما أراد الله- عز وجل- من إيمان بعضهم وما وعد به في قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [الممتحنة: ٧]، وتحقيقاً لرجائه ﷺ، لما قال له ملك الجبال: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: «**بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**»[2].

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ الجملة معطوفة على جملة الحال، و«ما»: نافية والضمير الهاء يعود إلى المسجد الحرام، أي: والحال أنهم ما كانوا أولياء المسجد الحرام- كما يزعمون.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٣٢)، وأحمد (١/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي هذا إظهار شدة ظلمهم واعتدائهم في صدهم عن المسجد الحرام، لأنهم لا يجوز لهم الصد عن المسجد الحرام لو كانوا هم أولياءه، فكيف يصدون عنه وهم ليسوا أولياءه، فهذا أشد إثماً وأعظم جرماً، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤].

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى: «ما» والضمير الهاء: يعود إلى المسجد الحرام، أي: ما أولياء المسجد الحرام إلا المتقون الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وفي هذا إثبات أن أولياء المسجد الحرام هم المتقون، ونفي ولاية المشركين عليه، والتعريض بذمهم لعدم تقواهم، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٧، ١٨].

وقال بعض المفسرين: يجوز أن يعود الضمير في قوله: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ إلى الله- عز وجل- أي: وما كانوا أولياء الله إن أولياؤه إلا المتقون.

وهذا محتمل وصحيح، لكن الأظهر الذي يناسب السياق القول الأول.

وقد قيل: الضمير يرجع إلى الرسول ﷺ، أي: وما كانوا أولياء الرسول ﷺ، إن أولياؤه إلا المتقون. وهذا بعيد- وإن كان المعنى عليه صحيح.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، الواو: عاطفة، و«لكن»: حرف استدراك، أي: ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أنهم ليسوا أولياء المسجد الحرام، وأن أولياءه حقيقة هم المتقون، ولهذا تجرأ المشركون على الصد عن المسجد الحرام ظناً أنهم أحق بولايته من المؤمنين وأن لهم الحق في الصد عنه.

ويفهم من قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن من بينهم- وخاصة من عقلائهم- من يعلم صدق الرسول ﷺ، وأنه ليس لهم الصد عن المسجد الحرام، وإنما يفعلون ذلك، أو يؤيدون من قام به مجاراة ومتابعة لرؤسائهم رؤوس الكفر والضلال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- قبل هذا استحقاق الكفار للعذاب لصدِّهم عن المسجد الحرام، ونفى ولايتهم للمسجد الحرام، ثم أتبع ذلك بما يشبه الدليل والعلة على انتفاء ولايتهم للمسجد الحرام، وعلى استحقاقهم للعذاب، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ﴾، الواو: استئنافية، أو عاطفة، و«ما» نافية: ﴿صَلَاتُهُمْ﴾، أي: دعاؤهم وعبادتهم.

﴿عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾، أي: عند الكعبة «البيت الحرام» سميت بيتاً لقيامها على أركان، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مُكَآءً﴾ صفيراً، ﴿وَتَصْدِيَةً ۚ﴾ تصفيقاً، مشتق من الصدى وهو الصوت الذي يردده الهواء.

وإنما كان المشركون يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ قراءته، واستهزاءً منهم به وبما جاء به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

قال حسان بن ثابت- رضي الله عنه- يعيب المشركين في صنيعهم هذا:

إذا قـــام الملائكـــة انبعثـــتم ... صـــلاتكم التصـــدي والمكـــاء[١]

فوضعوا المكاء والتصدية مكان الصلاة، كما قال الفرزدق[٢]:

فلـــما خشـــيت أن يكـــون عطـــاؤه ... أداهـــم ســـوداً أو محدرجـــة ســـمرَا

فوضع القيود والسياط مكان العطاء.

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

أي: فذوقوا العذاب بسبب كفركم وجحودكم رسالة النبي ﷺ وما جاء به من

(١) انظر: «التفسير البسيط» (١٠/ ١٤٠).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص ١٦٩). ويعني بالأداهم: القيود، وبالمحدرجة: السياط.

الآيات، وهذا تبكيت لهم وتوبيخ وعذاب معنوي لا يقل عن العذاب الحسي.

والمراد ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي والأسر، وقيل: هو وعذاب الآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ بما دبَّره له الكفار من مكر، لحبسه أو قتله أو إخراجه، وامتنان الله- عز وجل- عليه بإنجائه وحفظه من مكرهم، ومكر الله- عز وجل- بهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

٢- عظم ما لاقى النبي ﷺ من قومه من الأذى، من المكر والكيد وغير ذلك مما لا قِبَل لأحدٍ به، وتجلُّده ﷺ بالصبر والعزم حتى أظهره الله عز وجل.

٣- شدة عداوة قريش للنبي ﷺ ولما جاء به من الحق من عند الله- وعتوِّهم وجبروتهم وعنادهم.

٤- لجوء المكابرين والمعاندين عند عجزهم عن مقارعة الحق ورده إلى أساليب التصفية والقهر، من الحبس أو القتل أو الإخراج.

٥- إثبات مكر الله- عز وجل- بالماكرين على سبيل المجازاة لهم، وأنه- عز وجل- خير الماكرين، وذو الكيد المتين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

والمكر والكيد والاستهزاء والمخادعة، ونحو ذلك من الصفات لا يوصف الله بها على سبيل الإطلاق، وإنما على سبيل المقابلة، فهو- عز وجل- يمكر بالماكرين، ويكيد للكائدين ويستهزئ بالمستهزئين، ويخدع المخادعين، ونحو ذلك. وهي على هذا النحو تعد صفة كمال.

٦- شدة استخفاف الذين كفروا بالقرآن الكريم- وزعمهم الكاذب القدرة على الإتيان بمثله، إمعاناً منهم بالتكذيب والعناد، وتمويهاً على الآخرين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ ﴾ وقد تحدَّاهم الله أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور، أو بسورة من مثله، فلم يستطيعوا.

٧- إقرار المشركين على أنفسهم بسماع ما يتلى عليهم من القرآن الكريم، مما تقوم عليهم

به الحجة، ولكنه لا ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾..

٨- جرأة المكذبين والكفار على وصف القرآن بأقبح الصفات؛ لقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كما وصفوه بالسحر والكهانة والشعر، ونحو ذلك.

٩- شدة جهل الكفار وضعف عقولهم، ومبالغتهم في التكذيب والعتو والعناد، ونفي أن يكون القرآن حقًّا من عند الله- حتى استفتحوا على أنفسهم ودعوا عليها بالعقوبة واستعجلوا العذاب؛ لقوله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وكان الأجدر بهم أن يقولوا: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه».

١٠- إقرار الكفار بربوبية الله- عز وجل- وقدرته وعلوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

١١- بركة النبي ﷺ وأن وجوده ﷺ بين قومه أمان لهم من عذاب الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

١٢- أن الإيمان والتوبة والاستغفار أمان من عذاب الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

١٣- فضل الاستغفار وأنه مما تُستجلب به النعم، وتُدفع به النقم بإذن الله عز وجل.

١٤- استحقاق المشركين لعذاب الله لصدهم عن المسجد الحرام، وأنه لا مانع يمنع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي والأسر هو من العذاب الذي استحقوه.

١٥- أن الكفار ليسوا بأولياء للمسجد الحرام، وإنما أولياؤه حقًّا المتقون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

وهم كذلك ليسوا بأولياء لله ولا لرسوله ﷺ وإنما أولياء الله ورسوله هم المتقون.

١٦- جهل الكفار وعدم علمهم بأنه لا ولاية لهم على المسجد الحرام، وأنه لا يجوز لهم

الصد عنه، وأن ولايته حقًّا للمتقين، وجهلهم وعدم علمهم بما ينفعهم وما يضرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٧- أن صلاة الكفار عند البيت ليست إلا صفيراً وتصفيقاً، للتخليط على النبي ﷺ في قراءته وعلى المؤمنين واستهزاءً بما جاء به، مما يدلل على عدم ولايتهم للمسجد الحرام، وعلى استحقاقهم للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

١٨- تبكيت الكفار وتعذيب قلوبهم معنويًّا ببيان أن ما أصابهم من العذاب يوم بدر هو بسبب كفرهم، وكذا ما يصيبهم بعد ذلك في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

رُويَ عن جمع من المفسرين أنها نزلت في نفقة المشركين في بدر وبعدها وفي أُحُد لقتال رسول الله ﷺ والمؤمنين(١).

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من أنفق للصد عن سبيل الله فهو داخل في الوعيد.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

الإنفاق: إخراج المال وبذله، وهو محمود إذا كان في وجوهه المشروعة، ومذموم إذا كان في الوجوه المحرمة كالإنفاق في الصد عن سبيل الله.

وأضاف الأموال إليهم لأنها تحت أيديهم ويملكونها ملكاً نسبياً، وإلا فهم وما ملكوا ملك لله عز وجل، وجمعها للمبالغة، لأنهم إنما ينفقون بعض أموالهم، وهي تشمل كل ما يتمول من نقد أو عين وغير ذلك.

﴿لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يصدوا الناس عن دين الله وصراطه المستقيم، فهم ينفقون أموالهم، وهي أعز الأشياء عليهم؛ لأجل أسوأ هدف وهو صد الناس عن دين الله، كما صدوا عنه بأنفسهم.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٧٠-١٧٥)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٩٧-١٦٩٨)، «أسباب النزول» للواحدي ص(١٥٩).

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، الفاء: للتفريع.

أي: فسينفقون أموالهم ويبذلونها للصد عن دين الله، ونصر الباطل.

وفي قوله: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ بالمضارع والسين الدالة على الاستقبال إشارة إلى أنهم كما أنفقوها في الماضي للصد عن دين الله فسينفقونها في المستقبل لهذا الغرض؛ ولهذا قال قبل هذا: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ بالمضارع للدلالة على استمرارهم في هذا النهج، وتجدد ذلك منهم.

﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، أي: ثم تكون هذه الأموال التي أنفقوها للصد عن دين الله عليهم حسرة.

وأسند الحسرة إلى الأموال؛ لأنها سبب الحسرة بإنفاقها للصد عن دين الله.

والحسرة: شدة الندامة، والتلهف والأسى على ما فات.

والمعنى: ثم تكون هذه الأموال التي أنفقوها للصد عن دين الله عليهم ندامة شديدة، وأسىً؛ لأنهم خسروها، لا فيما ينفعهم بل فيما يضرهم، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: ١١٧].

وقد أحسن المتنبي في قوله:

إذا الجود لم يُرزق خلاصاً من الأذى ... فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا[1]

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾، أي: ثم تكون النتيجة أنهم يغلبون، فيخسرونها، كما في بدر وغيرها، ولا يحصلون من إنفاقها على طائل، ولا يستطيعون صد الناس عن دين الله، ولا إطفاء نوره- كما أرادوا؛ لأن الله- عز وجل- ناصر دينه ومظهره، ومتم نوره ولو كره الكافرون، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨، ٩].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾، ﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار،

(١) انظر: «الصبح المنبي عن حيثية المتنبي» (١/ ٣٤٨).

سميت به لجهمتها وظلمتها، وبُعد قعرها، وشدة حرها.

﴿يُحْشَرُونَ﴾، أي: يساقون إليها ويجمعون فيها.

فجزاؤهم في الدنيا الحسرة والندامة على ضياع ما أنفقوه من أموالهم، والخزي بظهور الحق عليهم وقتلهم وأسرهم، وفي الآخرة حشرهم وجمعهم في جهنم؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ⑫﴾ [آل عمران: ١٢].

وأظهر في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مقام الإضمار، فلم يقل: «وإلى جهنم يحشرون» لبيان سبب حشرهم إلى النار، وهو كفرهم، ولبيان أن الكفار جميعاً من هؤلاء وغيرهم سيحشرون إلى جهنم ويجمعون فيها.

قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ㊲﴾.

قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضم التحتية الأولى وفتح الميم، وكسر التحتية الثانية وتشديدها: «لِيُمَيِّزَ».

وقرأ الباقون بفتح التحتية الأولى وكسر الميم وسكون التحتية الثانية ﴿لِيَمِيزَ﴾.

وقوله: ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلق بقوله: ﴿يُحْشَرُونَ﴾ في الآية السابقة.

واللام: للتعليل، أي: يحشر الذين كفروا إلى جهنم؛ لأجل أن يميز الله الخبيث من الناس من الطيب، أي: يفرز ويفصل الخبيث من الطيب، فالخبيث من الناس- وهم الكفار- يحشرون إلى جهنم، والطيب من الناس- وهم المؤمنون- يحشرون إلى جنات النعيم، كما قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ㊾﴾ [يس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ⑭﴾ [الروم: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ⑦﴾ [الشورى:]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [يونس: ٢٨].

كما ميَّز الله الخبيث من الطيب قبل ذلك في الدنيا بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

و«الخبيث» و«الطيِّب» و«الخُبْث» و«الطِّيْب» وصفان يوصف بهما الأشخاص، فالكافر خبيث، والمؤمن طيب، وتوصف بهما الأعيان، فالخمر خبيث والعنب طيب، وتوصف بهما الأفعال والأقوال، فيقال: هذا فعل خبيث وهذا فعل طيب، وهذا قول خبيث، وهذا قول طيب.

والخبيث لا يساوي الطيب بحال من الأحوال، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، أي: وليجعل الخبيث بعضه على بعض من الأشخاص والأعمال والأعيان، ويضم بعضه إلى بعض. والجعل هنا وفي الموضع الذي بعده كوني.

﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾، أي: فيجعله متراكماً متراكباً بعضه فوق بعض، كما قال تعالى في وصف السحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ [النور: ٤٣] أي: متراكماً متراكباً بعضه فوق بعض، وقال تعالى: ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور: ٤٤]، أي: مركوم متراكب بعضه على بعض.

وفي هذا ما لا يخفى من الإهانة والعذاب المعنوي لأهل الخبث.

﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾، أي: فيصيره في نار جهنم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الإشارة للخبيث الذي جعل الله بعضه على بعض فركمه في جهنم، وأشير إليه إشارة من يعقل، وجمع جمع من يعقل تغليباً للعقلاء؛ لأنهم هم المكلفون المحاسبون، وأشير إليهم بإشارة البعيد ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ تحقيراً لهم.

والخسارة في الأصل: ذهاب الربح مع رأس المال، والمراد بها في الآية الخسارة العظمى؛ خسارة الدين والدنيا والآخرة، خسارة النفس والمال والأهل والولد، وكل شيء؛ ولهذا أكَّد وحصر الخسارة فيهم بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل ﴿هُمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ

﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١٥﴾ [الزمر: ١٥].

وقد أحسن القائل:

وكــــل كســـــر فــــإن الله جـــابره　　　وما لكسـر قناة الدين جـبران[1]

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾.

ذكر الله- عز وجل- مكر الكفار- به ﷺ، وتكذيبهم ومخالفتهم له ولما جاء به، وصدهم عن المسجد الحرام، واستحقاقهم للعذاب، وكون صلاتهم عند المسجد الحرام مكاءً وتصدية، وإنفاقهم أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، وتوعدهم بحشرهم إلى جهنم، ثم أتبع ذلك بأمره ﷺ بحثهم على الانتهاء عما هم عليه من الكفر والمشاقة والعناد، والصد عن المسجد الحرام وعن سبيل الله، وترغيبهم في الدخول في الإسلام بوعدهم بمغفرة ما سلف منهم، وتخويفهم من العود والاستمرار على ما كانوا عليه، فيقع بهم ما وقع بالمكذبين قبلهم- وهذا على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، الجملة استئنافية، والأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد للذين كفروا وجحدوا دين الله وشرعه، وكذبوا رسوله ﷺ.

﴿إِن يَنتَهُواْ﴾، أي: عما هم عليه من الكفر والتكذيب والعناد والصد عن المسجد الحرام وعن دين الله، ويدخلوا في الإسلام.

﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، أي: يستر ويتجاوز لهم الذي قد مضى من الكفر والذنوب.

وهذا يدل على سعة رحمة الله عز وجل، وأنها تسبق غضبه، وعلى عظيم لطفه وعفوه ومغفرته، وأنه لا يتعاظمه شيء أن يغفره حتى الكفر والشرك، بل إنه- عز وجل- يبدل سيئات التائبين حسنات، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص٨٠.

ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر**»[(١)].

وفي حديث عمرو بن العاص- رضي الله عنه- الطويل قال عمرو: «فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي. قال: مالك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: تشترط بماذا؟ قلت: أن يغفر لي. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله...»[(٢)].

﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾، الواو: عاطفة، و«إن» شرطية، ﴿يَعُودُواْ﴾ فعل الشرط. وجوابه: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«قد».

والمعنى: وإن يرجعوا إلى ما هم عليه من الكفر والتكذيب والصد عن دين الله وقتال الرسول ﷺ والمؤمنين، ويستمروا على ذلك.

﴿فَقَدۡ مَضَتۡ﴾، أي: فقد تقدمت وسبقت ﴿سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ السنة: العادة المألوفة والسيرة المتَّبَعَة، وفي هذا وعيد شديد وتهديد أكيد، وتمثيل لهم بما جرى لأمثالهم من المكذبين.

أي: وإن يعودوا إلى ما هم عليه من الكفر والصد عن دين الله وقتال أوليائه فقد سبقت وتقدمت سنة الله- عز وجل- في إهلاك المكذبين الأولين، ومعاجلتهم بالعقوبة إذا استمروا على الكفر والتكذيب والعناد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ [الإسراء: ٨]، ومن ذلك ما أوقعه- عز وجل- في أهل بدر، وفي غيرهم من المكذبين من الأمم قبلهم،

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢١)، ومسلم في الإيمان (١٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٢).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١)، وأحمد (٤/ ١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥).

كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي: وقاتلوا أيها المؤمنون أهل الكفر والشرك. والأمر للوجوب.

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ لانتهاء الغاية، أي: حتى لا توجد فتنة، والفتنة: الكفر والشرك، أي: حتى لا يفتن الناس ويصدون عن الدين الحق ويُضلون عنه بالكفر والشرك؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾. فقابل بين الفتنة وكون الدين كله لله؛ مما يدل على أن الفتنة هي الكفر والشرك.

وقال هنا: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ﴾ بالتأكيد، بينما قال في آية البقرة: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ بدون تأكيد. قيل: لأن آية الأنفال أسبق نزولاً من آية البقرة، فناسب فيها التأكيد، وناسب في آية البقرة حذفه للإيجاز.

ومعنى الآية: ويكون الدين كله خالصاً لله، بأن يخلص التوحيد والعبودية والطاعة لله- عز وجل- وحده، لا شريك له، وهذا هو المقصد من القتال والجهاد في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- باب ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (٢٥)، ومسلم في الإيمان- الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله (٢٢).

وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[١].

وعن نافع: «أن رجلاً أتى ابن عمر، فقال: يا أبا عبدالرحمن، ما حملك على أن تحج عاماً وتعتمر عاماً، وتترك الجهاد في سبيل الله- عز وجل- وقد علمت ما رغب الله فيه؟ قال: يا ابن أخي، بُني الإسلام على خمس: إيمان بالله ورسوله، والصلاة الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت. قال: يا أبا عبدالرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، وكان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه، إما قتلوه، وإما يعذبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة. قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن تعفوا عنه. وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه، وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون».

وفي رواية: «أن رجلاً قال لابن عمر: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك»[٢].

وعن نافع «أن ابن عمر- رضي الله عنهما- أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير- فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ- فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم عليَّ دم أخي المسلم. قالوا: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فقال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان

---

(١) أخرجه البخاري في العلم- من سأل وهو قائم عالماً جالساً (١٢٣)، ومسلم في الإمارة- من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (١٩٠٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٥١٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣).
(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنفال (٤٥١٥)، والترمذي في المناقب (٣٧٠٦).

الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله».

وفي رواية أيوب بن عبدالله اللخمي، قال: «كنت عند عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- فأتاه رجل، فقال: إن الله يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ فقال ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله لله وذهب الشرك، ولم تكن فتنة، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله»[1].

رضي الله عنك يا ابن عمر، ليتك ترى حال المسلمين اليوم.

وعن أسامة بن زيد- رضي الله عنه- قال: «لا أقاتل رجلاً يقول: «لا إله إلا الله» أبداً. فقال سعد بن مالك: وأنا والله، لا أقاتل رجلاً يقول: «لا إله إلا الله» أبداً. فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾؟ فقالا: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله»[1].

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

عرض عز وجل على الكفار الانتهاء عما هم عليه من الكفر والعناد ورغَّبهم في ذلك بوعده لهم بمغفرة ما سلف منهم، وذلك قبل الأمر بقتالهم، ثم رغَّبهم ثانية بالانتهاء عما هم عليه بعد قتالهم.

وهذا وذاك يدل على سعة رحمة الله- عز وجل- وعفوه ومغفرته، وأنه لا يهلك عليه إلا هالك، وفيه تدرج في مجازاتهم من الأعلى إلى الأدنى، فقد رتب على انتهائهم عما هم عليه من الكفر قبل قتالهم مغفرة ما سلف منهم، بينما رتب على انتهائهم بعد قتالهم ما يفيد الكف عنهم وبيان اطلاعه على أعمالهم.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾، أي: فإن انتهوا ورجعوا وتركوا ما هم عليه من الكفر، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ قرأ رويس عن يعقوب بالخطاب «تعملون»،

وقرأ الباقون بالغيب ﴿يَعۡمَلُونَ﴾.

و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: فإن الله بالذي يعملون، أو بعملهم ﴿بَصِيرٞ﴾،

---

(١) أخرجه ابن مردويه، فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٩٧).

أي: عليم به، مطلع عليه، خبير به.

والمعنى: فإن انتهوا بقتالكم لهم عما هم عليه من الكفر والصد عن دين الله فكُفوا عنهم، وإن لم تعلموا بواطنهم، فإن الله عليم بأعمالهم مطلع عليها خبير بها، لا تخفى عليه منها خافية، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل**»[١].

ولهذا عاتب الله المؤمنين لما قتلوا من ألقى إليهم السلام، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [النساء: ٩٤].

وقال ﷺ لأسامة بن زيد- رضي الله عنه- لما قتل رجلاً بعد أن قال: لا إله إلا الله: «**أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟**» قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً. قال: «**هلا شققت عن قلبه؟**» وجعل يقول ويكرر عليه: «**من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة**»؟ قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

رتب عز وجل على انتهاء الكفار عما هم عليه من الكفر قبل قتالهم مغفرة ما سلف

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٦٩)، ومسلم في الإيمان- تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله (٩٦)، وأبوداود في الجهاد- علام يقاتل المشركون (٢٦٤٣)، وابن ماجه في الفتن- الكف عمن قال: لا إله إلا الله (٣٩٣٠)، وأحمد (٥/ ٢٠٧)، من حديث أسامة رضي الله عنه.

منهم، ثم رتب على انتهائهم عن ذلك بعد قتالهم ما يفيد الكف عنهم وأمر بواطنهم إلى الله، ورتب على توليهم إعلام المؤمنين بأنه مولاهم نعم المولى ونعم النصير؛ طمأنة للمؤمنين، كي لا يبالوا بمن تولى.

قوله ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾، أي: فإن أعرضوا بأبدانهم وقلوبهم عن الحق، واستمروا على الكفر والصد عن دين الله، ومحاربتكم أيها المؤمنون.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ وافتتح بقوله: ﴿فَاعْلَمُوا﴾؛ للاهتمام بهذا الخبر وتيقنه، أي: فأيقنوا أن الله مولاكم، أي: معينكم وناصركم عليهم، ومتولي جميع أموركم، فلا تبالوهم، ولهذا قال بعده:

﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، ﴿نِعْمَ﴾ للمدح والثناء، أي: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾ الذي لا يُضيع من تولاه، ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ الذي لا يُغلب من نصره.

و﴿الْمَوْلَى﴾ الذي يتولى غيره بجلب الخير والنفع له، و﴿النَّصِيرُ﴾ الذي ينصر غيره بدفع الشر والضر عنه.

الفوائد والأحكام:

١- ذم الكفار في إنفاقهم أموالهم، وأنهم إنما ينفقون أموالهم؛ ليصدوا الناس عن دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فكفروا بالله- عز وجل- وكفروا نعمه عليهم.

٢- ضياع أموال الكفار بلا فائدة، بل إنها تكون حسرة وندامة عليهم وضرراً لهم؛ لأنهم أنفقوها للصد عن دين الله، فلم ينتفعوا بها، بل ولم يسلموا من ضررها وهذا هو الخسران المبين.

٣- حكم الله- عز وجل- وقضاؤه بغلبة الكافرين وانتصار المؤمنين عليهم في بدر، وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

٤- جمع الكفار من أهل مكة وغيرهم وحشرهم إلى جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

٥- شدة ظلمة النار وجهمتها وحرها وبعد قعرها؛ لهذا سميت «جهنم».

٦- تمييز الله- عز وجل- وفصله بين الخبيث والطيب، بين أهل الكفر، وأهل الإيمان في الدنيا والآخرة، وجعل الخبيث بعضه على بعض وركمه جميعاً وجعله في جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾.

٧- أن المؤمن طيب والكافر خبيث، ولا يستوي الخبيث والطيب، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

٨- الجمع للذين كفروا بين العذاب الحسي بإدخالهم جهنم، والمعنوي في ركم بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾.

٩- تأكيد خسارة الذين كفروا الخسارة العظمى؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فقد أكد خسارتهم، بل وحصر الخسارة فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

١٠- أن الخسارة العظمى إنما هي الخسارة في الدين وذلك بالموت على الكفر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

١١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية.

١٢- سعة رحمة الله- عز وجل- وعفوه ومغفرته حيث وعد هؤلاء الكفار إن انتهوا عما هم عليه من الكفر والصد عن سبيل الله بمغفرة ما سلف منهم من الذنوب.

١٣- الوعيد والتهديد لكفار مكة إن عادوا لما هم عليه من المشاقة والمحاربة لله ورسوله والمؤمنين، واستمروا على ما هم عليه من الكفر والتكذيب والعناد بالعقوبة العاجلة، كما هي سُنَّة الله تعالى في المكذبين قبلهم مما أوقعه في أهل بدر، وفي المكذبين من الأمم الخالية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

١٤- أن لله- عز وجل- سنناً كونية لا تتبدل ولا تتغير؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾.

١٥- وجوب قتال الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ والأصل في الأمر الوجوب.

١٦- أن الغاية والحكمة من الأمر بقتال الكفار حتى لا يفتن الناس عن دينهم الحق إلى الشرك، وليكون الدين كله والعبودية لله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

١٧- وجوب إخلاص العبادة لله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

١٨- أن أعظم فتنة هي الفتنة في الدين بالكفر والشرك بالله الموجب لسخط الله والخلود في النار.

١٩- إذا انتهى الكفار عما هم عليه من الكفر والمقاتلة للمؤمنين ينبغي الكف عن قتالهم. وأمر بواطنهم إلى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٢٠- علم الله- عز وجل- واطلاعه التام على أعمال الكفار وغيرها من أعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٢١- تحذير الكفار من التولي وتهديدهم، وطمأنة الله- عز وجل- للمؤمنين بتوليه لهم ونصرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾.

٢٢- إثبات ولاية الله الخاصة لعباده المؤمنين بالنصر والعون والتمكين وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾.

٢٣- امتداح الله- عز وجل- لنفسه، وأنه لا أحد أعظم ولاية ولا نصرة منه- عز وجل- لعباده المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)﴾.

ذكر الله- عز وجل- في مطلع السورة حكم الأنفال مجملاً في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ﴾ [الآية: ١]. ثم بيَّن ذلك وفصَّله في هذه الآية.

قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ افتتح الله- عز وجل- هذا البيان والتفصيل بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا﴾؛ للتنبيه والاهتمام. والخطاب للمؤمنين، وبخاصة أهل بدر، فهو تعليم لهم وبيان بكيفية قسمة الغنائم.

والواو في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ استئنافية، و«أن»: حرف توكيد ونصب، و«ما»: اسم موصول مبني في محل نصب اسم «أن»، ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بيان لعموم «ما»، أي: واعلموا أن الذي غنمتموه من أي شيء قليلاً كان أو كثيراً.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الجملة خبر «أن»، والغنيمة: ما يؤخذ من أموال الكفار عنوة بقتال، وهي الأنفال المذكورة أول السورة.

وأما ما أخذ من أموال الكفار بدون قتال، وإنما بصلح ونحوه فهو «فيء»، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ﴾ الآية [الحشر: ٦]، وقوله: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧][(١)].

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

الفاء في قوله: ﴿فَأَنَّ﴾ رابطة، لما في الموصول من معنى الشرط.

واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ وما بعده: للاستحقاق، أي: فحق، أو فواجب لله خمسه وللرسول.

---

(١) انظر تفصيل الكلام على الفيء في تفسير سورة الحشر.

وقوله: ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ وما بعده معطوف: على قوله: ﴿لِلَّهِ﴾.

أي: فأن لله خمس الذي غنمتموه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فيقسم خمس الغنيمة على هذه الأصناف، والباقي وهو أربعة أخماس الغنيمة يكون للمقاتلين.

﴿وَلِلرَّسُولِ﴾، أي: وللرسول المعهود محمد ﷺ- وفيه إثبات رسالته- ﷺ، وأكثر المفسرين على أن سهم الله وسهم الرسول واحد يأخذ منه ﷺ نفقته ونفقة عياله، ويجعل الباقي مجعل مال الله، يصرف في مصالح المسلمين؛ لما ثبت «أنه ﷺ كان يأخذ من الخمس نفقته ونفقة عياله، ويجعل الباقي مجعل مال الله»[١].

وعن عبدالله بن شقيق عن رجل من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بواد القرى وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «**لله خمسها، وأربعة أخماس للجيش**». قلت : فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «**ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم**»[٢].

وعن عبادة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنملتيه، فقال: «**إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم...**»[٣].

وعن عمرو بن عبسة- رضي الله عنه- قال: صلى بنا رسول الله ﷺ إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من جنب البعير، ثم قال: «**لا يحل لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس، والخمس مردود فيكم**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٣٠٣٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥٧)، وأبوداود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٦٣)، والنسائي في قسم الفيء (٤١٤٠)، والترمذي في الجهاد (١٧١٩)، من حديث أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في قسمة الفيء والغنيمة- إخراج الخمس (٦/ ٣٢٤). قال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤): «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٦).

(٤) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٧٥٥).

ويؤيد هذا أن خمسه ﷺ بعد وفاته يصرف في مصالح المسلمين كما كان يفعل أبوبكر وعمر- رضي الله عنهما- يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح. وقيل: يرد على بقية الأصناف، وقيل: لولي الأمر بعده، وقيل غير ذلك.

﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: ولأصحاب قرابة النبي ﷺ، وهم: بنو هاشم وبنو المطلب يسوى بين غنيهم وفقيرهم، عن جبير بن مطعم- رضي الله عنه- قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد**»[1].

وفي رواية: «**إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وشبَّك بين أصابعه**»[2].

فيعطى ذوو القربى من الخمس، غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم على السواء.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم ويتيمة، والمراد يتامى المسلمين. واليتيم من مات أبوه وهو لم يبلغ ذكراً كان أو أنثى؛ لقوله ﷺ فيما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لا يُتم بعد احتلام**»[3].

فيعطى اليتامى من الخمس؛ لفقدهم من يعولهم ويقوم بمصالحهم.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ جمع مسكين، وهم الذين لا يجدون ما يسد حاجتهم وخلتهم من الفقراء والمساكين، سموا مساكين من السكون وعدم الحركة؛ لأن الحاجة أذلتهم وأسكنتهم.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المنقطع في سفره، فيعطى ما يحتاجه في سفره وإن كان غنيًّا في بلده، كما يعطى من الزكاة.

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٤٠)، وأبوداود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٧٨)، والنسائي في قسم الفيء (٤١٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٨١).

(٢) أخرجها أبوداود (٢٩٨٠)، والنسائي (٤١٣٧).

(٣) أخرجه أبوداود في الوصايا (٢٨٧٣).

وسمي المسافر ابناً للسبيل وهو الطريق لملازمته له.

فخمس الغنيمة يقسم أخماساً: سهم الله وسهم رسوله واحد، وسهم لذي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

ولم يقدر في الآية ما لكل صنف من هذه الأصناف، وذلك موكول إلى اجتهاد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده، وولاة الأمر من بعدهم- فيقسم بحسب الحاجات والمصالح، بحيث يعطى كل صنف ما يحتاجه على وجه لا يضر بالصنف الآخر.

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، ﴿إِن﴾ شرطية، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه محذوف دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه، أي: اعلموا ذلك واعملوا به، فأقسموا الغنائم كما بيَّن الله لكم وارضوا بذلك، فجعل عز وجل، ذلك من شرط الإيمان.

والإيمان بالله هو الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه. وضده الكفر.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع، آمركم بالإيمان بالله، ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم**»[(١)].

فأداء الخمس من المغنم من الإيمان بالله.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، الواو: عاطفة، و«ما»: اسم موصول مبني في محل جر معطوف على لفظ الجلالة في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾، أي: إن كنتم آمنتم بالله وبالذي أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان من الوحي، والنصر وأسبابه، من الإمداد بالملائكة وإنزال المطر، وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٣)، ومسلم في الإيمان- الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه (١٧)، وأبوداود في الأشربة (٣٦٩٢)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٣١)، والترمذي في الإيمان (٢٦١١).

وفي هذا تذكير لهم بهذه النعم، وتعظيم لها.

﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، أي: على عبدنا محمد ﷺ، وفي إضافته ﷺ إلى ضميره- عز وجل- ووصفه بالعبودية له تشريف وتكريم له ﷺ.

وإنما وصفه بالعبودية؛ لأنها أشرف ما يوصف به البشر؛ ولهذا وصفه بها في أعلى المقامات مقام الإسراء حين قُرْبه ﷺ من ربه، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١].

كما وصفه بها في أعظم المقامات مقام الدعاء والعبادة، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩].

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر، يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة النبوية.

و ﴿الْفُرْقَانِ﴾ الفرق والفصل بين شيئين، أو أكثر.

وسُمي يوم بدر بـ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾؛ لأن الله فرق وفصل فيه بين الحق والباطل، فأظهر فيه الحق، وأبطل الباطل، وفي هذا تعظيم وتشريف له.

﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾، و«ال» في ﴿الْجَمْعَانِ﴾ للعهد أي: يوم التقى جمع المؤمنين وجمع المشركين.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قدم المتعلق، وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على المتعلق به، وهو الخبر «قدير» ونكّر «شيء»: لتأكيد عموم قدرته وشمولها لكل شيء.

و ﴿قَدِيرٌ﴾ على وزن «فعيل»: صفة مشبهة يدل على كمال قدرته، فهو- عز وجل- ذو القدرة التامة على كل شيء، لا يمتنع عليه شيء أو يعجزه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

ومناسبة تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ واضحة تماماً فإن الله- عز وجل- أجرى من أسباب النصر يوم بدر ما يدل على كمال قدرته من الإمداد بالملائكة، وتغشيته المؤمنين بالنعاس، وإنزال المطر عليهم، ونصرهم مع قلة عَدَدِهم وعُدَدِهم وكثرة عدوهم واستعداده.

الفوائد والأحكام:

١- فضل الله- عز وجل- على هذه الأمة المحمدية، وعلى نبيها ﷺ بإحلال الغنائم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٢- بيان وتفصيل كيفية قسمة الغنائم، وأهمية معرفة ذلك والعلم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ الآية.

٣- أن خمس الغنائم لله وللرسول ولقرابته واليتامى والمساكين وابن السبيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وسهم الله وسهم رسوله واحد، فيقسم الخمس خمسة أسهم؛ سهم لله وللرسول، وسهم لقرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو عبدالمطلب، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

وسهم الرسول ﷺ يأخذ منه ﷺ نفقته ونفقة أهله، ويضع ما بقي منه في مصالح المسلمين، لما ثبت أنه ﷺ كان يأخذ من الخمس نفقته ونفقة عياله، ويجعل الباقي مجعل مال الله»[1].

وقال ﷺ: «**ليس لي من غنائمكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم**»[1].

والأمر في سهمه ﷺ بعد وفاته إلى الإمام يتصرف فيه ويضعه في مصالح المسلمين.

٤- أن قرابة الرسول ﷺ يعطون من الخمس، ويستوي غنيهم وفقيرهم، وذكرهم وأنثاهم؛ لظاهر الآية، فهي مطلقة. وقيل: يعطى فقراؤهم فقط.

٥- رعاية الإسلام لأهل الحاجات وعنايته بهم، كاليتامى والمساكين وابن السبيل، لهذا جعل لكل منهم سهماً في خمس الغنائم.

٦- أن الخمس يقسم في هذه الأصناف حسب الحاجة والمصلحة، فيعطى كل صنف ما يحتاجه على وجه لا يضر بالصنف الآخر، وذلك موكول لاجتهاد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده وولاة الأمر بعدهم؛ لأنه لم يقدر في الآية ما لكل صنف.

---

(١) سبق تخريجه.

٧- أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين؛ لأن الله أضاف الغنيمة إليهم في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾، وأخرج منها الخمس بقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية.

٨- أن من شرط الإيمان بالله وبما أنزل على رسوله ﷺ يوم بدر من الوحي، والنصر وأسبابه، من الإمداد بالملائكة، وإنزال المطر، وغير ذلك العلم بأن لله خمس الغنيمة وللرسول ولمن ذكروا في الآية، وقسمة الغنيمة والخمس كما قسمها الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾.

٩- أن الإيمان بالله، وبما أنزل من الوحي شرط لقبول جميع الأعمال.

١٠- إثبات علو الله- عز وجل- على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

١١- أن القرآن الكريم منزل من عند الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

١٢- تشريف الله- عز وجل- وتكريمه لنبيه ﷺ بإضافته إليه بقوله تعالى: ﴿عَبۡدِنَا﴾ ووصفه بالعبودية له- عز وجل- التي هي أفضل صفة يوصف بها البشر.

١٣- تعظيم يوم بدر والتنويه به، وبما حصل فيه من إنزال القرآن، وأسباب النصر من الإمداد بالملائكة وإنزال المطر وغير ذلك، والفصل فيه بين الحق والباطل بنصر الحق وأهله ودحض الباطل وأهله؛ ولهذا سماه الله- عز وجل: «يوم الفرقان»، فقال: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾.

١٤- عموم قدرة الله- عز وجل- على كل شيء، وتمامها، وأنه لا يمتنع عليه شيء أو يعجزه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾.

قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب: «العِدوة» في الموضعين بكسر العين، وقرأ الباقون بضمها.

﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى: «حين» متعلق بـ«أنزلنا»، أي: وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان حين أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى.

أي: حين أنتم أيها المؤمنون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾، أي: بعدوة وادي بدر الدنيا، أي: بضفته وجهته القربى مما يلي المدينة.

﴿وَهُم﴾، أي: المشركون ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾، أي: بعدوة وادي بدر ﴿الْقُصْوَىٰ﴾، أي: البعدى مما يلي المدينة، والقربى مما يلي مكة.

﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ﴾، الركب: جمع راكب، والمراد بالركب العير التي فيها تجارة قريش مع أبي سفيان في نحو أربعين راكباً، والتي خرج المسلمون لطلبها، وخرج المشركون لحمايتها.

﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ﴾، ﴿أَسْفَلَ﴾ ظرف مكان منصوب في محل رفع خبر «الركب» أي: والركب أخفض منكم، أي: في الجهة السفلى منكم مما يلي ساحل البحر، وليس بعيداً منكم، ولكن أراد الله أن يفلت فلا تظفرون به، وفي هذا حكمة بالغة ودلالة على طي علم الغيب حتى عن الرسول ﷺ.

﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾، الواو عاطفة، و«لو» شرطية، و﴿تَوَاعَدتُّمۡ﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾، واللام رابطة لجواب الشرط.

والمعنى: ولو تواعدتم أيها المؤمنون أنتم والمشركون، أي: ولو كان بينكم وبينهم موعد محدد مكاناً وزماناً أن تلتقوا في هذا المكان، وهذا الزمن ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾، أي: لما استطعتم أن تلتقوا في الوقت المحدد والمكان المحدد بينكم، أي: لصار بينكم اختلاف في الزمان والمكان بتقدم أو تأخر، لما قد يعرض لكم ولهم من العوارض.

و﴿ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ وقت وزمان الوعد.

قال السعدي(١): «ولو تواعدتم أنتم وإياهم على هذا الوصف وبهذه الحال ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾، أي: لابد من تقدم أو تأخر، أو اختيار منزل، أو غير ذلك، مما يعرض لكم، أو لهم يصرفكم عن ميعادهم».

﴿وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾، و«لكن»: للاستدراك، أي: ولكن جمعكم الله على غير ميعاد بينكم وبينهم؛ ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾.

كما قال كعب بن مالك- رضي الله عنه- في حديثه الطويل حين تخلَّف عن غزوة تبوك: «إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد»(٢).

فالمسلمون خرجوا طلباً لعير قريش التي مع أبي سفيان ومن معه من الركب. وأبو جهل ومن معه من صناديد قريش خرجوا لحماية العير فالتقوا ببدر.

﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يتم ﴿ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾، أي: واقعاً وكائناً، لا محالة، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ [مريم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨﴾ [الأحزاب: ٣٨].

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٧١).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- قصة غزوة بدر (٤٤١٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩).

ونكَّر ﴿أَمْرًا﴾ للتعظيم، أي: أمراً عظيماً، وهو: التقاء المسلمين بالمشركين، وحصول المعركة والقتال بينهما، ونصر الإسلام أهله، وإذلال الشرك وأهله، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وإحقاق الحق وإبطال الباطل.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

والأصل في الهلاك: «الموت»، والأصل في الحياة ما يضاد الموت، والمراد في الآية الهلاك المعنوي بالكفر والمعاصي، والحياة المعنوية بالإيمان والطاعة، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [يونس: ٣١، الروم: ١٩].

وقال ﷺ: «**دعوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم**»(١).

ولما وقع سلمة بن صخر- رضي الله عنه- على امرأته وهو صائم جاء فزعاً إلى النبي ﷺ، يقول: «يا رسول الله، هلكت وأهلكت. قال ﷺ: **ما الذي أهلكك**؟ قال: يا رسول الله، وقعت على امرأتي وأنا صائم..»(٢).

وقالت عائشة- رضي الله عنها- في معرض ذكرها حادثة الإفك: «فهلك في شأني من هلك»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٣٦)، ومسلم في الصيام (١١١١)، وأبوداود في الصوم (٢٣٩٠)، والترمذي في الصوم (٧٢٤)، وابن ماجه (١٦٧١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١)، ومسلم في فضائل الصحابة- فضل عائشة- رضي الله عنها (٢٤٨٨)، وأبوداود في النكاح (٢١٣٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٠)، وأحمد (٦/ ١٩٤)، من حديث عائشة- رضي الله عنها.

والمعنى: ليكون كُفْرُ من كَفَرَ ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾، أي: بعد قيام الحجة عليه، ببيان الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر ويعقوب وخلف والبزي عن ابن كثير وأبوبكر عن عاصم «حيِيَ» بياءين ظاهرتين الأولى مكسورة والثانية مفتوحة، وقرأ الباقون بياء واحدة مشددة: ﴿حَىَّ﴾.

أي: ولأجل أن يؤمن من آمن ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾، أي: عن حجة واضحة، وبصيرة نافذة، ومعرفة تامة بالحق، توجب له التمسك بالحق، والثبات عليه؛ رجاء ثواب الله، وخوفاً من عقابه، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

قال ابن القيم: «فتلك آية من أعظم آيات الله سبحانه، صدق بها رسوله وكتابه؛ ليهلك بعدها من اختار لنفسه الكفر والعناد عن بينة، فلا يكون له على الله حجة، ويحيى من حي عن بينة، فلا يبقى عنده شك ولا ريب، وهذا من أعظم الحكم»[١].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، اللام في قوله: ﴿لَسَمِيعٌ﴾ للتوكيد، أي: وإن الله لذو سمع يسمع الدعاء وجميع الأصوات والحركات، حتى دبيب النمل على الصخر في الظلمات ومن ذلك سماعه- عز وجل- دعاء وتضرع المستغيثين به، وإيمان من آمن، وكفر من كفر.

﴿عَلِيمٌ﴾ ذو علم وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾ [طه: ٩٨]، عليم بالبواطن والظواهر، والغيب والشهادة، ومن ذلك علمه- عز وجل- بالكافرين، وعلمه بالمؤمنين واستحقاقهم النصر على أعدائهم الكافرين، وغير ذلك.

وباجتماع سعة السمع وسعة العلم في حقه- عز وجل- يزداد كمالاً إلى كمال.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٣٨).

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)﴾.

كما جمع الله بين المؤمنين والكافرين في بدر على غير ميعاد بينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، جعل الله- عز وجل- لإتمام ما قضاه، وتثبيت المؤمنين أن أرى النبي ﷺ المشركين في منامه قليلاً، كما أرى كل فريق منهم قلة الفريق الآخر، ليحصل الإقدام من كل منهما على الآخر، ويتم ما قضاه.

قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، ﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بمحذوف تقديره: «اذكر»، أي: اذكر حين ﴿يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، أي: يريك المشركين ﴿فِي مَنَامِكَ﴾، أي: في نومك ﴿قَلِيلًا﴾، أي: قليلاً عددهم- تثبيتاً من الله- عز وجل- لك ولأصحابك، وطمأنة لقلوبكم.

وفي هذا امتنان من الله- عز وجل- عليه ﷺ وعلى أصحابه، وتذكير لهم بذلك. وكان الله- عز وجل- قد أرى رسوله ﷺ في منامه جيش المشركين قليل العدد، فبشّر بذلك أصحابه فتشجعوا للقائهم واطمأنت قلوبهم، وثبتوا، فكان ذلك من أسباب النصر.

وأسند عز وجل الإرادة إليه لبيان أنها حق ووحي من عنده- عز وجل- قال عبيد بن عمير: «رؤيا الأنبياء وحي»(١).

وقال إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- مخاطباً ابنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢].

﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، أي: ولو أراك المشركين كثيراً عددهم- كما هو الحال- فإنهم أكثر من المسلمين ثلاث مرات- وأخبرت بذلك أصحابك؛ ﴿لَفَشِلْتُمْ﴾، اللام: رابطة لجواب الشرط: «لو».

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٣٨).

والفشل: الضعف والجبن، أي: لجبنتم وضعفتم وهبتم الإقدام.

﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾، أي: ولاختلفتم في أمر الإقدام على القتال أو الإحجام عنه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۗ﴾، أي: ولكن الله سلمكم من الفشل والتنازع ولطف بكم، بأن أراكهم قليلاً.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۗ﴾، فلم يقل: «ولكنه سلم» إظهاراً لعنايته- عز وجل- بهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: إنه- عز وجل- ذو علم تام بصاحبة الصدور، وهي: «القلوب»، وما تخفيه من المضمرات، كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٩].

وسميت القلوب بذات الصدور لأنها مستترة في الصدور؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

كما يقال للمضمرات: ذات الصدور، قال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠﴾ [العاديات: ١٠].

ومن علمه- عز وجل- بما في القلوب: علمه أن رؤيتك لهم في منامك قليلاً من أسباب تثبيت القلوب، وأنه لو أراكهم كثيراً؛ لحصل الفشل والضعف والتنازع في الأمر.

﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾ الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ﴾.

و﴿إِذۡ﴾ ظرف في الموضعين، بمعنى «حين» أي: وحين يريكم أيها المؤمنون جيش المشركين حين التقيتم وإياهم ﴿فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ﴾ رؤية بصرية يَقَظة بالعين المجردة، كما في قوله تعالى: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ [آل عمران: ١٣]، .

﴿قَلِيلٗا﴾، أي: قليلاً عددهم- لطفاً منه- عز وجل- بكم؛ ليثبتكم ويجرئكم عليهم ويطمعكم فيهم ويزيدكم إقداماً.

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا رجلاً منهم، فقلنا:

كم هم؟ قال: ألفاً»[1].

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾، أي: ويقللكم أيها المؤمنون في أعين المشركين يقظة استدراجاً لهم، وتغريراً بهم؛ ليتركوا الاستعداد، استهانة منهم وعدم مبالاة بكم، وهذا في أول اللقاء.

فلما التحم القتال، وأمد الله المؤمنين بالملائكة، وبدت علامات النصر، صار الكفار يرون المؤمنين مثليهم؛ لينهزموا من داخلهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣].

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، اللام: للتعليل- أي: لأجل أن يتم الله أمراً كان واقعاً وكائناً لا محالة، وهو التقاء الفريقين ووقوع الحرب والقتال بينهما ونصر الحق وإظهاره، وخذلان الباطل وإزهاقه.

فمن حكمته- عز وجل- أن قلل كل فريق في أعين الفريق الآخر- عند المواجهة واللقاء إغراءً لكل منهما بالآخر، فلما التحم القتال، وتنزلت أسباب النصر من الإمداد بالملائكة، رأى الكفار المؤمنين مثليهم مع أنهم أقل من ثلثهم؛ لإدخال الرعب في قلوبهم وهزيمتهم من الداخل.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، أي وإلى الله- عز وجل- وحده، ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، أي: ترد جميع الأشياء في الدنيا والآخرة، فالخلق والملك والتدبير والحكم له- عز وجل- ومرد الخلائق إليه، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير المؤمنين بما حصل بينهم وبين المشركين في بدر من لقاء على غير ميعاد؛ ليتم الله- عز وجل- أمراً واقعاً لا محالة وهو نصر الحق وأهله وخذلان الباطل وأهله.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٠).

والامتنان على المؤمنين بذلك؛ ليشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾.

٢- أن الرسول ﷺ لم يخرج يوم بدر إلى حرب، وإنما خرج لطلب العير؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾.

٣- إباحة أموال كفار قريش؛ لأن الرسول ﷺ خرج في طلب تجارتهم، وذلك لأنهم كفار محاربون آذوا الرسول ﷺ وأصحابه وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، فهم حلال الدم والمال.

٤- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، ولهذا أفلت العير منهم، وكان نصيبهم النفير.

٥- حكمة الله- عز وجل- البالغة- وقدرته التامة، وقدره النافذ، حيث التقى الجمعان وتقابلا في العُدوتين، بلا موعد بينهما، ولو كان ذلك عن موعد لاختلفا في الميعاد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾.

٦- أن مما قضاه الله وقدره التقاء المؤمنين والمشركين في بدر على غير ميعاد وحصول المعركة والقتال بينهما ونصر المؤمنين وخذلان المشركين، وإظهار الحق، ودحض الباطل.

٧- أن الله عز وجل نصر الحق وأهله في بدر، وخذل الباطل وأهله؛ ليتبين ويظهر الحق من الباطل، وتقوم الحجة على من سلك طريق الكفر والهلاك، ولتتضح المحجة لمن أراد سلوك طريق الإيمان والحياة والفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾.

٨- إثبات صفة السمع الواسع لله- عز وجل- الذي يسع جميع الأصوات والحركات؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾.

٩- إثبات صفة العلم الواسع لله- عز وجل- الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

١٠- منة الله- عز وجل- على الرسول ﷺ والمؤمنين حيث أراه الكفار في منامه قليلاً ليحصل له وللمؤمنين التثبيت والإقدام على قتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ

ﵟٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖﵞ.

١١- منة الله- عز وجل- على الرسول حيث لم يره الكفار كثيراً فيخبر أصحابه ويحصل لهم بذلك الفشل والجبن والتنازع والاختلاف حول القتال أو عدمه؛ لقوله تعالى: ﵟوَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚﵞ.

١٢- علم الله- عز وجل- التام بالقلوب وما فيها من المكنونات والأسرار والضمائر؛ لقوله تعالى: ﵟإِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِﵞ.

١٣- منة الله- عز وجل- على المؤمنين بتقليل الكفار في أعينهم عند لقائهم لطفاً منه- عز وجل- بالمؤمنين وتثبيتاً لهم، وترغيباً لهم في الإقدام؛ لقوله تعالى: ﵟوَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗاﵞ.

١٤- تقليل المؤمنين في أعين الكفار تغريراً بهم واستدراجاً لهم؛ ليستهينوا بالمؤمنين فلا يستعدوا لهم؛ لقوله تعالى: ﵟوَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡﵞ.

١٥- جمع الله- عز وجل- للمؤمنين في بدر بين وسائل النصر المادية والمعنوية، وتسليمهم من وسائل الضعف والهزيمة.

١٦- أن الله- عز وجل- إذا أراد قضاء أمرٍ وإتمامه هيأ له أسبابه؛ لقوله تعالى: ﵟلِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗﵞ بعد ما ذكر تقليل المشركين لرسول الله ﷺ في رؤيته لهم في منامه، وتقليل كل من الفريقين في أعين الفريق الآخر.

١٧- تأكيد قضاء الله التام وحكمه النافذ في نصرة الحق وأهله، وخذلان الباطل وأهله.

١٨- أن مرجع ومرد ومصير جميع الأمور والأشياء في الدين والدنيا والآخرة إلى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﵟوَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُﵞ.

١٩- التنبيه للاستعداد للآخرة؛ كما قال تعالى: ﵟوَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖﵞ [البقرة: ٢٨١].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة ما أمد به المؤمنين في بدر من أسباب النصر، ثم أمرهم بالأسباب التي إذا أخذوا بها في قتالهم تحقق لهم النصر؛ من الثبات وذكر الله وطاعته ورسوله والصبر وعدم التنازع، وحذرهم من صفات الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس وصداً عن سبيل الله.

كما أن في الأمر بالثبات هنا توكيداً لما سبق من النهي عن تولية الكفار الأدبار.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ ﴾، أي: إذا لقيتم جماعة من الكفار للقتال والنزال.

﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾، أي: فاثبتوا لقتالهم، واصبروا لمنازلتهم. عن عبدالله بن أبي أوفى- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «**يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**». ثم قال ﷺ: «**اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد- كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد- كراهية تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٣١)، والترمذي في الجهاد (١٦٧٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٦).

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ الذكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، أي: واذكروا الله بأنواع الذكر القلبية، والقولية والفعلية، وهو ضد الغفلة والنسيان، أي: واذكروا الله ذكراً كثيراً بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأمر الله- عز وجل- بالذكر عند اللقاء؛ لأنه من أعظم أسباب الثبات، والعون على القتال، والنصر على الأعداء؛ كما قال تعالى في سورة النساء بعد ذكر صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣].

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، «لعل»: للتعليل، أي: لأجل أن تفلحوا. والفلاح: الفوز والظفر والنجاح، الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب؛ الفوز بالسعادة في الدنيا، والنصر على عدوكم، والسعادة في الآخرة بالجنة والنجاة من النار.

عن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، واذكروا الله، فإذا أجلبوا وضجوا فعليكم بالصمت**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، الطاعة: الامتثال، بفعل المأمور، وترك المحظور، أي: وأطيعوا الله ورسوله، بفعل ما أمركم الله به ورسوله، وترك ما نهاكم الله عنه ورسوله، مما يتعلق بالحرب والقتال، وغير ذلك، وهذا والله أقوى سلاح، وهو القوة المعنوية.

وفي عطف قوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك بين

---

(١) أخرجه عبدالرزاق- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤)، والدارمي في السير- لا تتمنوا لقاء العدو (٢/ ١٣٥).

المعطوف والمعطوف عليه، دون إعادة الفعل «أطيعوا» دلالة على أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، التنازع: الاختلاف، سُمي بذلك؛ لأن كلاً من المختلفين ينزع حجة الآخر، ويزعم أن الحق معه، أي: ولا تختلفوا.

﴿فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾، الفشل: عدم تحقيق المراد، والهزيمة والضعف والجبن، أي: فتضعفوا وتجبنوا وتعجزوا عن مقاومة عدوكم.

﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾، الريح في الأصل: الهواء، ولها إقبال وإدبار، ولها منافع ومضار، وفي الحديث قال ﷺ: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**»(١).

و«الصبا»: الريح الشرقية، و«الدبور»: الغربية.

والمراد بالريح في الآية: القوة والغلبة والنفوذ، أي: فتزول قوتكم، ونفوذ أمركم، وهيبتكم، ويهون شأنكم، ويكون أمركم في إدبار بعد الإقبال. وقد قيل:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل ذارية سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدري السكون متى يكون

والمعنى: ولا تنازعوا فتختلف قلوبكم وتتفرقوا فتفشلوا وتجبنوا وتضعفوا عن مقاومة عدوكم وتزول قوتكم، ويهون شأنكم، وتخذلوا.

فالتنازع والاختلاف نتيجته لا محالة: الفشل والضعف، وزوال القوة؛ لما يسببه التنازع من اختلاف القلوب والعداوة والتفرق، وتربص بعضهم وانشغاله ببعض بدل الانشغال بالتعاون ضد العدو المشترك الحقيقي؛ كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وواقع المسلمين اليوم شاهد على هذا، فبسبب بُعد كثير من المسلمين عن دينهم وتقصيرهم في طاعة الله ورسوله، والتنازع والاختلاف بينهم، والعداوة والبغضاء

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٣٥)، ومسلم في صلاة الاستسقاء (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والتفرق آلت حال المسلمين إلى ما آلت إليه من الضعف والهوان وتسلط الأعداء عليهم، وضعف مكانتهم في المحافل الدولية التي لا تقيم شأناً للضعيف، كما قال جرير[1]:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يستأمرون وهم حضور

وقد تعمق هذا الاختلاف في بعض الأوساط الإسلامية، بسبب الانقسام إلى جماعات يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام، حتى خرج أناس على المسلمين بالتكفير والتفجير بدعوى الجهاد، وشوهت صورة الإسلام.

وهذا كله يوجب على المسلمين العودة إلى دينهم، والسعي إلى وحدة الأمة، والقضاء على أسباب النزاع والاختلاف والتفرق، والاجتماع على كتاب الله- عز وجل- وسنة رسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣].

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

الصبر لغة: الحبس، وفي الاصطلاح: صبر على أشياء وعن أشياء. ويقال: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو أقسام ثلاثة: **الأول**: الصبر على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: ٢٨].

والثاني: الصبر عن معصية الله كصبر يوسف عليه السلام عن إجابة امرأة العزيز حين راودته عن نفسه واستعصم وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: ٣٣].

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٣٣٢).

ومنه صبر الرجل الذي دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: «إني أخاف الله»[(١)].

والثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة، كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤]، وهذا يتناول الصبر على حكم الله الشرعي، وهو الصبر على تبليغ الرسالة، ويتناول الصبر على حكم الله القدري مما يلقاه من أذى قومه وغير ذلك.

ومنه قوله ﷺ لما أرسلت إليه إحدى بناته أن ابناً لها في الموت، قال: «**ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب**»[(٢)].

والأمر بالصبر في الآية يشمل الأقسام الثلاثة؛ لأن الله- عز وجل- أمر فيها بالثبات عند اللقاء، وبذكره كثيراً، وطاعته ورسوله، فالصبر على هذا صبر على طاعة الله تعالى.

ونهى فيها عن التنازع، فالصبر عن هذا صبر عن معصية الله تعالى.

كما أفادت الآية بمفهومها النهي عن الفرار عند اللقاء، وعن الغفلة عن ذكر الله- عز وجل- وعن معصية الله ورسوله، فالصبر عن هذا صبر عن معصية الله تعالى أيضاً.

وأفادت الآية أيضاً بمفهومها الأمر بالاجتماع وعدم التنازع، فالصبر على هذا صبر على طاعة الله تعالى.

كما أن في الأمر فيها بالثبات أمر بالصبر على أقدار الله المؤلمة.

فانتظم قوله: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هذه الجملة فيها معنى التعليل للأمر بالصبر، وفيها الترغيب فيه بذكر ثمرته ومنفعته، وهي عونه- عز وجل- للصابرين ونصره وتوفيقه

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...**» الحديث..

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٧)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، والنسائي في الجنائز (١٨٦٨)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

لهم، وما يترتب على ذلك من منافع دينية ودنيوية وأخروية لا تحصى[١].

والمراد بالمعية هنا معية الله- عز وجل- الخاصة بأوليائه المؤمنين الصابرين- وهي معية التوفيق والعون والتسديد، والنصر والحفظ والتأييد.

وهناك المعية العامة، وهي معية الله- عز وجل- مع جميع الخلق، بعلمه وإحاطته وقدرته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ الآيات.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين في الآيات السابقة بالأخذ بأسباب النصر؛ من الثبات، وذكر الله- عز وجل- وطاعته ورسوله، ونهاهم عن التنازع المؤدي إلى الفشل والجبن وذهاب قوتهم وهيبتهم، ثم حذرهم من مشابهة الكفار الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، وصداً عن سبيل الله.

وفي هذا حث للمؤمنين على الإخلاص في جهادهم، وتعريض بذم المشركين.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ معطوف على قوله في الآية السابقة: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟﴾، أو على قوله: ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾ في الآية قبلها.

أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون كالكفار الذين خرجوا من مكة، وهم أبوجهل ومن معه من صناديد قريش يوم بدر.

﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ حالان، أي: حال كونهم بطرين مرائين للناس.

ومعنى ﴿بَطَرًا﴾، أي: كبراً واستعلاءً وخيلاءً، ودفعاً للحق، قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»[٢] أي: رد الحق، واحتقار الناس.

﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: مراءاة للناس، وطلباً لثناء الناس عليهم بالشجاعة،

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] في تفسير سورة الأحزاب.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩)، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

غروراً منهم. عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما رأى أبوسفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله، فارجعوا. فقال أبوجهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدراً- وكان بدر موسماً من مواسم العرب، يجتمع لهم بها سوق كل عام- فنقيم عليها، وننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا»(١).

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها، وجاء التعبير بالمضارع للدلالة على استمرارهم على ذلك.

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه وصراطه المستقيم الموصل إليه.

والصد: الصرف والمنع، أي: ويصرفون الناس ويمنعونهم عن الدخول في دين الله بتعذيبهم وقتالهم للمؤمنين، وهذا أشد وأعظم من صدهم بأنفسهم عن دين الله وكفرهم به.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: والله بالذي يعملون، أو بعملهم محيط، أي: مطلع عليه، عالم به، لا تخفى عليه منه خافية.

وفي نهي المؤمنين عن التشبه بمن هم على هذه الصفات الذميمة تهديد ووعيد للمشركين، وذم لهم وتشنيع عليهم، وتقبيح لما هم عليه من هذا المسلك المشين وتكريه ذلك للمسلمين، وتحذيرهم منه، وترغيبهم في الإخلاص لله- عز وجل- في جهادهم وجميع أعمالهم.

ولا غضاضة في نهي المؤمنين عن التشبه بمن هذه صفاتهم وإن لم يقع ذلك منهم- بل وإن كان ذلك مستبعداً منهم بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان وأنقذهم الله به من الكفر، وقد قال الله- عز وجل- للمعصوم سيد الرسل وأفضل الخلق صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: ٩٥]، وقال له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢١٧-٢١٨)، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦١٨).

ولما أنكر بعد جلساء عمر- رضي الله عنه- على من قال له: «اتق الله» زجره عمر- رضي الله عنه- وقال: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا ولا خير فينا إذا لم نسمعها منكم»[1].

وإنما يستنكف عن هذا ضعاف الإيمان أو من لا إيمان عنده كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)﴾ [البقرة: ٢٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، الواو: استئنافية، و﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بمحذوف تقديره: «اذكر».

و«التزيين»: إظهار الشيء زيناً وحسناً، أي: وإذ حسن لهم الشيطان أعمالهم، أي: حسَّنها في قلوبهم؛ من الخروج بطراً ورياء، والصد عن سبيل الله، ومقاتلة أولياء الله، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وقال الشاعر:

يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وقال لهم الشيطان مغرراً بهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية.

كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)﴾ [النساء: ١٢٠].

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته والشيطان في صورة رجل من بني مدلج، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾. فلما اصطفَّ الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب

(١) أخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٧٧٣)، وأبو يوسف في «الخراج» (ص٢٢).

فرمى بها وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه، وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده فولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، أتزعم أنك جار لنا؟ فقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكة»[1].

وعن عروة بن الزبير، قال: «ولما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر- يعني- من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة، فقال: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً»[2].

﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿غَالِبَ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، أي: لا أحد يغلبكم اليوم من الناس، أيًّا كان لا محمد وأصحابه ولا غيرهم.

أي: أنتم أقوى الناس وأشجعهم، وأشدهم بأساً، وأكثرهم عدداً وعدة، ونحو ذلك.

ولهذا أعجبوا بأنفسهم، وخرجوا بطراً ورئاء الناس، وقال أبوجهل مقالته السابقة.

﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ﴾، أي: وإني مجير لكم، أي: حافظ ومانع ودافع للضرر عنكم.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ تراءت مفاعلة من الرؤية، أي: تلاقت الفئتان ورأت كل منهما الفئة الأخرى، والمراد بالفئتين: جيش المسلمين وجيش الكفار.

والفئة: الجماعة.

﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، ﴿نَكَصَ﴾، أي: رجع من حيث جاء. والنكوص: الرجوع إلى الوراء.

﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ تأكيد؛ لأن النكوص لا يكون إلا على العقبين، وهما: تثنية «عقب» وهو: مؤخر الرجل، ويجمع على أعقاب، كما قال تعالى: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٥).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٢٢)، وابن إسحاق في «السيرة». انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٦١٢)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٦).

تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ [المؤمنون: ٦٦]، وقال ﷺ: «ويل للأعاقب من النار»[١].

والمعنى: فلما رأت كل فئة من الجيش الفئة الأخرى رجع وولى هارباً مدبراً على قفاه.

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾، أي: بريء من عهد جواركم وتوليكم.

قال حسان[٢] رضي الله عنه:

دلاّهـمُ بغـرور ثـم أسـلمهم … إن الخبيـث لمـن ولّاه غـرارُ

وقد سمّاه الله- عز وجل: «الغرور» وحذّر منه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥] أي: الشيطان.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ قال المفسرون: رأى جبريل والملائكة، كما جاء في سبب النزول.

وعن طلحة بن عبيدالله بن كريز- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما رؤي الشيطان في يوم هو فيه أصغر، ولا أحقر، ولا أدحر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رؤي يوم بدر.** قالوا: يا رسول الله، وما رؤي يوم بدر؟ قال: **أما إنه رأى جبريل- عليه السلام- يزع الملائكة**»[٣].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ هذه الجملة بيان لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾، أي: إني أخاف الله فيما رأيت من جنود، أي: أنه خاف عقاب الله وبطشه به في الدنيا.

ويحتمل أن المعنى: إني أخاف الله وعقابه في الآخرة- زعماً منه وكذباً، كما قال الله تعالى عنه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «ديوانه» (١/ ٤٧٥).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» في كتاب الحج- جامع الحج (١/ ٤٢٢) حديث (٢٤٥)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٢٤)، قال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٩): «هو مرسل من هذا الوجه، ومعنى يزع الملائكة: يصفّهم». وقد رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٧٠) موصولاً عن طلحة بن عبيد الله عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

لِّيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال قتادة: «وذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة، فزعم عدو الله أنه لايدان له بالملائكة، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ وكذب والله عدو الله، ما به مخافة الله، ولكن علم أن لا قوة له، ولا منعة له، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مُسْلم، وتبرأ منهم عند ذلك»(١).

وقال عطاء: «إني أخاف أن يهلكني الله فيمن هلك».

قال ابن القيّم بعد ما ذكر قول عطاء: «أي: إنما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل، أو يؤخذ بجرمه، لا أنه خاف عقاب الآخرة. وهذا أصح»(٢).

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ يحتمل أن يكون هذا من جملة ما قاله الشيطان، ويحتمل أن يكون مستأنفاً، أي: والله شديد العقاب لمن استحق عقابه، فعقابه- عز وجل- شديد، من حيث كمه وكيفه ونوعه.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۗ﴾، ﴿إِذۡ﴾ ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بقوله: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ الآية.

فمقالة المنافقين ومرضى القلوب في حين زين الشيطان للمشركين أعمالهم وقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾.

فاجتمع على المسلمين العدو الظاهر وهم المشركون، والعدو الباطن وهم المنافقون ومرضى القلوب. وكما قيل:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٦).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٤٠).

ولـو كـان سـهم واحـد لاتقيتـه ... ولكنـه سـهم وثـان وثالـث

والمنافقون: جمع منافق، وهم الذين يُظْهِرون الإيمان ويبطنون الكفر.

وسُمي النفاق والمنافقون بهذا الاسم أخذاً من نافقاء «اليربوع» وهو دويبة صغيرة يتخذ جحراً في الأرض، ويجعل في نهايته مخرجاً للطوارئ، عليه قشرة رقيقة من الأرض فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب برأسه هذه القشرة وخرج.

فكذلك المنافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، يقابلون المؤمنين بوجه ويقابلون الكفار بوجه آخر، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٣].

﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: والذين في قلوبهم مرض الشبهة والشك وضعف الإيمان.

﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾، الغرور: توهم المنفعة بما فيه مضرة.

﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ يشيرون إلى المؤمنين الذين خرجوا إلى بدر، أي: غر هؤلاء المؤمنين دينهم، حين أقدموا مع قلة عددهم وعدتهم وضعفهم على قتال المشركين مع كثرة عددهم وعدتهم وقوتهم، يقولون هذا لمزاً للمؤمنين واحتقاراً لهم واستخفافاً بعقولهم.

وهم- والله- أحقر، وأخف عقولاً وأحلاماً حيث خرجوا بطراً ورئاءً وصداً عن سبيل الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم وغرّهم بكثرتهم وقوتهم وأنه جار لهم، ثم أسلمهم وتخلى عنهم.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

فيه تشجيع للمؤمنين، وحض لهم على الثبات والتوكل على الله، والثقة بنصره، وإن قلَّ عددهم وعدتهم؛ لأنه عزيز حكيم، وفيه إرغام لأنوف المشركين والمنافقين ومرضى القلوب وتخييب لظنونهم.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، أي: ومن يعتمد على الله- عز وجل- ويفوض أمره إليه

مع تمام الثقة بالله، والتسليم له، والرضا بقضائه.

والتوكل على الله: صدق الاعتماد على الله في جلب النفع ودفع الضر، مع تمام الثقة به.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ جواب الشرط، أو كناية عن الجواب، أي: فإن الله ينصره؛ لأنه- عز وجل- عزيز حكيم.

و﴿عَزِيزٌ﴾، أي: ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام: الكوني والشرعي والجزائي، وذو الحكمة البالغة: الغائية والصورية.

والمعنى: ومن يعتمد على الله ويفوض أموره إلى الله مع تمام الثقة بالله، فإن الله- عز وجل- عزيز قوي غالب، ينصر من انتصر به وتوكل عليه، ولا يضام من لاذ بجنابه والتجأ إليه، حكيم ذو الحكم التام والحكمة البالغة، ينصر من يستحق النصر ويخذل من يستحق الخذلان.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والترغيب بالاتصاف بهذا الوصف.

٣- أن امتثال ما بعد هذا النداء بهذا الوصف: من الثبات عند اللقاء، وذكر الله كثيراً، وطاعة الله ورسوله، والصبر، وعدم التنازع، والبعد عن صفات الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورياءً وصدًّا عن سبيل الله يُعد من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٤- وجوب الثبات عند لقاء العدو، وتحريم الفرار؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾.

٥- مشروعية ذكر الله- عز وجل- كثيراً عند اللقاء والقتال وبعده؛ لأنه من أعظم أسباب الطمأنينة والثبات والنصر على الأعداء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

٦- أن الثبات عند اللقاء، والإكثار من ذكر الله- عز وجل- من أسباب الفلاح، والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة، والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٧- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وفي هذا الرد على من نفى ذلك من المعتزلة وغيرهم.

٨- نهي المؤمنين وتحذيرهم من التشبه بالكافرين الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورياءً وصدًّا عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٩- لا غضاضة في نهي المؤمنين من الصحابة- رضي الله عنهم- عن التشبه بالكفار وصفاتهم- وإن لم يقع منهم ذلك، بل يستبعد أن يقع منهم ذلك- فقد قال الله- عز وجل- لنبيه ﷺ، وهو أشرف الخلق: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥)﴾ [يونس: ٩٥]، وهو المعصوم ﷺ.

١٠- ذم الكفار والتشنيع عليهم، وبيان سوء مقصدهم، وقبيح صنيعهم، وخيبة مسعاهم، حيث خرجوا من ديارهم بطراً ورياءً وصدًّا عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

١١- أن الكبر من أسباب رد الحق ودفعه والصد عنه، مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

١٢- جمع المشركين بين الصد بأنفسهم عن دين الله، وصد غيرهم عنه، وهذا أعظم، مما يدل على شدة كفرهم وعداوتهم للرسول ﷺ ولما جاء به من الحق.

١٣- إحاطة الله- عز وجل- واطلاعه وعلمه بجميع ما يعمله الكفار من المكر والكيد والصد عن سبيل الله، والتهديد الشديد، والوعيد الأكيد لهم، وأنه- عز وجل- سيجازيهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

١٤- تزيين الشيطان وتحسينه للكفار أعمالهم السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

١٥- تغرير الشيطان بالمشركين بكثرة عددهم وعدتهم وقوتهم بقوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ

ﵟٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِﵞ.

١٦- خديعة الشيطان للمشركين بعونه وإجارته لهم بقوله: ﵟوَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖﵞ.

١٧- خذلان الشيطان للمشركين في أشدِ المواقف ونكوصه على عقبيه لما التقى الجمعان ورأى الملائكة، وبراءته منهم؛ لقوله تعالى: ﵟفَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَﵞ.

١٨- رؤية الشيطان للملائكة يوم بدر وخوفه من عقاب الله وبطشه في الدنيا؛ لقوله: ﵟإِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚﵞ.

١٩- زعم الشيطان أنه يخاف الله وعقابه الأخروي، وهذا على الاحتمال الثاني في معنى الآية، كما في قوله تعالى: ﵟكَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ﵞ [الحشر: ١٦]، وهو في ذلك كاذب.

٢٠- ينبغي الحذر من الشيطان وتزيينه وغروره وكيده ووعوده الكاذبة.

٢١- شدة عقاب الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﵟوَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِﵞ.

٢٢- تربُّص المنافقين ومرضى القلوب بالمؤمنين ولمزهم واحتقارهم لهم واستخفافهم بهم، وتثبيطهم لهم؛ لقوله تعالى: ﵟإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗﵞ.

٢٣- الترغيب في التوكل على الله والاعتماد عليه؛ لأن مَن توكل عليه كفاه وحفظه ونصره؛ لقوله تعالى: ﵟوَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞﵞ.

٢٤- إثبات صفة العزة التامة لله عز وجل، عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﵟفَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌﵞ.

٢٥- إثبات صفة الحكم التام لله- عز وجل- الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة له- عز وجل- الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﵟحَكِيمٞﵞ.

٢٦- في اقتران صفة العزة والحكم والحكمة في حقه- عز وجل- زيادة كماله- عز وجل- إلى كمال.

٢٧- في ختام الآيات بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تشجيع للمؤمنين على الثبات والثقة بنصر الله؛ لأنه عزيز حكيم، وتخييب لظنون المشركين والمنافقين ومرضى القلوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٥٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۝٥٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة تزيين الشيطان للكفار أعمالهم وغروره لهم، ومن ثَمَّ خذلانه لهم، ونكوصه على عقبيه، وبراءته منهم في إشارة لما حلَّ بهم يوم بدر، ثم أتبع ذلك بذكر ما ينتظرهم من العذاب في الآخرة عند توفى الملائكة لهم وفي النار، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٧﴾ [محمد: ٢٧].

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، الواو: للاستئناف، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه، أي: ولو تشاهد إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة.

وحذف جواب «لو»: للتهويل والتعظيم، والتقدير: لرأيت أمراً عظيماً فظيعاً منكراً.

﴿إِذْ يَتَوَفَّى﴾ قرأ ابن عامر بالتاء على التأنيث: «تتوفى»، وقرأ الباقون بالياء على التذكير: ﴿يَتَوَفَّى﴾.

و﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بـ ﴿تَرَىٰٓ﴾، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فاعل، وقدم المفعول للاهتمام، والمراد بهم ملائكة العذاب.

ومعنى ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أي: يقبضون أرواحهم بنزعها من أجسادهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأنعام: ٦١].

فالتوفي: الإماتة، وسُمي الميت متوفى؛ لأنه استوفى رزقه وعمله وأجله.

﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم يضربون وجوههم وأدبارهم، أي: جميع أجسادهم، قد اشتد بهم الكرب والقلق، يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم ممتنعة مستعصية؛ لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم.

كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣﴾ [الأنعام: ٩٣] أي: باسطوا أيديهم بالضرب فيهم بأمر الله.

فالمراد بالوجوه: ما أقبل من أجسادهم؛ لأن الوجه يطلق على ما أقبل من الإنسان؛ كما قال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠] أي: فتوجه بجميع ما أقبل من جسدك شطر المسجد الحرام.

والمراد بالأدبار: ما أدبر من أجسادهم؛ لأن الدبر يطلق على ما أدبر من الإنسان؛ كما قال تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر: ٤٥].

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَضۡرِبُونَ﴾، بتقدير: ويقولون.

أي: ذوقوا وأحسوا وتجرعوا عذاب الحريق؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾ [إبراهيم: ١٧]، وهذا تبكيت لهم، وعذاب معنوي ينصب على قلوبهم لا يقل عن العذاب الحسي.

﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، ﴿عَذَابَ﴾: مضاف و﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾: مضاف إليه، والإضافة بيانية، من إضافة الجنس إلى نوعه؛ لبيان نوع العذاب وأنه عذاب الحريق، أي: عذاب النار المضطرمة المحرقة، وهم فيها كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾ [فاطر: ٣٦].

وقد قيل: إن هذا التوفي والضرب والتبكيت يحصل من الملائكة للكفار عند حشرهم إلى النار.

وقال بعض المفسرين: أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ ما حصل لهم يوم بدر.

فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم»[١].

قال ابن كثير[٢]: «وهذا السياق- وإن كان سببه وقعة بدر- ولكنه عام في كل كافر؛ ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ وفي سورة القتال مثلها».

وتقدَّم في سورة الأنعام قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الآية: ٩٣]، أي: باسطو أيديهم بالضرب فيهم، إذا استصعبت أنفسهم وامتنعت من الخروج من الأجساد لتخرج قهراً، كما في حديث البراء- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود[٣] من الصفوف المبلول**»[٤].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

هذا من تمام كلام الملائكة في تبكيتهم وتوبيخهم للكفار.

والإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ ترجع إلى ما تقدم من توفي الملائكة لهم حال كونهم يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، وأشار إليه بإشارة البعيد

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٣٠).
(٢) في «تفسيره» (٤/ ٢٠).
(٣) السفود: حديدة ذات شعب معقفة يُشوى بها اللحم.
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨، ٢٩٦)

تهويلاً له وتعظيماً.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، الباء: للسببية، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي قدمته أيديكم، أو بسبب تقديم أيديكم.

والمعنى: بسبب الذي قدمتم وعملتم من الأعمال السيئة في الدنيا من الكفر بالله والصد عن دينه، وقتال أوليائه، ونحو ذلك.

ويضاف ما قدمه الإنسان وما عمله وينسب إلى يديه؛ لأن بهما البطش والأخذ والعطاء. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ معطوف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، أي: ذلك بسبب ما قدمت أيديكم وبسبب أن الله ليس بظلام للعبيد، فجوزوا بها ذكر بسبب ذنوبهم وجوزوا به دون زيادة؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد.

و«ظلَّام» بصيغة المبالغة لتأكيد النفي، ولا مفهوم لها، والمعنى: أنه- عز وجل- ليس بذي ظلم، أو ليس يظلم أحداً، وهي نكرة في سياق النفي، فتعم نفي أي ظلم منه للعبيد مهما قلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

واللام في قوله: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ للاستغراق في جميع العبيد، فلا يظلم عز وجل أحداً منهم؛ لأنه الحَكَم العدل الذي لا يظلم أحداً من خلقه مثقال ذرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٤].

وقال- عز وجل- في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**»(١).

وقد أقام لعباده الحجة وأوضح لهم المحجة؛ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة- تحريم الظلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيتين السابقتين- توفي الملائكة للكفار حال كونهم يضربون وجوههم وأدبارهم ويعنفونهم ويبكتونهم بقولهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ وذلك بسبب كفرهم وصدهم عن دين الله، ثم أتبع ذلك ببيان أن هذا دأب الأمم قبلهم تكذيب آيات الله، وما أوقعه بكفار مكة هو دأبه- عز وجل- وسنته في إهلاك المكذبين قبلهم.

قوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، ﴿كَدَأۡبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: دأبهم كدأب آل فرعون.

والدأب: العادة والسيرة المألوفة المعروفة.

﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، أي: فرعون وقومه.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، أي: والذين من قبلهم من الأمم مثل عاد وثمود.

﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: جحدوا وكذبوا بآيات الله الشرعية والكونية، الدالة على كمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾، أي: فعاقبهم الله وأهلكهم بسبب ذنوبهم بأنواع العقوبات.

والمعنى: أن كفار مكة سلكوا مسلك فرعون وقومه والذين من قبلهم من الأمم بالكفر بآيات الله وتكذيب رسله، فعاقبناهم كما عاقبنا المكذبين قبلهم؛ كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ﴾، أي: إن الله قوي غالب لا يعجزه شيء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨].

﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن كفر به وعصاه؛ كما قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥﴾

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ٢٦﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

فأخذه- عز وجل- لهؤلاء المكذبين وغيرهم ممن سلك طريقهم قوي شديد؛ لأنه قوي شديد العقاب، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ٤٢﴾ [القمر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: ١٠٢].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥٣﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما أوقعه الله بالكفار من أهل مكة، وفي آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة من العقوبات بسبب ذنوبهم.

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾، الباء: للسببية، أي: بسبب أن الله.

﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾، أي: لم يكن مزيلاً نعمة أنعمها على قوم ومبدلاً لها بضدها، بل يحفظها عليهم ويبقيها لهم، ويزيدهم منها، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

وفي قوله تعالى: ﴿أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ تذكير بأنه- عز وجل- هو المنعم الذي يجب أن يشكر ولا يكفر.

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، و﴿مَا﴾ موصولة، أي: إلى غاية أن يغيروا هم الذي بأنفسهم من طاعة الله تعالى إلى معصيته، ومن شكره إلى كفره، فإذا غيروا غير الله عليهم نعمته، وأحل بهم نقمته، جزاءً وفاقاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ٥٨﴾ [القصص: ٥٨].

قال العباس رضي الله عنه: «ما نزل بلاء إلا بذنب، وما رُفع إلا بتوبة»[1].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٣٥٩)، وأخرجه في «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ١٠٢)، وانظر «فتح الباري» (٢/ ٤٩٧).

وفي قوله: ﴿لَمْ يَكُ﴾ بصيغة المضارع إيذان بتجدد العقوبات إذا وجد سببها؛ لأن هذه سنة الله في المكذبين.

وفي هذا تحذير وإنذار لجميع الكفار المكذبين من هذه الأمة أن يحل بهم ما حل بمن قبلهم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾.

أي: وأن الله ذو سمع واسع يسع جميع الأصوات، وذو علم واسع يسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

هذه الآية تأكيد وتقرير للإنذار والتهديد في قوله قبل هذا: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

وبين الآيتين اختلاف في بعض الكلمات لزيادة الفائدة والتنويع في الأسلوب، ففي الآية الأولى: ﴿كَفَرُوا۟﴾، وفي الثانية: ﴿كَذَّبُوا۟﴾، والكفر والتكذيب كل منهما سبب للأخذ والإهلاك، وهما متقاربان.

وفي الآية الأولى: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وفي الثانية: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وفي كل منهما تشنيع على الكافرين المكذبين، ففي قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تشنيع عليهم لكفرهم بآيات الله العظيم المستحق للعبودية وحده دون من سواه، فكفروه بدل أن يعبدوه.

وفي قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ تشنيع عليهم لتكذيبهم بآيات ربهم المنعم عليهم ومربيهم، فكذبوه بدل أن يشكروه.

وفي الآية الأولى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وفي الثانية: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾. والإهلاك تفسير وبيان لأخذ الله لهم وأنه ينتهي بإهلاكهم.

وأسند أخذهم إليه باسمه العظيم ﴿ٱللَّهُ﴾ واسند إهلاكهم إلى نفسه بضمير العظمة «نا» لأنه العظيم الذي له العظمة المطلقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**العظمة إزاري والكبرياء ردائي**»[١].

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

وزيد في الآية الثانية: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾ وفيه بيان أن إهلاكهم كان بالغرق، مما يدل على شدة عقوبتهم؛ وذلك- والله أعلم- لشدة جرمهم وهو دعوى الربوبية والألوهية.

وختمت الآية بقوله: ﴿وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ وتنوين «كلٌ» عوض عن المضاف إليه.

أي: وكل من المكذبين من هذه الأمة وفرعون وقومه والذين من قبلهم كانوا ظالمين بكفرهم وتكذيبهم، حيث كفروا وكذبوا بآيات الله ربهم ولا ظلم أعظم من الكفر والتكذيب بآيات الله، وحيث اجتمعوا في الظلم عمتهم العقوبات، كما هي سنة الله في الكفار المكذبين الظالمين؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

والظلم لغة: النقص، قال تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الكهف: ٣٣].

وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان. وأظلم الظلم الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: ١٣].

وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله- عز وجل- أبين الحقوق وأعظمها؛ خلق ورزق وأنعم على الخلق بجميع النعم، فالإشراك به وصرف حقه لغيره أظلم الظلم.

---

(١) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

١- شدة ما يلاقيه الكفار من التعذيب والإهانة على أيدي الملائكة عند توفيهم لهم وقبض أرواحهم بضرب وجوههم وأدبارهم وتبكيتهم وتعنيفهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

٢- إثبات الملائكة وتوفيهم للكفار وتعذيبهم لهم، والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة.

٣- أن الميت قد استوفى ماله من رزق وعمل وأجل؛ لهذا سُمي الموت وفاة، وسُمي الميت متوفى.

٤- الجمع للكفار بين العذاب الحسي بضرب الوجوه والأدبار والتعذيب بالنار وبين العذاب المعنوي بالتعنيف والتبكيت، وهو لا يقل عن العذاب الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

٥- إثبات النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: عذاب النار المحرقة.

٦- أن النار تحرق ما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ لكنهم فيها كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وليس معنى ذلك أنهم يحترقون ويفنون، ولا أنهم يكونون جهنميين فلا يحسون فيها- كما يقول بعض أهل البدع والضلال.

٧- أن مجازاة الكفار بما ذكر من العذاب الحسي والمعنوي بسبب كفرهم، وما قدموه واقترفوه من الذنوب والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

٨- كمال عدل الله- عز وجل- وتأكيد نفي الظلم عنه، وأنه لا يظلم أحداً من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

٩- كفر وتكذيب فرعون وقومه والذين من قبلهم بآيات الله ربهم، وأخذه وإهلاكه لهم بذنوبهم.

١٠- سلوك كفار مكة مسلك فرعون وقومه والذين من قبلهم من الأمم في الكفر

والتكذيب بآيات الله ربهم وأخذه وإهلاكه لهم بما حل بهم في بدر وحين توفي الملائكة لهم.

١١- إثبات أن سنن الله الكونية بأخذ الكافرين بآيات الله المكذبين بها وإهلاكهم بسبب ذنوبهم ثابتة لا تتبدل ولا تتغير وتأكيد ذلك، فكما أخذ آل فرعون والأمم قبلهم وأهلكهم بسبب ذنوبهم أخذ وأهلك كفار مكة بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ (٥٤)﴾.

١٢- وجوب الإيمان بآيات الله الكونية والشرعية، والحذر من الكفر والتكذيب بها؛ لأن ذلك سبب للعقوبات العاجلة والآجلة.

١٣- أن دأب كثير من الأمم وكثير من الناس الكفر بآيات الله والتكذيب بها، فلا ينبغي الاغترار بذلك.

١٤- أن الله- عز وجل- قوي لا يغالب، شديد العقاب لمن كفر به وعصاه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ مما يوجب خوفه وتقواه.

١٥- أن الله- عز وجل- لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم بالكفر بعد الإيمان، والمعصية بعد الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

١٦- أن النعم كلها من الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾.

١٧- أن النعم إذا شكرت قرَّت وإذا كفرت فرَّت.

١٨- أن ما يحصل من عقوبات وزوال للنعم إنما هو بسبب الذنوب والمعاصي، فهي سبب كل بلية، وجالبة لكل رزية، مما يوجب الحذر منها والبعد عنها.

قال ابن القيم: «وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته؟ فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه، ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ

﴿سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾ [الرعد:١١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال:٥٣].

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال الله نعمه عنهم، وجد سبب ذلك جميعه: إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله.

وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم[1]

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه؛ فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس، ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له»[2].

١٩- إثبات صفة السمع الواسع لله- عز وجل- الذي يسع جميع الأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾.

٢٠- إثبات صفة العلم الواسع لله- عز وجل- الذي يسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٢١- في اجتماع كمال السمع والعلم في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال، والوعد لمن شكر والوعيد لمن كفر.

٢٢- إهلاك فرعون وقومه بالغرق؛ لشدة كفرهم وتكذيبهم، ودعوى فرعون الربوبية والألوهية، ولهذا نص على عقوبتهم دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾.

٢٣- اجتماع الكفار والمكذبين من هذه الأمة ومن الأمم قبلهم على الظلم، بل على أظلم

---

(١) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٧٥، ١٧٥.

(٢) انظر: «التفسير القيم» ص٥٤٤-٥٤٨.

الظلم وهو الكفر بآيات الله والتكذيب بها، والشرك بالله؛ ولهذا جرت عليهم سنن الله الكونية في أخذ وإهلاك الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة عقابه لكفار مكة، وأنهم سلكوا مسلك من سبقهم من الكفار والمكذبين؛ فجرت عليهم سنن الله الكونية في أخذ وإهلاك الكفار والمكذبين.

ثم أتبع ذلك بذمهم وأنهم شر الدواب؛ لكفرهم وعدم إيمانهم، ونقضهم للعهود، وعدم تقواهم.

قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: إن شر ما دب ويدب على الأرض من الحيوانات في حكم الله- عز وجل- وقضائه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

وقوله: ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ ولم يقل شر الناس، تحقيراً لهم، وتأكيداً لزيادة شرهم.

﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، الفاء: استئنافية بيانية، أو تعليلية، أي: لأنهم لا يؤمنون.

أي: الذين كانوا على الكفر قبل الإسلام، واستمروا على كفرهم ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بعد سماع دعوة الإسلام، أو الذين كفروا بما جاء به النبي ﷺ من الوحي من عند الله وأصروا على كفرهم ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ في المستقبل، بل سيستمرون على الكفر.

فهؤلاء هم شر الدواب لكفرهم، وانتفاء إيمانهم في المستقبل، وقد أكد ذلك بتقديم المسند إليه وهو قوله: ﴿فَهُمۡ﴾ على الخبر، وهو الفعل المنفي وهو قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

والكفر وعدم الإيمان بالحق أول مرة سبب للاستمرار على الكفر والحيلولة بين القلب وبين الإيمان في المستقبل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ

﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وإنما كان الذين كفروا شر الدواب لجهلهم بربهم وعصيانهم له دون سائر الدواب، فجميع المخلوقات من الحيوانات التي تدب على الأرض ناطقها وبهيمها، ومن الجمادات كلها انقادت لله- عز وجل- طائعة وسجدت له، واهتدت لما خلقت له، سوى الذين كفروا؛ كما قال- عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والخطاب للنبي ﷺ، أي: الذين أخذت منهم العهد وهم قريظة ونظراؤهم من المشركين والمنافقين وغيرهم، أي: الذين أخذت منهم العهد أن لا يحاربوك ولا يعينوا عليك عدواً.

﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾، التعبير بالمضارع للدلالة على أن ذلك، كما حصل منهم قبل نزول هذه الآية يتجدد ويتكرر منهم بعد نزولها.

والمعنى: الذين عاهدت منهم ثم نقضوا عهدهم، وينقضونه في كل مرة، فلا يوفون بعهد، بل ديدنهم نقض العهود؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة: ١٠٠].

﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها، أو حالية، أي: وهم لا يتقون الله، أو الحال أنهم لا يتقون الله فيما ارتكبوه من الكفر ونقض العهود وغير ذلك من الذنوب ولا يخافون عقابه، ولا يتقون النار، وأكد عدم تقواهم بتقديم المسند إليه وهو الضمير «هم» على الخبر وهو الفعل المنفي وهو قوله: ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾، الفاء: عاطفة، و«إن»: حرف شرط جازم، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

و﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ فعل الشرط، والنون فيه للتوكيد، وجواب الشرط ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾، أي: فإما تجدنَّهم وتظفرنَّ بهم حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق.

﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية.

والتشريد: التطريد والتفريق، ومنه «شرد البعير» أو الدابة إذا هرب من صاحبه، و«من» في قوله: ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ موصولة، أي: الذين وراءهم أي: خوّف بهم وفرّق وسمع من خلفهم. قال الشاعر:

أطوِّف بالأباطح كلَّ يوم ... مخافةَ أن يُشرِّد بي حكيمُ[1]

أي: مخافة أن يُسَمِّع بي حكيم. و«حكيم» رجل من بني سليم ولَّته قريش الأخذ على أيدي السفهاء.

والمعنى: غلِّظ وشدد عقوبتهم، وأثخنهم قتلاً، لتخيف وتنكِّل بذلك وتفرق به من وراءهم من الكفار، فلا يجترئون على نقض العهد مثلهم، فيكونوا عبرة وعظة لغيرهم، كما قال تعالى في عقوبة الذين اعتدوا في السبت: ﴿**فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾**﴾ [البقرة: ٦٦].

وهكذا نكل ﷺ ببني قريظة لما نقضوا العهد، فحاصرهم في ديارهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ- رضي الله عنه- بأن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، ففعل بهم رسول الله ﷺ ذلك، وقال لسعد: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات**»[2].

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ضمير الغيبة في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ راجع إلى «من» الموصولة في قوله: ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، أي: لأجل أن يتذكر ويتعظ ويعتبر الذين خلفهم من الكفار، فلا يقعون فيما وقع فيه هؤلاء من نقض العهد ونحو ذلك. والسعيد مَن وُعِظَ بغيره.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) البيت في «لسان العرب» مادة «شرد» بلا نسبة، وانظر «محاسن التأويل» للقاسمي (٥/ ٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ﱡﭐ ﭐﭐﱠ ﴿ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٨﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيتين السابقتين حكم من نقضوا العهد وكيفية التعامل معهم، ثم ذكر حكم من يخاف منهم الخيانة ونقض العهد.

قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً﴾، الواو: عاطفة، ﴿وَإِمَّا﴾ كسابقتها، ﴿تَخَافَنَّ﴾ فعل الشرط ﴿مِن قَوۡمٍ﴾، ﴿قَوۡمٍ﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم كل قوم تُخاف منهم خيانة.

والخوف: توقع حصول ضرر من شيء بأمارة مظنونة أو معلومة.

والخيانة: ضد الأمانة، وهي هنا نقض العهد؛ لأن الوفاء بالعهد من الأمانة، أي: وإما تخافن من قوم ممن عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾، أي: نقضاً لما عاهدوك عليه، وغدراً بما ظهر من أمارات الغدر والخيانة.

﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط.

ومفعول ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾ محذوف، تقديره: فانبذ إليهم عهدهم، ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: نبذاً على سواء، أو حالاً من فاعل «انبذ» أي: حال كونه على سواء.

والنبذ: الطرح وإلقاء الشيء.

﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، ﴿سَوَآءٍ﴾ بمعنى: «مستو»؛ كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة: ٦]، قال الراجز:

فاضرب وجوه الغُدَّر الأعداء حتى يجيبوك إلى السواء[1]

والمعنى: فألق إليهم عهدهم واطرحه وارم به إليهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، أي: نبذاً واضحاً علناً صريحاً مكشوفاً، يستوي فيه علمك وعلمهم، أن لا عهد بينك وبينهم، ولا تغدر بهم.

عن سليم بن عامر- رضي الله عنه- قال: «كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٢٤٠)، «التبيان» (٥/ ١٤٥).

دابة، يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاءً لا غدراً، إن رسول الله ﷺ قال: «**ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يَحُلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء**» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة رضي الله عنه»(١).

وعن سلمان الفارسي- رضي الله عنه- أنه انتهى إلى حصن أو مدينة، فقال لأصحابه: «دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم، فقال: إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله- عز وجل- للإسلام، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أنتم أبيتم فأدوا الجزية، وأنتم صاغرون، فإن أبيتم نابذناكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين. يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها»(٢).

والأمر بنبذ عهدهم إليهم على سواء إذا خيف منهم الخيانة، من باب الاحتياط والاحتراز درءاً للخطر عن المسلمين؛ لأنه بعد وقوع الخيانة قد يصعب تدارك الأمر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ هذه الجملة تعليل للأمر بنبذ عهد من خاف منهم ﷺ الخيانة.

و﴿ٱلْخَآئِنِينَ﴾ الذين يغدرون وينقضون العهود والمواثيق، ولا يوفون بها، وهو عام في كل خائن سواء كان من الكفار أو من المؤمنين، بل إن الخيانة ونقض العهد من المؤمن أشد وأعظم. قال ﷺ: «**لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان**»(٣).

وفي رواية: «**لكل غادر لواء يوم القيامة، يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عائلة**»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١١١)، وأبوداود في الجهاد- في الإمام يستجن به في العهود (٢٧٥٩)، والترمذي في السير- ما جاء في الغدر (١٥٨٠)- وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٤٠).

(٣) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٨٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٧٢)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣٨)، والترمذي في الفتن (٢١٩١)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**أدِ الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك**»[(١)].

وإذا كان الله- عز وجل لا يحب الخائنين فهو يبغضهم، ومن أبغضه الله انتقم منه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ومفهوم الآية أنه- عز وجل- يحب الأوفياء الأمناء الموفين بالعهود والمواثيق والعقود، وفي هذا إثبات المحبة لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته.

الفوائد والأحكام:

١- أن شر ما دب ويدب على الأرض عند الله وفي حكمه الذين كفروا الذين لا يرجى منهم الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وهذا حكم من الله عليهم، وخبر عنهم أنهم كفار ولن يؤمنوا.

٢- طاعة جميع المخلوقات لله- عز وجل- من الحيوانات والجمادات وسجودها له، سوى الذين كفروا، ولهذا كانوا شر الدواب عند الله دون غيرهم.

٣- أن المعتبر في الحكم على الشيء بأنه خير أو شر، إنما هو حكم الله- عز وجل- وخبره؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٤- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله عز وجل له بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾.

٥- نقض الكفار من اليهود والمشركين والمنافقين للعهود والمواثيق مراراً وتكراراً من غير خوفٍ من الله واتقاءٍ لعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

٦- التحذير من الكفر ونقض العهود وعدم التقوى؛ لأن هذه صفات شر الدواب عند الله.

٧- ينبغي التنكيل بنَقَضَة العهود من الكفار والتغليظ عليهم، والتشديد في عقوبتهم، والإثخان فيهم قتلاً إذا حصل الظفر بهم حال الحرب ليتشرد بهم من وراءهم من

---

(١) أخرجه أبوداود في البيوع (٣٥٣٥)، والترمذي في البيوع (١٢٦٤)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

الكفار، ويكونوا عبرة وعظة لغيرهم، لأمره- عز وجل- لنبيه ﷺ بذلك بقوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) ﴾.

وهو أمر له ﷺ ولأمته- وبخاصة ولاة الأمر منهم.

٨- أن السعيد من وعظ بغيره، لقوله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾.

٩- الإشارة لوجوب احترام العهود والمواثيق مع الكفار، لمفهوم قوله تعالى: ﴿فِي الْحَرْبِ﴾، أي: حال كونهم محاربين لا عهد لهم ولا ميثاق.

١٠- إذا خيف خيانة الكفار ونقضهم للعهد وجب نبذ عهدهم إليهم على سواء نبذاً واضحاً صريحاً معلناً مكشوفاً، بأن لا عهد بيننا وبينهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾.

١١- ينبغي الحذر من الكفار ونقضهم عهودهم معنا؛ لأنهم أقدموا على ما هو أعظم من ذلك وهو الكفر بالله- عز وجل- وليس بعد الكفر ذنب أعظم منه.

١٢- إذا لم نخف خيانة الكفار ونقضهم العهد فلا يجوز لنا نبذ عهدهم إليهم، بل يجب الوفاء به وإتمامه إلى مدته؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ الآية.

١٣- لا يجوز إذا خيف خيانة الكفار ونقضهم العهد أن نخونهم بل يجب إعلان نبذ عهدهم إليهم.

١٤- إذا ظهرت خيانة الكفار ونقضهم ما بيننا وبينهم من عهد فلا حاجة لنبذ عهدهم إليهم على سواء؛ لأنهم صاروا بحكم من لا عهد له.

وهكذا فعل ﷺ لما نقضت قريش العهد بقتال خزاعة حلف رسول الله ﷺ فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمر الظهران على نحو أربعة فراسخ من مكة.

١٥- عدم محبة الله للخائنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ وإذا لم يحبهم فإنه يبغضهم، ومن أبغضه الله انتقم منه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

١٦- عظم حرمة الخيانة ونقض العهود، لما رتب الله عليها من العقوبة الشديدة للخائنين وعدم محبته لهم، وهذا عام في كل خيانة من كافر أو مؤمن، بل إن

الخيانة من المؤمن أشد وأعظم.

١٧- إثبات المحبة لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه يحب الأوفياء الأمناء؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

١٨- تعظيم الإسلام للعهود والمواثيق واحترامه لها، حتى مع غير المسلمين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) ﴾.

في هذه الآية الكريمة تسلية وطمأنة للنبي ﷺ ولأصحابه تجاه ما يلاقونه من الكفار، من المشركين ممن نجوا يوم بدر، ومن بني قريظة والمنافقين وغيرهم من الخيانة ونقض العهود والأذى، ووعد لهم بالنصر، ووعيد وتهديد للكافرين.

قوله: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو جعفر وحفص عن عاصم: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾» بالياء على الغيبة، أي: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم، سبقوا، أو: ولا يحسبن أحد الذين كفروا سبقوا.

وقرأ الباقون: «ولا تحسبن» بالتاء، على الخطاب، أي: ولا تحسبن يا محمد، ويا أيها السامع والمخاطب الذين كفروا سبقوا.

والحسبان بمعنى الظن، أي: ولا يظنن، أو: ولا تظنن الذين كفروا سبقوا، أي: سبقونا وفاتوا وأفلتوا من أن نظفر بهم، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) ﴾ [العنكبوت: ٤].

﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ قرأ ابن عامر بفتح الهمزة «أنهم»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿ إِنَّهُمْ ﴾.

أي: إنهم وإن نجا منهم من نجا يوم بدر، واجترأ من اجترأ منهم على نقض العهد، كما حصل من بني قريظة وغيرهم من المشركين والمنافقين، فإنهم لا يعجزون الله، فالله قادر على إهلاكهم في الدنيا على يد رسوله ﷺ والمؤمنين، وبما شاء، وعلى تعذيبهم في الآخرة بالنار، قال تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) ﴾ [النور: ٥٧]، وقال تعالى فيما ذكر عن الجن أنهم قالوا: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا

أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ﴿١٢﴾ [الجن: ١٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

بيَّن الله- عز وجل- في الآية السابقة عدم سبق الذين كفروا، وأنهم لا يعجزون، ثم أمر بإعداد المستطاع من عدة وقوة مادية ومعنوية لإرهابهم وغيرهم من أعداء الله وأعداء المؤمنين، وبهذا يظهر ضعفهم وعجزهم وعدم سبقهم.

قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ معطوف على جملة: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾، ويحتمل كون الجملة مستأنفة.

والأمر للمؤمنين، وبخاصة ولاة الأمر منهم، والضمير في قوله: ﴿لَهُم﴾ يعود إلى الذين كفروا.

والإعداد: التهيؤ والتجهيز والتحضير.

﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم﴾، ﴿مَّا﴾: موصولة، تفيد العموم، أي: وأعدوا للكفار كل الذي تستطيعونه وتقدرون عليه ﴿مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾، أي: من أيِّ قوة كانت ومن رباط الخيل.

أي: وأعدوا لهم كل ما تقدرون عليه من قوة معنوية قوامها الإيمان والعلم والعقل وسداد الرأي والحنكة والسياسة.

وأعدوا لهم ما تقدرون عليه من قوة بدنية بالتمرين والتدريب واللياقة والشجاعة، وتعلم الرمي، فعن عقبة بن عامر- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على

المنبر يقول: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، **ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»(١).

وعن عقبة بن عامر- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله**».

وفي رواية: «**والممد به، فارموا واركبوا، ولأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا**»(٢).

وعن سلمة بن الأكوع- رضي الله عنه- قال: مرَّ النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون، فقال النبي ﷺ: «**ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، وأنا مع بني فلان**». قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم. فقال رسول الله ﷺ:« **ما لكم، لا ترمون؟**» فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال النبي ﷺ: «**ارموا فأنا معكم كلكم**»(٣).

وعن علي- رضي الله عنه- قال: «ما رأيت النبي ﷺ يفدي رجلاً بعد سعد، سمعته يقول: «**ارم فداك أبي وأمي**»(٤).

وأعدوا لهم ما تقدرون عليه من قوة آلية بالتسلح بأنواع الأسلحة؛ من السيوف والرماح والأقواس والبنادق والمدافع والدبابات والصواريخ والرشاشات، وغير ذلك في كل عصر بحسبه.

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ معطوف على قوله: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾، من عطف الخاص على العام؛ للاهتمام، أي: وأعدوا لهم الذي استطعتم من رباط الخيل؛ لأن الخيل- حال نزول القرآن- من أعظم القوة، لهذا أقسم الله- عز وجل- بها في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾ [العاديات: ١-٣].

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة- فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه (١٩١٧)، وأبوداود في الجهاد- باب في الرمي (٢٥١٤)، والترمذي في التفسير (٣٠٨٣)، وابن ماجه في الجهاد- الرمي في سبيل الله (٢٨١٣)، وأحمد (٤/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٥١٣)، والنسائي في الخيل- تأديب الرجل فرسه (٣٥٧٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨١١).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٩).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٠٥)، والترمذي في المناقب (٣٧٥٥).

وعن عروة بن جعد البارقي- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم**»[١].

و﴿رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ ربطها وتقييدها وشدها في مكان حفظها، ويسمى به مكان ربطها وحفظها أيضاً.

و﴿رِبَاطِ﴾ على وزن «فعال» صيغة مبالغة للدلالة على الكثرة.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال لها في مَرْج[٢] أو روضة، فما أصابت في طِيَلها[٣] ذلك من المرج، أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طِيَلها، فاستنت شرفاً أو شرفين[٤] كانت أرواثها وآثارها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يُرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له، فهي له أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً[٥] ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواءً[٦] فهي على ذلك وزر**»[٧].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان؛ فأما فرس الرحمن فالذي يربط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله، وذكر ما شاء الله، وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليه،**

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد- الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥٢)، ومسلم في الإمارة- الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٨٧٣)، والنسائي في الخيل (٣٥٧٥)، والترمذي في الجهاد (١٦٩٤)، وابن ماجه في التجارات (٢٣٠٥).

(٢) المرج: الأرض الواسعة، ذات نبات كثير، تمرج فيه الدواب، أي: تخلى تسرح مختلطة متى شاءت.

(٣) الطيل: بكسر الطاء، وفتح الياء: الحبل الذي تربط به.

(٤) أي: علت مكاناً أو مكانين عاليين.

(٥) أي: استغناء بها عن الناس وتعففاً بها عن السؤال.

(٦) أي: مناوأة ومعاداة.

(٧) أخرجه البخاري في الجهاد- الخيل لثلاثة (٢٨٦٠)، ومسلم في الزكاة- إثم مانع الزكاة (٩٨٧)، والنسائي في الخيل (٣٥٦٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٨)، وأحمد (٢/ ٢٦٢، ٣٨٣).

وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من فقر»[١].

وعلى من يربي الخيل أن يعلم مكانه من هذه الأصناف.

وعن سهل بن الحنظلية- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً في سبيل الله كانت النفقة عليه كالماد يده بالصدقة، لا يقبضها**»[٢].

وفي قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ أمر بإعداد المراكب المحتاج إليها عند القتال من المراكب البرية والبحرية والجوية، من الطائرات والسيارات والسفن في كل عصر بحسبه.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الجملة استئنافية بيانية، أو حال من ضمير ﴿وَأَعِدُّواْ﴾، أي: حال كونكم ترهبون به عدو الله وعدوكم.

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى المصدر المأخوذ من قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾، أي: ترهبون وتخيفون بإعداد القوة ورباط الخيل ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، من الكفار من المشركين واليهود وغيرهم.

وفيه ذم لهم أن كانوا أعداء الله، وبيان سبب الأمر بإعداد العدة لهم، وإرهابهم، وتحريض المؤمنين- الذين هم أولياء الله- على قتالهم.

وعطف ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ على ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ من عطف صفة على صفة لموصوف واحد مثل قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم[٣]

والمعنى: تخيفون بإعداد القوة عدو الله وعدوكم من الكفار الظاهرين، فلا يجرؤون على الاعتداء عليكم ولا على غزوكم، ويرهبون لقاءكم ويخافون بطشكم، ولهذا قال

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥).

(٢) أخرجه الطبراني- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٣٥٩)- وقال: «رواه الطبراني، ورجاله ثقات».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء ١/ ١٠٥، «حياة الحيوان الكبرى» ٢/ ٣٣٩، «كنز الكتاب ومنتخب الآداب» ١/ ٤٦٤، «المعجم المفصل في شواهد العربية» ٧/ ١٥.

ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير»[(١)].

وقد مضت سنة الحياة الكونية- وخاصة في غيبة تحكيم شرع الله- على أنه لا محل للضعيف والفقير، وعلى أكل الغني للفقير، وتسلط القوي على الضعيف، أشبه بشريعة الغاب، مما يوجب ويؤكد على المسلمين إعداد القوة- كما أمر الله- عز وجل- وقد قيل:

فلا منعت دار ولا عز أهلها ... من الناس إلا بالقنا والقنابل[(٢)]

وقال زهير[(٣)]:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وما أصاب المسلمين ما أصابهم من تسلط الأعداء عليهم، واحتلال بلادهم ومقدساتهم، والطمع في خيرات بلادهم، ومحاولتهم طمس هويتهم الإسلامية إلا بسبب ضعف المسلمين في إعداد القوة بقسميها: المعنوية بالإيمان والاجتماع على الحق، والمادية بالسلاح والعتاد ونحو ذلك حتى صار حال المسلمين اليوم كما قيل:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يستأمرون وهم حضور[(٤)]

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وهو العودة إلى الله- عز وجل- وإعداد القوة مادياً ومعنوياً لكي يعود للأمة عزها ومجدها- وما ذلك على الله بعزيز.

قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾، أي: وترهبون به «آخرين» أي: أقواماً أو أناساً، أو أعداءً آخرين.

﴿مِن دُونِهِمۡ﴾، أي: ممن هم أقرب منهم إليكم، بل ممن هم بين أظهركم من المنافقين، وبعض قبائل العرب حول المدينة، الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾ [التوبة: ١٠١].

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيت للطرماح. انظر: «ديوان الحماسة» (١/ ٧٧).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص ١١١).

(٤) البيت لجرير. انظر: «ديوانه» (ص ٣٣٢).

﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾، أي: لا تعرفونهم بالتفصيل، ولا بالإجمال، ممن يضمرون العداوة للمؤمنين، ويتربصون بهم الدوائر من المنافقين، وبعض القبائل.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾؛ لأنه المطلع على السرائر والضمائر، العليم الخبير، وفي هذا تعريض بالتهديد لهؤلاء الآخرين، وإشارة إلى عناية الله- عز وجل- بالمؤمنين وإحصائه لأعدائهم.

وفي تقديم المسند إليه «الله» على الخبر «يعلمهم» تحقيق وتأكيد علمه- عز وجل- بهم، وتأكيد لازمه من التهديد لهؤلاء والعناية بهؤلاء.

والمنافقون أشد عداوة للمؤمنين من الكفار الظاهرين، وأشد تربصاً للدوائر بهم، وأشد رهبة منهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة ٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤].

وهم أخطر على الأمة الإسلامية من أعدائها الظاهرين؛ لأنهم بين ظهراني المسلمين يَطَّلعون على أحوالهم، ويُلقون بأسرارهم إلى الكفار، ويصعب التحرز منهم، كما يصعب التخلص منهم بقتلهم ونحو ذلك؛ لأنهم يعتبرون في عداد المسلمين.

ولهذا لما قال عمر رضي الله عنه: «دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق» يعني عبدالله بن أبي بن سلول حين قال كما حكى الله عنه: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، يعني بالأعز نفسه والمنافقين، ويعني بالأذل الرسول ﷺ وأصحابه.

قال ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٠٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٤)، والترمذي في التفسير (٢٣١٥)، من حديث جابر رضي الله عنه.

ولهذا يُقَدَّم ذكرهم على الكفار والمشركين في باب الوعيد والعذاب، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨﴾ [التوبة: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين في أول الآية بإعداد ما يستطيعون من قوة ومن رباط الخيل لإرهاب عدو الله وعدوهم من الكفار ومن دونهم من المنافقين ونحوهم، ومن لازم ذلك الإنفاق بسخاء، ولهذا ختم الله- عز وجل- الآية بالترغيب بالإنفاق في سبيل الله بوعدهم بوفائه إليهم من غير ظلم.

والجهاد بالمال أهم من الجهاد بالنفس، ولهذا يقدم- غالباً- في القرآن الكريم على الجهاد بالنفس.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، الواو: عاطفة، و«ما»: شرطية، ﴿مِن شَىْءٍ﴾، «من»: مؤكدة للعموم، ﴿شَىْءٍ﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ شيء كان، قليلاً أو كثيراً، صغيراً أو كبيراً.

﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: في نصرة دين الله وإعلاء كلمته، كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل**»[1].

﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، أي: تُعطون حقه وافياً، ويؤدى إليكم أجره وثوابه تاماً كاملاً، بل ومضاعفاً؛ كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٥١٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

إضافة إلى ما يُعوضهم الله في الدنيا من الفيء والغنيمة والجزية والخراج والمباركة لهم في أموالهم وغير ذلك.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنكم لا تظلمون أيَّ ظلم، أي: لا تُنقصون مما أنفقتموه في سبيل الله شيئاً من أجوركم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين بإعداد ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل إرهاباً لعدو الله وعدوهم ومن دونهم، ثم أتبع ذلك بأمره ﷺ إذا جنح العدو للسلم أن يجنح لها، ويتوكل على الله في إشارة واضحة إلى أنه ليس المقصود بإعداد القوة أن تكون سبباً لإشعال الحرب مع طلب العدو السلم.

قوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ قرأ حمزة وأبوبكر عن عاصم وخلف: «للسِّلم» بكسر السين وقرأ الباقون بفتحها: ﴿لِلسَّلْمِ﴾.

والجنوح للشيء: الميل إليه، و«السلم» ضد الحرب، أي: وإن مال أعداؤكم الكفار وانقادوا للسلم والمصالحة والمهادنة عن رغبة صادقة.

﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، أي: فمل لها، وأجبهم إليها، أي: للسلم- والتعبير بقوله: ﴿فَٱجْنَحْ﴾ لمشاكلة «جنحوا».

ولهذا لما طلب المشركون الصلح عام الحديبية أجابهم ﷺ، وتم الصلح بينه وبينهم على الهدنة لمدة عشر سنين حتى نقضوا العهد[1].

وعن علي- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنه سيكون بعدي اختلاف،**

---

(١) كما جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم- رضي الله عنهما- وسيأتي تخريجه قريباً.

أو أمر فإن استطعت أن يكون السلم فافعل»[1].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: واعتمد على الله وفوّض أمرك إليه في حربك وسلمك وثق به.

والمعنى: صالحهم واعتمد على الله ولا تخف في الصلح مكرهم، فإن الله كافيك؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بعد الأمر بإعداد المستطاع من القوة أمر للجمع بين فعل السبب والاعتماد على الله عز وجل.

قال السعدي[2]: «﴿فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة، منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك كان أولى لإجابتهم، ومنها: أن في ذلك استجماماً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر إن احتيج إلى ذلك، ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو، ولا يعلى عليه- إلى أن قال: فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يُخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾».

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ «السميع» و«العليم» اسمان من أسماء الله- عز وجل- كل منهما على وزن فعيل صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ على إثبات صفة السمع الواسع لله تعالى وأنه- عز وجل- ذو السمع الواسع الذي وسع جميع الأقوال والأصوات.

ويدل ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ على إثبات صفة العلم الواسع لله تعالى وأنه- عز وجل- ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩٠).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٨٥). وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٨).

فهو- عز وجل- سميع لجميع الأقوال والأصوات، ومن ذلك ما يدور بين الفريقين من كلام في أمر المسالمة والمصالحة، وهو عليم بكل شيء ومن ذلك أمر الصلح وما يدور في نوايا الكفار في طلبهم الصلح وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- رسوله ﷺ إذا جنح العدو ومال إلى السلم أن يجنح لها ويسالمهم، ثم أتبع ذلك بما يبعث الطمأنينة في قلبه ﷺ وهو بيان أنهم إن أرادوا أن يخدعوه بإظهار الميل إلى السلم فإن الله حسبه وكافيه، وأكد ذلك وبرهن له بسابق تأييده له بنصره وبالمؤمنين وبالتأليف بين قلوبهم.

قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾، أي: وإن يرد أعداؤك الكفار.

﴿أَن يَخۡدَعُوكَ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول للفعل ﴿يُرِيدُوٓاْ﴾، أي: وإن يريدوا خداعك، أو خديعتك.

والمعنى: وإن يرد الكفار وينووا ويضمروا- بإظهار ميلهم إلى السلم والمصالحة- خديعتك، ليأخذوكم على غرة، أو لأجل أن يتقووا ويستعدوا لكم، ونحو ذلك.

﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ﴾، و«إن»: حرف توكيد ونصب، أي: فإن كافيك الله وحده بنصره ومعونته لك.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ الآيتين.

هذا فيه- كما أشرت سابقاً- طمأنة له ﷺ وتأكيد لكفايته- عز وجل- له إن أرادوا خيانته- بذكر سابق تأييده له بنصره وبالمؤمنين، والتأليف بين قلوبهم، وهذا أشبه بقوله تعالى له- حين قال المشركون، لما فتر الوحي: «ودعه ربه وقلاه» فأنزل الله تعالى؛ ردًّا عليهم-: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ إلى أن قال مطمئناً ومؤكداً له: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا

فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: ١-٨][(١)].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾، أي: هو- سبحانه وتعالى- الذي قوّاك وأظهرك.

﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾، أي: بنصره لك في بدر بالإمداد بالملائكة، وغير ذلك من أسباب النصر.

﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: وأيدك بالمؤمنين من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾، أي: جمع بين قلوبهم على الإيمان، والأخوة في الله، وعلى مناصرة الحق- وهذا منَّة أخرى على رسول الله ﷺ، ومِنَّة أيضاً على المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾، «لو»: شرطية، والخطاب للنبي ﷺ، و﴿مَا﴾ موصولة، تفيد العموم.

﴿جَمِيعًا﴾ حال، أي: لو أنفقت الذي في الأرض جميعاً، من كل ما يتمول وينفق من نقد أو عين، أو غير ذلك.

﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾: جواب ﴿لَوۡ﴾، و﴿مَا﴾: نافية، أي: ما جمعت بين قلوبهم بعد النفرة والفرقة الشديدة، والأحقاد والإحن، والعداوة والبغضاء المتأصلة في قلوبهم، يرثها الأبناء عن الآباء، بسبب الحروب الكثيرة التي دارت بينهم قبل الإسلام، وبخاصة بين الأوس والخزرج.

والمعنى: لو حاولت تأليفهم ببذل المال العظيم- حتى لو كان ذلك ما في الأرض جميعاً- ما ألفت بين قلوبهم. وقد قيل:

إن القلـــوب إذا تنـــافر ودهـــا ... شبه الزجاجـة كسـرها يشـعب[(٢)]

وقال الآخر:

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٢٥)، وفي تفسير سورة الضحى (٤٩٥٠)، ومسلم في الجهاد والسير- ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٧)، وأحمد (٤/ ٣١٢-٣١٣)، والترمذي في التفسير (٣٣٤٥)، من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

(٢) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص ٢٨).

وقـد يَنْبُـت المرعـى عـلى أثَـرِ الـدِّمَنْ وتبقـى حـزازتُ النفـوس كـما هيـا[(١)]

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ﴾، أي: ولكن الله- عز وجل- بقدرته التامة، على تقليب القلوب وتصريفها، وإحيائها بعد موتها ألف بينهم وجمع قلوبهم.

ولهذا كان ﷺ يكثر من قوله: «**يا مقلّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**»[(٢)].

ولما نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن موالاة الكافرين في مطلع سورة الممتحنة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾ [الآية: ١].

أعقب ذلك بفتح باب الرجاء لهم بإيمان المذكورين فتعود المودة بينهم، وذلك بقوله بعد عدة آيات ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [الممتحنة: ٧].

ولما عاتب عز وجل المؤمنين بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝١٦﴾ [الحديد: ١٦].

أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾ [الحديد: ١٧]، طمأنة وبشارة للمؤمنين بأن من يحيي الأرض بعد موتها قادر على إحياء القلوب بعد موتها وتليينها بعد قسوتها، وجمعها بعد اختلافها وتفرقها.

ولهذا امتنَّ الله- عز وجل- على نبيه ﷺ بهذا التأليف بينهم، كما امتنَّ عليهم بذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولهذا قال ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين: «**يا معشر الأنصار، ألم**

---

(١) البيت لزفر بن الحارث. انظر: «ديوان المعاني» (٢/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه الترمذي في القدر (٢١٤٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟» كلما قال شيئاً؛ قالوا: الله ورسوله أمن»[١].

وعن عبدالله بن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزها شيء**، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾»[٢].

وإنما امتنَّ الله على نبيه ﷺ بتأليفه- عز وجل- بين قلوب المؤمنين؛ لأن اجتماع القلوب وتآلفها ومحبة المؤمنين بعضهم لبعض هو مكمن القوة والعزة والنصر والنجاة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا أوجب الله- عز وجل- على المؤمنين المحبة فيما بينهم، وجعل ذلك من شرط الإيمان، كما قال ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم**»[٣].

فدلَّ هذا على وجوب المحبة بين المؤمنين، وعلى الترغيب على ما يكون سبباً لذلك وهو إفشاء السلام بينهم.

كما رغَّب الإسلام في الهدية والمصافحة من أجل ذلك.

وقال ﷺ: «**إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما، كما يتحات الورق من الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفرت ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة الطائف (٤٣٣٠)، ومسلم في الزكاة- إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦١)، وأحمد (٤/ ٤٢) من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد أيضاً (١/ ٥٧، ٧٦) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه. ومن حديث أنس- رضي الله عنه (٣/ ١٠٤، ٢٥٣).

(٢) أخرجه عبدالرزاق فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٩)، والحاكم في «تفسير سورة الأنفال» (٢/ ٣٢٨-٣٢٩)- وقال: «صحيح على شرط الشيخين».

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٤)، وأبوداود في الأدب (٥١٩٣)، والترمذي في الاستئذان والآداب (٢٦٨٨)، وابن ماجه في المقدمة (٦٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبراني- فيما ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٣٧) وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح، غير سالم بن عيلان وهو ثقة».

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: إنه- عز وجل- ذو العزة التامة بأقسامها الثلاثة: عزة القوة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وعزة القهر والغلبة؛ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤]، وعزة الامتناع فلا أحد يناله بسوء.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة، الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد للذين كفروا، وأنهم لن يسبقوا ويفوتوا ويفلتوا من عقاب الله وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾.

٢- لا ينبغي أن يظن أحد أن الذين كفروا سيفوتون ويفلتون من عذاب الله تعالى.

٣- قدرة الله- عز وجل- التامة على أخذ الكافرين، والانتقام منهم، وأنهم لا يعجزونه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

٤- يجب على المسلمين إعداد ما استطاعوا من قوة معنوية، قوامها الإيمان والعلم والحنكة السياسية وسداد الرأي، ومن قوة مادية بالاستعداد بالقوة الآلية بصناعة المراكب البرية والبحرية والجوية، وأنواع الأسلحة والذخائر لكل عصر بحسبه والتدريب عليها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.
وذلك لتأمين الدعوة إلى الله عز وجل، وحفظ مقدسات المسلمين وبلادهم وثرواتهم وثغورهم، وغير ذلك.

٥- وجوب الأخذ بالأسباب وأنه لا ينافي التوكل على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم﴾ الآية.

٦- وجوب أخذ الحيطة من الكفار.

٧- أن التكليف إنما يكون بما يستطاع دون ما لا يستطاع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

٨- أن الحقوق إنما تحفظ وتصان بالقوة بعد التوكل على الله عز وجل.

٩- فضل الخيل والترغيب في رباطها في سبيل الله؛ لأنها من أعظم وسائل القوة للقتال في سبيل الله، وبخاصة في العهود الإسلامية الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

١٠- أن المقصود من إعداد القوة إرهاب عدو الله وعدو المؤمنين من الكفار من المشركين واليهود، ومن دونهم من المنافقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

١١- عداوة الكفار لله- عز وجل- وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وأن من عادى الله فهو عدو للمؤمنين، كما أن من عادى المؤمنين فهو عدو لله عز وجل.

١٢- التهديد للمنافقين وعظم خطرهم على الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

١٣- أن البشر لا يعلمون الغيب، وما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾.

١٤- علم الله- عز وجل- بالخلق وأحوالهم؛ وما تنطوي عليه قلوبهم وضمائرهم من النفاق وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

١٥- الترغيب والحث على الإنفاق في سبيل الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

١٦- فضل النفقة في سبيل الله مهما قلَّت؛ لقوله تعالى: ﴿مِن شَىْءٍ﴾، أي: مهما كان قليلاً أو كثيراً.

١٧- إعطاء المنفقين أجر وثواب ما أنفقوه وافياً، بلا نقصان؛ لقوله تعالى: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

بل إن الله يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال ﷺ: «**كل عمل ابن آدم له يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف،**

قال الله- عز وجل: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»[١].

١٨- كمال عدل الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

١٩- أن الإنفاق في سبيل الله أعظم وأهم وسائل إعداد القوة؛ ولهذا رغب- عز وجل- بالإنفاق في سبيل الله- بعد الأمر بإعداد القوة، وذلك أن الجهاد نوعان: جهاد بالمال، وجهاد بالنفس، والجهاد بالمال أهم؛ لأن الجهاد بالنفس لا يقوم إلا على الجهاد بالمال، ولهذا نجد القرآن الكريم- غالباً- يقدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس.

٢٠- إذا جنح الكفار للمسالمة ومالوا إلى المصالحة ينبغي لولي أمر المسلمين قبولها منهم ومسالمتهم؛ لأمر الله- عز وجل- نبيه ﷺ بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾.

٢١- في الأمر بمسالمة العدو إذا طلب ذلك إشارة إلى أن القتال في الإسلام إنما شُرِع لهدف وهو هداية الناس لدين الله، وزحزحتهم عن النار، وإدخالهم الجنة، وليس المقصود منه القتل.

٢٢- حكمة التشريع العظيمة في الأمر بمسالمة العدو إذا طلب ذلك ومال إليه- والتي قد تخفى على الكثيرين، وذلك لما يترتب على السلم والصلح من فوائد عظيمة ومصالح جمة، ومنافع كثيرة، من معرفة الناس بالإسلام وأحكامه وعدله وإنصافه ومن ثم الدخول فيه، وأعظم شاهد على ذلك ما حصل وترتب على صلح الحديبية بين الرسول ﷺ والمشركين حيث حصلت الهدنة وأمن الناس بعضهم بعضاً فدخل خلق كثير في الإسلام وأقبلوا عليه- مع ما وجد بعض الصحابة كعمر بن الخطاب- رضي الله عنه- من غضاضة في الصلح بداية الأمر- كما جاء في حديث الصلح[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١١٥١)، والنسائي في الصيام (٢٢١٥)، والترمذي في الصوم (٧٦٤)، وابن ماجه (١٦٣٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط- الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٧٣١- ٢٧٧٢)، =

٢٣- وجوب التوكل على الله- عز وجل- والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٢٤- ينبغي فعل السبب بإعداد القوة مع التوكل على الله عز وجل، كما ينبغي لولي أمر المسلمين إذا طلب العدو المسالمة ومال إليها أن يسالمهم ويتوكل على الله- عز وجل- فإنه كافيه ما وراء ذلك.

٢٥- إثبات اسم الله- عز وجل- ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ وما يدل عليه من صفة السمع الواسع لله- عز وجل- الذي يسع جميع الأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

٢٦- إثبات اسم الله- عز وجل- ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ وما يدل عليه من صفة العلم الواسع لله- عز وجل- الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

٢٧- في اجتماع صفة السمع الواسع والعلم الواسع لله- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال.

٢٨- طمأنة الله- عز وجل- لنبيه ﷺ بكفايته له إن أراد الكفار بطلب المسالمة خديعته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ وهذا له ﷺ ولولاة الأمر من بعده من المسلمين.

٢٩- في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ ما يشير إلى توقع الخيانة من الكفار، وأن ذلك وارد، إذ ليس بعد الكفر ذنب أعظم منه.

٣٠- تأكيد كفايته- عز وجل- لنبيه ﷺ إن أرادوا بطلب السلم خديعته ﷺ- بذكر سابق تأييده له بنصره وبالمؤمنين وبالتأليف بين قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

٣١- أن من أعظم نعم الله- عز وجل- على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين تأليفه- عز وجل- بين قلوبهم- مع ما كان بينهم من العداوة المتأصلة بسبب الحروب التي كانت بينهم في الجاهلية- ولهذا امتن الله- عز وجل- على النبي ﷺ بذلك، فقال

وعبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ٣٣٣-٣٤٢)- المغازي- غزوة الحديبية- من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

٣٢- أن التأليف بين القلوب المتنافرة ليس بالأمر اليسير، بل ولا الممكن إلا بتوفيق الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

٣٣- قدرة الله- عز وجل- التامة على تقليب القلوب، والتأليف بينها، وإحيائها بعد موتها.

٣٤- أن العبرة بالائتلاف والاجتماع ائتلاف القلوب واجتماعها، لا الأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾، وقوله: ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾.

٣٥- إثبات صفة العزة التامة لله- عز وجل- بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾.

٣٦- إثبات صفة الحكم التام لله- عز وجل- بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة لله- عز وجل- بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ ﴾.

وعد الله- عز وجل- في الآية السابقة نبيه ﷺ بأنه إن أراد الكفار أن يخدعوه بطلبهم السلم فإن حسبه وكافيه الله ومن اتبعه من المؤمنين، ثم أتبع ذلك بوعده في هذه الآية بكفايته له مطلقاً، هو ومن اتبعه من المؤمنين.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾، «يا»: حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب و«ها»: للتنبيه، و﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ صفة لـ«أي» أو بدل.

والنداء لنبينا محمد ﷺ، وقد خصه الله- عز وجل- من بين الأنبياء والرسل بندائه باسم النبوة والرسالة تكريماً وتشريفاً له ﷺ.

وتصدير الخطاب بالنداء فيه مع التشريف والتكريم له ﷺ التنبيه والعناية والاهتمام بما بعده من أحكام ونحو وذلك.

و«النبي» أصله «النبيء» مشتق من النبأ وهو الخبر؛ لأنه مُنْبَأٌ ومُخْبَرٌ من عند الله عز وجل، ومُنْبِئٌ ومُخبِرٌ لقومه، وأيضاً مشتق من النبوة، وهي المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- ذوو مكانة عالية ومنزلة رفيعة عند الله، وعند المؤمنين.

﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

الواو: للمعية، أي: حسبك الله مع من اتبعك من المؤمنين. كما قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا   فحسبك والضحاك سيف مهند[1]

أي: حسبك مع الضحاك.

---

(١) نسب لجرير في «ذيل الأمالي» (ص١٤٠).

والمعنى: يكفيك الله مع من اتبعك من المؤمنين، أي: يكفيكم جميعاً.

ويجوز كون الواو عاطفة، وتكون «من» معطوفة على الكاف المجرورة في ﴿حَسْبُكَ﴾، أي: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، أي: يكفيك الله ويكفي من اتبعك من المؤمنين.

أي: يكفيك الله وحده كفاية عامة بالحفظ والنصر والتأييد وغير ذلك أنت والذي اتبعك واهتدى بهديك من المؤمنين.

ولا يصح أن تكون «من» معطوفة على اسم الله، فيكون المعنى: حسبك الله وأتباعك من المؤمنين، لأن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة، والرغبة والإنابة والحلف، كما قال المؤمنون: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ولهذا قال تعالى في الآية السابقة: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: ٦٢]، ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد بنصره وبالمؤمنين. وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ﴾ [الزمر: ٣٦]، فأخبر أنه وحده كاف عبده.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾.

أعيد النداء في هذه الآية؛ تأكيداً للمعاني السابقة من تشريفه ﷺ وتكريمه، والعناية والاهتمام بما بعد هذا النداء من أحكام.

﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ التحريض: الحث والترغيب والتهييج على الشيء، أي: حث المؤمنين على القتال، وهيجهم وشجعهم عليه، ورغِّبهم فيه بذكر ما يترتب عليه من النصر والتمكين للأمة، وما أعد الله للمجاهدين في سبيله.

ولهذا كان ﷺ يحث على القتال، ويحرض عليه، عند التحام الصفوف، ومواجهة العدو؛ كما قال ﷺ لأصحابه يوم بدر لما أقبل المشركون بعَدَدهم وعُددهم: «قوموا إلى

جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟! قال رسول الله ﷺ: «**نعم**». فقال: بخٍ بخٍ. فقال: «**ما يحملك على قول: بخٍ بخٍ**»؟ قال: رجاء أن أكون من أهلها. قال: «**فإنك من أهلها**» فتقدم الرجل فكسر جفنَ سيفه، وأخرج تمرات، فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قُتِل رضي الله عنه»[(١)].

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ الكلام استئناف بياني، و«كان» هنا تامة، أي: إن يوجد منكم، أيها المؤمنون ﴿عِشْرُونَ﴾ رجلاً مقاتلاً ﴿صَـٰبِرُونَ﴾، أي: ثابتون في القتال متحملون لمشاقه، وللكرِّ والفرِّ فيه، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقال ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وإذا لقيتموهم فاصبروا**»[(٢)].

﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾، أي: يقاوموا ﴿مِا۟ئَتَيْنِ﴾، أي: مائتي مقاتل من الذين كفروا وينتصروا عليهم بإذن الله- عز وجل- فالمقاتل الواحد من المؤمنين يصابر ويقاوم عشرة من الكفار.

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم وأبوعمرو ويعقوب ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ﴾ بالياء على التذكير، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: «وإن تكن».

وهذا مثل آخر لزيادة التوكيد على أنه ينبغي أن يقاوم الواحد من المؤمنين عشرة من الكفار، سواء قلَّ عدد الفريقين أو كثر، ولزيادة الاطمئنان بالغلبة للمؤمنين.

أي: وإن يكن منكم أيها المؤمنون مائة مقاتل ﴿يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: يقاوموا ﴿أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وينتصروا عليهم- بإذن الله عز وجل.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة- ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١)، وأحمد (٣/ ١٣٦-١٣٧)، من حديث أنس رضي الله عنه. وانظر: «السيرة النبوية» (١/ ٦٢٧)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٠).

(٢) سبق تخريجه.

ولم يقل هنا «مائة صابرون» أو «مائة صابرة» اكتفاءً بالوصف الأول في قوله: ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾، كما اكتفى بذكر قيد «الكفر» هنا عن الجملة الأولى.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

الباء: للسببية، والضمير «هم»: يعود إلى الذين كفروا، أي: إنما كان الواحد من المؤمنين يقاوم العشرة من الكفار بسبب أن الكفار ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

والمعنى: أن هؤلاء الكفار لا يفقهون فقهاً ينتفعون به في دينهم ويسعدون به في دنياهم وأخراهم؛ لكفرهم وعدم إيمانهم.

فهم لا يؤمنون إلا بالمحسوسات، ولا يؤمنون بالبعث وما بعده من العذاب والنعيم، فليس لهم هدف سام يقاتلون من أجله، ولهذا يخافون أشد الخوف من الموت، ويخشون الناس أشد من خشيتهم من الله، كما قال تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣].

قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين، حين فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، فجاء التخفيف، فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ﴾ قال: فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم»(١).

قوله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية.

شرع الله- عز وجل- في الآية السابقة أن يقاوم الواحد من المؤمنين عشرة من

---

(١) أخرجه البخاري في **تفسير قوله تعالى:** ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ (٤٦٥٣)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٤٦).

الكفار، ثم خفف عز وجل ذلك بمقاومة الواحد من المؤمنين للاثنين من الكفار.

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ ظرف للزمان الحاضر منصوب على الظرفية، أي: وقت نزول الآية، وما بعده.

﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾، أي: خفف الله عنكم فيما شرع لكم من مقاومة الواحد للعشرة.

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾ قرأ عاصم وحمزة وخلف بفتح الضاد: ﴿ضَعْفًا﴾، وقرأ الباقون بضمها: «ضُعفا»، وقرأ أبو جعفر وحده: «ضعفاء»: جمع ضعيف.

والضعف: عدم القدرة على العمل الشاق، وقد يكون ضعفاً جسدياً أو نفسياً، أو كليهما؛ لأن كلاً منهما قد يؤدي إلى الآخر.

أي:علم أن فيكم ضعفاً، لا تستطيعون معه أن يقاوم الواحد منكم عشرة من الكفار.

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بالياء على التذكير ﴿فَإِن يَكُن ﴾ وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: «فإن تكن».

أي: فإن يكن منكم أيها المؤمنون مائة صابرة ثابتة متحملة مشقة القتال﴿يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ ﴾، أي: يقاوموا مائتي مقاتل من الذين كفروا، وينتصروا عليهم.

وأعيد قيد الصبر بقوله: ﴿صَابِرَةٌ ﴾؛ للتأكيد على الصبر، وأنه لابد منه حتى مع التخفيف في مقاومة الواحد للاثنين.

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ ﴾، أي: وإن يكن منكم أيها المؤمنون ألف مقاتل ﴿يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ﴾، أي: يقاوموا ألفين وينتصروا عليهم.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ قيد للجملتين أي: بإذن الله وأمره الكوني، وإذن الله ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

وإذن شرعي كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ [الشورى: ٢١]، أي: ما لم يشرعه الله.

ولم يذكر قيد الصبر هنا اكتفاءً بذكره مع قوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ ﴾ كما

لم يذكر قيد الكفر بجملتي التخفيف اكتفاءً بما قبله.

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ معية الله- عز وجل- تنقسم إلى قسمين: معية عامة لجميع الخلق، بمعنى: العلم والإحاطة ونحو ذلك، فهو- عز وجل- مع خلقه كلهم بعلمه وإحاطته، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

ومعية خاصة بمعنى: التوفيق والنصر والتيسير والتسديد ونحو ذلك، وهذه خاصة بعباده المؤمنين الصابرين المتقين، فهو- عز وجل- معهم بتوفيقه وعونه وتيسيره وحفظه لهم، كما في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣، الأنفال: ٤٦]، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾.

٢- تشريفه ﷺ وتكريمه بندائه بوصف النبوة خاصة من بين الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾.

٣- إثبات نبوته ﷺ.

٤- كفاية الله- عز وجل- لنبيه ﷺ ولأتباعه المؤمنين، كفاية تامة، من جميع الوجوه؛ حفظاً، ونصراً وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٥- فضل الإيمان واتباع الرسول ﷺ لكفاية الله- عز وجل- له ﷺ ولمن اتبعه من المؤمنين.

٦- تحريض المؤمنين على القتال وحثهم عليه، وترغيبهم فيه، لما يترتب عليه من تأمين وحماية حرية الدعوة إلى الله- عز وجل- وحفظ وصيانة بلاد المسلمين ومقدساتهم وثرواتهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾.

٧- تكليف المؤمنين في أول الأمر بمقاومة الواحد منهم عشرة من الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾.

ولعل من أسباب ذلك- والله أعلم- قلة المسلمين مع كثرة أعدائهم.

٨- أن الكفار لا يفقهون فقهاً ينتفعون به في دينهم ويسعدهم في دنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

فهم يقاتلون بلا هدف سام، لا يرجون ثواباً، ولا يخافون عقاباً، ولهذا فهم يخافون أشد الخوف من الموت ويخشون الناس أشد من خشيتهم لله، ويرهبونهم أشد من رهبتهم من الله- ولهذا من شدة خوفهم وجبنهم يقاوم الواحد من المؤمنين عشرة منهم.

٩- نسخ مصابرة الواحد من المؤمنين لعشرة من الكفار بمصابرة الواحد من المؤمنين لاثنين من الكفار، تخفيفاً على المؤمنين بسبب ضعفهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾.

وقد أجمع أهل العلم على أن المؤمن مكلف بمصابرة اثنين من الكفار بدل أن كان مكلفاً بمصابرة عشرة، لكن من أهل العلم من يسمي هذا تخفيفاً، ومنهم من يسميه نسخاً وهو الصحيح. وهذه المسألة من أصح مسائل النسخ في القرآن الكريم.

١٠- أن من أنواع النسخ في القرآن الكريم النسخ إلى الأخف، كما في هذه الآية الكريمة، فنسخ الله- عز وجل- مصابرة الواحد من المؤمنين لعشرة من الكفار بما هو أخف، وهو مصابرة الواحد من المؤمنين لاثنين من الكفار.

١١- مراعاة الشرع الحكيم لأحوال المكلفين، فالتخفيف لأجل ضعفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ﴾.

١٢- أن من أقسام النسخ في القرآن الكريم نسخ الحكم مع بقاء التلاوة، فالآية في مقاومة الواحد للعشرة نسخ حكمها وبقيت تلاوتها.

١٣- تأكيد الحكم وإيضاحه بذكر أكثر من مثال، ففي مصابرة الواحد للعشرة أول الأمر ذكر أن العشرين يغلبون مائتين، وأن المائة يغلبون ألفاً.

وفي مصابرة الواحد للاثنين ذكر أن المائة يغلبون مائتين، وأن الألف يغلبون ألفين. وفي هذا تأكيد الحكم وإيضاحه، وبيان أن الأمر لا يختلف سواءً قل

الفريقان أو كثرا.

١٤- في إتيان الأمر في الآية بمقاومة الواحد من المؤمنين عشرة من الكفار، ومقاومة الواحد من المؤمنين بعد التخفيف لاثنين من الكفار- بلفظ الخبر تقوية قلوب المؤمنين والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين، وامتنان من الله- عز وجل- على المؤمنين وثناء عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة والإيمان والقوة في الحق، وإخبار لهم بذلك ليحمدوه ويشكروه.

١٥- ينبغي للمقاتلين في سبيل الله الصبر والثبات وقوة التحمل والتجلد على ما يصيبهم في ذات الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ الآية، وقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

١٦- بلاغة الإيجاز في القرآن فقد حذف وصف الصبر في موضعين اكتفاءً بالوصف الذي قبلهما.

١٧- أن غلبة المؤمنين للكفار وانتصارهم عليهم بإذن الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ولا شيء يحصل في الكون إلا بإذن الله عز وجل.

١٨- إثبات معية الله- عز وجل- الخاصة بالمؤمنين الصابرين، معية التوفيق والنصر والحفظ والتسديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

١٩- فضل الصبر والترغيب فيه وفضل أهله؛ لأن الله- عز وجل- معهم بمعيته الخاصة، بالتوفيق والنصر والحفظ والتسديد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

سـبب النـزول:

عن ابن عباس في حديثه عن عمر- رضي الله عنهما- فلما كان يومئذٍ- يعني يوم بدر- والتقوا، فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً.

قال أبوزميل: قال ابن عباس: «فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسارى**»؟ فقال أبوبكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا ابن الخطاب**»؟ قلت: لا والله، يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبوبكر، ولكني أرى أن تمكنّا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عقيل، فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبوبكر، ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبوبكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة**» شجرة قريبة من نبي الله ﷺ. وأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ ﴾ فأحل الله الغنيمة لهم»(١).

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير- الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣)، وأبوداود في الجهاد- فداء الأسير بالمال (٢٦٩٠)، وأحمد (١/ ٣٠-٣١)، والواحدي في «أسباب النزول» ص١٦١(-١٦٢).

=

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

هاتان الآيتان عتاب للمؤمنين في استبقائهم الأسرى، وأخذهم الفداء منهم.

قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ قرأ أبوعمرو ويعقوب بالتاء مؤنثاً «أن تكون» وقرأ الباقون بالياء مذكراً: ﴿أَن يَكُونَ﴾.

وقرأ أبوجعفر: «أُسارى» بضم الهمزة وبألف بعد السين، وقرأ الباقون: ﴿أَسْرَىٰ﴾ بفتح الهمزة وإسكان السين من غير ألف.

و«ما» في قوله: ﴿مَا كَانَ﴾ نافية، أي: ما كان لنبي من الأنبياء فيما شرعه الله له ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾، أي: أن يستبقي الأسرى؛ ليفاديهم.

والأسرى: جمع أسير ومأسور، والأسر: الحبس.

﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: حتى يغلظ ويشتد في العدو قتلاً وتنكيلاً، ويتمكن سلطانه وأمره، وتقوى شوكة الحق وأهله، وتنكسر شوكة الباطل وأهله، ويأمن من عودة العدو إلى القوة. قال المتنبي[1]:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ

وأخرج الترمذي في تفسير سورة الأنفال (٥٠٨٠)، وأحمد (١/ ٣٨٣-٣٨٤)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٧٣-٢٧٦)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٦٠-١٦١)، والحاكم في المغازي (٣/ ٢١-٢٢) نحوه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن». وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

وأخرج أحمد (٣/ ٢٤٣)- نحوه مختصراً من حديث أنس رضي الله عنه.

وأخرجه بمعناه الحاكم في تفسير سورة الأنفال (٢/ ٣٢٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «على شرط مسلم».

(١) انظر: «ديوانه» (ص٣٨٣).

لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وذلك يوم بدر والمسلمون يومئذٍ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله- تبارك وتعالى- بعد هذا في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، فجعل الله النبي والمؤمنين بالخيار، إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادوهم»[١].

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ الخطاب للمؤمنين، والجملة كالعلة للنهي الذي دل عليه قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ الآية.

أي: تحبون وتطلبون بإبقاء الأسرى ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾، والعرض: ما يعرض ثم يزول.

وعرض الدنيا: متاعها وحطامها الزائل الفاني؛ لأنه ينتفع به قليلاً ثم يزول بسرعة، والدنيا كلها عرض زائل، وظل حائل، كما قال لبيد[٢]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾، أي: والله يحب لكم، ويطلب منكم أن تحبوا الآخرة وتطلبوها، وما فيها من الثواب العظيم، والنعيم المقيم، بإخلاص العمل لله وإعلاء كلمته، وإعزاز دينه دون شائبة من إرادة الدنيا.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: له- عز وجل- العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة، ومن عزته- عز وجل- وحكمه، وحكمته أن نهى عن استبقاء الأسرى حتى يُثْخَن في الأرض.

﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾.

﴿لَّوۡلَا﴾ شرطية، وهي: حرف امتناع لوجود.

﴿كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿كِتَٰبٞ﴾ بمعنى: «مكتوب»، أي: لولا مكتوب من الله وقضاء ﴿سَبَقَ﴾ في اللوح المحفوظ.

﴿لَمَسَّكُمۡ﴾، أي: لأصابكم، والخطاب لأهل بدر، ﴿فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾، «في»: للسببية،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٢).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٢٥٦).

و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي أخذتم أو بسبب أخذكم الغنائم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة.

أي: لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بإحلال الغنائم لهذه الأمة؛ لأصابكم يا أهل بدر بسبب ما أخذتم من الغنائم عذاب عظيم، ويؤيد هذا قوله ﷺ: «**وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي**»(١).

وقال بعض المفسرين: لولا قضاء من الله سبق أنه لا يعذب أحداً إلا بعد الحجة لأصابكم بسبب أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال بعضهم: لولا قضاء من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم، وإن عملوا ما شاؤوا لعاقبكم على أخذ الفداء؛ كما قال ﷺ في قصة حاطب بن أبي بلتعة لما قال عمر رضي الله عنه: «دعني أضرب عنقه». قال ﷺ: «**وما يدريك لعل الله اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(٢).

ولا مانع من حمل الآية على كل ما ذكر إذ لا منافاة بينها.

قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ ﴾، الفاء للتفريع، والأمر في قوله: «كلوا»: للإباحة، وفيه امتنان عليهم، و«ما» في قوله: ﴿مِمَّا﴾ موصولة، أي: فكلوا أيها المؤمنون من الذي غنمتم من أموال المشركين ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾.

و﴿حَلَٰلًا﴾ حال، و﴿طَيِّبًا ۚ﴾ صفة له، أي: حال كونه حلالاً طيباً، والحلال: ضد الحرام، والطيب: الجيد النفيس، ضد الرديء الخسيس.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٥٠)، والترمذي في التفسير (٣٣٠٥)، من حديث علي رضي الله عنه.

ومعنى ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، أي: حلالاً من خير الحلال لا شائبة فيه بوجه من الوجوه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: واتقوا الله بفعل ما أمركم الله به، واجتناب ما نهاكم عنه، وما حرَّمه عليكم، شكراً لله- عز وجل- على ما أنعم به عليكم من دفع العذاب عنكم، وإحلال الغنائم لكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: إن الله ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، يغفر لمن تاب جميع الذنوب، ويغفر لمن شاء ما دون الشرك.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أن الله- عز وجل- يقرر المؤمن بذنوبه ثم يقول له: «**أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»[(١)].

ومن مغفرته- عز وجل- أن دفع العذاب عنهم.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو رحمة واسعة وسعت كل شيء وعمَّت كل حي؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، .

رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين. ومن رحمته- عز وجل- أن أباح الغنائم لهم وللأمة وأطابها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾.

بعد ما أحل الله عز وجل للمؤمنين الغنائم وما أخذوه من الأسرى من الفداء، أتبع ذلك بأمره ﷺ بدعوة الأسرى إلى الخير والإيمان ليعوضهم الله خيراً مما أُخِذ منهم من الفداء.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٧٣).

سـبب النـزول:

عن مجاهد عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «قال العباس: فيَّ نزلت: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني فأبى فأبدلني الله بها عشرين عبداً كلهم تاجر، مالي في يديه»[1].

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ الآية. وكان العباس أُسر يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين نزلت هذه الآية: لقد أعطاني الله- عز وجل- خصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا، إني أُسرت يوم بدر، ففديت نفسي بأربعين أوقية، فآتاني أربعين عبداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله»[2].

قوله: ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عمرو: «من الأسارى»، وقرأ الباقون: ﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾.

أي: قل للذين في أيديكم أنت وأصحابك، أي في مَلكتكم ووثاقكم وتحت ولايتكم وحكمكم من أسرى بدر، وهم سبعون رجلاً من صناديد قريش، والذين أخذتم منهم الفداء.

﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾، أي: إيماناً، بدليل قوله بعده: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وهذا إنما يحصل للمؤمن، وبخاصة المغفرة.

﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، أي: يعطكم خيراً مما أخذ منكم من الفداء، خيراً منه ماديًّا، كمًّا وكيفاً ونوعاً من المال الكثير والرزق الواسع الوفير، من الغنائم وغير ذلك، عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «أتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: «**انثروه في المسجد**» قال: وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة، ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٧).
(٢) أخرجه الطبري (١١/ ٢٨٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٣٧).

أحداً إلا أعطاه، إذ جاء العباس، فقال: يا رسول الله، أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً، فقال له رسول الله ﷺ: «**خذ**»، فحثى في ثوبه، ثم ذهب يُقِلُّه، فلم يستطع، فقال: مُرْ بعضهم يرفعه إليَّ. قال: «**لا**» قال: فارفعه أنت عليَّ. قال: «**لا**»، فنثر منه، ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فمازال رسول الله ﷺ يتبعه ببصره حتى خفي عنه، عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم»[(١)].

وأيضاً يعطكم خيراً مما أُخِذ منكم معنوياً من السعادة والطمأنينة وانشراح الصدر بالإيمان في الدنيا وأيضاً في الآخرة مع الأجر العظيم.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، أي: ويغفر لكم ذنوبكم من الشرك وما دونه؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله كما قال ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «**أما علمت أن الإسلام يجب ما قبله، وأن التوبة تَجبُّ ما قبلها**»[(٢)].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه الجملة توكيد وتقرير لمضمون ما قبلها.

أي: والله ذو مغفرة واسعة، وذو رحمة واسعة عامة وخاصة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾، أي: وإن ينووا- يعني الأسرى.

﴿خِيَانَتَكَ﴾، أي: الغدر بك بنقض العهد الذي أعطوه بألا يعودوا إلى قتال المسلمين، وفيما يُظهر بعضهم من الإسلام والنصح للمسلمين، أو بمنع ما ضمنوا من الفداء.

﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ﴾ بكفرهم بالله وعدم قيامهم بالأمانة التي حملوها، وهي الإيمان بالله، وأداء حقه، وبأذيتهم رسول الله ﷺ والمؤمنين.

﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل بدر، وفي هذا ما فيه من ذمهم وتوقع الخيانة منهم.

---

(١) أخرجه البيهقي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٧-٣٨)، وأخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الجزية- ما أقطع النبي ﷺ من مال البحرين (٣١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١)، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾، أي: فأمكنك والمؤمنين منهم في بدر، وأظفركم بهم قتلاً وأسراً.

وفي هذا تحذير لهم من الخيانة، وتهديد لهم إن خانوا، كما أن فيه طمأنة من الله- عز وجل- لرسوله ﷺ والمؤمنين بتمكينهم منهم مرة أخرى- إن هم خانوا.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: والله ذو علم واسع وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨]، ومن ذلك علمه- عز وجل- بما في قلوب الأسرى من خير وصدق، أو إضمار للخيانة والغدر وغير ذلك.

﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكم تام، وحكمة بالغة في مجازاة كلٍ بعمله، وفي كل ما شرع وقدر.

وبعلمه- عز وجل- الواسع، وحكمه التام، وحكمته البالغة شرع هذه الأحكام الجليلة في شأن الأسرى، وغيرها.

الفوائد والأحكام:

١- عتاب الله- عز وجل- لنبيه ﷺ والمؤمنين في استبقاء الأسرى، وأخذ الفداء منهم دون قتلهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾.

٢- في عتاب الله- عز وجل- لنبيه ﷺ في شأن الأسرى رد على من يزعمون أنه ﷺ تَقَوَّلَ القرآن وافتراه من عند نفسه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الطور: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [يونس: ٣٨، هود: ١٣، ٣٥، السجدة: ٣. الأحقاف: ٨]، ومثل هذا العتاب ما جاء في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ [عبس: ١، ٢].

كما أن في الآيتين أيضاً دلالة على أن الأنبياء ليسوا بمعصومين من الوقوع في الصغائر، لكنهم لا يُقَرّون عليها وسرعان ما يرجعون عنها ويتوبون[1].

٣- نفي الله- عز وجل- أن يكون لنبي أسرى فيما شرعه الله له حتى يثخن في الأرض قتلاً، وتقوى شوكة الحق وأهله، وتنكسر شوكة الباطل وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾، وهو نفي وخبر بمعنى النهي،

(١) انظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٤/ ٣١٩).

أي: ما ينبغي لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض.

٤- اهتداء النبي ﷺ واقتداؤه وكل نبي بمن قبله، كما قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٥- إذا تم للنبي ﷺ وأتباعه الإثخان في الأرض جاز لهم استبقاء الأسرى ومفاداتهم؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.
والإمام مخير فيهم إن شاء قتلهم وإن شاء منَّ عليهم، وإن شاء فاداهم؛ كما قال تعالى في سورة محمد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [الآية: ٤].

٦- مشروعية الجهاد في الرسالات السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾.

٧- إرادة المؤمنين باستبقاء الأسرى عرض الدنيا، وهو ما يؤخذ منهم من الفداء؛ لقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

٨- إثبات الإرادة للإنسان والاختيار، وأنه ليس مجبوراً على ما يقول ويفعل، كما يزعمه الجبرية.

٩- التعريض بحقارة الدنيا وما فيها من المال والمتاع؛ لأن كل ذلك يعرض ويزول سريعاً؛ لقوله تعالى: ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

١٠- إثبات الإرادة الشرعية لله- عز وجل- التي بمعنى المحبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾.

١١- ينبغي للمؤمنين الإخلاص لله- عز وجل- في قتالهم وجميع أعمالهم، رجاء ما عنده من الأجر العظيم والنعيم المقيم في جنات النعيم في الدار الآخرة، كما أراد الله ذلك، وأحبه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾.

١٢- إثبات صفة العزة التامة لله عز وجل، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله- عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

١٣- في اجتماع صفة العزة التامة والحكم التام، والحكمة البالغة في حقه- عز وجل-

زيادة كماله سبحانه إلى كمال.

١٤- التحذير للمؤمنين من مخالفة أمر الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

١٥- أنه سبق في علم الله- عز وجل- وفيما كتبه وقضاه في اللوح المحفوظ أنه سيحل الغنائم لهذه الأمة، كما سبق في حكمه وقضائه أنه لا يعاقب أحداً قبل إقامة الحجة عليه، وأنه غفر لأهل بدر- رضي الله عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

١٦- ليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب أو حسب؛ لهذا عاتب رسوله ﷺ والمؤمنين، وبيَّن تعرضهم للعذاب العظيم، فقال تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

١٧- إباحة الغنائم لهذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ وهذا مما خصّت وفضلت به هذه الأمة. والأمر بعد الحظر هنا يدل على الإباحة.

١٨- تأكيد حل الغنائم لهذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، أي: لا شائبة فيه بوجه من الوجوه.

١٩- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وترك ما حرمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٢٠- إثبات صفة المغفرة والرحمة الواسعتين لله- عز وجل، وفي تقديم المغفرة على الرحمة إشارة إلى أن التخلية قبل التحلية، فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وتأكيد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

٢١- نداء الله- عز وجل- وخطابه لنبيه محمد ﷺ باسم النبوة تشريفاً وتكريماً له، وعناية واهتماماً بما بعد هذا النداء، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾.

٢٢- ترغيب هؤلاء الأسرى بالخير والإيمان بوعدهم إن آمنوا بإيتائهم خيراً مما أخذ منهم من الفداء، في الدنيا والآخرة، والمغفرة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم

مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾.

٢٣- فضل الله- عز وجل- وتوبته، ومغفرته ورحمته حيث دعا هؤلاء الأسرى ورغبهم بالخير والإيمان ووعدهم بتعويضهم خيراً مما أخذ منهم، مع ما كانوا عليه من الكفر والصد عن دين الله وقتال المؤمنين؛ لأنه- عز وجل- لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولهذا تاب على من تاب منهم كالعباس رضي الله عنه.

٢٤- علم الله- عز وجل- بما تنطوي عليه القلوب، وتخفيه الصدور، من الإيمان وضده؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ﴾.

٢٥- أن الخير في الإيمان لما يترتب عليه من الخير في الدنيا والآخرة ومغفرة الذنوب.

٢٦- ثبوت أخذ المؤمنين الفداء من أسرى بدر؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾.

٢٧- تحذير وتهديد الأسرى وغيرهم من خيانته ﷺ بنقض العهد الذي أعطوه بأن لا يعودوا إلى قتال المسلمين، وبما يُظهر بعضهم من الإيمان والنصح للمسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾.

٢٨- أن الكفر خيانة لله- عز وجل- والكفار ممن خانوا الله- عز وجل؛ لأنهم لم يقوموا بالأمانة التي حملوها وهي الإيمان بالله والقيام بحقه عز وجل.

٢٩- طمأنة الرسول ﷺ بتمكينه من الأسرى وغيرهم من الكفار مرة أخرى إن هم أرادوا خيانته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾، أي: في بدر.

٣٠- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله- عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

٣١- في اقتران العلم الواسع والحكم التام والحكمة البالغة واجتماعها في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾.

ختم الله- عز وجل- هذه السورة العظيمة بإثبات الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار دون من لم يهاجروا، وبيان أن الكفار بعضهم أولياء بعض.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، أي: إن الذين صدّقوا بقلوبهم وألسنتهم بالله وشرعه وبكل ما يجب الإيمان به، وانقادوا لذلك بجوارحهم.

﴿وَهَاجَرُواْ ﴾، أي: وهاجروا من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم، فتركوا ديارهم وأولادهم وعشيرتهم وأموالهم.

والهجرة في اللغة: الترك، وفي الشرع: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

وكانت سنة الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- فقد هاجر إبراهيم- عليه السلام- وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، وهاجر لوط- عليه السلام- وقال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وهاجر موسى- عليه السلام، وهاجر محمد ﷺ، وهاجر المسلمون بإذنه إلى الحبشة، ثم إلى المدينة.

﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: وبذلوا جهدهم وطاقتهم بأموالهم وأنفسهم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: في القتال لإعلاء كلمة الله- عز وجل؛ كما قال

ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله»**[(١)].

وقدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس؛ لأهمية الجهاد بالمال؛ لأن عليه قيام الجهاد بالنفس؛ فإعداد العدة من السلاح والمراكب والطعام والأثاث كل ذلك وغيره مما يحتاجه المجاهدون في سبيل الله، ولا يحصل ذلك إلا بالمال.

ولأهمية الجهاد بالمال يقدم القرآن الكريم- غالباً- الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾.

ذكر الله- عز وجل- المهاجرين أولاً، وأثنى عليهم، ثم ذكر بعدهم الأنصار وأثنى عليهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ أي: والأنصار الذين آووا الرسول ﷺ وأصحابه المهاجرين وأسكنوهم في منازلهم في المدينة، وواسوهم بأموالهم.

﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾، أي: ونصروا دين الله ورسوله، ولهذا سموا بـ«الأنصار»- رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ الإشارة: للفريقين المهاجرين والأنصار، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تشريفاً لهم، ورفعة لشأنهم.

أي: فالمؤمنون من المهاجرين والأنصار بعضهم أولى وأحق ببعض من كل أحد، وبعضهم أنصار بعض؛ ولهذا آخى الرسول ﷺ بينهم.

والمؤمنون كلهم بعضهم أولياء بعض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

عن جرير بن عبدالله البجلي- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف**

---

(١) سبق تخريجه.

بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة»[١].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«المهاجرون والأنصار والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة»**[٢].

وقد حمل جمع من المفسرين وأهل العلم الولاية هنا على ما يشمل ولاية النصرة والمؤازرة مع الميراث، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه للأُخُوَّة التي آخى النبي ﷺ بينهم**»[٣].

وحمل كثير من المفسرين وأهل العلم الولاية هنا على ولاية النصرة والمعونة والمؤازرة دون الميراث.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾.

بيَّن- عز وجل- في الآية السابقة ولاية المؤمنين من المهاجرين والأنصار بعضهم بعضاً، ثم بيَّن أنه لا ولاية بينهم وبين الذين لم يهاجروا.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾، أي: ولم يهاجروا من مكة والبوادي إلى المدينة.

﴿مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ قرأ حمزة بكسر الواو «وِلايتهم» وقرأ الباقون: ﴿وَلَـٰيَتِهِم﴾ بفتحها، والمعنى واحد.

والخطاب في قوله: ﴿مَا لَكُم﴾ لجميع المؤمنين من المهاجرين والأنصار وغيرهم و﴿مَا﴾ نافية.

والمعنى: لا ولاية بينكم وبينهم في شيء، أو لا تتولونهم في شيء ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾، أي: إلى غاية أن يهاجروا من أرض الشرك إلى أرض الإسلام، وفي هذا ترغيب في الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام وتأكيد لوجوبها.

عن جرير بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا بريء من أي**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٣)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٩): «تفرد به أحمد».

(٢) أخرجه أبويعلى في «مسنده» فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٩).

(٣) أخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٩٢)، وأبوداود في الفرائض (٢٩٢٢).

مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قالوا: يا رسول الله، لم؟ قال: «**لا تراءى ناراهما**»[١].

وعن سمرة بن جندب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله**»[٢].

وعن بريدة بن الحصيب- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغدروا، ولا تُمَثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فَأَيَّتُهُنَّ ما أجابوك، فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم**»[٣].

والهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام باقية إلى قيام الساعة، قال ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»[٤].

وأما قوله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**»[٥] فمعناه لا هجرة من مكة؛ لأنها أصبحت

---

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد- النهي عن قتل من اعتصم بالسجود (٢٦٤٥)، والنسائي في القسامة (٤٧٨٠)، والترمذي في السير (١٦٠٤).

(٢) أخرجه أبوداود في الجهاد- الإقامة بأرض الشرك (٢٧٨٧).

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد- تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته لهم بآداب الغزو وغيرها (١٧٣١)، وأبوداود في الجهاد (٢٦١٣)، والترمذي في الديات (١٤٠٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨)، وأحمد (٥/ ٣٥٢).

(٤) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٤٧٩)، والدارمي في السير (٢٥١٣)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، والنسائي في المناسك (٤١٧)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣)، =

بعد فتحها دار إسلام.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾، أي: وإن طلبوا منكم النصر على عدوهم لأجل الدين، لرد الفتنة عنهم في دينهم، كما إذا حاول الكفار إرجاعهم عن دينهم.

﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾، قدم الخبر؛ للاهتمام به، أي: فيجب عليكم النصر لهم، أو فواجب عليكم نصرهم؛ انتصاراً لدين الله عز وجل، ولأنهم إخوانكم في الدين، حتى وإن لم يستنصروكم.

ومفهوم هذا أنهم إذا استنصروهم لمقصد من المقاصد غير الدين فليس عليهم نصرهم.

﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، أي: إلا أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم ميثاق، أي: عهد مؤكد وهدنة فلا تنصروهم، ولا تخفروا ذمتكم، وتنقضوا عهدكم مع الذين عاهدتم.

عن علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ يعني: إن استنصركم الأعراب المسلمون أيها المهاجرون والأنصار على عدوهم فعليكم أن تنصروهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾»[(١)].

وهذا يدل على عظمة الإسلام واحترامه للعهود والمواثيق حتى مع غير المسلمين، بل حتى مع المحاربين.

فهؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا وطلبوا النصر من المؤمنين المهاجرين والأنصار وغيرهم على قوم بينهم وبينهم ميثاق اجتمع فيه أمران:

الأول: أنهم لم يهاجروا، **والثاني**: أنهم طلبوا النصر على قوم عاهدهم المؤمنون.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم بصير، أي: مطَّلع وشاهد عليه، عليم به، وإذا كان سبحانه بصيراً مطلعاً على أعمالهم عالماً بها، فسيحاسب ويجازي عليها وفي هذا وعد للمؤمنين، ووعيد

من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٤٢).

للكافرين والعُصاة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۝٧٣﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾.

بعد ما بيَّن أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض من المهاجرين والأنصار وغيرهم، أتبع ذلك ببيان المقابل وهو أن الكفار بعضهم أولياء بعض.

أي: والذين كفروا على اختلاف مللهم ونحلهم من المشركين والمنافقين واليهود والنصارى وغيرهم بعضهم أنصار وأعوان بعض على الباطل ضد المؤمنين، وليسوا ولا أحد منهم بأولياء للمؤمنين، وبدهي أن يوالي الكفار بعضهم بعضاً وخاصة ضد الإسلام والمسلمين؛ لأن الكفر ملة واحدة، وهم وإن اختلفوا فيما بينهم في بعض الأشياء فإنهم يجتمعون على موالاة بعضهم بعضاً ضد الإسلام والمسلمين.

وهذا مما يوجب على المسلمين الحذر منهم جميعاً، ومن موالاتهم، ومن الاغترار بما يبدونه من موالاة ومحبة ونُصح للمؤمنين- كما يزعمون، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

كما يؤكد هذا على المسلمين وجوب موالاة بعضهم لبعض دون الكافرين، وأن لا يكون الكفار أحسن حالاً منهم في الموالاة بينهم.

وإن مما يحز في نفس كل مسلم أن يكون الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم أشد موالاة فيما بينهم، من كثير من المسلمين فيما بينهم- وهذه والله المصيبة العظمى، والطامة الكبرى- فبينما ترى أهل الكفر يتسارعون إلى عقد المعاهدات والمحالفات والاتحادات فيما بينهم، ترى المسلمين- وهم الأمة الواحدة- موغلين في الاختلاف والتدابر، يكيد بعضهم لبعض، ويتربص بعضهم ببعض الدوائر، بل ويقاتل بعضهم بعضاً، لا تكاد تجمعهم راية، أو توحدهم غاية، ولم يحافظوا ولا على الحد الأدنى من الموالاة والتناصر فيما بينهم. وحل محل ذلك التفرق والتناحر، كما قال الشاعر:

فتفرقوا شيعاً فكل مدينة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

ولن يعود للأمة الإسلامية عزها ومجدها وقوتها إلا بالاجتماع على الحق ونبذ

الاختلاف والفرقة، وموالاة المسلمين بعضهم بعضاً والبراءة من الكافرين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾.

﴿إِلَّا﴾ أدغمت «إن» الشرطية في «لا» النافية، والضمير في ﴿تَفۡعَلُوهُ﴾ يعود إلى مضمون ما ذكر، أي: إلا تفعلوا أو تمتثلوا ما ذكر من موالاة ومناصرة بعضكم بعضاً أيها المؤمنون، وعدم موالاة الكافرين.

﴿تَكُن فِتۡنَةٞ﴾، «كان» تامة، ونكّر ﴿فِتۡنَةٞ﴾ للتعظيم، أي: تقع وتحصل فتنة عظيمة، والفتنة: تكون بالخير والشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والمعنى: تقع وتحصل بسبب موالاة الكافرين، وعدم موالاة المؤمنين فيما بينهم، أو بموالاة المؤمنين والكافرين وعدم التمييز بينهم فتنة عظيمة في الأرض، وبين الناس، بالتباس الأمر، واختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وتعطل الجهاد والهجرة، وكثير من مقاصد الشرع، وضعف المسلمين وتفرقهم وجرأة الكفار عليهم، وربما ارتد بعضهم عن دينه، بسبب قرب العهد بالإسلام، وتأثير المشركين عليهم بكثرتهم وقوتهم، ونحو ذلك.

﴿وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾، الفساد: ضد الصلاح، أي: ويقع بسبب ذلك فساد كبير عظيم؛ كما قال ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه؛ إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»(١).

قال ابن كثير(٢): «أي: إن لم تجانبوا المشركين، وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض».

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في النكاح- ما جاء في من ترضون دينه (١٠٨٥)، من حديث أبي حاتم المزني رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وأخرجه الترمذي أيضاً (١٠٨٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في «تفسيره» (٤/ ٤٢).

بيَّن الله- عز وجل- في الآيات السابقة ولاية المؤمنين بعضهم لبعض، من المهاجرين المجاهدين في سبيله والأنصار الذين آووا ونصروا، ثم أتبع ذلك بالثناء عليهم، ومدحهم بصدق الإيمان وتحقيقه، وبيان عظم ما أعد لهم من المغفرة والرزق الكريم في الآخرة.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعظيماً ورفعة لشأنهم، وأكد هذا الوصف فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

و﴿حَقّٗاۚ﴾ مفعول مطلق، أي: فأولئك هم المؤمنون حقيقة، إيماناً حقًّا، الذين صدقوا إيمانهم بفعالهم، فالمهاجرون: تركوا أولادهم وأهليهم وقومهم وديارهم وأموالهم، والأنصار: آووا إخوانهم المهاجرين وواسوهم وآثروهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، والجميع: جاهدوا في سبيل الله ونصروا دين الله، ووالى بعضهم بعضاً في ذات الله.

﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ قدم الخبر ﴿لَّهُم﴾ للتأكيد، ونكَّر ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ للتعظيم، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.

﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، الرزق: العطاء، أي: وعطاء وثواب ﴿كَرِيمٞ﴾، أي: كثير واسع طيب حسن دائم.

أي: ولهم عطاء وثواب كثير واسع طيب حسن دائم في الجنة لا نكد فيه، ولا كدر؛ كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦﴾ [التين: ٦].

فجمع لهم عز وجل بين زوال المرهوب بالمغفرة لذنوبهم وسترها والتجاوز عنها، وبين حصول المطلوب بالرزق والعطاء الواسع الكثير الجزيل.

وقدم المغفرة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

وقد أثنىٰ الله- عز وجل- على المهاجرين والأنصار وبين عظم ما أعده لهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وما هم عليهم من الموالاة والمناصرة فيما بينهم، وأثنى عليهم بما هم عليه من حقيقة الإيمان، وما أعد لهم من المغفرة والرزق الكريم، ثم أتبع ذلك ببيان حكم من آمن بعدهم وهاجر وجاهد معهم وأنه منهم له ما لهم وعليه ما عليهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ ﴾، أي: من بعد المهاجرين الأولين والأنصار ﴿وَهَاجَرُوا۟ ﴾ إلى دار الإسلام ﴿وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ ﴾ في سبيل الله.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ﴾ دخلت الفاء على الخبر؛ لتضمن الموصول معنى الشرط، أي: فأولئك من جملتكم في حكم الإيمان والهجرة والجهاد، وفي الموالاة، وفي المغفرة والرزق الكريم في الآخرة، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر: ١٠].

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾.

لما ذكر عز وجل الموالاة العامة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار ومن بعدهم، وهي الموالاة بالنصرة والمحبة ونحو لذلك أتبع ذلك بذكر الموالاة الخاصة بينهم، وهي الموالاة بين القرابة بالإرث.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾، الواو: عاطفة، و﴿أُوْلُواْ﴾ بمعنى: أصحاب، أي: وأصحاب الأرحام، والأرحام: جمع رحم، وهو في الأصل: موضع تكوّن الجنين. والمراد بالأرحام القرابة، وسُمي القرابة أرحاماً، قيل: لأنهم خرجوا من رحم واحد، وقيل: لأنهم يتراحمون فيما بينهم.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في النصرة والصلة وحسن الصحبة، وفي الميراث، سواء كانوا من ذوي الفروض والعصبات، أو من دونهم من القرابة عند فقد ذوي الفروض والعصبات؛ لأن ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ يشمل جميع القرابة.

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: في مكتوب الله وحكمه في اللوح المحفوظ، وقضائه وشرعه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ قدّم المتعلّق وهو قوله: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ على المتعلَّق به وهو الخبر ﴿عَلِيمٌ﴾ لتأكيد عموم علمه- عز وجل- بكل شيء.

فعلمه- عز وجل- محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه حقيقة إدراكاً جازماً.

ومن علمه- عز وجل- أن جعل أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتقرير الولاية بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار، وإيجابها بين المؤمنين مطلقاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

٢- أن الإيمان شرط في صحة الهجرة والجهاد، لتقديمه عليهما، وأن الهجرة أفضل من الجهاد؛ لتقديمها عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ

﴿وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣- فضل المهاجرين على الأنصار؛ لتقديمهم عليهم في الآية، وقد قال ﷺ: «**لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار**»(١).

٤- أهمية الجهاد بالمال، وأنه أفضل من الجهاد بالنفس؛ لتقديم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

٥- أن المعتبر من الجهاد ما كان في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٦- لا ولاية بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار وبين من آمن ولم يهاجر إلى بلاد الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾.

٧- وجوب الهجرة من بلد الشرك إلى بلاد الإسلام، وبخاصة إذا كان المسلم- في بلاد الشرك- لا يستطيع إظهار شعائر دينه؛ لأن الله نفى الولاية بين المؤمنين وبين من آمن ولم يهاجر.

٨- يجب على المؤمنين إذا استنصر بهم في الدين قوم ممن آمنوا ولم يهاجروا أن ينصروهم نصرة لدين الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ بل قد تجب مناصرتهم وإن لم يطلبوا ذلك. فإن طلبوا النصر لمقصد من المقاصد غير الدين فليس على المؤمنين نصرتهم؛ لمفهوم الآية.

٩- لا يجوز للمؤمنين نصر من استنصروهم في الدين ممن لم يهاجروا على قوم بينهم وبينهم ميثاق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ وهذا يدل على احترام الإسلام للعهود والمواثيق وإيجابه الوفاء بها.

١٠- علم الله- عز وجل- واطلاعه التام على جميع أعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وفي هذا وعد لمن آمن وأطاع الله، ووعيد لمن كفر وخالف أمر الله؛ لأن مقتضى

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

علمه- عز وجل- بأعمال العباد محاسبتهم ومجازاتهم عليها، خيرها وشرها.

١١- موالاة الكفار بعضهم لبعض على اختلاف مللهم ونحلهم- وبخاصة ضد الإسلام وأهله- ولا عجب في هذا فالكفر ملة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ ﴾.

١٢- قطع الموالاة بين المؤمنين والكافرين؛ لأن الله جعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، فلا يجوز مناصرة الكافرين ولا مودتهم، ولا توارث بينهم وبين المؤمنين.

١٣- يجب على المؤمنين عدم الاغترار بما يبديه الكفار من موالاة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ ﴾.

١٤- تأكيد وجوب موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً، وعدم موالاة الكافرين، والتحذير مما يترتب على مخالفة ذلك من الفتنة في الدين، والفساد الكبير، والشر المستطير؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾.

١٥- ثناء الله- عز وجل- على المؤمنين السابقين من المهاجرين والأنصار، وامتداحه لهم، حيث صَدَّقوا إيمانهم بفعالهم، فالمهاجرون بهجرتهم وجهادهم، والأنصار بإيوائهم المهاجرين ونصرة دين الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ ﴾.

١٦- التنويه بعظم ما أعد الله للسابقين من المهاجرين والأنصار من المغفرة والعطاء الواسع الجزيل، الدائم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾.

١٧- فضل الله- عز وجل- على الذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا مع السابقين قبلهم بجعلهم منهم، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ ﴾.

١٨- أن القرابة بعضهم أولى ببعض في الميراث في اللوح المحفوظ وفي حكم الله الشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ ﴾.

١٩- نسخ التوارث بالحلف والمؤاخاة بالإرث بالقرابة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

ولقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦].

أي: من الإرث بالهجرة للمؤاخاة التي آخاها الرسول ﷺ بين المهاجرين- أول مقدمهم المدينة- وبين إخوانهم الأنصار حتى صار المهاجري يرث الأنصاري دون ذوي رحمه(١)؛ حتى نسخ ذلك بهاتين الآيتين.

٢٠- توريث ذوي الأرحام كالخال والخالة والعمة ونحوهم إذا فقد أصحاب الفروض والعصبات؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾، أي: وأصحاب القرابة، وهذا يشمل جميع القرابة بما فيهم ذوو الأرحام كالخال ونحوه.

وفي الحديث: «**الخال وارث من لا وارث له، يرث ماله ويعقله**»(٢).

ومن كان من القرابة فهو أولى بميراث قريبه من بيت المال، وينزلون في الميراث منزلة من أدلوا به، وهذا هو الراجح.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنهم لا يرثون. قالوا: لأنه لم ينص على أنصبائهم، وقد قال ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر**»(٣)، ويكون الميراث لبيت مال المسلمين.

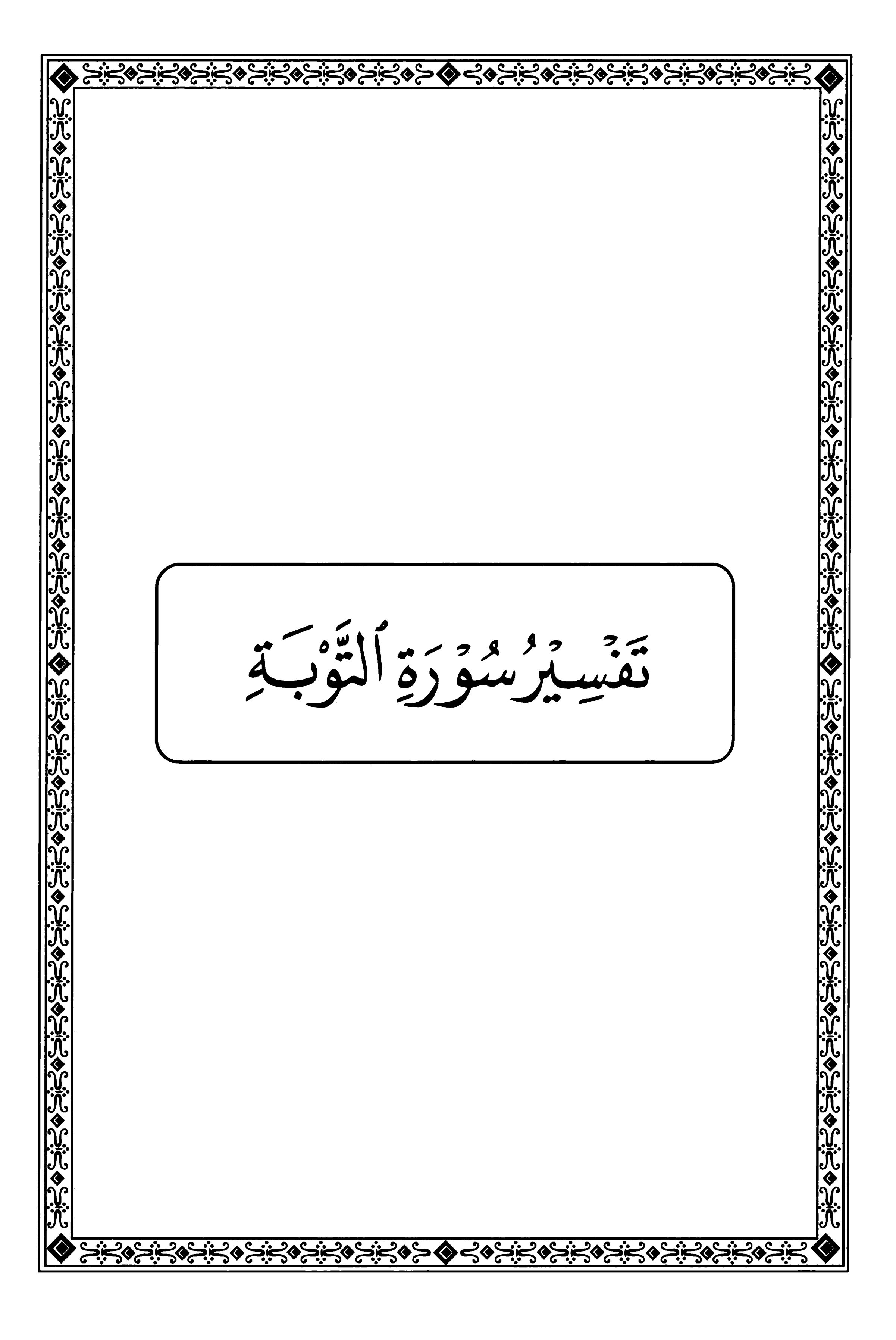
٢١- سعة علم الله- عز وجل- وشموله لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

* * *

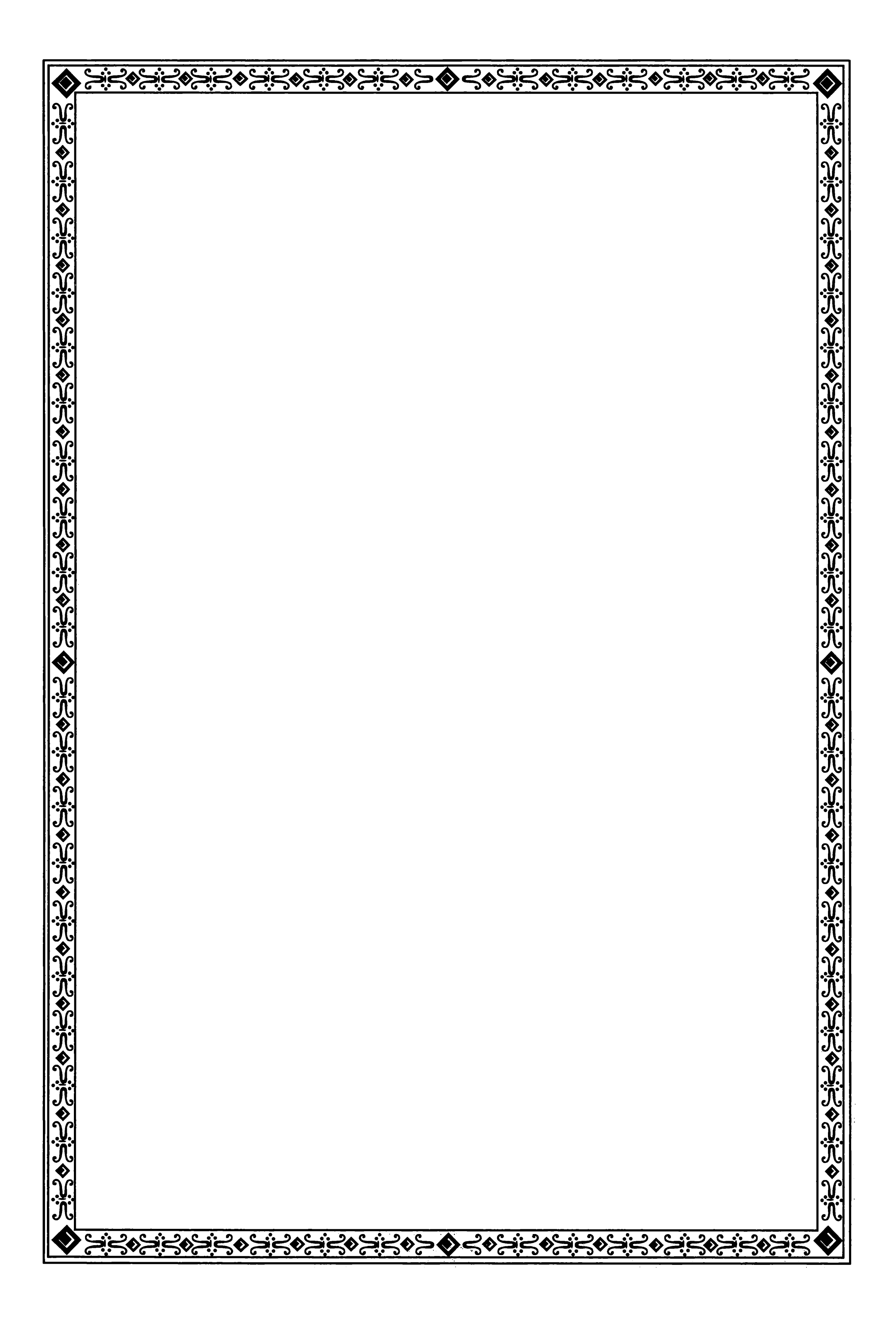
(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبوداود في الفرائض- ميراث ذوي الأرحام (٢٨٩٩، ٢٩٠٠)، من حديث المقدام الكندي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٢)، ومسلم في الفرائض (١٦١٥)، وأبوداود في الفرائض (٢٨٩٨)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٨)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٤٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلتَّوۡبَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة التوبة»؛ لأنه ذكر فيها توبة الله- عز وجل- على الثلاثة الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك؛ كما قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨]، وأيضاً جاء ذكر التوبة فيها في عدة مواضع؛ كما في الآيات: [٢، ٥، ١١، ٢٧، ٧٤، ١٠٢، ١٠٤، ١١٢]..

كما تسمى سورة "براءة"؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [الآية: ١].

وهذان الاسمان أشهر أسمائها.

وتسمى «الفاضحة»؛ لما رواه سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة. قال: «التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: «ومنهم»، «ومنهم»، حتى ظنوا أنها لن تبقي أحدًا منهم إلا ذكر فيها»(١).

وسميت بأسماء غير ذلك.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة التوبة بالمدينة، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ.

عن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: «آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ﴾ [النساء: ١٧٦]، وآخر سورة نزلت براءة»(٢).

ويظهر أنها نزلت- أو أكثرها- في السنة التاسعة من الهجرة؛ قبل غزوة تبوك، وفي أثنائها، وبعدها، ونحو ربعها الأول نزل قبيل موسم حج هذا العام.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر (٤٨٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة براءة (٤٦٥٤).

جـ- السبب في عدم كتابة البسملة في أولها:

لأن جبريل- عليه السلام- لم ينزل بها على النبي ﷺ مع هذه السورة، كما قال القشيري فيما نقله عنه القرطبي[1]؛ لأنها لو نزلت لحفظت؛ لأن الله تعالى تكفل بحفظ القرآن، فقال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

إذ لا يجوز أن يعتقد مسلم أن شيئًا من القرآن سقط أو اختلف في ثبوته وعدمه.

أما العلة والحكمة في عدم نزولها مع هذه السورة فالله أعلم بها.

د- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة ببيان براءة الله ورسوله مِن المشركين، وإعطائهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض؛ ليحسموا أمرهم لعلهم يتوبون، وبيان أنهم لن يعجزوا الله، وتهديدهم بالخزي والعذاب، وإعلان هذه البراءة للناس يوم الحج الأكبر، واستثناء من عاهدهم المسلمون من المشركين ولم ينقصوهم شيئا، فيجب أن يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم، فإذا انسلخ الأشهر الحرم وجب قتل من لم يتب حيث وُجدوا وأخذهم وحصرهم والقعود لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة خلي سبيلهم، قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

٢- أمره ﷺ بإجارة من استجاره من المشركين؛ ليسمع كلام الله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [الآية: ٦].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٦٣).

٣- إنكار واستبعاد أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، إلا من عاهدهم المسلمون عند المسجد الحرام، فما داموا مستقيمين على العهد وجب أن يستقام لهم، وتأكيد الإنكار والاستبعاد، وبيان علة ذلك، مع ترغيبهم ثانيةً بالتوبة: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

٤- الأمر بقتالهم إن نكثوا أيمانهم وطعنوا في دين المسلمين؛ لأنهم لا أيمان لهم، والتحضيض على ذلك وتأكيده ببيان أسباب الأمر بقتالهم والحكمة من ذلك: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

٥- بيان أنه لا بد من الابتلاء بالجهاد في سبيل الله؛ ليتبين المؤمنون حقًّا من المنافقين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [الآية: ١٦].

٦- بيان أنه ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله مع ما هم عليه من الكفر المحبط للأعمال الموجب لخلودهم في النار، وبيان أنه إنما يعمر مساجد الله المؤمنون به وبما أوجب الإيمان به العاملون بشرعه، وبيان أنه لا يستوي عند الله سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام مع الكفر بالله؛ مع من آمن بالله واليوم الآخر وهاجر وجاهد في سبيل الله؛ فهؤلاء أعظم درجةً عند الله، وهم الفائزون المبشرون برحمة الله ورضوانه وجناته: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

٧- نهي المؤمنين وتحذيرهم من اتخاذ آبائهم وإخوانهم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، وبيان أن من يتولهم فأولئك هم الظالمون، وتحذيرهم من تقديم محبة آبائهم وإخوانهم وأزواجهم وعشيرتهم وأموالهم وتجارتهم ومساكنهم؛ على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله، ووعيد من فعل ذلك بقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا

يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

٨- تذكير المؤمنين والامتنان عليهم بنصر الله لهم في مواطن كثيرة، وتذكيرهم بما أصابهم يوم حنين، حين أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا، وضاقت عليهم الأرض مع سعتها، ثم ولوا مدبرين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

٩- بيان نجاسة المشركين المعنوية، والنهي عن تمكينهم من قرب المسجد الحرام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾ [الآية: ٢٨].

١٠- الأمر بقتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق؛ من الذين أوتوا الكتاب؛ حتى يعطوا الجزية أذلاء صاغرين، وبيان شركهم بالله؛ بقول اليهود: «عزير ابن الله»، وقول النصارى: «المسيح ابن الله»، ومضاهاتهم قول الذين كفروا من قبل، واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم، وإرادتهم إطفاء نور الله بأفواههم، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

١١- بيان أكل كثير من أحبارهم ورهبانهم أموال الناس بالباطل، وصدهم عن سبيل الله، والوعيد للذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بالعذاب الأليم: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

١٢- بيان أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ذلك الدين القيم، والنهي عن ظلم النفس فيهن: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

١٣- بيان أن النسيء الذي كان عليه المشركون إنما هو زيادة في كفرهم وضلالهم، حيث يحلون بعض الأشهر الحرم عامًا ويحرمونه عامًا: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

١٤- توبيخ المتثاقلين عن النفير للقتال في سبيل الله، والتزهيد في متاع الدنيا والترغيب في الآخرة، والوعيد لمن لم ينفروا بالعذاب الأليم واستبدالهم بغيرهم، وبيان أنهم لن يضروا الله شيئا وأنه على كل شيء قدير.

وبيان أنهم إن لم ينصروا الرسول فقد نصره الله: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

والترغيب في النفير خفافًا وثقالًا، والجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

١٥- فضح المنافقين وذمهم، وبيان ما هم عليه من قبيح الصفات وسيئ الأعمال، وذمهم على التخاذل عن الخروج للقتال، وأنه لو كان عرضًا قريبًا وسفرًا قاصدًا لاتبعوه ﷺ، ولكن بعدت عليهم الشقة: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

١٦- بيان عفو الله تعالى عنه ﷺ في الإذن لهم بعدم الخروج قبل أن يتبين له الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، وبيانه أنه لا يستأذنه الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، والله عليم بالمتقين.

١٧- ذم المنافقين وبيان كذبهم في استئذانهم الرسول ﷺ في عدم الخروج للجهاد؛ بسبب كفرهم وريبهم: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن

كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وبيان أنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوهم إلا خبالًا، ولأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة، وفي المؤمنين سماعون لهم، وبيان أنهم قد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا له ﷺ الأمور؛ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون، وبيان شدة خبثهم وتلفيقهم للأعذار الكاذبة في استئذانهم بقول بعضهم للنبي: «ائذن لي، ولا تفتني»؛ قال تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

١٨- شدة عداوتهم للنبي ﷺ؛ فإن أصابته حسنة ساءهم ذلك، وإن أصابته مصيبة فرحوا بها، وأمر الله تعالى له أن يبين لهم رضاه ﷺ والمؤمنين بما كتب الله لهم، وتوكلهم على الله، وتبكيت المنافقين بأنهم ما يتربصون بالمؤمنين إلا إحدى الحسنيين، بينما يتربص بهم المؤمنون أن يصيبهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين.

١٩- بيان عدم قبول نفقاتهم؛ لأنهم ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

٢٠- حلفهم بالكذب أنهم من المؤمنين، وما هم منهم: ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

٢١- لمزهم النبي ﷺ في قسمته الصدقات: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

٢٢- بيان لمن تكون الصدقات، ومصارف الزكاة: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾﴾.

٢٣- أذاهم للنبي ﷺ وقولهم: «هو أذن».. ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦١﴾﴾.

٢٤- حلفهم بالله للمؤمنين؛ ليرضوهم، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا

مؤمنين، وتوعدهم بأنه: ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٣﴾.

٢٥- حذرهم وخوفهم من افتضاح نفاقهم بأن تنزل سورة تنبئهم بما في قلوبهم، ووقوع ما حذروا منه: ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ۝٦٤ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ۝٦٦﴾.

٢٦- أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف، وقبضهم أيديهم عن الخير، ونسيانهم الله، وفسقهم: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٦٧﴾.

٢٧- توعد الله تعالى لهم- هم والكفار- بنار جهنم خالدين فيها وبئس المصير.

٢٨- بيان أن مثل المكذبين للرسول ﷺ من الكفار والمنافقين مثل الذين من قبلهم، كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا؛ فاستمتع أولئك بخلاقهم كما استمتع هؤلاء بخلاقهم، وخاض هؤلاء كما خاض أولئك الذين: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٦٩﴾.

٢٩- تذكير هؤلاء المكذبين من الكفار والمنافقين وتقريرهم بما أتاهم من نبأ المكذبين قبلهم؛ قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، والمؤتفكات؛ أتتهم رسلهم بالبينات فكذبوا فأهلكوا: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٧٠﴾.

٣٠- بيان أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض؛ يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ووعده- عز وجل- إياهم بالرحمة وجنات: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٧٢﴾.

٣١- أمره ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، ومأواهم جهنم وبئس المصير.

٣٢- حلف المنافقين بأنهم ما قالوا كلمة الكفر، والرد عليهم بقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)﴾.

٣٣- بيان أن منهم من عاهد الله: لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، ونقضهم ما عاهدوا الله عليه لما آتاهم من فضله؛ ببخلهم، وتوليهم، وإعراضهم: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)﴾.

٣٤- لمزهم المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم، وسخريتهم منهم: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)﴾.

٣٥- بيان أن استغفار الرسول ﷺ لا ينفعهم، ولو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم؛ بسبب كفرهم بالله ورسوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)﴾.

٣٦- فَرَحُ المخلفين بمقعدهم خلاف رسول الله، وكراهتهم أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقولهم: لا تنفروا في الحر: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾.

٣٧- تنبيهه ﷺ وتعليمه كيف يتعامل معهم مستقبلًا: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥)﴾.

٣٨- بيان أنهم إذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله؛ استأذنه أولو الطول منهم وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

٣٩- ثناؤه- عز وجل- على النبي ﷺ والمؤمنين معه بجهادهم بأموالهم وأنفسهم، ووعده تعالى- لهم بالخيرات والفلاح وجنات: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

٤٠- مجيء المعذِّرينَ ليؤذن لهم، وقعود الذين كذبوا الله ورسوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

٤١- بيان أنه لا حرج على الضعفاء، ولا على المرضى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون؛ في عدم الخروج إلى الجهاد: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

وبيان أن السبيل إنما هو على الذين يستأذنون وهم أغنياء: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

٤٢- اعتذار المنافقين من الرسول ﷺ والمؤمنين إذا رجعوا إليهم: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

وحلفهم بالله للمؤمنين إذ انقلبوا إليهم؛ ليعرضوا عنهم، وليرضوا عنهم، وأمره- عز وجل- بالإعراض عنهم، وبيان أنهم رجس ومأواهم جهنم؛ جزاء كسبهم، وأنه- سبحانه- لا يرضى عن القوم الفاسقين.

٤٣- بيان أن الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا، وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وأن منهم من يتخذ ما ينفق مغرمًا ويتربص بالمؤمنين الدوائر؛ لعدم تمكن الإيمان من قلوبهم، كما أن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول، وبيان أنها قربة لهم، سيدخلهم الله في رحمته: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

٤٤- الثناء على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وبيان رضاه تعالى عنهم وإعداده لهم: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

٤٥- بيان أن من حول المؤمنين من الأعراب: ﴿مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ لا يعلمهم ﷺ، والله عز وجل يعلمهم، سيعذبهم ﴿مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾.

٤٦- بيان أن ممن تخلفوا عن الجهاد من خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، لا عن نفاق منهم، والوعد بالتوبة عليهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

٤٧- أمره ﷺ بالأخذ من أموال المسلمين صدقة تطهرهم وتزكيهم، والدعاء لهم، وبيان أنه عز وجل يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات، وأنه هو التواب الرحيم، وترغيبهم بالعمل الصالح: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

٤٨- ذم المنافقين على اتخاذهم مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وحلفهم إن أردنا إلا الحسنى، وشهادة الله تعالى أنهم كاذبون، ونهيه للنبي ﷺ أن يقوم فيه أبدًا، وبيان الأحق بذلك بقوله: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

٤٩- بيان فضيلة الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأموال، والاستشهاد في سبيل الله، والترغيب في ذلك: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

٥٠- الثناء والامتداح لأهل طاعته- عز وجل- وعبادته: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ

ﭐلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

٥١- بيان عدم جواز الاستغفار للمشركين؛ ولو كانوا أولي قربى؛ لأنهم كفار ومآلهم النار: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾﴾.

٥٢- إعذاره عز وجل من الخلق، وإقامته الحجة عليهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

٥٣- بيان سعة ملكه- عز وجل- واختصاصه بذلك؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

٥٤- توبة الله تعالى ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾﴾.

٥٥- توبته- عز وجل- على الثلاثة الذين خلفوا، بعدما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه؛ بسبب صدقهم: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

٥٦- بيان عدم جواز التخلف عن النفير مع النبي ﷺ، والرغبة عنه، والترغيب في النفير ببيان أجر المجاهدين في كل ما يصيبهم في ذات الله تعالى، وفي كل ما يقومون به مما يغيظ الكفار وينال منهم، وفي كل ما ينفقونه من نفقات صغيرة أو كبيرة، وما يقطعونه من واد: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

٥٧- بيان أنه لا ينبغي للمؤمنين أن ينفروا جميعهم، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

٥٨- تأكيد الأمر بقتال الكفار والمشركين والغلظة عليهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

٥٩- تأكيد ذم المنافقين، وذكر صفاتهم القبيحة، بذكر سخريتهم عند نزول الآيات وقولهم: أيكم زادته هذه إيمانًا، وازديادهم بنزول الآيات رجسًا إلى رجسهم- بخلاف المؤمنين؛ فتزيدهم إيمانًا، وهم يستبشرون- ونظر المنافقين بعضهم إلى بعض: هل يراكم من أحد؟ ثم انصرافهم: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

٦٠- ثم ختمت السورة بالامتنان على المؤمنين ببعثته ﷺ فيهم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾.

قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مبتدأ، خبره الجار والمجرور بعده، أي: براءة صادرة من الله ورسوله، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذه براءة من الله ورسوله، والبراءة: التبرؤ من الشيء.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: إلى الذين عاهدتم أيها المسلمون من المشركين، بفسخ عهودهم ونقضها، وإبلاغ المسلمين بذلك؛ ليتبرؤوا منهم، كما تبرَّأ الله ورسوله منهم، وإبلاغ المشركين بذلك؛ ليأخذوا حذرهم.

والمراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من كان بينهم وبين المؤمنين عهد أمان مطلق غير مقيَّد بمدة معينة، وكذا مَن كان لهم عهد مقيَّد بما دون أربعة أشهر.

أما من كان لهم عهد مقيَّد أكثر من أربعة أشهر فيتم لهم عهدهم إلى مدته؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ﴾ [التوبة: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ [التوبة: ٧].

قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾.

قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، الفاء: للتفريع، والسياحة في الأرض: السير والسفر والذهاب فيها.

أي: فسيروا في الأرض، واذهبوا فيها حيث شئتم بعد هذه البراءة آمنين من القتل

والقتال.

﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وهذا لمن كان لهم عهد مطلق، وكذا من كان عهدهم دون أربعة أشهر يكمل لهم أربعة أشهر، كما سبقت الإشارة إلى هذا.

وهذه الأشهر تسمى أشهر السياحة والتسيير، تبدأ من اليوم العاشر من ذي الحجة سنة تسع من الهجرة، حيث بعث النبي ﷺ عليًّا مع أبي بكر- رضي الله عنهما؛ ليبلغ الناس بهذه الآيات، وتنتهي بعشر يخلون من ربيع الآخر. فهذه أربعة أشهر، ثم لا عهد لهم بعد ذلك.

ولعلَّ من الحكمة في إنظارهم وتأمينهم من القتل وغيره هذه الأشهر الأربعة؛ ليتفكروا ويراجعوا أنفسهم، وليعلموا قوة المسلمين- إذ لم يخشوا استعدادهم لهم.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَسِيحُواْ﴾، وصُدر هذا الخبر بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ للتحذير والاهتمام.

ومعنى ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾، أي: غير فائتين بأنفسكم ومفلتين من عذاب الله، وقدرته وحكمه، بل أنتم في قبضته وسلطانه حيث كنتم، وأين ذهبتم في الأرض.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: واعلموا أن الله مذل الكافرين ومهينهم في القتل والأسر وغير ذلك في الدنيا، وفي الآخرة بعذاب النار.

قوله تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾.

أنزل الله- عز وجل- براءته ورسوله من المشركين المعاهدين وأعلمهم بذلك، وأنظرهم أربعة أشهر، ثم أمر بإعلام الناس جميعاً يوم الحج الأكبر ببراءته- عز وجل- من المشركين ورسوله؛ إعذاراً منه للمسلمين، وإنذاراً للمشركين.

قوله: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ معطوف على قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، وفيه: إطناب وإظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: وأذان بذلك؛ لأن المقام يقتضي الإيضاح والبيان.

والأذان: الإيذان والإعلام، أي: وإعلام من الله ورسوله إلى الناس جميعاً، المؤمن والكافر المعاهد وغيره، من نكث من المعاهدين ومن لم ينكث، من شهد منهم موسم الحج ذلك العام ومن لم يشهده.

ففي قوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ الآية: إخبار بثبوت البراءة، وفي قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ الآية: إخبار بوجوب الإعلام بالبراءة.

﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هو يوم النحر، كما دلَّت على ذلك الأحاديث في بعثه ﷺ أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما.

فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «بعثني أبوبكر- رضي الله عنه- في الحجة التي أَمَّره رسول الله ﷺ عليها قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»(١).

قال الزهري: فكان حميد يقول: يوم النحر يوم الحج الأكبر؛ لأجل حديث أبي هريرة(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: بعثني أبوبكر- رضي الله عنه- في تلك الحجة في المؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يؤذن ببراءة.

قال أبوهريرة: فأَذَّن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»(٣).

وفي رواية بعد قوله: «ولا يطوف بالبيت عريان- قال: ويوم الحج الأكبر يوم النحر. وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس: «الحج الأصغر»، فنبذ أبوبكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه النبي ﷺ مشرك»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٦٢٢)، ومسلم في الحج (١٣٤٧)، وأبوداود في المناسك (١٩٤٦)، والنسائي في الحج (٢٩٥٧).

(٢) ذكره النووي في شرحه لهذا الحديث.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٦٩).

(٤) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٧٧) .

وعن أبي بكرة- رضي الله عنه- قال: لما كان ذلك اليوم، قعد رسول الله ﷺ على بعير له، وأخذ الناس بخطامه أو زمامه، فقال: «**أي يوم هذا**»؟ قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «**أليس هذا يوم الحج الأكبر**»[(١)].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- «أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال: «**أي يوم هذا**»؟ قالوا: يوم النحر. قال: «**هذا يوم الحج الأكبر**»[(٢)].

وهذا قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين، وأهل العلم بعدهم أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر؛ لهذه الأحاديث وغيرها[(٣)]؛ ولأنه اليوم الذي تقضى فيه جل أعمال الحج، من رمي جمرة العقبة ونحر الهدي والحلق والطواف، وهو يوم العيد.

وقيل: يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة؛ لقوله ﷺ: «**الحج عرفة**»[(٤)]؛ ولأن الناس يجتمعون فيه في صعيد و احد.

وهو مروي عن جمع من السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، أي: أنه لا عهد بين الله وبين المشركين، بل قد انتقض عهدهم وانفسخ.

﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ معطوف على لفظ الجلالة، أي: وأن رسوله بريء من المشركين لا عهد بينه وبينهم؛ لأن العهد بينهم وبين الرسول هو عهد بينهم وبين الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠].

والمعنى: إعلام من الله ورسوله إلى جميع الناس مؤمنهم وكافرهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ ببراءته- عز وجل- ورسوله من المشركين.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٤٥)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٥٨)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٦٤٨)، وأخرجه البخاري معلقاً في الحج (١٧٤٢).

(٣) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٩٤-٥٩٥).

(٤) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٤٩)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٤٤)، والترمذي في الحج (٨٨٩)، وابن ماجه في المناسك (٣٠١٥)، من حديث عبدالرحمن بن يعمر رضي الله عنه.

وأن عهدهم قد انتقض وانفسخ، فلا عهد بين الله ورسوله وبينهم.

﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾، الفاء: للتفريع، والخطاب: للمشركين الذين آذنهم الله ببراءته ورسوله منهم.

أي: فإن رجعتم عما أنتم عليه من الشرك إلى الإيمان وإخلاص العبادة لله.

والتوبة: الرجوع من الكفر والشرك إلى الإيمان والتوحيد، ومن الضلال إلى الهدى، ومن المعصية إلى الطاعة.

وشروطها خمسة: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العود إليها، وأن تكون خالصة لله- عز وجل- وأن تكون في وقتها المناسب، قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾، أي: فهو خير لكم خيرية مطلقة في دينكم ودنياكم وأخراكم؛ وذلك لما في التوبة والإيمان من السعادة في الدنيا والآخرة، مع مغفرة الذنوب؛ كما قال ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله**»(١).

﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾، أي: أعرضتم عن التوبة والإيمان بقلوبكم وأبدانكم، وأقمتم على ما أنتم عليه من الكفر والشرك والضلال.

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ تحذير وتهديد لهم، أي: فاعلموا أنكم غير فائتين ولا مفلتين من قدرة الله- عز وجل- وأخذه وعقابه.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ البشارة في الأصل: الإخبار بما يَسر ويُفرح، مأخوذة من البشرة؛ لأن الإنسان إذا سمع خبراً سارًّا ظهر أثر ذلك على وجهه وبشرته، بحيث يستنير وجهه وتتسع بشرته؛ كما قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»(٢).

وليس المراد بالبشارة في الآية الإخبار بما يسر، وإنما المراد بها ضد ذلك وهو الإخبار

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١)، من حديث عمرو رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

بما يسوء، وهو العذاب الأليم، على طريق التهكم بالكفار والسخرية بهم، والتهديد والوعيد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ [النساء: ١٣٨].

و﴿أَلِيمٍ﴾، على وزن: «فعيل»، بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في الدنيا بالقتل والأسر وغنم الأموال؛ كما قال تعالى في غزوة حنين: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة: ٢٦]، أي: عذبهم بالقتل والأسر وأخذ أموالهم- وهذا ما حصل لهم في حنين.

وأيضاً: وبشرهم بعذاب أليم في الآخرة بالنار وبئس القرار.

وقد تم إيذان الناس وإعلامهم ببراءة الله- عز وجل- ورسوله من المشركين يوم النحر في الحجة التي حجها أبوبكر بالناس سنة تسع من الهجرة، حيث بعث رسول الله ﷺ مع أبي بكر- رضي الله عنه- علي بن أبي طالب وأبا هريرة رضي الله عنهما في رهط يؤذنون في الناس ببراءة الله- عز وجل- ورسوله من المشركين، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فآذنوا الناس بذلك، وقرأ علي رضي الله عنه هذه الآيات على الناس- كما سبق في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي رواية عن محرّر بن أبي هريرة عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «كنت مع علي- رضي الله عنه- حين بعثه النبي ﷺ ينادي، فكان إذا صحل صوته[١] ناديت. قلت: بأي شيء كنتم تنادون؟ قال: بأربع: لا يطوف بالكعبة عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك»[٢].

وفي بعض روايات حديث أبي هريرة: «من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فأجله إلى أربعة أشهر»[٣].

وهذا- إن صح- محمول على مَن كان له عهد مطلق، أو مَن كان عهده دون أربعة

---

(١) صحل صوته: أي: بح صوته. انظر: «اللسان» مادة «صحل».

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣١٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢١٤)، وابن حبان (٣٨٢٠)، والحاكم (٢/ ٣٣١).

(٣) أخرجها الطبري (١١/ ٣١٤)، وأحمد بنحوه (٢/ ٢٩٩).

أشهر- كما تقدم في تفسير الآية ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

ويدل على هذا ما جاء في حديث زيد بن يثيع- رجل من همدان- قال: سألنا عليًّا: بأي شيء بُعِثت؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ- مع أبي بكر في حجة الوداع- قال: «بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا»(١).

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿ إِلَّا ﴾ أداة استثناء، و﴿ٱلَّذِينَ ﴾ في محل نصب على الاستثناء المتصل من قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، أي: إلا الذين عاهدتم منهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ ﴾.

ويحتمل كون الاستثناء منقطعاً، أي: لكن الذين عاهدتم من المشركين فحكمهم كذا وكذا.

﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا ﴾، أي: ثم لم ينقصوكم شيئاً مما عاهدوكم عليه، أي: لم يُخِلّوا بشيء من شروط العهد. والعطف بـ«ثم» يدل على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة، ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: لم ينقصوكم أيَّ شيء مهما قلّ مما عاهدوكم عليه.

﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾، المظاهرة: المعاونة، أي: ولم يعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم، برجال، أو سلاح، أو برأي ومشورة، أو غير ذلك.

﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ ﴾، أي: فأوفوا لهم بعهدهم، وأكملوه إلى نهاية مدتهم حسب ما عاهدتموهم عليه، وإن طال ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٧٩)، والترمذي في تفسير سورة التوبة (٥٠٨٧)، والطبري (١١/ ٣١٤-٣١٥)- وقال الترمذي: «حسن صحيح».

﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٧].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته»(١).

وهذا يدل على سمو مبادئ الإسلام واحترامه للعهود والمواثيق- حتى مع غير المسلمين.

ومفهوم الآية أنهم إن أخلُّوا بالشرطين، بأن نقصوا المسلمين شيئاً، وظاهروا عليهم أحداً، أو أخلُّوا بأحدهما، لم يجب إتمام عهدهم إليهم، بل يجب قتالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة: ١٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، في ختام الآية بهذه الجملة تأكيد على الوفاء بالعهد، وأن ذلك من تقوى الله- عز وجل- وترغيب في تقوى الله عموماً؛ لأن الله يحب المتقين، أي: إن الله يحب المتقين له- سبحانه- بفعل أوامره واجتناب نواهيه، من الوفاء بالعهود، وعدم نقضها، وغير ذلك.

وفي الآية إثبات المحبة لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، ومفهوم ذلك نفي محبته عن غير المتقين.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

هذه الآية تسمى آية السيف.

بيَّن الله- عز وجل- في مطلع هذه السورة براءته ورسوله ممن عوهد من المشركين، سواء كان عهدهم مطلقاً أو مقيداً بأقل من أربعة أشهر، وأجَّلهم جميعاً أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض حيث شاؤوا- ثم أمر المؤمنين إذا انتهت هذه الأشهر التي أمهلوا فيها- بقتالهم حيث وجدوهم وأخذهم وحصرهم، والقعود لهم كل مرصد.

---

(١) سبق تخريجه.

قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾، الفاء: للتفريع على قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾، أو استئنافية.

أي: فإذا انقضت الأشهر الحرم وخرجت، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس: ٣٧]، أي: نخرج منه النهار، يقال: سلخت الشهر، أي: خرجت منه، قال الشاعر:

إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله كفى قاتلاً سلخي الشهور وإهلالي(١)

و﴿ٱلۡأَشۡهُرُ﴾ جمع شهر، و«ال» فيها: للعهد الذكري، أي: الأشهر المذكورة قبل في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ [التوبة: ٢]. و﴿ٱلۡحُرُمُ﴾ جمع حرام.

والمراد بالأشهر الحرم: أشهر السياحة والتسيير المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ تبدأ من يوم النحر العاشر من ذي الحجة سنة تسع من الهجرة- حيث أُعلِم الناس جميعاً في موسم حج هذه السنة ببراءة الله ورسوله من المشركين، وتنتهي بعشر يخلون من ربيع الآخر.

وهذا ما يدل عليه السياق، فإن عود العهد إلى مذكور، أولى من عوده إلى مقدر، وأيضاً فإن الأشهر الحرم المعروفة سيأتي حكمها في آية أخرى في هذه السورة.

وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية، وبه قال أكثر السلف وأهل العلم من المفسرين وغيرهم.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالأشهر الحرم في الآية هي الأشهر الحرم المعروفة المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞ﴾ [التوبة: ٣٦]، وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب. فيكون المراد ما بقي منها وهو خمسون يوماً من يوم النحر إلى نهاية المحرم. لكن السياق لا يساعد على هذا.

ومعلوم أن القتال في الأشهر الحرم لا يجوز ابتداءً على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾ [البقرة: ٢١٧]،

---

(١) البيت في «لسان العرب» مادة «سلخ» بلا نسبة.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

ولكونه ﷺ إذا دخل الأشهر الحرم كفَّ عن القتال.

﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ جواب الشرط «إذا»، أي: فإذا انسلخت الأشهر الحرم وانقضت فاقتلوا المشركين بأي مكان وجدتموهم من الأرض وظفرتم بهم، ويخص من هذا القتال ابتداءً في الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٩١].

﴿وَخُذُوهُمۡ﴾، الأخذ: الأسر، أي: وأْسروهم.

﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾، الحصر: المنع والتضييق، أي: حاصروهم في معاقلهم وحصونهم، وامنعوهم من التوسُّع في الأرض، وضيِّقوا عليهم.

﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾، ﴿كُلَّ﴾ مفعول به منصوب بـ﴿وَٱقۡعُدُواْ﴾ بتضمينه معنى: «الزموا»، كما في قوله تعالى- حكاية عن الشيطان أنه قال: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: ١٦].

ويجوز نصب ﴿كُلَّ﴾ بنزع الخافض، أي: واقعدوا لهم في كل مرصد.

والمراد بالقعود في الآية: المرابطة والملازمة للترصُّد لهم.

﴿كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾، المرصد: مكان الرصد والترقب، قال عامر بن الطفيل:

ولقد علمت وما إخالك ناسياً ... أن المنية للفتى بالمرصد

وقال عدي بن زيد العبادي(١):

أعاذل إن الجهل من لذة الفتى ... وإن المنايا للنفوس بمرصد

والمعنى: وترصدوا للمشركين في كل طريق ومسلك وممر، ورابطوا في جهادهم حتى تضيقوا الخناق عليهم.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآيات السابقة بإعلان البراءة من المشركين، وأمر بقتلهم

(١) انظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص٣٩١).

حيث وجدوا وأخذهم وحصرهم والترصد لهم، ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ الآية؛ ترغيباً لهم في التوبة وحثًّا لهم عليها، ولبيان أنه ليس المقصود في القتال مجرد القتل وإنما المراد هداية الناس إلى دين الله تعالى.

﴿فَإِن تَابُوا﴾، أي: رجعوا عما هم عليه من الشرك، و الصد عن دين الله، ودخلوا في الإسلام.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾، فجمعوا بين الإيمان والإسلام، وبين الإيمان والعمل، ظاهراً وباطناً.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾، أي: وأقاموا الصلاة إقامة تامة، بشروطها وأركانها وواجباتها وسُننها.

والصلاة في اللغة الدعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

أي: ادع لهم.

وفي حديث أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي- رضي الله عنه- قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما**» الحديث[1].

قال الشاعر:

تقول بنتي وقد قرّبتُ مرتحلاً ... يا رب جنِّب أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي ... نوماً فإن لجنب المرء مضطجعا[2]

أي: عليك مثل الذي دعوتِ.

والصلاة في الشرع: التعبُّد لله- عز وجل- بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

وخص الصلاة بالذكر من بين العبادات البدنية، وقدَّمها في الذكر على جميع

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٤).

(٢) البيتان للأعشى، انظر «ديوانه» ص(١٥١).

العبادات؛ لأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام، وقاعدته العريضة التي يدور عليها رحاه، فبإقامتها- بعد الشهادتين- يدخل المرء في عداد المسلمين، وبإقامتها والمحافظة عليها كما شرع الله يصلح أمر الدنيا والدين، ويسعد الإنسان في الدارين.

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: وأعطوا الزكاة الواجبة في أموالهم لمستحقيها وهم الأصناف الثمانية.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة، يقال: زكا الزرع إذا نما وزاد، وسميت الزكاة بهذا الاسم؛ لأنها تزكي المال وتزيده، وتزكي نفس الغني من الشح و البخل، وتزكي نفس الفقير من الحقد والضغينة على إخوانه الأغنياء، ومن السعي لطلب الرزق بالطرق المحرمة كالسرقة والبغاء ونحو ذلك.

والزكاة في الشرع: حق مالي واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة في زمن مخصوص.

وخصَّ الزكاة بالذكر من بين العبادات المالية؛ لأنها أعظم العبادات المالية، وقرنها بالصلاة في اثنين وثمانين موضعاً؛ لأنهما أعظم العبادات، ففي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله. وأداؤهما أعظم دليل على صدق التوبة والإيمان.

﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾، أي: اتركوهم ولا تتعرضوا لهم بسوء؛ لأنهم بتوبتهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة دخلوا في الإسلام فعُصِمَت دماؤهم وأموالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- عن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل**»(١).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى**

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (٢٥)، ومسلم في الإيمان- الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: «لا إله إلا الله» (٢٢).

يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، وصلوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله».

وفي رواية: «**من شهد أن لا إله إلا الله، واستقبل قبلتنا، وصلى صلاتنا؛ وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما للمسلم، وعليه ما على المسلم**»[(١)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: إن الله ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده يستر الذنب ويتجاوز عن العقوبة، وذو رحمة واسعة، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها مَن شاء مِن خلقه، رحمة خاصة بالمؤمنين، ورحمة عامة لجميع الخلق.

ومن مغفرته- عز وجل- ورحمته: التوبة على من تاب إليه من المشركين وآمن، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، ومغفرة ما سلف منهم من الكفر والغدر، وعصمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

الفوائد والأحكام:

١- عدم مشروعية البسملة عند قراءة مطلع سورة التوبة؛ لأنها لم تكتب في مطلع هذه السورة، وذلك لأنها لم تنزل مع هذه السورة، ولو نزلت لحفظت؛ لأن الله تكفَّل بحفظ القرآن كله، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

٢- براءة الله- عز وجل- ورسوله من المشركين المعاهدين ممن بينهم وبين المؤمنين عهود مطلقة، أو مقيدة دون أربعة أشهر- وإمهالهم جميعاً أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض حيث شاؤوا آمنين؛ لقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

٣- أن من برئ الله منه فقد برئ منه رسوله، ومن برئ منه الرسول فالله منه بريء؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ بالعطف بالواو التي تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه.

٤- إعلام المشركين بقدرة الله- عز وجل- التامة عليهم، وأنهم غير معجزيه فهم تحت

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة- فضل استقبال القبلة (٣٩٣)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٤١)، والنسائي في تحريم الدم (٣٩٦٦)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٨).

قهره وسلطانه، ولن يفوتوه أو يفلتوا من عقابه؛ تحذيراً وتهديداً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

٥- الوعيد والتهديد للكافرين بالخزي والذل والهوان في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

٦- الإعلام من الله ورسوله إلى الناس جميعاً يوم الحج الأكبر ببراءته- عز وجل- ورسوله ﷺ من المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

٧- وجوب براءة المؤمنين من المشركين؛ لبراءة الله ورسوله منهم.

٨- أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، لإيذان علي وأبي هريرة- رضي الله عنهما- الناس بهذه البراءة في هذا اليوم في رهط بعثهم النبي ﷺ مع أبي بكر في حجته بالناس سنة تسع من الهجرة.

٩- وضوح الإسلام في أحكامه وتعامله حتى مع غير المسلمين، ومع الأعداء؛ لأن الله- عز وجل- أمر بإعلان براءته ورسوله من المشركين، وإمهال من كان منهم له عهد مطلق أو مقيد بما دون أربعة أشهر إلى أربعة أشهر.

١٠- ذم الشرك وأهله؛ لأن الله أعلن براءته ورسوله من المشركين.

١١- قبول التوبة من المشركين، وترغيبهم فيها، وبيان أنها خير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

وفي هذا دلالة على سعة رحمة الله- عز وجل- ومغفرته، ومحبته للتوبة، وأنه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب إليه، ولو كان أعظم الذنوب وهو الشرك بالله.

١٢- فضل التوبة وأنها تهدم ما كان قبلها من الذنوب حتى الشرك.

١٣- تحذير المشركين من التولي والإعراض والاستمرار على ما هم عليه من الشرك، وإعلامهم بتمام قدرة الله عليهم، وأنهم لن يعجزوه أو يفوتوا ويفلتوا من قبضته وقهره؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

١٤- إخبار الذين كفروا بالعذاب الأليم حسيًّا للأبدان ومعنويًّا للقلوب، وبشارتهم بذلك

على سبيل التهكم والسخرية بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

١٥- وجوب إتمام عهد من كان بينهم وبين المؤمنين عهد مؤقت من المشركين والوفاء لهم بذلك، ما لم ينقصوا المؤمنين شيئاً مما عاهدوهم عليه، أو يظاهروا أحداً على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـًٔا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ ﴾.

١٦- إذا نقص المشركون شيئاً مما عاهدوا المؤمنين عليه، أو ظاهروا على المؤمنين أحداً من الكفار جاز للمؤمنين نقض عهدهم معاملة لهم بالمثل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـًٔا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدًا﴾.

وفي هذا ما يدل على أن المشركين الذين تبرأ الله منهم ورسوله، وأجَّلهم أربعة أشهر، وأمر عز وجل بإعلام الناس ببراءته ورسوله منهم أنه قد حصل منهم نقض لما بينهم وبين المؤمنين من عهود. كما قال تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾ [التوبة: ١٢].

١٧- سمو مبادئ الدين الإسلامي، واحترامه للعهود والمواثيق حتى مع غير المسلمين، بل وحتى مع الأعداء المحاربين.

١٨- الترغيب في تقوى الله- عز وجل- بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك الوفاء بالعهود، وعدم نقضها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

١٩- إثبات صفة المحبة لله- عز وجل- كما يليق بجلاله وعظمته، وأنه يحب المتقين من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ومفهوم هذا عدم محبته لغير المتقين.

٢٠- وجوب قتال المشركين بعد انقضاء الأشهر الحرم، أشهر السياحة والتأجيل الأربعة حيث وجدوا وأخذهم وأسرهم ومحاصرتهم والترصد لهم في جميع الطرق والمسالك وتضييق الخناق عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ ﴾.

لكن يخص من عموم قوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ القتال في

الحرم فلا يجوز قتالهم فيه ابتداءً، لكن إن قاتلوا فيه جاز قتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾ [البقرة: ١٩١].

كما يخص من هذا العموم- على الصحيح- القتال في الأشهر الحرم المعروفة، وهي ذي القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، فلا يجوز القتال فيها ابتداءً، لكن إن بدأ العدو بالقتال، جاز قتاله فيها؛ لقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

والآية عامة في قتال جميع المشركين بعد انقضاء أشهر السياحة الأربعة، ممن كان لهم عهد مطلق أو مقيّد دون أربعة أشهر، أو لا عهد لهم.

أما من كان لهم عهد مقيد أكثر من أربعة أشهر فيجب إتمام عهدهم إليهم إلى نهاية مدته؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٧].

وقد توسَّع بعض الناس فجعل هذه الآية: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ الآية، ناسخة لآيات الأمر بالعفو والصفح والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلك، وبالغوا في ذلك، حتى أوصل بعضهم الآيات المنسوخة بهذه الآية إلى نحو مائة وأربع وعشرين آية، وليس هذا بصحيح.

فهذه الآية وغيرها من آيات القتال كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: ٣٦]، ونحوها لا تنافي بينها وبين آيات الأمر بالعفو والصفح والمجادلة بالتي هي أحسن، ونحوها؛ لأن آيات القتال تستعمل في وقتها، وآيات العفو تستعمل في وقتها، ولكل منهما حال تناسبها، ولا تعارض بينها حتى يقال بالنسخ.

٢١- إذا تاب المشركون عما هم عليه من الشرك والكفر وآمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وجب على المسلمين تخلية سبيلهم والكفّ عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾.

٢٢- وجوب الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، والإيمان ظاهراً وباطناً، بين الإيمان والإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٢٣- عظم مكانة الصلاة والزكاة في الإسلام؛ لهذا خصهما بالذكر من بين أركان الإسلام، وواجباته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ففي الصلاة الإحسان في عبادة الله تعالى، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

٢٤- أن من شروط صحة الإسلام إقامة الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهذا أمر مجمع عليه، قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، فمن لم يصل فليس بمؤمن، بل هو كافر.

قال ﷺ: «**بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة**»(١).

وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»(٢).

وعن عبدالله بن شقيق قال: «كان أصحاب محمد لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»(٣).

٢٥- أن المقصود والمهم في الصلاة إقامتها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢٦- خطورة منع الزكاة؛ لقوله تعالى في الآيتين: ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولهذا ذهب بعض أهل العلم إلى كفر من منع الزكاة. قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨٢)، وأبوداود في السنة (٤٦٧٨)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٨)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الصلاة (٤٦٣)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٩)، من حديث بريدة- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٢٢).

«**أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له**»[١].

وقد قرنت الزكاة مع الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعاً، مما يدل على عظم مكانتهما معاً فهما القرينتان في كتاب الله- عز وجل- وقد قاتل أبوبكر- رضي الله عنه- الذين منعوا الزكاة، وقال: «والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً أو عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها»[٢].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة**»[٣].

٢٧- ينبغي لمن وجبت عليه الزكاة إيتاؤها لمستحقيها دون تكليفهم البحث عنها أو المطالبة بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٢٨- أن التوبة تهدم ما كان قبلها، وأن الإسلام يهدم ما كان قبله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ فلا يؤاخذون بما فعلوا قبل توبتهم وإسلامهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[التوبة:١١].

٢٩- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾.

٣٠- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله- عز وجل- الذاتية والفعلية، العامة والخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾.

٣١- في اقتران المغفرة والرحمة في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٠)، وفي الاعتصام (٧٢٨٥)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، وأبوداود في الزكاة (١٥٥٦)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٣)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

٣٢- في اجتماع المغفرة والرحمة زوال المرهوب، وحصول المطلوب، وفي تقديم المغفرة على الرحمة بيان أن التخلية قبل التحلية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- بقتل المشركين حيث وجدوا وأخذهم وحصرهم والترصد لهم، ثم أتبع ذلك ببيان أنه إذا طلب أحد منهم الجوار؛ ليسمع كلام الله وجب أن يجار.

قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَإِن تَابُوا﴾.

و﴿أَحَدٌ﴾، بمعنى:«واحد»، وهو: نكرة في سياق الشرط، تفيد التنصيص على العموم، أي: وإن مشرك استجارك، أيًا كان غنيًّا أو فقيراً، شريفاً أو وضيعاً، أو غير ذلك.

وقدم ﴿أَحَدٌ﴾ على ﴿اسْتَجَارَكَ﴾؛ للاهتمام بالمسند إليه، وتأكيد بذل الأمان لكل من يسأله من المشركين إذا كان ذلك لمصلحة.

ومعنى ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ طلب منك الجوار والأمان، وأن تمنعه من الضرر حين قدومه إلى دار الإسلام، إذا كان ذلك لمصلحة كأداء رسالة، أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة، ونحو ذلك ويسمى «المستأمن». قال النووي: «المستأمن هو الحربي الذي يدخل دار الإسلام بأمان»[1].

والخطاب للنبي ﷺ، ولأئمة المسلمين من بعده ونوابهم.

---

(١) في «تحرير الألفاظ» ص٣٢٥.

﴿فَأَجِرۡهُ﴾، أي: فأمّنه؛ ولهذا قال ﷺ لأم هانئ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»(١).

وقال ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»(٢).

وقال ﷺ: «**من أمَّن رجلاً على نفسه فقتله، فأنا بريء من القاتل**».

وفي لفظ: «**أعطي لواء الغدر يوم القيامة**»(٣).

ولهذا لما قدم على رسول الله ﷺ رسول مسيلمة الكذاب قال له النبي ﷺ: «**أتشهد أن مسيلمة رسول الله**»؟ قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «**لولا أن الرسل لا تقتل ضربت عنقك**»(٤).

﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، أي: إلى غاية أن يسمع كلام الله منك بأن تقرأ عليه القرآن الكريم، وتدعوه إلى الإسلام، وتعظه وتقيم الحجة عليه.

﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾، أي: ثم أتم له أمانه حتى يرجع إلى مأمنه، أي: المكان الذي يأمن فيه، وهو بلده وأرض قومه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ الجملة في موضع التعليل؛ لتأكيد الأمر في الجملة قبلها، والإشارة لما سبق من الأمر بإجارة من استجار من المشركين، وتأمينه حتى يسمع كلام الله، ثم إبلاغه مأمنه.

والباء: للسببية، أي: بسبب أنهم قوم لا يعلمون.

والمعنى: إنما أمرناك بإجارة من استجارك من المشركين حتى يسمع كلام الله، ثم إبلاغه مأمنه بسبب أنهم قوم لا يعلمون، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهديهم إلى الحق؛ فلأجل أن يُعلَّموا ذلك وتنتشر الدعوة، وتقوم عليهم الحجة أمرنا بذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٧١) من حديث أم هانئ رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبوداود في الديات (٤٥٣٠)، والنسائي في القسامة (٤٠١٣٤)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٤٣٧)، وابن ماجه في الديات (٢٦٨٨)، من حديث عمرو بن الحمق الخزاعي- رضي الله عنه- وإسناده صحيح.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٠٠).

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧)﴾.

ذكر عز وجل في مطلع السورة براءته ورسوله من المشركين، ونبذ عهودهم المطلقة والمقيدة بما دون أربعة أشهر، وإنظار الجميع أربعة أشهر يسيحون في الأرض، وأمر بقتلهم إذا انسلخت هذه الأشهر حيث وجدوا وأخذهم وحصرهم والترصد لهم، ثم بيّن في هذه الآية الحكمة والسبب في ذلك، وهو شركهم بالله، وخيانتهم للعهود.

قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾.

﴿كَيْفَ﴾ استفهام فيه معنى الإنكار والنفي والاستبعاد المشرب بالتعجب.

أي: كيف يبقى ويستمر للمشركين عهد أمان عند الله وعند رسوله مع ما هم عليه من الكفر والتكذيب والنقض للعهود وقتال المؤمنين والصد عن دين الله، أي: لا يمكن أن يبقى لهم عهد عند الله وعند رسوله.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هذا الاستثناء كسابقه يجوز أن يكون منقطعاً أو متصلاً.

أي: إلا الذين عاهدتم من المشركين عند المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة حيث تم الصلح بينهم وبين المسلمين وعاهدهم الرسول ﷺ على الهدنة وترك الحرب بينهم عشر سنين، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾ [الفتح: ٢٥، ٢٦].

﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾، الفاء: للتفريع، أو استئنافية، و«ما»: مصدرية ظرفية فيها معنى الشرط، أي: فما داموا مستقيمين لكم على الوفاء بعهدكم ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ على الوفاء بعهدهم، أي: فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم. ويجوز كون «ما»:

اسم شرط جازم والتقدير: أيَّ وقت استقاموا فيه لكم فاستقيموا لهم. والفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ واقعة في جواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية.

وقد قال الطبري[1] بعدما ذكر اختلاف أهل التأويل في الآية هل نزلت في قوم من جذيمة بن الدُّئِل، أو في قريش، أو في خزاعة، وذكر الآثار الواردة في ذلك عن السلف قال: «وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال: هم بعض بني بكر من كنانة، ممن كان أقام على عهده، ولم يكن دخل في نقض ما كان بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية من العهد مع قريش حين نقضوه بمعونتهم حلفاءهم من بني الدُّئِل على حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة. قال: وإنما قلت: هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب؛ لأن الله أمر نبيه والمؤمنين بإتمام العهد لمن كانوا عاهدوه عند المسجد الحرام ما استقاموا على عهدهم. وقد بيَّنا أن هذه الآيات إنما نادى بها عليٌّ في سنة تسع من الهجرة، وذلك بعد فتح مكة بسنة، فلم يكن بمكة من قريش ولا خزاعة كافر يومئذٍ بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فيؤمر بالوفاء له بعهده ما استقام على عهده؛ لأن من كان منهم من ساكني مكة، كان قد نقض العهد، وحورب قبل نزول هذه الآيات».

وقال ابن كثير[2] في كلامه على قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾: «يبين تعالى- حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾ وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾، أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم

---

(١) في «جامع البيان» (١١/ ٣٥٠-٣٥٤).

(٢) في «تفسيره» (٤/ ٥٦-٥٧).

من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالئوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكّنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، و من استمر على كفره وفرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء، منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تعليل للأمر بالاستقامة على الوفاء بالعهد للمشركين ما استقاموا على عهدهم.

أي: إن الله يحب المتقين له ولعذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك الوفاء بالعهود وعدم نقضها.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ٨﴾.

تأكيد لما سبق من أنه لا يمكن أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله.

قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿كَيْفَ﴾ مؤكدة للتي قبلها، أي: تأكيد للإنكار والنفي في قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾.

والواو في قوله: ﴿وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ حالية، أي: كيف يكون لهم عهد، والحال أنهم إن يظهروا عليكم ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ﴾.

ويجوز كونها عاطفة، أي: كيف يكون لهم عهد وهم إن يظهروا عليكم ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ﴾.

ومعنى ﴿يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾، أي: ينتصروا عليكم، وتكون لهم القوة والغلبة والعلو عليكم، قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: ١٤]، أي:

منتصرين، وقال تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]، أي: أن يعلوه.

﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا﴾، «الإل»: القرابة، أي: لا يراعوا فيكم قرابة ولا رحمًا.

قال الشاعر:

أفسد الناس خلوف خلفوا ... قطعوا الإل وأعراق الرحم[1]

وقال حسان[2]:

لعمرك إن إلّك من قريش ... كإل السقب من رأل النَّعام

﴿وَلَا ذِمَّةٗ﴾، الذمة: العهد، أي: ولا يراعوا فيكم ولا يحفظوا لكم عهداً.

قال الشاعر:

وجدناهمُ كاذباً إلّهُمْ ... وذو الإلّ والعهد لا يكذب[3]

والمعنى: كيف يكون للمشركين عهد والحال أنهم يتربصون بكم الدوائر ويتحينون الفرص أن يظهروا وينتصروا عليكم، فلا يراعوا فيكم قرابة ولا يحفظوا لكم عهداً ولا يرحموكم.

وفي هذا تحريض للمؤمنين على البراءة من المشركين ومعاداتهم، وعدم الاطمئنان إليهم وتهييج لهم على قتالهم.

﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الجملة مستأنفة، أي: يرضونكم بقولهم بأفواههم.

﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾، أي: وتمتنع قلوبهم أن توافق ما قالوه بأفواههم.

أي: يعطونكم من القول المعسول بألسنتهم من دعوى محبتهم لكم والنصح لكم ونحو ذلك، خلاف ما يضمرونه لكم في قلوبهم من العداوة والبغضاء، والتربص بكم وإضمار الشر لكم. كما قال الشاعر:

يعطيك من أدنى اللسان حلاوة ... ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

---

(١) البيت لتميم بن مقبل. انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٥٨)، «التبيان» (٥/ ١٧٨).

(٢) انظر: «ديوانه» ص(٣٣٦)، «اللسان» مادة «ألل»، و«السقب»: ولد الناقة ساعة يولد، و«الرأل» ولد النعام. يقول حسان رضي الله عنه: إنه لا قرابة بينك وبينهم، كما أنه لا قرابة بين ولد الناقة وولد النعام.

(٣) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٥٩).

يلقـاك يحلـف أنـه بـك واثـق ... وإذا تـوارى عنـك فهـو العقـرب[1]

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾، أي: وأكثرهم خارجون عن الحق والعدل، والصدق والمروءة ناقضون للعهد.

قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩)﴾.

قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أي: استبدلوا واعتاضوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: بالقرآن الكريم والإيمان به، وما فيه من الآيات البينات والحجج الواضحات.

﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أي: ثمناً زهيداً، وهو متاع الدنيا الزائل ولذاتها الفانية، وما عليه أهل الجاهلية من أحوال سيئة من الفجور وشرب الخمور واللذات الفاسدة والمحرمة.

كما قال تعالى في وصف أهل الكتاب: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ﴾، أي: فعدلوا وانصرفوا عن دين الله، وصرفوا عنه غيرهم.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي:إنهم ساء وقبح الذي كانوا يعملون، وساء عملهم من الشرك بالله، والاشتراء بآيات الله ثمناً قليلاً والصد عن سبيله.

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)﴾.

قوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾، أي: لا يراعون في مؤمن أيًّا كان قرابة ولا عهداً. وفي هذا- مع توكيده لما قبله- ما يبين أن هذا موقف أهل الشرك من عموم المؤمنين في كل زمان ومكان- وفي هذا كله تحريض على قتالهم.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ الإشارة للمشركين الذين أمر عز وجل بقتالهم، وحرض المؤمنين عليه، ونفى أن يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله، الذين اعتاضوا

---

(١) البيتان ينسبان لعلي بن أبي طالب ولابنه الحسين رضي الله عنهما . انظر: «مجاني الأدب في حدائق العرب» (٣/ ٥٨)، وصدر البيت الأول: يعطيك ما فوق المنى بلسانه.

بآيات الله ثمناً قليلاً وصدوا عن سبيله، ممن لا يرقبون في المؤمن قرابة ولا عهداً.

وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم، وأكد وصفهم بالاعتداء بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وفي ضمير الفصل «هم».

ومعنى ﴿ٱلْمُعْتَدُونَ﴾، أي: المجاوزون الغاية في الظلم بالشرك والصد عن دين الله وقتال المؤمنين.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

في هذه الآية ترغيب وحث ثان للمشركين على التوبة والدخول في دين الله، وتوكيد لسعة مغفرة الله- عز وجل- ورحمته.

وقد سبق الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

قوله: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾، أي: فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وفي التعبير بقوله: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾ استمالة لقلوبهم.

وقال هنا: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾ لمناسبة ذكر عداوتهم للمؤمنين قبل هذا؛ كما قال في الآية السابقة: ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ لمناسبة ما قبلها وهو الأمر بقتلهم وأخذهم وحصرهم والترصد لهم.

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: ونبين ونوضح الآيات الشرعية والكونية.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: لقوم يعلمون علماً ينتفعون به في أمر دينهم ودنياهم وأخراهم، وهم المؤمنون، فلهم ولأجلهم فصل الله الآيات وفي هذا مدح لهم وحث على التأمل والعمل بها، وتعريض بجهل المشركين وعدم علمهم، وإعراضهم؛ كما قال تعالى عنهم قبل هذا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

الفوائد والأحكام:

١- ينبغي إجارة من طلب الجوار من المشركين حتى يسمع كلام الله، ويدعى إلى الإسلام، وتأمينه حتى يرجع إلى مأمنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾.

وهكذا ينبغي إجارة كل من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام لمصلحة، كأداء رسالة، أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة ونحو ذلك.

٢- إثبات أن القرآن كلام الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

وفي حديث جابر- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس، ويقول: «**ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي**»[1].

وفي هذا إثبات الكلام لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، والرد على من نفى ذلك من الجهمية وغيرهم.

كما أن فيه الرد على القائلين بخلق القرآن من المعتزلة وغيرهم.

٣- أن الحكمة في الأمر بإجارة من طلب الجوار من المشركين وتأمينه، لأجل أن يسمع كلام الله، ويدعى إلى الإسلام، وتقوم عليه الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

٤- أن المشركين لا يعلمون علماً ينتفعون به، ويهديهم إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

٥- سمو مبادئ الإسلام وأحكامه في التعامل مع غير المسلمين.

٦- إنكار ونفي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله- مع ما هم عليه من الشرك بالله والصد عن دين الله ونقض العهود؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

٧- أن من لم يكن له عهد عند الله، فليس له عهد عند رسول الله، كما أن من لم يكن له عهد عند رسول الله فليس له عهد عند الله.

---

(١) أخرجه أبوداود في السنة (٤٧٣٤)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٩٢٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠١).

٨- استثناء المشركين الذين عاهدهم الرسول ﷺ والمؤمنون عند المسجد الحرام من عموم المشركين بالأمر بالاستقامة لهم على الوفاء بعهدهم ما استقاموا على الوفاء بالعهد للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾.

٩- أن الجزاء من جنس العمل والمعاملة تكون بالمثل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾.

١٠- احترام الإسلام للعهود والمواثيق حتى مع غير المسلمين، بل مع المحاربين.

١١- إثبات محبة الله تعالى للمتقين ترغيباً في تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والتي منها الوفاء بالعهود، وعدم نقضها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٢- إثبات صفة المحبة لله- عز وجل- كما يليق بجلاله وعظمته.

١٣- يفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ نفي محبته- عز وجل- عن غير المتقين.

١٤- تأكيد إنكار ونفي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

١٥- شدة عداوة المشركين للمؤمنين وتربصهم بهم الدوائر وتحينهم الفرص للظهور عليهم وغلبتهم وعدم مراعاتهم فيهم قرابة ولا عهداً؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

١٦- كذب المشركين فيما يظهرونه بأفواههم وألسنتهم من محبة المؤمنين ومناصرتهم ونحو ذلك، لما تنطوي عليه قلوبهم من مخالفة ذلك، مما يوجب الحذر منهم وعدم الاطمئنان إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾.

١٧- ينبغي عدم الاغترار بما يدعيه ويظهره أعداء الإسلام من موالاة ومحبة للمسلمين.

١٨- أن أكثر المشركين فاسقون خارجون عن الحق والعدل والصدق والمروءة، ناقضون

للعهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وفي هذا إخبار عنهم وذم لهم.

١٩- استبدال المشركين بآيات الله والإيمان بها متاع الدنيا ولذاتها الفانية، وما عليه أهل الجاهلية من الأحوال والعادات السيئة كالفجور وشرب الخمور ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهذا أيضاً إخبار عنهم وذم لهم.

٢٠- التعريض بذم الدنيا وما فيها من المال والمتاع ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٢١- صد المشركين عن سبيل الله بحالهم وأقوالهم وأفعالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾.

٢٢- تحقير المشركين بالإشارة إليهم بإشارة البعيد (أولئك) تحقيراً لهم.

٢٣- شدة اعتداء المشركين، فقد عبدوا مع الله غيره، وصدوا عن سبيل الله، وقاتلوا المؤمنين، ونقضوا العهود وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾. فقد أكد الاعتداء وحصره فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل (هم).

٢٤- سعة رحمة الله- عز وجل- ومغفرته وعفوه، حيث رغب المشركين بالتوبة والإسلام مع ما هم عليه من الكفر والشرك وشدة العداوة للمؤمنين وقتالهم، واستبدالهم بآيات الله ثمناً قليلاً وصدهم عن سبيل الله، وسوء عملهم واعتدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

٢٥- أن التوبة تهدم ما كان قبلها، وأن الإسلام يهدم ما كان قبله.

٢٦- إذا تاب المشركون وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فهم إخوة للمؤمنين في الدين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

٢٧- أن من شرط صحة الإسلام إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

أما الصلاة فبالإجماع لهذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا

ﭐلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ ﴾ [التوبة: ٥].

وقال ﷺ: «**بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة**»(١)، وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»(١).

وقال عبدالله بن شقيق: «**لم يجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أمر تركه كفر سوى الصلاة**»(١).

وأما الزكاة فذهب بعض أهل العلم إلى أنها شرط في صحة الإسلام مستدلين بقوله تعالى في الآيتين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وغيرها من الأدلة- كما سبق- ولا شك أن من منع الزكاة فهو على خطر عظيم.

٢٨- عظم مكانة الصلاة والزكاة بين أركان الإسلام وواجباته، فالصلاة أعظم أركان الإسلام وأعظم العبادات بعد الشهادتين، والزكاة أعظم العبادات بعد الصلاة، وأعظم العبادات المالية.

٢٩- أن المطلوب في أمر الصلاة إقامتها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وأن المطلوب في أمر الزكاة إعطاؤها لمستحقيها من غير تكليفهم البحث عنها أو المطالبة بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

٣٠- إثبات الأخوة بين المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ ﴾.

٣١- تفصيل الآيات وبيانها إقامة للحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

٣٢- أن الذين ينتفعون بتفصيل الآيات وبيانها هم الذين يعلمون علماً يهديهم إلى معرفة الحق والعمل به، وهم المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

وفي هذا تعريض بالمشركين وجهلهم وعدم علمهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآيات السابقة المؤمنين بإتمام عهد من عاهدوه من المشركين ممن لم ينقصوا المؤمنين شيئاً ولم يظاهروا عليهم أحداً إلى مدتهم، وكذا من عاهدوه منهم عند المسجد الحرام ما داموا مستقيمين على العهد مدة عهدهم- وهذا وذاك فيمن كان عهدهم مقيداً بمدة أكثر من أربعة أشهر- ثم أتبع ذلك بالأمر بقتالهم إن نكثوا أيمانهم وطعنوا في دين الإسلام وتحريض المؤمنين على ذلك في هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم ﴾.

النكث: النقض لما أبرم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ ﴾ [النحل: ٩٢].

قال الشاعر:

وإن حلفتْ لا ينقض النأيُ عهدَها ... وليس لمخضوب البنان يمين[1]

وتطلق الأيمان على العهود؛ لأن العهود غالباً تؤكد بالأيمان.

والمعنى: وإن نقض هؤلاء المشركون عهودهم ومواثيقهم وغدروا، وحنثوا في أيمانهم التي أكدوا بها تلك العهود والمواثيق.

---

(١) انظر: «عيون الأخبار» (٤/ ١١١).

﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾، أي: وقدحوا في دينكم دين الإسلام وعابوه وتنقصوه، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٤].

والطعن في دين المسلمين من نقض العهد ونكث الأيمان، فعطفه على ما قبله أشبه بعطف الخاص على العام.

والواو في قوله: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ بمعنى: «أو» أي: أو طعنوا في دينكم، فيجب قتالهم، إذا ارتكبوا أحد الأمرين أو كليهما.

﴿فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾، الفاء: واقعة في جواب الشرط ﴿وَإِن نَّكَثُواْ﴾؛ لأنه جملة طلبية.

والأمر في قوله: ﴿فَقَاتِلُواْ﴾ للوجوب.

﴿أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو: (أيمة) بتسهيل الهمزة الثانية بين الهمزة والياء، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين: ﴿أَئِمَّةَ﴾.

وقرأ هشام عن ابن عامر وأبوجعفر بمد بين الهمزتين.

و﴿أَئِمَّةَ﴾ جمع إمام، والإمام من يكون قدوة ومثالاً يحتذى به، سواء في الخير، أو في الشر، قال تعالى في أئمة الخير: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال تعالى في أئمة الشر: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

قال لبيد[1]:

.... ولكل قوم سنة وإمامها

فأئمة الكفر الذين بلغوا الغاية فيه، فصاروا قدوة لغيرهم بالكفر والشرك، ونقض العهود، والطعن في الدين، كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف وغيرهم.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص ٤٣٩).

ولم يقل (فقاتلوهم) بل قال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ لزيادة التشنيع عليهم وأنهم كلهم قد بلغوا الغاية في الكفر، وليشمل ذلك أئمة الكفر من قريش وغيرهم.

قال ابن كثير(١): «ومن هاهنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومن طعن في دين الإسلام، أو ذكره بنقص».

﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ الجملة تعليل للأمر بقتالهم، قرأ ابن عامر بكسر الهمزة: «إيمان» على أنه مصدر، وقرأ الباقون بفتحها على أنه جمع يمين: ﴿أَيۡمَٰنَ﴾.

فعلى قراءة كسر الهمزة تكون الجملة تعليلاً وتأكيداً لما قبلها، أي: لا إيمان لهم مطلقاً.

وعلى قراءة فتح الهمزة: أي: أنهم لا قيمة لأيمانهم، ولا حقيقة لها؛ لأنها أيمان كاذبة، وعهود فاجرة، يعاهدون وينقضون، ويحلفون ويحنثون.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾، أي: لأجل أن ينتهوا، أي: يرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ونقض العهود، ويدخلوا في دين الإسلام، والآية عامة في كل من نكث العهد وطعن في دين الإسلام من قريش وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآية السابقة بقتال أئمة الكفر، الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا في دين الإسلام؛ لأنهم لا أيمان لهم ولا إيمان، ثم أتبع ذلك بتهييج المسلمين وحضهم على قتالهم في هذه الآيات الثلاث.

قوله: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾، ﴿ أَلَا﴾ للتحضيض، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٢]، أي: للتحضيض على قتال المذكورين،

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ٥٩).

ويجوز أن تكون الهمزة للاستفهام، و«لا»: نافية، والاستفهام على هذا للإنكار، أو لتقرير النفي.

﴿نُقَٰتِلُونَ﴾ المقاتلة المفاعلة من القتل بين فريقين أي: ألا تقاتلون أيها المؤمنون.

﴿قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾، أي: نقضوا عهودهم التي أكدوها بالأيمان والحلف، ولم يفوا بها وهم كفار قريش.

ومن ذلك نقضهم العهد بينهم وبين النبي ﷺ بقتالهم مع حلفائهم بني بكر ضد خزاعة أحلاف الرسول ﷺ.

﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾

«ال» في ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود محمد ﷺ الذي هو سيد الرسل وأفضلهم- صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

أي: أرادوا إخراج الرسول محمد ﷺ من بلده مكة، وسعوا في ذلك ما أمكنهم، وخططوا له حين تشاوروا في دار الندوة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ [الإسراء: ٧٦].

فقد هموا بإخراج الرسول ﷺ وكادوا له بأنواع المكائد واستفزوه بأنواع الأذى حتى اضطروه للخروج- صلوات الله وسلامه عليه- من بلده مكة.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ [الممتحنة: ١].

ووقف ﷺ على «الحَزْوَرَة»[(١)] مخاطباً موطنه وبلده مكة شرفها الله: «والله لأنت أحب البلاد إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»[(٢)].

---

(١) الحَزْوَرَة على وزن قسورة موضع في مكة عند باب الحناطين.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٩٢٥)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٨)، من حديث عبدالله بن عدي- =

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ﴿أَوَّلَ﴾ منصوب على المصدرية، وإضافته إلى ﴿مَرَّةٍ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، والتقدير: مرة أولى، أي: وهم بدؤوكم أولاً بمحاربتهم وقتالهم لكم يوم بدر.

وقيل: بنقض عهدهم والقتال مع حلفائهم بني بكر ضد خزاعة، حلفاء النبي ﷺ وقاتلوا معهم، والبادئ أظلم.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾، الهمزة: للاستفهام ومعناه النهي، أي: لا تخشوهم.

ويجوز كون الاستفهام للإنكار، أي: أتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم.

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾، الفاء: هي الفصيحة، و(الله): مبتدأ و«أحق»: خبر.

﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ في تأويل مصدر: بدل اشتمال من (الله)، أي: فخشية الله أحق.

ويجوز أن تكون في محل جر بحرف محذوف، أي: فالله أحق بالخشية من غيره.

أي: فالله أوجب أن تخافوه في ترك قتالكم لهم وفي جميع أحوالكم، لعظمته- عز وجل- وشدة نقمته وعقوبته، وكون الخلق والملك له، والتدبير بيده؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِن﴾: شرطية، ﴿كُنتُم﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم مؤمنين فلا تخشوهم واخشوني، فمن شرط صحة الإيمان خشية الله وحده؛ لأن الخشية نوع من أنواع العبادة، التي يجب صرفها لله وحده دون غيره، كالرجاء والتوكل والذبح والنذر، ونحو ذلك.

فالمؤمن حقًّا لا يخشى ولا يخاف إلا الله، ولا يرجو ولا يعتمد إلا على الله، ولا يتعبد بأي عبادة إلا الله عز وجل، كما قال تعالى عن المؤمنين: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤)﴾.

رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

أمر الله- عز وجل- بقتال أئمة الكفر الذين نقضوا أيمانهم، وحض المؤمنين وحرضهم على ذلك، ثم أكد الأمر بقتالهم- مبيناً ما يترتب على قتالهم من منافع، واعداً المؤمنين ومبشراً لهم بنصرهم وإذلال الكافرين.

قوله: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ﴾ تأكيد لما سبق من الأمر بقتالهم.

﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾، «يعذب»: مجزوم في جواب الأمر، أي: يعذبهم الله بأيديكم بالقتل الجراح والأسر وغير ذلك.

وفي قوله: ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ إشارة إلى أنه- عز وجل- قادر على تعذيبهم وإهلاكهم ونصر المؤمنين عليهم بأمر من عنده دون قتال المؤمنين لهم، لكنه- عز وجل- أراد أن يحصل ذلك على أيدي المؤمنين لما في ذلك من المنافع الدينية والدنيوية والأخروية لهم.

﴿وَيُخْزِهِمْ﴾، أي: ويذلهم بالهزيمة والقتل والأسر والاسترقاق ونحو ذلك، فيجتمع في حقهم العذاب الحسي والعذاب المعنوي.

﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: ويجعل لكم الغلبة والظهور عليهم.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾، شفاء الصدور: معافاتها مما فيها من ألم.

أي: ويعافِ بقتالكم هؤلاء الكفار وتعذيبهم بأيديكم وإذلالهم ونصركم عليهم صدور قوم مؤمنين، ممن شهد القتال وممن لم يشهده- مما فيها من الألم والغم والهم ونحو ذلك.

وقد قيل: المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ المؤمنون من خزاعة حلفاء الرسول ﷺ وقيل غيرهم. والعموم أولى.

قوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها للتأكيد، والغيظ: الحنق والغضب الشديد، أي: ويزل ما في قلوب المؤمنين من الحنق والغضب الشديد.

والمعنى: ويشف صدور قوم مؤمنين مما فيها من الألم والهم والغم ويزل ما في قلوبهم من الغيظ والحنق والغضب الشديد بسبب محاربة هؤلاء الكفار لله ورسوله، وبسبب ما نال المؤمنين منهم من المكروه والأذى؛ من نكث العهود والطعن في الإسلام

وإخراج الرسول والبدء بقتال المؤمنين وغير ذلك.

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، أي: ويتوب الله على من يشاء من هؤلاء الكفار، فيحصل للمؤمنين أجر هدايتهم على أيديهم.

وتوبة الله تنقسم إلى قسمين:

الأول: توفيقه عبده للتوبة.

والثاني: قبولها منه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: ثم وفقهم للتوبة ليتوبوا فيقبلها منهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

والتوبة من العبد الرجوع من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة.

وقد تاب الله على نفر منهم كأبي سفيان، وعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنهما، وغيرهما.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة، له الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي. وله الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فهو- عز وجل- حاكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ومحكم متقن في خلقه وأمره ونهيه وشرعه.

وفي اجتماع تمام العلم والحكم والحكمة في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين- في الآيات السابقة بقتال الكفار وحرضهم على ذلك، ثم ذكر في هذه الآية أن من الحكمة في شرعه الجهاد الابتلاء والامتحان ليتبين الصادق من غيره.

قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي بمعنى «بل»، التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أحسبتم، أي: بل أظننتم، والخطاب للمسلمين.

﴿أَن تُتْرَكُوا﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي «حسب».

والمعنى: أظننتم أن تتركوا دون أن تؤمروا بالجهاد، كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من ضمير ﴿تُتْرَكُوا﴾، أي: والحال أنه لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم، أي: ولما يظهر في علمه- عز وجل- الذين جاهدوا منكم ظهوراً يترتب عليه الجزاء؛ لأنه- عز وجل- علم أزلاً وأبداً من سيجاهد منهم، لكنه إنما يجازي الخلق على أفعالهم وما يظهر منهم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾ [محمد: ٣١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ [البقرة: ٢١٤].

ومعنى ﴿جَاهَدُوا﴾، أي: بذلوا جهدهم وما يستطيعون في القتال في سبيل الله.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ الجملة معطوفة على جملة الحال قبلها، أي: ويعلم الذين لم يتخذوا، أي: لم يجعلوا ﴿مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾، أي: دخيلة وبطانة في الخفاء، وأولياء من الكفار يفضون إليهم بأسرار المسلمين.

ومفهوم هذا أنهم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله وللمسلمين.

والمعنى: ولما يعلم الله المتصفين بها ذكر ممن هم على ضد ذلك ممن لم يجاهدوا واتخذوا من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة، أي: اتخذوا الكافرين أولياء، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر، إيثاراً لعدم ذكره لحقارته وسوئه.

فشرع الله- عز وجل- القتال والجهاد وأوجبه على المؤمنين، ليعذب عز وجل الكفار على أيدي المؤمنين، ويذلهم وينصر المؤمنين عليهم، ويشفيَ صدور المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، ويتوب الله على من يشاء، وليبتلي المؤمنين، ليظهر في علمه- عز وجل- الذين جاهدوا، ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين أولياء من الكفار ممن كانوا بخلاف ذلك.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: والله ذو خبرة واطلاع وعلم واسع بالذي تعملونه، أو بعملكم.

و«الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فهو أخص من «العليم»؛ ولهذا فاطلاعه على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

وفي ختام الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وعد لمن اتقى وامتثل أوامر الله عز وجل، ووعيد لمن خالف ذلك؛ لأن مقتضى خبرته- عز وجل- بأعمالهم أن يحاسبهم ويجازيهم عليها.

الفوائد والأحكام:

١- الإشارة والإيماء إلى توقع نقض المشركين عهدهم مع المؤمنين وطعنهم في دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾.

٢- وجوب قتال الكفار إذا نقضوا عهدهم مع المؤمنين، وطعنوا في دين الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾.

٣- كفر من طعن في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾.

٤- أن الكفار لا مراعاة ولا احترام عندهم للأيمان والعهود؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ وفي هذا ذم لهم، وليس بعد الكفر ذنب.

٥- أن الحكمة من قتال الكفار لأجل أن ينتهوا عما هم عليه من الكفر، وأذية المؤمنين وقتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾.

٦- تهييج المؤمنين وتحريضهم على قتال الكفار؛ لنقضهم الأيمان، وهمهم بإخراج الرسول ﷺ، وابتدائهم بقتال المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٧- وجوب خشية الله- عز وجل- وخوفه وتعظيمه وحده، والنهي عن خشية من سواه من الكفار وغيرهم، وأن ذلك من شرط الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٨- تأكيد الأمر بقتال الكفار مع بيان ما يترتب على ذلك من المصالح والمنافع من تعذيب الكفار بأيدي المؤمنين وإذلالهم، ونصر المؤمنين عليهم، وشفاء صدور المؤمنين، وإذهاب غيظ قلوبهم، وتوبة الله على من شاء من الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ﴾.

٩- الإشارة إلى قدرته- عز وجل- على تعذيب الكافرين بلا قتال من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ الآية.

١٠- وعد الله- عز وجل- وبشارته للمؤمنين بنصرهم وهزيمة الكافرين وإذلالهم.

١١- عناية الله- عز وجل- بالمؤمنين ومحبته لهم حتى إنه جعل من جملة المقاصد الشرعية للقتال شفاء ما في صدورهم وإذهاب غيظ قلوبهم.

١٢- إثبات صفة التوبة لله- عز وجل- بقسميها: توفيقه من يشاء للتوبة، وقبولها منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ﴾.

١٣- سعة عفو الله- عز وجل- ورحمته وفضله حيث يوفق من شاء من هؤلاء الكفار، الناكثين للأيمان، الطاعنين في الإسلام، المقاتلين لأهله للتوبة ويقبلها منهم.

١٤- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله- عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وفي اقتران هذه الصفات في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال.

١٥- أن الله لم يخلق الخلق سدى ولم يتركهم هملاً خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملاً؛ لقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ ﴾ الآية.

١٦- أن من حكمة الله- عز وجل- في مشروعية الجهاد الابتلاء والامتحان؛ ليعلم الله الذين جاهدوا، ونصحوا لله ولرسوله وللمؤمنين من غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾.

١٧- أن الله- عز وجل- لا يحاسب الناس ويجازيهم على ما سبق في علمه بهم في الأزل وإنما يحاسبهم على ما يظهر من أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾ الآية.

١٨- الترغيب في الجهاد والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين، والتحذير من ترك الجهاد واتخاذ بطانة وأولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين.

١٩- إثبات خبرة الله- عز وجل- واطلاعه التام وعلمه الواسع بأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وفي هذا وعد لمن اتقى الله، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه؛ لأن مقتضى خبرته- عز وجل- وعلمه بأعمالهم محاسبتهم ومجازاتهم عليها خيرها وشرها.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ ﴾.

قرأ أبوعمرو ويعقوب وابن كثير: «مسجد الله» بالإفراد، أي: المسجد الحرام.

وقرأ الباقون بالجمع: ﴿مَسَٰجِدَ﴾ على أن المراد به المسجد الحرام وسائر المساجد.

واتفقوا جميعاً على القراءة بالجمع في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾.

و﴿ مَا ﴾ في قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ نافية، وجملة ﴿أَن يَعْمُرُوا﴾ في محل رفع اسم كان، أي: ما كان للمشركين عمارة مساجد الله، أي: عمارتها بالعبادة.

﴿شَٰهِدِينَ﴾ حال من ضمير «يعمروا»، أي: مقرين ومعترفين على أنفسهم بالكفر، بأحوالهم وأقوالهم وأفعالهم.

أي: ليس المشركون بأهل لعمارة مساجد الله بالعبادة، لكفرهم بالله، وشهادتهم على أنفسهم بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓا أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ومساجد الله إنما بنيت وأسست على اسمه- عز وجل- وحده لا شريك له، وتقواه؛ كما قال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨].

وهذه الآية- والله أعلم- توطئة وتمهيد لمنع المشركين من دخول المسجد الحرام في

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

ومعنى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أي: بطلت أعمالهم بسبب شركهم وكفرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)﴾ [النور: ٣٩، ٤٠].

﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، أي: وفي النار هم مقيمون إقامة أبدية، لا يتحولون عنها؛ لأن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥)﴾ [الأحزاب: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)﴾.

نفى عز وجل في الآية السابقة أن يكون للمشركين عمارة مساجد الله مع ما هم عليه من الكفر، ثم بيَّن أنه إنما يعمر مساجد الله حقًّا المؤمنون الموصوفون بالصفات المذكورة في هذه الآية.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة، تفيد الحصر، أي: ما يعمر مساجد الله بالعبادة فيها وتعظيمها إلا ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، «مَن» موصولة، أي: الذي صدق بالله واليوم الآخر.

والإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه.

والإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالبعث بعد الموت والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال.

وكثيراً ما يقرن عز وجل بين الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأن اليوم الآخر فيه الحساب والجزاء على الأعمال، فالإيمان به من أعظم ما يحمل ويدفع للعمل الصالح.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: أتبع الإيمان بالعمل الصالح، فجمع بين الإيمان بالاعتقاد الصحيح في الباطن، وبين الإسلام بالعمل الظاهر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، أي: وأقام الصلوات الخمس، ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: أعطاها لمستحقيها.

﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، أي: ولم يخف إلا الله، والخشية: شدة الخوف، فهي أخص منه؛ لأنها تدل على عظم المخشي، وعلم الخاشي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقد بدأ بعمل الباطن وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، وختم به بقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ لأن الإيمان وعمل الباطن هو الأصل لقبول العمل وصلاحه، كما قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[١].

﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يقول: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]، يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة وكل ﴿عَسَىٰٓ﴾ في القرآن، فهي واجبة»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٦-٣٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٦).

وقال محمد بن إسحاق: «و﴿عَسَىٰٓ﴾ من الله حق»[١].

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للموصوفين بما في الآية من الإيمان بالله واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعدم خشية غير الله، وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لهم.

أي: فعسى الموصوفين بما ذكر أن يكونوا من ﴿ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: من المتصفين بالاهتداء المطلق، لا مطلق الاهتداء.

ولهذا قال: ﴿مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، ولم يقل: (مهتدين).

وفي هذا حث للمؤمنين على الاستزادة من الاهتداء بالعلم النافع والعمل الصالح مع ترجيح جانب الخوف وعدم الاغترار، كما أن فيه قطعاً لأطماع الكفار وإبطالاً لزعمهم أنهم عمار المسجد الحرام وأولياؤه.

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

عن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- قال: «كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم. فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة- ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله- عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾»[٢].

وقد روي أيضاً أن المشركين كانوا يفخرون بالحرم، وأنهم أهله وعمّاره، وسقاة الحاج، فأنزل الله هذه الآيات تبين لهم أن ذلك لا ينفعهم ولا يستوي مع الإيمان بالله

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة- فضل الشهادة في سبيل الله (١٨٧٩)، وأحمد (٤/ ٢٦٩)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٧-٣٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٧)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٦٣).

والهجرة والجهاد في سبيله(١).

قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾، الاستفهام للإنكار والنفي، والخطاب لمشركي مكة، و﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ سقي حجاج بيت الله الحرام من ماء زمزم، وكانت لبني هاشم، وجاء الإسلام وهي للعباس بن عبدالمطلب.

﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ببنائه والقيام على إصلاحه، وعلى حراسته وهو السدانة والحجابة، وكانت لبني عبدالدار بن قصي، وجاء الإسلام وهي لعثمان بن طلحة.

﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾، الكاف: للتشبيه، بمعنى: «مثل» و«من»: موصولة، أي: مثل الذي آمن بالله واليوم الآخر.

﴿وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾، أي: بَذَل جهده وطاقته في القتال؛ لإعلاء كلمة الله.

﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾، أي: في حكم الله، وفي منازلهما عنده عز وجل، فسقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام والقيام على مصالحه وسدانته- وإن كانت عملاً محموداً- لكن ذلك لا ينفع مع الشرك بالله وعدم الإيمان، فلا يستوي من هذه حاله مع من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله.

وأيضاً: لا يستوي عند الله من آمن وسقى الحاج وعمر المسجد الحرام بالعبادة؛ بالطواف والصلاة والاعتكاف ونحو ذلك مع من آمن بالله وجاهد في سبيله- فمن آمن وجاهد أفضل وأعظم درجة عند الله.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا يناسب القول بأن المراد بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام من المشركين، وأن ذلك لا يجدي ولا ينفع مع عدم الإيمان.

وهداية الله تنقسم إلى قسمين: هداية البيان والدلالة والإرشاد، وبها أقام الله- عز وجل- الحجة على الناس بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى:

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٧٨)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٧٦٨)، «أسباب النزول» للواحدي ص(١٦٤)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٣-٦٥).

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧].

وهذه الهداية عامة، فالله- عز وجل- هاد بمعنى دال ومرشد لعباده، والرسل والدعاة هداة إلى الله- عز وجل- بهذا المعنى.

والقسم الثاني: هداية التوفيق، وهذه خاصة بالله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، وهي المرادة بقوله هنا: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، أي: لا يوفقهم.

و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ جمع ظالم، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وهو النقص، كما قال تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئاً.

و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ بالتعريف يدل على أنهم بلغوا الغاية في الظلم، كيف وقد أشركوا بالله، والشرك أعظم الذنوب، وأظلم الظلم، كما قال تعالى فيما حكاه عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان: ١٣].

وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله، وهو عبادته- عز وجل- أعظم الحقوق وأوضحها وأبينها، خلق ورزق، وأنعم على العباد بسائر النعم، فصرْفُ حقه لغيره أعظم الظلم، وهو الحنث العظيم.

قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

نفى عز وجل في الآية السابقة أن يستوي عند الله سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، مع من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، ثم أتبع ذلك ببيان فضل الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله وعظم منزلتهم عند الله، وما لهم من الفوز والبشرى بالرحمة والرضوان والجنات، وما فيها من النعيم المقيم والخلود والأجر العظيم.

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، أي: صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بالله وبكل ما يجب الإيمان به، وانقادوا بجوارحهم.

﴿وَهَاجَرُوا۟ ﴾، أي: وهاجروا من مكة إلى المدينة، فراراً بدينهم ونصرة لله ورسوله.

والهجرة في اللغة: الترك، وفي الشرع: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾، أي: بذلوا جهدهم وطاقتهم في الجهاد والقتال؛ لإعلاء كلمة الله، قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ بالإنفاق في الجهاد وتجهيز الغزاة.

﴿وَأَنفُسِهِمۡ﴾ بالخروج للجهاد بأنفسهم.

وقدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس لأهمية الجهاد بالأموال؛ لأن الجهاد بالنفس لا يقوم إلا على الجهاد بالمال(٢).

﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، أي: أرفع منزلة عند الله من أهل السقاية والعمارة؛ حتى لو كانوا مؤمنين، فكيف إذا كانوا غير مؤمنين.

والمفاضلة قد تجري بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة، كما قال تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ۝٢٤﴾ [الفرقان: ٢٤]، أي: خير مستقراً وأحسن مقيلاً من أهل النار علماً أن النار ليس فيها خير ولا حسن البتة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعظيماً لشأنهم، وأكد الفوز وحصره فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، و بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾.

والفوز: الحصول على المطلوب والنجاة من المرهوب، أي: الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة والنجاة من النار.

قوله تعالىٰ: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٢٢﴾.

هذا تفسير وبيان لما لهم عند الله من عظيم المنزلة والفوز.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) راجع الكلام على قوله تعالى- في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٧٢].

قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾، البشارة: الإخبار بما يسر القلب ويبهج النفس، أي: يخبرهم ربهم بما يسرهم، وسمى الخبر السار بشارة وبشرى أخذاً من بشرة الإنسان؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره اتسعت واستنارت بشرته. وفي حديث كعب بن مالك- رضي الله عنه- قال: «وكان رسول الله ﷺ إذا سُر استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»(١).

وكون هذه البشارة من ربهم خالقهم ومالكهم ومربيهم بسائر النعم يدل على عناية الله- عز وجل- بهم، وعلى عظم هذه البشارة، فلا يقدر قدرها إلا من بشرهم بها وهو الرب الجواد الكريم- سبحانه وتعالى.

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

نكَّر «رحمة»، و«رضوان»، و«جنات»: و«نعيم»: للتعظيم، وأكد تعظيمها بقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ وهو الجواد الكريم سبحانه.

والمراد بقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ رحمته الخاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

﴿وَرِضْوَانٍ﴾ على وزن «فعلان» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: ورضا كامل منه- عز وجل- عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧، ٨].

وفي الحديث القدسي: «**أن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: أنا أعطيكم**

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢).

أفضل من ذلك. قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[(١)].

﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ «جنات»: جمع جنة، سميت بذلك لأنها تجن من بداخلها بكثرة أشجارها وغصونها وأوراقها وثمارها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ١٦].

وجمعت باعتبار أنواعها ومراتبها وأنواع النعيم فيها، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن أم الربيع بنت البراء، وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة، وكان قُتِل يوم بدر أصابه سهم غرب[(٢)]، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «**يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»[(٣)].

وقال ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**»[(٤)].

﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، قدم الخبر ﴿لَهُمْ﴾ للتأكيد، وبيان اختصاصهم بذلك، أي: لهم دون غيرهم.

﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنات.

﴿نَعِيمٌ﴾ نكرة يعم جميع أنواع النعيم، أي: ولهم فيها أنواع النعم التي لا تعد ولا تحصىٰ، من المآكل والمشارب والمساكن والفرش والأزواج، ولهم فيها أنواع التنعم والسرور والبهجة وقرة العين، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء:

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤٩)، ومسلم في الإيمان (١٨٣)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) «سهم غرب» أي: سهم طائش، لا يدرى من أين أتى، ومن الذي رمى به.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٩)، والترمذي في التفسير (٣١٧٤).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿مُّقِيمٌ﴾ دائم مستمر، لا ينقطع أبداً، ولهذا قال بعده:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ﴾ حال، أي: حال كونهم خالدين في هذه الجنات، خلوداً أبديًّا لا يحول ولا يزول؛ لأن الجنات لا تفنى، ولا يفنى أهلها ولا نعيمها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، أي: إن الله عنده ثواب عظيم، مما ذكر ومما لم يذكر، عظيم كمًّا، وكيفاً، لا يدرك عظمته إلا من هو عنده ومِنْهُ، وهو العظيم- سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

ويَعْظُم هذا الأجر بكونه عند الله ومنه، أجود الأجودين وأكرم الأكرمين، الغني الحميد.

وقد سمى عز وجل ثوابهم أجراً؛ لأنه- عز وجل- تكفَّل به وأوجبه على نفسه تكرماً منه- سبحانه، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

الفوائد والأحكام:

١- نفي أن يكون المشركون عمار مساجد الله وهم على ما هم عليه من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾.

٢- تحقير المشركين والكفار، وبيان حبوط أعمالهم- ولو كانت مما يثاب عليه المؤمنون- وخلودهم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

٣- أن النار لا تفنى، ولا يفنى أهلها، ولا عذابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾، أي: خلوداً أبديًّا وعلى هذا دل القرآن الكريم في مواضع عدة.

٤- بيان أنه إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

٥- أن الأهم في عمارة المساجد عمارتها معنويًّا بالإيمان بالله والصلاة فيها والعبادة.

٦- أن أعظم أركان الإيمان هو الإيمان بالله، بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾.

٧- أن من أعظم وأهم أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾.

٨- لا يستقيم الإيمان بلا عمل، إذ لابد من الجمع بين الإيمان في الباطن وبين الإسلام بالعمل الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

٩- عظم مكانة الصلاة في الإسلام، فهي عمود الإسلام وأعظم أركانه بعد الشهادتين وأعظم العبادات، لهذا قدمت في الذكر، وخصت من بين العبادات البدنية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

١٠- أن المقصود من الصلاة إقامتها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

١١- أن الزكاة قرينة الصلاة، وهي أعظم العبادات المالية وأعظم العبادات بعد الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

١٢- وجوب دفع الزكاة لمستحقيها، وعدم تكليفهم طلبها والبحث عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

١٣- وجوب خشية الله- عز وجل- وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

١٤- أهمية صلاح الباطن، لهذا بدأ به بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ وختم

به بقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

١٥- وعد الله- عز وجل- بتحقيق الهداية لمن آمن به واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

١٦- أن على الإنسان أن يجتهد بالقيام بشرائع الإيمان والإسلام، ويسأل الله الهداية والتوفيق، ويرجو ثواب الله، ويخشى عقابه، ولا يُدِل على الله بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

١٧- لا يستوي عند الله من قام بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بالقيام عليه وحراسته ونحو ذلك مع الشرك بالله، مع من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

١٨- لا يستوي من آمن وقام بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بالعبادة فيه مع من آمن وجاهد في سبيل الله، فهؤلاء أعظم درجة عند الله ولهم من الفضل والنعيم ما ليس لغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الآية.

١٩- نفي هداية الله وتوفيقه عن القوم الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومفهوم هذا إثبات هدايته- وتوفيقه لغير الظالمين.

٢٠- عظم ما أعد الله- عز وجل- للذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم من الدرجات، وما خصهم به من الفوز والبشارة بالرحمة والرضوان والجنات وما فيها من النعيم المقيم والخلود الأبدي، والأجر العظيم عنده، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

٢١- فضل الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس.

٢٢- أن الإيمان أصل وأساس لقبول جميع الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ الآية.

٢٣- فضل الهجرة على الجهاد لتقديمها عليه في الآية.

٢٤- أن المعتبر من الجهاد ما كان في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله.

٢٥- أن الجهاد بالأموال أهم من الجهاد بالأنفس؛ لتقديم الجهاد بالأموال في الآية على الجهاد بالأنفس- وهو الغالب في القرآن الكريم.

٢٦- إثبات ربوبية الله الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾.

٢٧- إثبات صفة الرحمة والرضا لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾.

٢٨- إثبات أبدية الجنة ونعيمها وأهلها، وأنها لا تفنى، ولا يفنى نعيمها، وأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

٢٩- عظم ما عند الله من الأجر والثواب مما لا يقدر قدره سواه- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

٣٠- الترغيب في المسابقة في الطاعات والعمل الصالح لنيل ما عند الله من الأجر العظيم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، أي: لا تجعلوا أباءكم وإخوانكم أولياء؛ توالونهم وتوادونهم، وتثقون فيهم، وتفشون إليهم أسراركم، وتقدمون طاعتهم ومحبتهم على طاعة ومحبة الله ورسوله.

﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾، «إن»: شرطية، ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه النهي السابق. والسين والتاء في «استحبوا»: للمبالغة والتأكيد.

أي: إن أحبوا الكفر ورضوه، واختاروه على الإيمان، واستمروا عليه، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وإذا كان هذا النهي في حق الآباء والإخوان الذين هم أقرب الناس؛ فغيرهم من باب أولى.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾، الواو: عاطفة، و«من»: شرطية، ﴿يَتَوَلَّهُم﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة، وأصله: «يتولاهم»؛ والمعنى: ومن يجعلهم أولياء.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ الفاء رابطة لجواب الشرط، والإشارة تعود إلى فاعل «يتولهم»، أي: ومن يتولهم فهو من الظالمين الذين وضعوا الموالاة في غير موضعها، وتجاوزوا ما أمر الله به.

وقد أكد وصفهم بالظلم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: الذين بلغوا الغاية في الظلم.

وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لهم، وبيانًا لإغراقهم في الظلم.

ويجوز عود الإشارة إلى ضمير النصب في «يتولهم»، أي: ومن يتولهم فقد تولى الظالمين المشركين والأول أولى وأظهر.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

نهى عزّ وجل في الآية السابقة عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، وبين أن من فعل ذلك فهو من الظالمين، ثم أتبع ذلك بالوعيد لمن فعل ذلك.

قوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ ﴾، ومثلهم الأمهات.

﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾؛ في النسب.

﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾؛ قرأ أبو بكر عن عاصم بالألف على الجمع: «وعشيراتكم». وقرأ الباقون بغير ألف على الإفراد ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾.

والعشيرة: الأقارب الأدنون، أو القبيلة، أي: أقاربكم الأدنون، أو قبيلتكم عمومًا.

﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾، أي: اكتسبتموها وحصّلتموها.

وفي قوله: ﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ إشارة إلى شدة حرصهم عليها؛ لأنهم تعبوا في تحصيلها، بخلاف من تأتيه الأموال من غير تعب ولا كد.

﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾، أي: تخافون عدم رواجها ورخصها ونقصها؛ بسبب مقاطعة طوائف من المشركين في التعامل معهم، أو الانقطاع عن الاتجار أيام الجهاد أو غير ذلك.

﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾، أي: ومنازل تحبونها؛ لطيبها وحسنها، وتعجبكم الإقامة فيها.

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ خبر «كان».

﴿مِّنَ اللَّهِ﴾، أي: من الله عزّ وجل، المنعم عليكم بكل ما ذكر وغيره، والذي يجب تقديم محبته على كل شيء؛ لأنه الذي خلق ورزق، وأنعم على الخلق بسائر النعم، وهداهم إلى الصراط المستقيم.

﴿وَرَسُولِهِ﴾ معطوف على لفظ الجلالة «الله»، أي: أحب إليكم من الله ومن رسوله، فمحبته ﷺ تأتي بعد محبة الله عز وجل.

فيجب تقديم محبته ﷺ على محبة جميع الخلق؛ لأن ما أتانا من الفضل العظيم الذي خص الله تعالى به هذه الأمة إنما جاءنا من طريقه ﷺ، وكل طريق للسعادة في الدنيا والآخرة مسدود إلا من طريقه ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة:٢-٤].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وأحب إليكم من جهاد في سبيله. والجهاد في سبيله: بذل الجهد بالمال والنفس؛ لإعلاء كلمة الله تعالى ونصرة دينه.

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، أي: فانتظروا. والتربص: الانتظار، وأكثر ما يكون في انتظار الشر والوعيد، وهو المراد هنا، أي: فانتظروا:

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، أي: إلى غاية أن يأتي الله بأمره الكوني وقضائه القدري بعقابكم عاجلًا أو آجلًا، فيظهر لكم سوء عاقبة إيثار محبة ما ذكر على محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أظهر مقام الإضمار، فلم يقل: «لا يهديكم»؛

للتسجيل عليهم بوصف الفسق، وليعمهم هذا الحكم وغيرهم من الفاسقين.

والهداية المنفية عنهم هي هداية التوفيق، أي: والله لا يوفق الفاسقين الخارجين عن طاعته عزّ وجل.

الفوائد والأحكام:

١- العناية والاهتمام والتنبيه بتصدير الخطاب بالنداء؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده- أمرًا كان أو نهيًا- من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٣- تحريم موالاة الآباء والإخوان وغيرهم من الأقارب إن اختاروا الكفر على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

٤- تحريم موالاة الكافرين عمومًا؛ لأنه إذا حرم اتخاذ الآباء والإخوان الكافرين أولياء فحرمة موالاة غيرهم من الكافرين من باب أولى.

٥- وجوب موالاة المؤمنين عمومًا؛ لمفهوم النهي عن موالاة من استحبوا الكفر على الإيمان.

٦- التحذير من موالاة الكافرين من الأقارب وغيرهم، وأن من فعل ذلك فهو من الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

٧- وجوب تقديم محبة الله تعالى ورسوله، والجهاد في سبيله ونصرة دينه؛ على كل محبوب؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ الآية.

٨- وجوب تقديم محبة الله تعالى على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، فقدم محبته عز وجل.

٩- وجوب تقديم محبة الرسول ﷺ على محبة كل مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾.

عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**لا- والّذي نفسي بيده- حتّى أكون أحبّ إليك من نفسك**»، فقال له عمر: فإنه الآن- والله- أنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»(١).

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والنّاس أجمعين**»(٢).

١٠- وجوب تقديم محبة الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه على محبوبات الدنيا؛ من محبة الأقارب، والأموال، والتجارة، والمساكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ﴾.

١١- الوعيد لمن قدم محبة ما ذكر من المحبوبات الدنيوية على محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

١٢- نفي هدايته عز وجل عن الفاسقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

١٣- أن من قدم محبة ما ذكر على محبة الله تعالى ورسوله وجهاد في سبيله؛ فهو من الفاسقين؛ بدليل الاظهار بدل الإضمار، فلم يقل: «والله لا يهديهم»، بل قال: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، فدل على أنهم من الفاسقين.

١٤- أن مما يُحب طبيعة ما ذكر من الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والأموال، والتجارة، والمساكن، لكن لا ينبغي تقديم ذلك ولا غيره من أمور الدنيا على محبة الله ورسوله والقيام بأمره.

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، كيف كان يمين النبي ﷺ (٦٦٣٢)، وأحمد (٤/ ٣٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان- حب رسول الله ﷺ من الإيمان (١٥)، ومسلم في الإيمان- بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٤)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٧).

١٥- التحذير من الافتتان بالدنيا ومحبوباتها- أيًّا كانت- وإيثارها على مرضاة الله تعالى، والانشغال بها عن طاعته وما يقرب إليه من الأعمال الصالحة، مما به سعادة المرء في دنياه وأخراه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزّرع، وتركتم الجهاد؛ سلّط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه عنكم حتّى ترجعوا إلى دينكم**»[1].

* * *

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، النهي عن العينة (٣٤٦٢)، وأحمد (٢/ ٤٢).

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر. و«قد»: حرف تحقيق.

﴿نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾؛ أظفركم بعدوكم، وجعل الغلبة لكم؛ بتأييده وتقديره وعونه لكم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢].

﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾؛ «مواطن»: جمع «موطن»، أي: مواقع ومواقف، أي: لقد نصركم الله في مواقف ومواقع حروب كثيرة في غزواتكم مع النبي ﷺ؛ كغزوة بدر، وقريظة، والنضير، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة، وغيرها.

وقد بلغت غزواته ﷺ تسع عشرة غزوة؛ كما جاء في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه(١)، وبلغت بعوثه وسراياه أكثر من سبعين بعثًا وسرية.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ونصركم يوم حنين، أي: يوم غزوة حنين.

و«حنين»: اسم للمكان الذي وقعت فيه الغزوة، وهو واد بين مكة والطائف قرب ذي المجاز.

كما تسمى هذه الغزوة غزوة أوطاس، وهو أيضًا: اسم لمكان المعركة، وتسمى

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٤٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٢٥٤).

غزوة هوازن؛ لأنهم هم الذين أتوا لقتال رسول الله ﷺ وقاتلوه في هذا المكان، وكانت غزوة حنين في سنة ثمان من الهجرة، بعد فتح مكة، وكان المسلمون اثني عشر ألفًا.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، أي: حين أعجبتكم كثرتكم، حيث قال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، فاغتروا بكثرتهم، واعتمدوا عليها.

﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾، أي: فلم تنفعكم، ولم تفدكم شيئًا؛ لا قليلًا ولا كثيرًا، ولم تدفع عنكم.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، الباء للملابسة والمصاحبة. و«ما» مصدرية.

أي: وضاقت عليكم الأرض مع رحبها وسعتها، وكونها لا ضيق فيها.

أي: ضاقت عليكم الأرض مع سعتها؛ ضيقًا حسيًّا لمفاجأة العدو لكم وتتبعه إياكم، وضيقًا معنويًا بسبب شدة الخوف والقلق؛ كما قال تعالى في خبر الثلاثة الذين خلفوا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة:١١٨].

قال الشاعر:

كَأَنَّ فِجَاجَ الأَرْضِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الخَائِفِ المَذْعُورِ كِفَّةُ حَابِلِ[(١)]

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾؛ «مدبرين» حال مؤكدة، أي: ثم فررتم ووليتم عدوكم الأدبار منهزمين. وكان هذا في أول الأمر، حيث كمنت لهم هوازن في بطن الوادي، وكانت الواقعة في أول النهار في غلس الصبح، فلما انحدر المسلمون من الوادي لم يشعروا إلا وقد واثبوهم ورشقوهم بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد، فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين- كما قال الله عز وجل- وثبت رسول الله ﷺ ومعه قريب من مائة من أصحابه؛ منهم أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وأبو سفيان، بن الحارث، وغيرهم رضي الله عنهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا

---

(١) البيت للطرماح. انظر: «التذكرة الحمدونية» (٥/ ٤٣٠).

وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، أي: ثم لما حصل للمؤمنين ما حصل من الهزيمة بسبب اغترارهم بكثرتهم، وتبين لهم أن ذلك لم يغن عنهم شيئًا؛ أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين؛ ليعلموا أن النصر من عند الله تعالى وحده وبإمداده، لا بالكثرة، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩].

و«السكينة»: الثبات والطمأنينة يجعلها الله تعالى في قلوب عباده وقت القلاقل وشدة المخاوف، أي: فأنزل الله طمأنينة وثباته ونصره وتأييده على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، فأمر رسول الله ﷺ العباس أن ينادي في الناس بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب السمرة، يا أصحاب البقرة. فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك. وانعطف الناس وتراجعوا إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعد ما دعا ربه واستنصره، فقال: «**اللّهمّ أنجز لي ما وعدتّني**». ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون(١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ قال: ولكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قومًا رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وهو يقول: «**أنا النّبيّ لا كذبْ، أنا ابن عبد المطّلبْ**»(٢).

﴿وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ من الملائكة؛ يعينون المسلمين، ويثبتونهم، ويبشرونهم بالنصر.

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٧-٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، من قاد دابة غيره في الحرب (٢٨٦٤)، ومسلم في الجهاد والسير، غزوة حنين (١٧٧٦)، والترمذي في الجهاد (١٦٨٨).

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأسر والسبي.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: وذلك العذاب عقوبة الكافرين في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: من بعد تعذيب الذين كفروا؛ بالقتل، والأسر، والسبي.

وتوبة الله تعالى على العبد: توفيقه للتوبة، وقبولها منه؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة:١١٨]، أي: وفقهم للتوبة؛ ليتوبوا، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥].

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾؛ المشيئة بمعنى: الإرادة الكونية، أي: على من يريد هدايته إلى الإيمان؛ من هوازن الذين قاتلوا رسول الله ﷺ في حنين، وغيرهم، فيوفقهم للتوبة والإيمان، ويقبل ذلك منهم.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾، أي: والله ذو المغفرة الواسعة لمن تاب وأناب إليه، مهما عظمت ذنوبه وكثرت، فلا يتعاظمه ذنب أن يغفره؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو رحمة واسعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧].

وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية، وقرن المغفرة بالرحمة؛ لأن الرحمة هي سبب المغفرة.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير المؤمنين والامتنان عليهم بنصر الله تعالى لهم على أعدائهم في كثير من غزواتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، وهو نصر للأمة أجمع.

٢- تأكيد الأَخبار في القرآن الكريم بالقسم وغيره من المؤكدات، كما كان عليه

العرب في نقلهم الأخبار؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٣- تذكير المؤمنين والامتنان عليهم بنصر الله تعالى لهم يوم حنين خاصة، بعد أن أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا، وولوا مدبرين؛ ليعلموا أن النصر من عند الله عز وجل وحده، لا بكثرة العدد والعدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ الآية.

٤- يجب الاعتماد على الله تعالى والاستعانة به؛ وعدم الاعتماد على الأسباب المادية فقط، من كثرة العدد والعدة ونحو ذلك؛ فإنها لا تكفي، بل ذلك سبب للهزيمة، كما أن ترك فعل الأسباب المادية لا ينبغي، بل يجب الجمع بين الأمرين.

٥- أن العبرة بالكيف لا بالكم، فلا يغتر في القتال بكثرة العدد والعدة، و﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩].

ولا يغتر بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم على غير هدى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

ولا يستوي الخبيث والطيب مهما كثر الخبيث؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠].

٦- تصوير ما حصل للمؤمنين في حنين من الكرب، حيث ضاقت عليهم الأرض مع سعتها، واشتد بهم الخوف والقلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

٧- أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.

٨- إمداد الله تعالى المؤمنين يوم حنين بالملائكة، وأنهم في الغالب لا يشاهدون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

٩- تعذيب الذين كفروا في حنين بالقتل والأسر والسبي؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَذَّبَ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٠- أن ما أوقعه الله عز وجل من تعذيب الكفار يوم حنين بالهزيمة والقتل والأسر والسبي؛ مجازاة لهم على كفرهم وقتالهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ولمن لم يتب منهم في الأخرة عذاب أليم.

١١- سعة عفو الله عز وجل ومغفرته ورحمته، حيث تاب على من شاء من الكفار الذين قاتلوا رسول الله ﷺ من هوازن، ويتوب على من يشاء من غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

١٢- إثبات المشيئة لله تعالى، وصفتي المغفرة والرحمة الواسعتين له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

نفى- عز وجل- في الآيات السابقة أن يكون المشركون أهلاً لعمارة المسجد الحرام مع شهادتهم على أنفسهم بالكفر؛ توطئة وتمهيداً للنهي عن قربهم المسجد الحرام، وهو ما ذكره الله عز وجل في هذه الآية.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ النداء والخطاب للمؤمنين حال نزول الآية، ومن يأتي بعدهم من المؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة، تفيد الحصر، أي: ما المشركون إلا نجس، والنجس يطلق على النجس حسيًّا؛ كالغائط والبول والدم المسفوح والخنزير والميتة ونحو ذلك.

ويطلق على النجس معنوياً كالشرك والمعاصي ونحو ذلك. وهو المراد هنا فنجاسة المشركين نجاسة معنوية، وهي صفة ملازمة لهم، وهي أشد من النجاسة الحسية؛ لأن النجاسة الحسية يزيلها الماء والتراب ونحو ذلك، وأما النجاسة المعنوية، وهي نجاسة العقائد والأعمال فلا يزيلها إلا التوبة والإيمان، ولهذا فإن المؤمن طاهر لا ينجس، كما قال ﷺ: «**إن المؤمن لا ينجس**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري في الغسل- عرق الجنب وأن المسلم لا ينجس (٢٨٥)، ومسلم في الحيض (٢٧١)، وأبوداود في الطهارة (٢٣١)، والترمذي في الطهارة (١٢١)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٥٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد قيل: المراد بالنجس في الآية ما يشمل النجاسة المعنوية والحسية أيضاً؛ لأنهم لا يتطهرون من النجاسات، ومن الحدث الأكبر والأصغر.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾، الفاء: للتفريع، و«لا»: ناهية، والنهي للمؤمنين بأن لا يَدَعوا المشركين يقربون المسجد الحرام، وظاهره نهي المشركين عن قرب المسجد الحرام مبالغة في نهي المؤمنين من تمكينهم من ذلك.

وقوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟﴾ أبلغ من «فلا يدخلوا»، أي: فلا يمكنوا من الاقتراب من المسجد الحرام؛ احتراماً وتكريماً له من رجسهم؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، كما قال ﷺ[١].

والمراد بالمسجد الحرام ما يشمل الحرم كله. كما ينبغي منعهم من دخول سائر المساجد.

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾، وهو العام الذي نزلت فيه هذه الآيات سنة تسع من الهجرة، فلا يجوز أن يقربوا المسجد الحرام بعد هذا العام، لا لحج ولا لعمرة، ولا لغير ذلك؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًّا بهذه الآيات مع أبي بكر- رضي الله عنهما- وأمر عليًّا في نفر من الصحابة أن ينادوا في الناس: «أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»[٢].

قال ابن كثير[٣]: «فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً».

وإنما أضيف العام إليهم في قوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ﴾؛ لأن هذا الحكم الخطير المبلغ لهم فيه وهو المنع من قرب المسجد الحرام يتعلق بهم خاصة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ﴾، الواو عاطفة.

و«إن»: شرطية، ﴿خِفْتُمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

---

(١) هذا جزء من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه- الذي فيه: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله» وقد سبق تخريجه قريباً.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في «تفسيره» (٤/ ٧٣).

و«العيلة» الفقر، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ [النساء: ٣]، أي: ألا تفتقروا.

والمعنى: وإن خفتم أيها المؤمنين فقراً بسبب منع المشركين من قرب المسجد الحرام، بانقطاع ما قد يحصل منهم من نفقات وهدايا وتجارة في المواسم.

﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«سوف».

وهذا وعد من الله- عز وجل- بأن يغني المؤمنين مما عنده من الفضل والزيادة.

وقد أنجز عز وجل وعده، وأغنى المسلمين من فضله بما أوجب على المشركين من الجزية، وبما بسط من الأرزاق للمسلمين، وأدرَّ لهم من الخيرات ورزقهم من الثمرات حيث دخل أهل كثير من البلاد في الإسلام وأخذوا يؤمون البيت للحج والعمرة والاعتكاف والعبادة، ولطلب التجارة، فصارت تجبى إلى الحرم الثمرات والأرزاق من كل حدب وصوب، من اليمن ومصر والشام والهند، وغير ذلك؛ تحقيقاً لوعد الله- عز وجل- واستجابة لدعاء خليله عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧].

﴿إِن شَآءَ﴾، أي: إن أراد، والمشيئة: هي الإرادة الكونية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع، وذو حكم تام، وحكمة بالغة، ومن علمه- عز وجل- وحكمه وحكمته أن نهى عن قرب المشركين المسجد الحرام، وعلم ما قد يخطر في نفوس المؤمنين من خوف العيلة والفقر فوعدهم بأن يغنيهم من فضله إن شاء فوفى عز وجل لهم بما وعدهم، وصب عليهم الأرزاق صبًّا.

قوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

أَمَر الله- عز وجل- فيما سبق بقتل المشركين وأخذهم أينما وجدوا وقتالهم حتى يتوبوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك وجب تخلية سبيلهم والكف

عنهم، وأنهم إخواننا في الدين، ثم أمر في هذه الآية بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وهو أول أمر بقتالهم، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، ولهذا تجهز ﷺ لقتال الروم وخرج إليهم بنحو ثلاثين ألف مقاتل ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه، وذلك لضيق الحال وضعف الناس(١).

قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، أي: قاتلوا الكفار الذين لا يصدقون بالله وربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته ﴿وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ يوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء على الأعمال والجنة والنار.

وفي إعادة «لا» وحرف الجر مع العطف: تأكيد وجوب الإيمان باليوم الآخر، وأن من آمن بالله ولم يؤمن باليوم الآخر لم ينفعه ذلك.

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، «ما»: موصولة، أي: ولا يحرمون الذي حرم الله ورسوله من المحرمات، بل استحلوا ما حرم الله ورسوله بأدنى الحيل، كما احتالوا في وضع الشباك للصيد يوم السبت وأخذه يوم الأحد، وكما جملوا الشحوم التي حرمها الله عليهم وأذابوها وباعوها وأكلوا ثمنها وغير ذلك.

وأعاد «لا» هنا وفي قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ لتأكيد وجوب تحريم ما حرم الله ورسوله، والدينونة بدين الحق، وأن ذلك من لازم الإيمان بالله.

وعطف وصف الرسول أو اسمه في قوله ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن ما حرمه رسوله كالذي حرمه الله، بل هو مما حرمه الله، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾، ﴿دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: الدين الحق، الذي جاء به محمد ﷺ ونسخ جميع الأديان قبله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٧٤-٧٥).

يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿مِنَ﴾ بيانية، أي: من الذين أعطوا الكتاب، وهم اليهود والنصارى، والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجنس، فاليهود أوتوا التوراة والنصارى أوتوا الإنجيل.

وهم كما لم يدينوا بدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ لم يدينوا قبل ذلك بما جاءت به رسلهم قبل أن ينسخ، بل حرفوا في ذلك وبدلوا، وأشركوا مع الله غيره، واتبعوا أهواءهم، كما ذكر الله تعالى- عنهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٤٨-٥٠].

ولهذا كفروا بمحمد ﷺ وبما جاء به من الدين الحق مع معرفتهم لذلك في كتبهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٦، ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ٢٠].

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾، أي: قاتلوهم إلى غاية أن يدفعوا الجزية، إن لم يسلموا.

و﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾ الخراج والمال الذي يؤخذ على رقاب الكفار، مقابل الكف عن قتالهم، وتأمينهم والحفاظ على دمائهم وأعراضهم وأموالهم، وإذلالاً لهم وصغاراً.

ولهذا قال بعده:

﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، ﴿عَن يَدٍ﴾ في موضع نصب على الحال، أي: حال كون

إعطائهم إياها عن يد، بأن يدفعوها بأيديهم مستسلمين مقهورين، من غير إرسال بها، أو ممانعة.

وعلى ما قيل من أنه قد يراد باليد في قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ يد الآخذ للجزية وهم المسلمون فمعنى ﴿عَن يَدٍ﴾، أي: عن قوة وسلطة قاهرة، أو إنعام عليهم بقبول الجزية منهم وترك قتالهم.

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ حال، أي: حال كونهم صاغرين، وهذه حالة لازمة لإعطاء الجزية عن يد.

والصغار: الذل والهوان. والصاغر: الذليل الحقير، أي: وهم ذليلون حقيرون مهانون حيث أهانوا أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

ولهذا قال ﷺ: «**لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه**»[1].

والمقصود من أخذ الجزية منهم ومعاملتهم على هذا الوجه تعظيم حكم الله- عز وجل- وتحقير أهل الكفر، وترغيبهم في الدخول في الإسلام.

الفوائد والأحكام:

١- العناية والاهتمام بخطاب المؤمنين وتكريمهم وتشريفهم، وترغيبهم في الامتثال؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٢- نجاسة المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ولا خلاف في نجاستهم معنويًّا لما هم عليه من الشرك والمعاصي، بل قيل بنجاستهم حسيًّا لأنهم لا يتطهرون من النجاسات والحدث الأصغر والأكبر.

والراجح أن أبدانهم ليست بنجسة؛ لأن الله- عز وجل- أباح نساء أهل الكتاب

(١) أخرجه مسلم في السلام- النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٧)، وأبوداود في الأدب (٥٢٠٥)، والترمذي في السير (١٦٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وذبائحهم وهم مشركون، كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقد توضأ النبي ﷺ من مزادة مشركة[١].

ويفهم من الآية طهارة المؤمنين، وقد قال ﷺ: «**المؤمن لا ينجس**»[٢].

٣- تحريم دخول المشركين المسجد الحرام، ووجوب منعهم من ذلك، بعد نزول هذه الآية، وذلك سنة تسع من الهجرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ وهكذا ينبغي منعهم من دخول الحرم النبوي وسائر المساجد.

٤- إثبات حرمة الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾.

٥- أن دخول المشركين للمسجد الحرام لم يكن ممنوعاً قبل هذا العام ونزول هذه الآيات.

٦- الإشارة إلى أنه قد يخطر في نفوس المؤمنين تخوف الفقر وانقطاع الإمداد والتجارة عنهم بسبب منع المشركين من دخول المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾.

٧- وعد الله- عز وجل- الذي لا يخلف الميعاد- بإغناء المسلمين من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾.

وهكذا حصل بما أوجب الله- عز وجل- على المشركين من أهل الكتاب من دفع الجزية، وبما بسط للمسلمين من الأرزاق وأدر عليهم من الخيرات والثمرات التي صارت تجبى إليهم من كل حدب وصوب بعد أن دخل أهل كثير من البلاد في الإسلام.

٨- إثبات المشيئة لله- عز وجل- وهي الإرادة الكونية، وأنه لا يقع شيء إلا بمشيئته

---

(١) أخرجه البخاري في الغسل (٢٨٥)، ومسلم في الحيض (٣٧١)، وأبوداود في الطهارة (٢٣١)، والنسائي في الطهارة (٢٦٩)، والترمذي في الطهارة (١٢١)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٥٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

وإرادته. ولا يجب عليه شيء لخلقه إلا ما أوجبه سبحانه وتعالى على نفسه- تفضلاً منه وكرماً، مما يوجب التعلق به- عز وجل- والتضرع إليه ورجاءه- مع بذل الأسباب.

٩- أن الغنىٰ في الدنيا ليس من لوازم الإيمان؛ لأن الله- عز وجل- علقه على مشيئته، وهي إرادته الكونية، التي بها يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ممن يحب وممن لا يحب[١].

١٠- إثبات صفة العلم الواسع لله- عز وجل- المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾.

١١- إثبات صفة الحكم التام لله عز وجل، والحكمة البالغة؛ لقوله- عز وجل: ﴿حَكِيمٌ﴾.

١٢- وجوب قتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية مقهورين أذلاء صاغرين؛ لقوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الجزية لا تؤخذ من غير أهل الكتاب؛ لأن الله لم يأمر بأخذ الجزية إلا منهم، وألحقوا بأهل الكتاب المجوس؛ لأن الرسول ﷺ أخذها من مجوس هجر[٢].

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أنها تؤخذ من جميع الكفار، لا فرق بين كتابي

---

(١) كما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه» أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، والدارمي في الرقاق (٢٧٨٣)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) كما في حديث بجالة أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- لم يكن أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبدالرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر» أخرجه البخاري في الجزية (٣١٥٧)، وأبوداود في الخراج (٣٠٤٣)، والترمذي في السير (١٥٨٦).

وغيره، من العرب وغيرهم، ورجح هذا ابن القيم رحمه الله[١].

لحديث بريدة- رضي الله عنه- أنه ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، وفيه: «**إذا لقيت عدوك فادعهم إلى ثلاث خصال، أو خلال فأيتهن أجابوك فأقبل منهم، وكف عنهم، ثم أمره أن يدعوهم إلى الإسلام فإن أبوا سألهم الجزية فإن أبوا قاتلهم**»[٢].

وليس فيها تقدير ثابت لا في الجنس ولا في القدر بل يجوز أن تكون ثياباً وذهباً وحللاً، وتزيد وتنقص بحسب حاجة المسلمين وحال من تؤخذ منه.

وتؤخذ وجوباً من الرجال الأحرار المكلفين، دون سواهم.

١٣- وجوب الإيمان بالله؛ بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن ذلك أعظم أركان الإيمان وأولها وأساسها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

١٤- وجوب الإيمان باليوم الآخر، يوم القيامة وأن ذلك من أعظم وأهم أركان الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

١٥- وجوب تحريم ما حرم الله ورسوله، طاعة وعبادة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

١٦- جواز عطف وصف الرسول ﷺ أو اسمه على اسم الله- عز وجل- في باب التحليل والتحريم بالواو التي تقتضي التشريك، وأن ما حرمه رسول الله ﷺ كالذي حرمه الله، بل هو مما حرمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

١٧- أن المحَرَّم ما حرمه الله ورسوله وما عداه فهو حلال.

١٨- أن دين الإسلام هو دين الحق، الذي يجب اتباعه، والذي نسخ جميع الأديان، ولا يقبل من أحد سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾.

١٩- ذم أهل الكتاب، وأنهم حرفوا وبدلوا فيما أنزل الله عليهم في كتبهم، وأشركوا مع

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٥٣-١٥٥)، (٥/ ٩٠-٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأبوداود في الجهاد (٢٦١٢)، والترمذي في السير (١٦١٧)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨).

الله غيره ولم يدينوا بما جاء في كتبهم قبل نسخها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

٢٠- أن الغاية من قتال من لم يؤمن من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، فلو أعطوها بلا قتال لم يجز قتالهم.

٢١- ينبغي أن تؤخذ الجزية من أهل الكتاب على الصفة التي ذكر الله- عز وجل- تعظيماً لحكم الله- عز وجل- وقهراً لهم وإذلالاً، وترغيباً لهم في الدخول في الإسلام.

٢٢- أن من العقوبات ما يكون بدفع المال؛ لأن الله- عز وجل- أوجب على أهل الكتاب إعطاء الجزية مجازاة لهم على كفرهم، وأماناً لهم- مع ترك قتالهم.

٢٣- أن الكفر والمعاصي تذل صاحبها وتهينه في الدنيا والآخرة، كما أن الإيمان والطاعة- عز للمرء في الدنيا والآخرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠)﴾.

أمر عز وجل في الآية السابقة بقتال من لم يؤمن من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ثم أتبع ذلك بذكر ما هم عليه من الشرك بالله والكفر ونسبة الولد إلى الله- تعالى الله عن ذلك- تأكيدًا وتعليلًا للأمر بقتالهم، وإغراءً بذلك، وتهييجًا للمسلمين عليهم.

قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ قرأ عاصم، والكسائي، ويعقوب، وأبو عمرو- في رواية-: ﴿عُزَيْرٌ﴾ بالتنوين. وقرأ الباقون بغير تنوين.

و«عزير»: حبر كبير من أحبار اليهود، قيل كان حفظ التوراة لهم.

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾؛ يعنون: المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام رسول الله.

وفي هذا بيان أن اليهود والنصارى بلغوا في الكفر غايته حتى ساووا المشركين؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة:٢٩]، فجمعوا بين الشرك بالله والفرية على الله تعالى بنسبة البنوة إليه، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ الإشارة لمقالتي اليهود والنصارى، وأشار إليهما بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لهما، وإشعارًا بإغراقهما في البشاعة والفظاعة.

ومعنى قولهم: «بأفواههم»، أي: أنه مجرد قول بألسنتهم لا حقيقة له، وكَذْبٌ كُبَّار؛ كما قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف:٥].

﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾؛ قرأ عاصم: ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ بالهمز. وقرأ الباقون بدون همز: «يضاهون».

أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾، أي: قول المشركين من قبلهم، الذين نسبوا إلى الله الولد، وقالوا: الملائكة بنات الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النحل:٥٧].

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ المفاعلة للمبالغة، ومعنى ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لعنهم الله»(١).

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ الاستفهام: للتعجيب من حالهم، أي: كيف يصرفون عن الحق وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟!

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾.

بعد ما ذكر شرك اليهود والنصارى مع الله في العبادة، وقول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾، وقول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾؛ ذكر شركهم في الطاعة باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا، يأتمرون بأمرهم وينتهون بنهيهم من دون الله.

قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾، أي: جعل اليهود أحبارهم، أي: علماءهم. و«الأحبار» جمع «حبر» بفتح الحاء، وهم علماء اليهود.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (١١/ ٤١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٣).

﴿وَرُهْبَـٰنَهُمْ﴾، أي: وجعل النصارى رهبانهم، و«الرهبان»: جمع راهب، وهم عبّاد النصارى.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: آلهة من دون الله، يطيعونهم في التحليل والتحريم؛ يحلون لهم ما حرم الله فيحلونه، ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم الشرائع التي ما أنزل الله بها من سلطان فيتبعونهم.

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها ورغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي المدينة، وكان رئيسًا في قومه طيئ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، فقرأ رسول الله ﷺ: «﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾». قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: «**بلى، إنّهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام؛ فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إيّاهم**». وقال رسول الله ﷺ: «**يا عديّ، أيُفِرُّك أن يقال: الله أكبر؟! فهل تعلم شيئًا أكبر من الله؟ ما يُفِرُّك؟ أيفرك أن يقال: لا إله إلا الله؟! فهل تعلم من إلهٍ غير الله؟**» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «**إنّ اليهود مغضوبٌ عليهم، والنّصارى ضالّون**»(١).

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ الجملة حالية، و«ما»: نافية، و«إلا» أداة حصر، أي: وما أمروا بالتوراة والإنجيل، وعلى ألسنة رسلهم موسى وعيسى وغيرهما؛ إلا ليعبدوا معبودًا واحدًا، هو الله عز وجل، يعبدونه ويطيعونه فلا يشركون به في العبادة ولا في الطاعة.

﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو وحده.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التوبة (٣٠٩٥)، وقال: «حديث غريب». وأخرجه مختصرًا الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤١٧-٤١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٩٢) رقم (٢١٨).

﴿سُبْحَانَهُ﴾: تعالى وتقدس وتعاظم وتنزه؛ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ [الأنعام:١٠٠، يونس:١٨، النحل:١، الإسراء:٤٣، الروم:٤٠].

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ «ما»: مصدرية، أي: عن شركهم.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

ذكر عز وجل إشراك أهل الكتاب به سبحانه بالعبادة والطاعة، ثم أتبع ذلك بذكر مرادهم من ذلك، وهو إطفاء نور الله تعالى.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾، أي: يريد هؤلاء المشركون من أهل الكتاب؛ بإشراكهم بالله في العبادة والطاعة، وأقوالهم وأفعالهم الباطلة.

﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«يريدون»، أي: يريدون إطفاء نور الله بأفواههم؛ أي بألسنتهم، أي: يقصدون ويعمدون في إشراكهم بالله إلى إطفاء نور الله الذي بعث به رسوله ﷺ، من الهدى ودين الحق؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩].

نور القرآن الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم:١]، ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥]، ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨].

﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: بأقوالهم الشركية الباطلة وافترائهم؛ عبثًا منهم، فمثلهم كمثل الذي يريد أن يطفئ شعاع الشمس ونور القمر بنفخه بفيه، فأنى لهم ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾؛ «إلا» أداة حصر. و«أن» والفعل بعدها في محل نصب مفعول به لـ«يأبى»، أي: ويأبى الله ويمنع إلا أن يتم نوره ويظهره، أي: إلا إتمام نوره وإظهاره؛ كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أي: ولو كره الكافرون إتمام نور الله تعالى وظهوره، وسعوا في إطفائه وإبطاله؛ فما أراده الله عز وجل نافذ لا محالة، ونور الله تام ولا بد، ولا يمكن لجميع الخلق- لو اجتمعوا- أن يطفئوه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

بيان وتعليل لقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، أي: هو سبحانه وتعالى الذي أرسل رسوله محمدًا ﷺ.

﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾، أي: بالقرآن والوحي والعلم النافع، الذي فيه بيان الهدى من الضلال، والحق من الباطل.

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: وبدين الحق، وهو العمل الصالح.

وفي هذا تنويه بشأن الرسول ﷺ، وبالهدى والدين الذي أرسله الله به، وتعريض بأن ما هم عليه باطل، ليس بهدى ولا حق.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يظهره، أي: يعليه. والضمير في «يظهره» يعود إلى ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق ودين الإسلام، أي: ليجعله ظاهرًا على الأديان كلها؛ بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، مهيمنًا عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمّتي ما زوي لي منها**»(١).

وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليبلغنّ هذا**

(١) أخرجه مسلم في الفتن، هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢١٧٦).

الأمر ما بلغ اللّيل والنّهار، ولا يترك الله بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلّا أدخله هذا الدّين، بعزّ عزيزٍ أو بذلّ ذليلٍ، عزًّا يعزّ الله به الإسلام، وذلًّا يذلّ به الكفر». قال تميم: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافرًا الذل والصغار والجزية(١).

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يبقى على وجه الأرض بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلّا أدخله الله كلمة الإسلام؛ بعزّ عزيزٍ، أو بذلّ ذليلٍ؛ إما يعزّهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلّهم فيدينون لها**»(٢).

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «**يا عديُّ، أسلم تسلم**». فقلت: إني من أهل دين. قال: «**أنا أعلم بدينك منك**». فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «**نعم، ألست من الرّكوسية؟ وأنت تأكل مرباع قومك؟**» قلت: بلى. قال: «**فإنّ هذا لا يحلّ لك في دينك**». قال: فلم يعد أن قالها، فتواضعت لها. قال: «**أما إنّي أعلم ما الّذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما تبعه ضعفة النّاس ومن لا قوّة له، وقد رمتهم العرب. أتعرف الحيرة؟**» قلت: لم أرها، وقد سمعت بها. قال: «**فوالّذي نفسي بيده ليتمّنّ الله هذا الأمر، حتّى تخرج الظّعينة من الحيرة حتّى تطوف بالبيت في غير جوار أحدٍ، ولتفتحنّ كنوز كسرى بن هرمز**». قلت: كسرى بن هرمز؟! قال: «**نعم، كسرى بن هرمز. وليبذلنّ المال حتى لا يقبله أحد**»، قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قالها(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يذهب اللّيل والنّهار حتّى تعبد اللّات والعزّى**». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٧).

كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أن ذلك تام. قال: «**إنّه سيكون من ذلك ما شاء الله، حتى يبعث الله ريحًا طيبةً فتتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبّة خردلٍ من إيمانٍ، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- ذم اليهود والنصارى بذكر افترائهم على الله تعالى ونسبة البنوة إليه- تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا- لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾.

٢- مشابهة اليهود والنصارى- في قولهم هذا- لقول المشركين الذين نسبوا الولد إلى الله تعالى وزعموا أن الملائكة بنات الله؛ لقوله تعالى: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾.

٣- لعنة الله تعالى لليهود والنصارى؛ لشركهم بالله، وافترائهم الباطل على الله تعالى، وانصرافهم عن الحق مع وضوحه؛ لقوله تعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

٤- اتخاذ اليهود أحبارهم وعلماءهم أربابًا من دون الله، يشركونهم مع الله تعالى في العبادة والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٥- اتخاذ النصارى رهبانهم أربابًا من دون الله، يشركونهم مع الله تعالى في العبادة والطاعة؛ لقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٦- إشراك النصارى المسيح ابن مريم مع الله تعالى في العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

٧- أن الله عز وجل أقام الحجة على أهل الكتاب في التوراة والإنجيل وعلى ألسنة رسلهم؛ بوجوب إخلاص العبادة والطاعة لله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ وكما قال

(١) أخرجه مسلم في الفتن، لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة (٢٩٠٧).

تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

٨- أنه لا إله بحق إلا الله عز وجل يجب إخلاص العبادة والطاعة له تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٩- تنزيه الله عز وجل نفسه عن الشرك والشركاء؛ لقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

١٠- أن اليهود والنصارى يريدون بافترائهم على الله عز وجل الباطل بنسبة البنوة إليه، وبما يتخذونه من أرباب من دونه؛ إطفاء نور الله ودينه الذي بعث به محمدًا ﷺ، وأنى لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾.

١١- التهكم من اليهود والنصارى في إرادتهم ومسعاهم إلى إطفاء نور الله وإبطال دينه؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، فهم أشبه بمن ينفخ بفيه ليطفئ ضوء الشمس أو نور القمر، وهيهات لهم ذلك.

١٢- تكفل الله عز وجل بإتمام نوره وحفظ دينه، ولو كره الكافرون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

١٣- كراهية الكافرين تمام نور الله تعالى ودينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

١٤- التنويه بإرساله عز وجل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾، أي: بالعلم النافع، والعمل الصالح، وهما رأس مال الإنسان في هذه الحياة.

١٥- تكفله عز وجل بإظهار دينه على الأديان كلها؛ بالحجة، والبرهان، والسيف، والسنان، ولو كره المشركون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

١٦- كراهية المشركين ظهور دين الله عز وجل على غيره من الأديان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ ﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآيات السابقة بقتال أهل الكتاب، لما هم عليه من الكفر بالله واليوم الآخر ونحو ذلك حتى يعطوا الجزية مقهورين أذلاء، ثم ذكر بعض نقائصهم في هذه الآية تحقيراً لهم في نفوس المؤمنين، وتحريضاً للمؤمنين على عداوتهم والتشديد في معاملتهم، وتحذيراً من مسلكهم.

قوله: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ﴾.

﴿ٱلۡأَحۡبَارِ﴾ جمع «حَبر»، بفتح الحاء وكسرها، وهم العلماء، ولهذا سُمي ابن عباس رضي الله عنهما: «حبر الأمة، وترجمان القرآن».

وسُمي العلماء أحباراً؛ لأنهم يُحَبِّرون العلم، أي: يُحَسِّنونه ويزينونه ويبينونه للناس، وهو محبر في صدورهم؛ كما قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

ومن هذا ما روي أن أبا موسى- رضي الله عنه- لما قال له النبي ﷺ حين استمع لقراءته: «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**»(١)، قال أبوموسى رضي الله عنه: «لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً»(٢).

والمراد بالأحبار في الآية: علماء اليهود؛ كما قال تعالى: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جاء هذا في رواية ابن سعد وغيره كما ذكر ذلك صاحب الفتح في شرح حديث أبي موسى.

﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ [المائدة: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

و﴿وَٱلرُّهۡبَانِ﴾ جمع راهب، والمراد بهم عباد النصارى؛ كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢﴾ [المائدة: ٨٢].

والقسيسين: علماء النصارى، والرهبان: عبادهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحديد: ٢٧].

والمراد بالكثير من الأحبار و الرهبان: الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب بما جاء به نبينا ﷺ، وهم أكثر أهل الكتاب، و قد آمن منهم من آمن كعبدالله بن سلام- رضي الله عنه- من اليهود، والنجاشي من النصارى.

﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، اللام في قوله: ﴿لَيَأۡكُلُونَ﴾ للتأكيد، والباء للملابسة، أي: ليأكلون أموال الناس أكلاً ملابساً للباطل.

و«الأموال»: كل ما يتمول ويملك من نقد وعين.

و﴿ٱلنَّاسِ﴾ البشر، بنو آدم سموا بـ«الناس» لأنهم ينوسون، أي: يتحركون، ويأنس بعضهم ببعض، ويُؤْنَسون، أي: يُرون ويشاهدون، بخلاف الجن فهم مستترون.

والباطل: الحرام، وما ليس بحق، كالربا والقمار والرشوة والغش، واتخاذ مناصبهم ورياساتهم وسيلة لاستغلال الناس وأكل أموالهم بغير حق، والمداهنة في شرع الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ﴾ [النساء: ١٦١].

والتعبير بالأكل؛ لأنه المقصد الأهم من جمع المال، وهو كما يقال: كسوة الباطن، وللتشنيع عليهم وتقبيح فعلهم، ومثله صرفهم لها بأي وجه كان.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾، أي: ويصدون الناس ويصرفونهم عن دين الله وصراطه المستقيم بتلبيسهم الحق بالباطل، بعد أن صدوا عنه بأنفسهم.

كما قال تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩﴾ [التوبة: ٩].

وكما أن في الآية ذمًّا لكثير من الأحبار والرهبان من أهل الكتاب ففيها أيضاً تحذير من مسلكهم.

وقد قال ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟**»[١].

قال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى»[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ﴾ الآية.

وفي هذا إشارة إلى أن سبب أكل كثير من الأحبار والرهبان لأموال الناس بالباطل إيثارهم حب المال وكنزه على أمر الله وتناسيهم وعيده. والآية عامة في أهل الكتاب وغيرهم من هذه الأمة.

عن زيد بن وهب، قال: مررت بالربذة، فإذا أنا بأبي ذر- رضي الله عنه- فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام، فاختلفت أنا ومعاوية في: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذاك، وكتب إلى عثمان- رضي الله عنه- يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن اقدم المدينة، فقدمتها، فكثر عليَّ الناس، حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئت تنحيت، فكنت قريباً، فذلك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمَّروا عليَّ حبشياً لسمعت وأطعت»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة- ما أدي زكاته فليس بكنز (١٤٠٦).

قال ابن كثير[(١)] في كلامه على الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾: «هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس».

و«الكنز»: المال الذي لا تؤدى زكاته.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمته- يعني: شدقيه، ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك- ثم تلا: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾** الآية [آل عمران: ١٨٠]»[(٢)].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن أعرابيًّا قال له: «أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عمر رضي الله عنهما: «من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أُنزلت جعلها الله طهراً للأموال»[(٣)].

وفي رواية: زيادة ثم قال ابن عمر: «ما أبالي لو كان لي أحد ذهباً أعلم عدده وأزكيه، وأعمل فيه بطاعة الله تعالى»[(٤)].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ كبر ذلك على المسلمين، فذكر عمر- رضي الله عنه- لرسول الله ﷺ، فقال: إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم»[(٥)].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك**»[(٦)].

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٣)، والنسائي في الزكاة (٢٤٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة- ما أدي زكاته فليس بكنز (١٤٠٤).

(٤) أخرجها ابن ماجه في الزكاة- ما أدي زكاته فليس بكنز (١٧٨٧).

(٥) أخرجه أبوداود في الزكاة- باب في حقوق المال (١٦٦٤).

(٦) أخرجه الترمذي في الزكاة (٦١٨)، وقال: «حديث حسن غريب».

فالمعنى: والذين يجمعون الذهب والفضة والأموال، ولا يؤدون زكاتها، والحقوق الواجبة فيها. ولهذا قال بعده:

﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

الضمير الهاء يعود إلى الكنوز أو الأموال المفهومة من ﴿يَكۡنِزُونَ﴾.

وفيه من الدلالة على الكثرة ما ليس في التثنية. وخص الذهب والفضة لأنها الأصل الغالب في الأموال.

والإنفاق: إخراج المال وبذله.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: ابتغاء وجه الله، ووفق شرعه، وما أمر به من وجوه الإنفاق الواجبة والمستحبة، كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد، وفي الجهاد في سبيل الله، ومساعدة الفقراء والمساكين، ومصالح الأمة كبناء المساجد والمدارس والمستشفيات والسدود وحفر الآبار وغير ذلك.

وقد ذم الله- عز وجل- وتوعَّد- في مواضع عدة من كتابه مَن هذه صفته، فقال- عز وجل: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهمزة: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ۝١٨﴾ [المعارج: ١٥-١٨].

قال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢].

لكن إذا وفق الإنسان لكسب المال من الحلال، وإنفاقه في الحلال، مع أداء حقوق الله تعالى- فيه، ولم يشغله عن طاعة الله تعالى، ولم يكاثر فيه، فكما قيل:

نعم المال الصالح للرجل الصالح.

قال الشاعر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل(١)

---

(١) البيت لأبي دلامة الأسدي. انظر: «ديوانه» (ص٧٧).

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة المدينة فاستقبلنا أُحد، فقال: «**يا أبا ذر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: ما يسرني أن عندي مثل أُحد ذهباً تمضي عليّ ثالثة وعندي منه دينار، إلا شيئاً أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، ثم مشى، فقال: إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، وقليل ما هم..**» (١).

ولا شك أن التقلل من الدنيا أولى وأسلم لما في المال من الفتنة غالباً؛ لما يعتري مكاسبه تارة من الشبهة، ولما يحصل تارة من منع حقوقه، وتعلق القلب به، والانشغال به عن طاعة الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: ٢٨، التغابن: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون: ٩].

وقال ﷺ: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم**»(٢).

وقال ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»(٣).

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ خبر الموصول «الذين»، وربط بالفاء؛ لشبه الموصول بالشرط.

والضمير «هم» يعود إلى الموصول، ويجوز عوده إلى الأحبار والرهبان والذين يكنزون.

والبشارة في الأصل: الإخبار بما يسر، والمراد بها هنا: الإخبار بما لا يسر على سبيل التهكم، أي: فأخبرهم على سبيل التبشير لهم تهكماً بهم بعذاب أليم، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٤)، ومسلم في الزكاة (٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في الجزية (٣٦٥٨)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧)، من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٣٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٤٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ [النساء: ١٣٨].

و«العذاب»: هو العقوبة، و«أليم» أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان ومعنوياً للقلوب.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾، ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف للعذاب، و﴿يُحْمَىٰ﴾ يوقد، والضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ يعود إلى الكنوز والأموال من الذهب و الفضة.

﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

أي: يوم يوقد على ما كنزوه من الذهب والفضة في نار جهنم حتى تبلغ الغاية في الحمو والحرارة وتكون صفائح من نار.

﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ بوضع صفائح الذهب والفضة المحماة على جباههم وجنوبهم وظهورهم.

والكي: إلصاق الحار من الحديد بالعضو حتى يحترق الجلد.

والجباه: جمع جبهة، وهي أعلى الرأس مما يلي الوجه، أي: ما بين الحاجب والناصية.

والجنوب: جمع جانب، وهو جانب الجسد من اليمين واليسار.

والظهور: جمع ظهر.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار..**» الحديث(١).

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: «**بشر الكنازين برضْفٍ يحمى عليه في نار جهنم، ثم يوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه، ويوضع على**

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٨٧)، وأبوداود في الزكاة (١٦٥٨).

نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل»(١).

ويؤخذ من هذا الإطناب في التعداد في قوله: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾: تهويل شأن هذا العذاب وتعظيمه، وعمومه لجميع جهات الجسم.

وأيضاً: الإشارة إلى اختلاف هذه الجهات وتفاوتها في الإحساس بألم الكي فعمم عليها لتذوق أصناف العذاب كلها، فالكي في الجبهة أشهر وأبشع، وفي الجنب والظهر آلم وأوجع، وهكذا.

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، أي: ويقال لهم هذا تنديماً وتبكيتاً، وتوبيخاً وتقريعاً، وهذا من العذاب المعنوي الذي ينصب على القلوب، مما قد لا يقل عن العذاب الحسي.

والإشارة في قوله ﴿هَٰذَا﴾ إلى تعذيبهم وكيهم بما كنزوه من الذهب والفضة.

و﴿مَا﴾ موصولة، أي: هذا الذي جمعتم لأنفسكم، أو مصدرية، أي: هذا جمعكم لأنفسكم.

﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، ﴿مَا﴾ كسابقتها، أي: فقاسوا وأحسوا بألم وسوء عاقبة الذي كنتم تكنزون، أو بألم وسوء عاقبة كنزكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩].

الفوائد والأحكام:

١- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم باسم الإيمان والعناية والاهتمام بخطابهم.

٢- ذم كثير من أحبار أهل الكتاب ورهبانهم، وبيان ما هم عليه من أكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله تحريضاً للمؤمنين على عداوتهم والتشديد في معاملتهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٣- التحذير من علماء السوء وعباد الضلال من أهل الكتاب وغيرهم، وما هم عليه

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٨)، ومسلم في الزكاة (٩٩٢).

من أكل أموال الناس بالباطل، والصد عن دين الله.

٤- تحريم أكل أموال الناس بالباطل، كالربا والرشوة، وأخذ العوض على الواجب، والمداهنة في شرع الله وأحكامه.

٥- أن من أحبار أهل الكتاب ورهبانهم من آمن واتبع ما جاء به نبينا ﷺ من الحق وهم قلة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾ الآية.

٦- وجوب الزكاة في النقدين؛ الذهب والفضة بشروطها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

واختلف في وجوب الزكاة في الحلي المستعمل على قولين لأهل العلم.

٧- وجوب إخراج النفقات الواجبة في المال غير الزكاة كالنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، واستحباب النفقات المستحبات من الصدقات وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: «**هم الأخسرون ورب الكعبة**». قال: فجئت حتى جلست فلم أَتَقَارَّ حتى قمت فقلت: يا رسول الله، فداك أبي وأمي، مَن هم؟ قال: «**هم الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا، من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله وقليل ما هم**»[(١)].

٨- الوعيد والتهديد بالعذاب الأليم لمن يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وذمهم والتهكم بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٩- جواز التهكم بأهل الكفر الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذا على سبيل التهكم بهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٣٨)، ومسلم في الزكاة (٩٩٠)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٠)، والترمذي في الزكاة (٦١٧)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٥).

١٠- تعذيب أهل الكنز بكيِّهم بما كنزوه؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾.

١١- شدة ظلمة النار وحرها، وبُعد قعرها، لهذا سميت جهنم.

١٢- الجمع لمن يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بين العذاب الحسي بكيهم بها في نار جهنم، وبين العذاب المعنوي بالتنديم والتوبيخ والتقريع؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

١٣- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾، أي: إن عدد الشهور، و«الشهور»: جمع شهر، وسمي الشهر شهراً لاشتهاره.

والمراد بالشهور الشهور القمرية المعروفة عند العرب، وأكثر الأمم، وهي أقدم أشهر التوقيت وأضبطها لاعتمادها على القمر واختلاف أحواله ومنازله وهي التي يدور عليها فلك الأحكام الشرعية؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: في حكم الله عز وجل، وتقديره، وشرعه.

﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ قرأ أبو جعفر «عشْر» بإسكان الشين، وقرأ الباقون بفتحها.

وهذه الأشهر هي: المحرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الثاني، وجمادى الأولى، وجمادى الثانية، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: في مكتوب الله في اللوح المحفوظ، وتقديره.

﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ﴿يَوْمَ﴾ ظرف زمان لـ﴿كِتَٰبِ﴾ منصوب.

أي: يوم خلق السموات السبع والأرضين السبع، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

ويقدم غالباً ذكر السموات؛ لأنها أعظم وأعلى، وخلقت قبل دحو الأرض، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠)﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠].

أما خلق الأرض فهو قبل خلق السموات؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ (١٠) ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (١١) فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

وقد يقدم ذكر خلق الأرض، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى (٤)﴾ [طه: ٤].

﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، أي: من هذه الأشهر الاثني عشر: أربعة أشهر حرم، ثلاثة سرد، وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وواحد فرد وهو رجب.

ومعنى ﴿حُرُمٌ﴾، أي: أنها أشهر محرمة، يجب احترامها، ويحرم فيها القتال، ونحو ذلك.

عن أبي بكرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ خطب في حجته، فقال: «**ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض؛ السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، و المحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان**»(١).

وهذا تقرير منه ﷺ وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى- في أول الأمر، من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقصان، ولا نسيء ولا تبديل.

والحكمة- والله أعلم- في كون ثلاثة منها سرداً، هي ذو القعدة، وذو الحجة،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التوبة (٤٦٦٢)، ومسلم في القسامة- تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩)، وأحمد (٥/ ٣٧).

ومحرم؛ ليأمن الناس ويتمكنوا من أداء مناسك الحج والعمرة، ويكون في ذلك المدة الكافية لقدومهم وعودهم إلى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار، ليتمكن من أراد زيارته من أقصى جزيرة العرب من الزيارة والعود إلى وطنه آمناً[1].

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الإشارة لما سبق من كون عدة الشهور عند الله- عز وجل- اثنا عشر شهراً في كتابه يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، أي: الشرع الكامل المستقيم.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، الفاء: للتفريع، و«لا»: ناهية، ﴿فِيهِنَّ﴾، أي: في الأشهر الأربعة الحرم؛ لأنها أقرب مذكور، ولأن الظلم فيها أشد لحرمتها.

كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فإن الفسوق منهي عنه في الحج وغيره، لكنه في الحج أعظم، ولأنه لو أريد الأشهر الاثنا عشر لقال: «فيها» ولم يقل «فيهن».

أي: فلا تظلموا في هذه الأشهر الأربعة المحرمة أنفسكم، بالقتال فيها وإحلالها وارتكاب الذنوب والمعاصي المتعدية وغيرها فيها؛ لأن ذلك كله ظلم للنفس، وهو في الأشهر الحرم أشد ظلماً وإثماً، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥].

فإن كان ظلم النفس بالاعتداء على الآخرين، فهو ظلم لها من وجهين:

الأول: أن ظلم الإنسان لأخيه بمثابة ظلمه لنفسه؛ لأن الأمة كالجسد الواحد، كما قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

والثاني: أن عاقبة الاعتداء والظلم ترجع إلى الظالم، كما قيل:

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٨٩).

لا تظلمــن إذا مــا كنــت مقتــدراً فــالظلم يرجــع عقبــاه إلى النــدم
تنــام عينــك والمظلــوم منتبــه يــدعو عليــك وعــين الله لم تــنم(١)

ويجوز كون الضمير ﴿فِيهِنَّ﴾ يعود إلى الأشهر الاثني عشر كلها.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ الآية، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة فجعلهن حراماً، وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم»(٢).

﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾.

﴿كَآفَّةً﴾ حال من المشركين في الموضع الأول، وفي الموضع الثاني: حال من ضميرهم «الواو» وهي بمعنى «جميعاً».

والكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾: للتشبيه والتعليل، و«ما»: مصدرية، أي: مثل قتالهم لكم كافة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

والمعنى: قاتلوا المشركين كلهم جميعاً، كما يقاتلونكم كلهم جميعاً.

ويحتمل أن ﴿كَآفَّةً﴾ في الموضعين حال من المخاطبين، أي: قاتلوا المشركين كلكم جميعاً، كما يقاتلونكم كلكم جميعاً.

ويَرِدُ على هذا الاحتمال أن النفير لا ينبغي لجميع المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢].

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أمر هنا بالعلم؛ لأن هذا مما ينبغي أن يعلمه المؤمن ويعتقده بقلبه، وهو أن الله- عز وجل- مع عباده المتقين.

والمراد بالمعية هنا المعية الخاصة بأوليائه- عز وجل- وهي معية التوفيق والحفظ والنصر و التأييد، إضافة إلى معية العلم والإحاطة العامة لهم ولغيرهم، فهو- عز وجل-

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص ٤٠٦).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٦٩١).

مع عباده المتقين له بفعل أوامره واجتناب نواهيه بتوفيقه وحفظه ونصره وتأييده لهم.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «معكم»، إشارة إلى أنهم من جملة المتقين؛ ليستبشروا بذلك، وأيضاً حثًّا لهم على الاستزادة من تقوى الله- عز وجل- وليشمل غيرهم من المتقين فيكون فيه ترغيب بتقوى الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة أن عدة الشهور عنده اثنا عشر شهراً في كتابه، منها أربعة حرم، ونهى عن ظلم الأنفس فيهن، ثم أتبع ذلك ببيان حكم ما كان يفعله المشركون من النسيء في هذه الأشهر، بتحليل الحرام، وتحريم الحلال، وأن ذلك من زيادة الكفر، ومن الضلال والظلم، تحذيراً من ذلك.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ قرأ ورش عن نافع وأبوجعفر بياء مشددة بدون همز (النسيُّ)، وقرأ الباقون ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾ بالهمز.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، وهي: كافة ومكفوفة، أي: ما النسيء إلا زيادة في الكفر و﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾ التأخير والتأجيل.

والمراد به في الآية: تأخير حرمة الشهر الحرام إلى شهر حلال، فيحلون الشهر الحرام ويحرمون بدلاً منه شهراً حلالاً، يوخرون مثلاً حرمة المحرم إلى صفر ونحو ذلك استعجالاً منهم للاعتداء والغارات على الآخرين.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ قال: «النسيء: أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم كل عام، وكان يكنى «أبا ثمامة»، فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يُحابُ ولا يُعابُ، ألا وإن صَفَر العام الأول العام حلالٌ، فيحله الناس، فيحرم صفراً عاماً، ويحرم المحرم عاماً. فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يقول: يتركون المحرم عاماً، وعاماً

يحرمونه»[١].

كما قال شاعرهم:

لقـــد علمـــت مَعَـــدٌّ أنَّ قـــومي كـــرام النـــاس أنَّ لهـــم كرامـــا

ألســـنا الناســـئين عـــلى معـــد شـــهور الحـــل نجعلهـــا حرامـــاً

فـــأي النـــاس لم نـــدرك بـــوتر وأي النـــاس لم نُعلـــك لجامـــاً[٢]

﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾؛ لأنه تحليل ما حرمه الله، وتحريم ما حلله، فهو كفر مضموم إلى كفرهم.

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ خبر ثان عن «النسيء»، وصيغة المضارع تدل على الاستمرار. قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم بضم الياء وفتح الضاد: ﴿يُضَلُّ﴾ بالبناء للمفعول.

وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد: «يُضِل» أي: يضل به الذين كفروا الناس، فالذين كفروا فاعل.

وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الضاد «يَضِل»، أي: يَضِلون هم بأنفسهم.

والضلال: البعد والتيه عن الطريق السوي. والإضلال: إبعاد الناس عنه.

والباء في قوله (به): للسببية، أي: يُضَل بسببه الذين كفروا عن الحق، فَيَضِلون، ويُضِلون.

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾ بيان للنسيء، أي: يحلون الشهر عاماً، ويحرمونه عاماً، أو يحلونه في بعض الأعوام ويحرمونه في بعضها، أو يحلون النسيء عاماً ويحرمونه عاماً.

﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، اللام: للتعليل، والمواطأة: الموافقة، أي: لأجل أن يوافقوا عدة ما حرم الله، فيحرموا من الشهور عدد أربعة أشهر بعدد ما حرم الله منها، حفاظاً على العدد، وإن خالفوا في المعدود، ولهذا قال: ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، ﴿مَا﴾

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤٥٢).

(٢) الأبيات لعمرو بن قيس المعروف «بجَذْل الطِّعان». انظر: «السيرة النبوية» (١/ ٤٥)، «الروض الأنف» (١/ ٤٢)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٩١).

موصولة، أي: فيحلوا الذي حرمه الله منها.

وأظهر في قوله: ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: (فيحلوه)؛ لزيادة التشنيع عليهم وذمهم في جرأتهم على الله.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾، أي: حسن لهم الشيطان والأنفس الأمارة بالسوء، وغيرهما أعمالهم السيئة، فرأوا السيئ والقبيح حسناً، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وسوء العمل والعمل السيئ هو ما يسوء صاحبه في الحال والمآل، وقد يسوء غيره.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، أي: لا يوفقهم. وأظهر في مقام الإضمار، ولم يقل: (والله لا يهديهم)، للتسجيل عليهم بالكفر، وتأكيد بلوغهم الغاية في الكفر، وأن كفرهم سبب عدم هدايتهم، ولتعميم نفي الهداية عنهم وعن غيرهم من الكافرين.

الفوائد والأحكام:

١- أن عدد الشهور عند الله وفي حكمه وشرعه اثنا عشر شهراً في مكتوبه في اللوح المحفوظ منذ خلق السموات و الأرض، كما هي عليه اليوم، منها أربعة أشهر حرم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾.

٢- إثبات تقدير الله- عز وجل- مقادير كل شيء، قبل خلق السموات والأرض.

٣- أن كون الأشهر اثني عشر شهراً منها أربعة حرم هو الدين القويم والشرع المستقيم، مما ينبغي على المسلمين الأخذ به و السير عليه في حساباتهم.

٤- وجوب تعظيم الأشهر الحرم، ذي القعدة، وذي الحجة، ومحرم، ورجب، وتحريم الظلم والقتال والاعتداء فيها؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾.

٥- تغليظ ظلم النفس في الأشهر الحرم بالذنوب والمعاصي أشد من غيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، فإن كانت الذنوب مما يتعدى فهو أشد؛ لأنه ظلم للنفس وظلم للغير.

٦- تحريم القتال في الأشهر الحرم؛ لأنه من الظلم للنفس؛ لأن الله حرم القتال في الأشهر الحرم؛ قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

وقد تقدم ذكر الخلاف في نسخ القتال في الأشهر الحرم في الكلام على هاتين الآيتين في سورة البقرة والمائدة، وبيان أن الصحيح أنه باق لم ينسخ فلا يجوز ابتداء القتال فيها.

٧- رحمة الله- عز وجل- بعباده وشفقته عليهم أكثر من شفقتهم على أنفسهم لنهيه- عز وجل- لهم عن ظلم أنفسهم في هذه الأشهر الحرم.

٨- أن بعض الأزمنة أفضل من بعض، فالأشهر الحرم أفضل من غيرها، ورمضان أفضل من غيره، وعشر ذي الحجة وأيام التشريق ويوم الجمعة والاثنين والخميس أفضل من غيرها، كما أن بعض الأمكنة أفضل من بعض، فالمسجد الحرام والمسجد النبوي والمساجد عموماً أفضل من غيرها.

٩- وجوب قتال جميع المشركين لقتالهم جميعاً للمؤمنين وعداوتهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾.

١٠- يجب على المؤمنين جميعاً أن يكونوا يداً واحدة في قتال المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾، أي: كلكم جميعاً لكن من غير نفير الجميع؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢].

١١- قتال المشركين وعداوتهم لجميع المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾، أي: كما يقاتلونكم كلكم جميعاً.

١٢- إثبات معية الله- عز وجل- الخاصة للمتقين بتوفيقه لهم وحفظهم ونصرهم وتأييدهم، وأن هذا مما ينبغي علمه واعتقاده؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٣- الترغيب والحث على تقوى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٤- إبطال ما كان عليه المشركون من النسيء بتحليل الشهر الحرام وتحريم الشهر الحلال، وتحليل بعض الشهور عاماً وتحريمه عاماً، وبيان أن ذلك من زيادة الكفر، ومن الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾.

١٥- أن تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ﴾.

١٦- وجوب تحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحل الله من الشهور وغير ذلك.

١٧- أن إحلال الأشهر الحرم الأربعة أو بعضها، وتحريم أشهر حلال بعددها، ليوافق ذلك عدد ما حرم الله لا يغير من الأمر شيئاً لما فيه من الإخلال بالمعدود وهو الأهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

١٨- التشنيع على الكفار، وذمهم في جرأتهم على الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ﴾.

١٩- أن ما وقع فيه المشركون من النسيء وتحليل ما حرم الله من الشهور وغير ذلك من سيئ الأعمال مما زينه لهم الشيطان وأتباعه والأنفس الشريرة؛ لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ﴾.

٢٠- نفي هدايته- عز وجل- وتوفيقه عن القوم الكافرين بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويفهم من هذا هدايته- عز وجل- للمؤمنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)﴾.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أيُّ شيء لكم.

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: اخرجوا للجهاد في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله. والنفير: الخروج للجهاد، ويطلق على الجماعة الخارجين للجهاد.

﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾، أي: تباطأتم وتكاسلتم وملتم إلى الأرض والسكون فيها، وأخلدتم للدعة والخفض وطيب العيش والثمار.

قوله: ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾، أصله: «تثاقلتم»، وفيه تعريض إلى أن تثاقلهم ليس عن عجز منهم.

وهذا توبيخ ولوم للذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وكان ذلك حين طابت الظلال والثمار، وفي شدة الحر، واستقبل ذلك سفرًا بعيدًا ومفازًا، مع شدة الحاجة إلى الزاد والظهر والعدة؛ ولهذا سميت غزوة العسرة.

﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾؛ الاستفهام- كسابقه- للإنكار والتوبيخ،

أي: ما لكم فعلتم كذا؟ أرضًا منكم بالدنيا وإيثارًا لها على الآخرة؟

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ أظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «فما متاعها في الآخرة»؛ لزيادة التقرير.

و«متاع» مصدر التمتع، أي: التلذذ والتنعم، ويطلق على الشيء المتمتع به، أي: فما متاع الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة:

﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أي: قليل قدرًا، أي: حقير تافه دنيء؛ كما قال ﷺ: «**لو كانت الدّنيا تعدل عند الله جناح بعوضةٍ؛ ما سقى كافرًا منها شربة ماءٍ**»(١).

وقال ﷺ: «**ما الدّنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليمّ، فلينظر بم يرجع؟**» وأشار بالسبّابة(٢).

وقليل زمنًا ووقتًا؛ كما قال ﷺ: «**ما لي وللدّنيا؟ إنما أنا كراكبٍ استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها**»(٣).

وقال ﷺ لابن عمر: «**كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل**». وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء»(٤).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾.

بعد ما أنكر على المتثاقلين عن الخروج إلى الجهاد في سبيل الله ووبخهم، وبين حقارة الدنيا بالنسبة للآخرة؛ توعدهم- إن لم ينفروا- بالعذاب الأليم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)؛ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال: «حديث صحيح غريب».

(٢) أخرجه مسلم في الجنة، فناء الدنيا وبيان الحشر والقيامة (٢٨٥٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٨، ٢٢٩)؛ من حديث المستورد بن شداد.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩)؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٣٣)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٤)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾، أي: إن لا تخرجوا للجهاد.

﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلمًا موجعًا حسيًّا ومعنويًّا، في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ السين والتاء: للتوكيد، أي: ويستبدل بكم قومًا غيركم يقومون بما أوجب الله عليهم من النفير وغيره، قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٨].

وفي هذا دلالة على أن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة للعذاب الأليم؛ لما يترتب عليه من التخلي عن نصرة دين الله وشرعه وأوليائه والفت في عضد الأمة، وكون المتخلف قدوة لغيره من ضعفاء الإيمان.

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾، أي: ولا تضروا الله عز وجل شيئًا- لا قليلًا ولا كثيرًا- بترككم النفير، وتثاقلكم عن الخروج، ونكولكم عن الجهاد؛ لأنه سبحانه الغني عن العالمين، وإنما تضرون أنفسكم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: ذو قدرة تامة على كل شيء؛ من نصر دينه بدونكم، واستبدال غيركم، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾، أي: إن لا تنصروا رسول الله ﷺ؛ فهو غني عن نصرتكم بنصر الله إياه؛ لأن الله تكفل بنصرة دينه، وإعلاء كلمته. فالضمير في «تنصروه» عائد إلى النبي ﷺ، وإن لم يتقدم له ذكر؛ لأنه واضح من السياق والمقام.

﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: حين أخرجه الذين كفروا من مكة مهاجرًا، أي: اضطروه للخروج لما هموا بحبسه، أو قتله، أو إخراجه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠].

ولهذا لما وقف ﷺ بـ«الحزْوَرَة» قال مخاطبًا مكة: «**والله إنّك لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أنّي أخرجت منك ما خرجت**»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمكة: «**ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أني أخرجت منك ما سكنت غيرك**»(٢).

﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾، أي: حال كونه ﷺ ثاني اثنين، أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، بإجماع المسلمين.

﴿إِذۡ هُمَا﴾؛ هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿فِي ٱلۡغَارِ﴾ غار ثور، أسفل مكة، في جبل ثور الذي بينه وبين مكة نحو خمسة أميال. مكثا فيه ثلاثة أيام حتى برد عنهم الطلب.

﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾، أي: حين يقول لصاحبه أبي بكر رضي الله عنه. ونعم الصاحب رضي الله عنه؛ ولهذا قال ﷺ: «**لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخي وصاحبي**»(٣).

﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ وذلك لمّا ظهر على أبي بكر رضي الله عنه الحزن والقلق؛ خوفًا وإشفاقًا على رسول الله ﷺ أن يشعر به المشركون فيصيبوه بمضرة وأذى؛ كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: «**لو أنّ أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه**»(٤).

فجعل ﷺ يسكنه ويطمئنه ويثبته بقوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، فضل مكة (٣٩٢٥)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٨)؛ من حديث عبد الله بن عدي الزهري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، فضل مكة (٣٩٢٦).

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٣)؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٦).

وقوله: «**يا أبا بكر: ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟!**»(١).

أي: معنا بمعيته الخاصة؛ بعونه، ونصره، وتأييده، وحفظه؛ كما في قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٦]، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ [الأنفال:١٢].

قال السعدي(٢): «وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة؛ ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافرًا؛ لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها».

قال ابن القيم: «فمن أصح الإشارات إشارة هذه الآية، وهي أن من صحب رسول الله ﷺ وما جاء به بقلبه وعمله، ولم يصحبه ببدنه؛ فإن الله معه»(٣).

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾، أي: طمأنينته وتثبيته وتأييده ونصره ﴿عَلَيۡهِ﴾، أي: على النبي ﷺ، بدليل قوله بعده: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ معطوفة على جملة ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾، أي: قواه ونصره وحفظه وحرسه؛ بالملائكة الذين لا يشاهدهم البشر غالبًا.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: جعل شأنهم وما هم عليه من الشرك. ﴿ٱلسُّفۡلَىٰ﴾؛ المغلوبة الساقطة الحقيرة، فلم يتم لهم ما أرادوا، وانقلبوا خاسئين خاسرين، وحفظ الله عز وجل رسوله ﷺ، وأظهر بطلان ما هم عليه من الشرك.

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾.

قرأ يعقوب بنصب «كلمةَ»؛ عطفًا على ما قبله، أي: وجعل كلمة الله هي العليا.

وقرأ الباقون برفع «كلمةُ»؛ فالجملة مستأنفة، فـ«كلمة الله» مبتدأ، و﴿هِيَ

---

(١) هذا من بقية حديث أنس المتقدم.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ٢٣٩).

(٣) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٥٣).

﴿ٱلۡعُلۡيَا﴾ خبره.

و «كلمة الله»؛ دينه وشرعه، وكلماته القدرية والدينية؛ ولهذا قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

والمعنى: وجعل كلمته ودينه هو العالي الظاهر على الأديان كلها؛ بالحجج الواضحة، والآيات والبراهين الظاهرة، والسلطان الناصر؛ كما وعد عباده المؤمنين بذلك، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات:١٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر:٥١].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾، أي: ذو العزة التامة؛ عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾.

قوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾؛ الخطاب للمتثاقلين عن الخروج إلى الجهاد، الذين سبق لومهم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهو عام لهم ولغيرهم.

وقوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ حالان؛ والمعنى: على أي حال كنتم؛ من الخفة والثقل؛ شبابًا وكهولًا وشيوخًا؛ في العسر واليسر؛ والمنشط والمكره؛ مشاغيل وغير مشاغيل؛ من كان خفيفًا عليه الخروج، ومن كان ثقيلًا عليه، أي: في جميع الأحوال.

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: ابذلوا جهدكم بأموالكم

---

(١) سبق تخريجه.

وأنفسكم في القتال لإعلاء كلمة الله تعالى.

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، أي: النفير خفافًا وثقالًا، وبذل الجهد بالأموال والأنفس في القتال في سبيل الله؛ خير لكم خيرية مطلقة في دينكم ودنياكم وأخراكم.

قال ﷺ: «**تكفّل الله للمجاهد في سبيله إن توفّاه أن يدخله الجنّة، أو يردّه إلى منزله نائلًا ما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ**»(١).

﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، أي: إن كنتم تعلمون وتنتفعون بعلمكم، فاعلموا أن ذلك خير لكم؛ لما فيه من رضا الله تعالى ونصر دينه، والحصول على الأجر العظيم.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة:٢١٦].

وفي حديث أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «**أسلم**». قال: أجدني كارهًا. قال: «**أسلم وإن كنت كارهًا**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المتثاقلين عن الخروج للقتال في سبيل الله وتوبيخهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٢- أن النفير المعتبر هو ما كان في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣- التحذير من الركون إلى الدنيا وتقديمها على الجهاد في سبيل الله وطاعته والدار الآخرة، والإنكار والنعي على من قدمها على الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾.

٤- أن الدنيا لا تزن شيئًا بالنسبة للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٧)، ومسلم في الإمارة، فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٨٧٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٩، ١٨١)؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ ولهذا فالعاقل اللبيب لا يقدمها على الآخرة ولا يغتر بها.

٥- التهديد والوعيد للناكلين عن الخروج للقتال في سبيل الله؛ بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، واستبدال قوم غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

٦- أن الخروج للجهاد في سبيل الله واجب إذا استُنفر الناس لذلك، والتخلف عنه من كبائر الذنوب؛ لأن الله توعد عليه بالعذاب الأليم.

٧- أن من تخلفوا عن النفير والخروج للجهاد لا يضرون الله شيئًا، وإنما يضرون أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾.

٨- إثبات قدرة الله تعالى التامة على كل شيء؛ من نصر دينه، واستبدال المتخلفين عن الخروج للجهاد بغيرهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٩- تكفل الله عز وجل بنصرة رسوله في السابق واللاحق، وإن تخلف عن نصره من تخلف؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية.

١٠- التذكير بنصره عز وجل لنبيه ﷺ يوم الهجرة، والامتنان عليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾.

١١- إثبات صحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وحده للنبي ﷺ في هجرته؛ لقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾، وقد أجمع المسلمون على أنه المراد بهذه الآية الكريمة.

١٢- في لجوئه ﷺ إلى الغار وصاحبه ومكثهما فيه ثلاثة أيام حكمة؛ حتى ينقطع أو يخف الطلب عنهما.

١٣- شدة شفقة أبي بكر الصديق رضي الله عنه على النبي ﷺ، وحزنه وقلقه؛ خوفًا عليه ﷺ من المشركين؛ لقوله ﷺ له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

١٤- أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، وعلى العبد أن يسعى في إذهابه والتغلب عليه بتفويض أمره إلى الله تعالى.

١٥- قوة اعتماده ﷺ على الله تعالى، وثقته بوعده ونصره وتأييده له؛ لقوله ﷺ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

١٦- إثبات معية الله تعالى الخاصة له ﷺ ولأبي بكر رضي الله عنه، ولجميع رسله والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

١٧- تثبيت الله عز وجل للنبي ﷺ في هجرته وتسكينه لقلبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾.

١٨- فضيلة السكينة، وأنها من كمال نعمة الله تعالى على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها العقول، وهي بحسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده، وإيمانه وشجاعته.

١٩- تأييده عز وجل له ﷺ بالملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.

٢٠- إثبات وجود الملائكة، وأنهم- غالبًا- لا يشاهدون.

٢١- جَعْله عز وجل كلمة الذين كفروا السفلى، أي: الحقيرة المغلوبة المقهورة، وإبطال ما هم عليه من الشرك، وما دبروه من الكيد للنبي ﷺ ولدعوته، وثنيه عن مهاجره؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰ﴾.

٢٢- أن كلمة الله تعالى هي العليا، ودينه هو الظاهر قدرًا وشرعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾.

٢٣- إثبات صفة العزة التامة لله عز وجل؛ عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾.

٢٤- إثبات صفة الحكم التام لله عز وجل؛ الكوني، والشرعي، والجزائي، والحكمة البالغة؛ الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

٢٥- يجب النفير عند الاستنفار لذلك؛ خفافًا وثقالًا، والجهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٢٦- حاجة الجهاد في سبيل الله إلى الجهاد بالمال والنفس، وأهمية الجهاد بالأموال؛ لهذا قدم في الذكر.

٢٧- أن الجهاد المعتبر شرعًا هو ما كان في سبيل الله تعالى، أي: لإعلاء كلمة الله تعالى.

٢٨- أن النفير خفافًا وثقالًا، والجهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله؛ خير خيريةً مطلقةً؛ في الدين والدنيا والآخرة، وعلى من ينتفع بعلمه أن يعلم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)﴾.

عاتب الله في الآيات السابقة المتثاقلين عن الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، ثم أتبع ذلك بذم المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، واعتذر كثير منهم كذبًا، وأنه لو كان عرضًا دنيويًّا قريبًا، وسفرًا غير بعيد؛ لاتبعوه ﷺ وخرجوا معه.

قوله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾؛ «العرض»: ما يعرض من متاع الدنيا الزائل القريب، ومنافعها العاجلة، ثم يزول، أي: لو كان ما تدعوهم إليه متاعًا ونفعًا سهل المأخذ وغنيمة باردة.

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾، أي: وسفرًا وسطًا غير بعيد.

﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أي: لخرجوا معك، وليس ذلك منهم طاعة لله تعالى ورسوله، وإنما لموافقة ذلك لأهوائهم؛ لأنه غنيمة باردة بلا مشقة كبيرة؛ لكونه عرضًا قريبًا، وسفرًا غير بعيد.

﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾؛ الشقة: المسافة الطويلة التي تقطع بمشقة؛ والمراد:

ولكن بعدت عليهم المسافة إلى تبوك.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾، أي: لكم إذا رجعتم إليه؛ كما قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٩٤].

﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾، أي: لو قدرنا على الخروج.

﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، أي: ولم نتخلف عنكم، ولكننا لا نستطيع الخروج، وهذا اعتذار منهم وتأكيد لاعتذارهم.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: يوقعون أنفسهم بالهلاك المعنوي، وهو مخالفة أمر الله ورسوله بالقعود، والأيمان الكاذبة، والأعذار الباطلة، المؤدي إلى الهلاك الحسي، أي: إلى العقوبات والعذاب الدنيوي والأخروي.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ في زعمهم أنهم لا يستطيعون وحلفهم على ذلك، فهم في الحقيقة يستطيعون.

قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أبدى فريق من المنافقين أعذارًا كاذبةً للتخلف عن غزوة تبوك؛ فعفا عنهم النبي ﷺ من غير تمحيص في أعذارهم، وأذن لهم بالقعود؛ فعاتبه الله عز وجل في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ الآية.

قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾، أي: سامحك الله وتجاوز عنك ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

في هذا من حسن المعاتبة ولطفها ما لا يخفى؛ ولهذا قال بعض السلف: «سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾»(١).

والمعنى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في القعود والتخلف عن الخروج للجهاد. والاستفهام للعتاب.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٥) عن مسعد عن عون رحمه الله.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾، أي: إلى غاية أن يتبين، أي: يظهر لك ويتضح الذين صدقوا في أعذارهم.

﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، أي: وحتى تعلم الكاذبين في أعذارهم، أي: هلا تريثت في الإذن لهم لما استأذنوك حتى تمحص في أعذارهم وتمتحنهم، فتعلم الصادق من الكاذب؛ لأنهم في الحقيقة كاذبون، ومصرون على القعود وعدم الخروج؛ سواء أذنت لهم بالقعود أو لم تأذن لهم؛ كما قال مجاهد: «ناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ؛ فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا»(١).

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

لما ذكر استئذان المنافقين للقعود عن الجهاد بدعوى عدم استطاعتهم الخروج، وعاتب نبيه ﷺ على عدم التمحيص لمعرفة الصادق منهم من الكاذب؛ أتبع ذلك بما يؤكد كذبهم وعدم إيمانهم، وهو بيان أن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر حقًّا لا يستأذنونه في ترك الجهاد، بل هم في طليعة المجاهدين.

وهذه الآية والآيتان بعدها إلى قوله: ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ في موقع البيان والتعليل لقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

قوله: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، أي: لا يطلب منك الإذن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر حقًّا وصدقًا.

﴿أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، أي: في أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، أي: في التخلف عن الخروج، وترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم، بل يبادرون إلى ذلك ويسارعون. وفي هذا تنويه بفضل المؤمنين. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٥).

ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور:٦٢].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: ذو علم تام حقًّا بالمتقين الذين يبادرون إلى الجهاد، ولا يستأذنوك في تركه كما يفعل المنافقون، وسيجازي كلًّا بعمله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ تصريح بمفهوم قوله قبله: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

«إنما»: أداة حصر، أي: لا يستأذنك في عدم الخروج للجهاد إلا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، أي: الذين لا يصدقون بالله واليوم الآخر ولا يوقنون بذلك؛ ولا يرجون ثواب الله في الآخرة، ولا يخافون عقابه؛ ولهذا قال: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، أي: شكت في صحة ما جئتهم به من الدين، وفي وعد الله تعالى ووعيده.

﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾، أي: فهم بسبب ارتياب قلوبهم ﴿فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾، أي: لا يزالون في شكهم يتحيرون؛ كما قال تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء:١٤٣].

ومن مظاهر ترددهم أنهم لم ينفروا للغزو مع من نفر من المؤمنين، ولم يصرحوا بأنهم لن ينفروا، بل سلكوا مسلكًا يصلح للأمرين؛ وهو الاستئذان في القعود وهم كاذبون.

قوله تعالى: ﴿۞وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

في هذه الآية تدليل لعدم إرادتهم الخروج حقًّا، وتأكيد لكذبهم في زعمهم عدم الاستطاعة وحلفهم على ذلك.

قوله: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾، أي: ولو أرادوا الخروج معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾، أي: لتأهبوا له وهيؤوا له عدة من مال، وسلاح، وزاد، ومركب، وكل ما يحتاج إليه من أراد الخروج للجهاد.

والمعنى: أنهم لم يريدوا الخروج؛ لهذا لم يعدوا له عدته.

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾، أي: أبغض نهوضهم وخروجهم للجهاد كونًا وقدرًا؛ لما فيه من تخذيل المؤمنين.

﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾، أي: خذلهم وكسّلهم عن الخروج، وثقله عليهم، وابتلاهم بالخور وضعف العزيمة.

﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾، أي: وقيل كونًا وقدرًا: ﴿ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾.

وقوله: ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ زيادة مذمة لهم وتحقير، أي: اقعدوا مع الذين ليسوا أهلًا للقتال ممن عذر الله تعالى؛ من النساء، والصبيان، وأهل الأعذار؛ كالأعمى، والأعرج، والمريض. وفرق بين قاعد معذور، وقاعد غير معذور.

قوله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾.

ذكر الله عز وجل في الآية السابقة أنه كره انبعاث المذكورين وخروجهم وثبطهم، وحكم عليهم قدرًا بالقعود مع القاعدين، ثم ذكر في هذه الآية الحكمة في ذلك.

قوله: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾، أي: لو خرج هؤلاء المنافقون ﴿فِيكُم﴾، أي: معكم للقتال. وجاء التعبير بقوله: ﴿فِيكُم﴾، ولم يقل: «معكم»؛ إشارة إلى شدة تأثيره فيهم لو خرجوا معهم. ﴿مَّا زَادُوكُمۡ﴾؛ قوة، أو عزًّا، أو نصرًا على العدو. ﴿إِلَّا خَبَالٗا﴾؛ و«الخبال»: الفساد، والاضطراب، والشر، والعجز، والجبن، أي: لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا فسادًا، واضطرابًا في أمركم، واختلافًا، وعجزًا، وجبنًا؛ لإرجافهم بتهويل أمر عدوكم، وتخذيلهم لكم.

والاستثناء في قوله: ﴿مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ على طريقة التهكم بتأكيد الشيء بما يشبه ضده؛ فإن «الخبال» ليس زيادة في قوة الجيش، بل هو نقص وعدم للزيادة.

وهذا من علمه عز وجل ما لم يكن لو كان كيف يكون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ [الأنعام:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا

لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:٦٦].

﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ معطوف على قوله: ﴿مَّا زَادُوكُمْ﴾، أي: ولأسرعوا السعي بينكم بالنميمة والإفساد وبذلوا جهدهم في ذلك. ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ الجملة حالية، أي: يطلبون لكم الفتنة، أي: الشر والاختلاف والتفرق.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، أي: وفيكم- أيها المؤمنون- أهل سمع وطاعة لهم، يصغون لحديثهم ويستنصحونهم؛ اغترارًا بهم، فلو صحبكم هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم.

وما أكثر السماعين في الأمة- من السذج وضعاف العقول- لأراجيف المنافقين وأعداء الإسلام وإشاعاتهم وافتراءاتهم الباطلة، نسأل الله تبصير المسلمين.

وقيل: وفيكم جواسيس لهم، ينقلون إليهم أخباركم. والصحيح القول الأول.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، أي: ذو علم واسع بالظالمين من المنافقين وغيرهم؛ ولهذا كره عز وجل انبعاثهم وثبطهم وأقعدهم، وبيّن الحكمة من ذلك، وحذر منهم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

بيّن عز وجل في الآية السابقة الحكمة في تثبيطه المنافقين عن الخروج وإقعادهم عنه، وهو سعيهم بالفساد والفتنة بين المؤمنين، ثم أتبع بذكر سوابقهم في هذا المسعى المشين.

قوله: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾؛ اللام: لام القسم لقسم محذوف، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد طلبوا الفتنة.

﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: فيما مضى وسبق، وفي هذا تعليل وتدليل لقوله: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، أي: لأن هذا ديدنهم، فقد ابتغوا للمؤمنين الفتنة من قبل، كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد، حيث رجع بثلث الجيش هو ومن معه من المنافقين؛ لإلقاء الخوف في قلوب المؤمنين، وتهويلًا لأمر عدوهم.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، واللام: للتعليل، أي: قلّبوا لأجلك الأمور، أي: أجالوا أفكارهم وآراءهم في تدبير الحيل والمكائد لك ولأصحابك، مذ

وطئت قدمك أرض المدينة؛ بمباركة من اليهود، حيث أغاظهم جميعًا ظهور الإسلام وعز المسلمين، فدخل أناس كثيرون منهم في الإسلام ظاهرًا، وعملوا جاهدين على الكيد له في الباطن خلاف ما يظهرون كحال الرافضة أخزاهم الله؛ ولهذا قال:

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، أي: إلى غاية أن جاء الحق، أي: تبين واستقر بانكشاف أمرهم ونفاقهم.

﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، أي:ظهر دينه بانتصار المسلمين، وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وكون الغلبة للمسلمين.

﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، أي: وهم كارهون لظهور أمر الله وغلبته وانتصاره.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

روى محمد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: «قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس، أخي بني سلمة: «**هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟**» فقال: يا رسول الله، أوتأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «**قد أذنت لك**». ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ الآية، أي: إن كان إنما يخشى الفتنة من نساء بني الأصفر- وليس ذلك به- فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ، والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: «وهكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجد بن قيس، وكان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة».

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾، أي: ومن المنافقين من يقول لك: يا محمد

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤٩٢). وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥١٦)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٠١-١٠٢).

(٢) في «تفسيره» (٤/ ١٠٢).

ائذن لي في القعود.

﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ في الخروج معك، أي: لا تعرضني للفتنة بسبب الجواري من نساء الروم.

وقيل: لا تفتنِّي في مالي وأهلي؛ لشدة محبتي لهم. وقيل: لا تفتني في الوقوع في المعصية بكون قعودي بلا إذن؛ لأنني قاعد أذنت لي أو لم تأذن.

وهذا كله من سمات المنافقين؛ ولهذا قال:

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾؛ «ألا»: أداة استفتاح وتنبيه، أي: ألا في الفتنة العظيمة وقعوا بقعودهم وتخلفهم عن رسول الله ﷺ، وكفرهم، ونفاقهم، وكذبهم، فزعموا الاحتراز من مطلق الفتنة المتوهمة، ووقعوا في الفتنة المطلقة المحققة.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، أي: لا محيد لهم عنها، ولا مهرب لهم منها، ولا محيص، ولا مفر، ولا مناص، ولا فكاك، ولا خلاص، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩].

و«جهنم» اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

وأظهر في مقام الاضمار، فلم يقل: «محيطة بهم»؛ للتسجيل عليهم بوصفهم بالكفر، وأنه سبب إحاطة النار بهم، وليشملهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الكافرين.

الفوائد والأحكام:

١- ذم المنافقين وفضحهم، وبيان أنه لو كان عرضًا دنيويًّا قريبًا وسفرًا غير بعيد لاتبعوه ﷺ وخرجوا؛ لا طاعة له ﷺ، وإنما لموافقة ذلك لأهوائهم وشهواتهم المادية؛ لأنهم يريدون غنيمة باردة بلا مشقة؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.

٢- لا بد من الصبر والمجاهدة؛ فطريق الجنة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾ [آل عمران:١٤٢].

وقال ﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(١).

٣- حلف المنافقين بالله كذبًا أنهم لا يستطيعون الخروج مع الرسول ﷺ والمؤمنين، ولو استطاعوا لخرجوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

٤- إهلاك المنافقين لأنفسهم- حسيًّا ومعنويًّا- بعدم خروجهم مع الرسول ﷺ، وحلفهم كذبًا أنهم لو استطاعوا لخرجوا، وكفرهم ونفاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

٥- أن الهلاك المعنوي بالكفر والمعاصي أشد من الهلاك الحسي بالموت.

٦- علم الله عز وجل بكذب المنافقين في زعمهم أنهم لا يستطيعون الخروج وحلفهم كذبًا على ذلك، فهم في الحقيقة يستطيعون؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

٧- معاتبة النبي ﷺ معاتبة لطيفة في إذنه للمنافقين دون أن يمحص في أعذارهم؛ ليتبين له الصادق والكاذب منهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

٨- إثبات أن القرآن الكريم من عند الله عز وجل، ولم يكن ﷺ يقوله من عند نفسه كما يقوله المشركون المبطلون؛ لقوله عز وجل عتابًا له ﷺ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ الآية.

٩- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب؛ لهذا أذن لمن أذن لهم من المنافقين مع أن كثيرًا منهم كاذبون، وفي هذا رد على من يزعمون أنه يعلم الغيب ويرفعونه إلى مقام الربوبية.

١٠- بيان أن المؤمنين حقًّا بالله واليوم الآخر لا يستأذنونه ﷺ في ترك الجهاد، بل يبادرون إليه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

١١- علم الله عز وجل التام بالمتقين الذين يبادرون إلى الجهاد، ولا يستأذنون في تركه كما يفعل المنافقون، وسيجازي كلًّا بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٢- بيان أنه إنما يستأذنه في ترك الجهاد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، المرتابون

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٩)؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فيما جاءهم به ﷺ، وفي وعد الله تعالى ووعيده؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾.

١٣- تجلية الأمر للنبي ﷺ في بيان المؤمنين حقًّا، وفضح المنافقين.

١٤- تردد المنافقين وارتيابهم وشكهم؛ بسبب عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾.

١٥- التدليل لعدم إرادة المنافقين الخروج حقًّا بعدم استعدادهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾.

١٦- كراهته عز وجل لانبعاث المنافقين، وتثبيطه لهم، والحكم عليهم بالقعود كونًا وقدرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾.

١٧- بيان الحكمة من كراهته عز وجل لخروج المنافقين، وتثبيطه لهم، والحكم كونًا وقدرًا عليهم بالقعود؛ وهي ما في خروجهم من الفساد والسعي بالفتنة بين المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾.

١٧- أن في المؤمنين من يستمع لهؤلاء المنافقين، ويغتر بكلامهم، وينطلي عليه أمرهم؛ وهذا مما يعظم خطر وجودهم مع المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾.

١٨- علم الله عز وجل التام بالظالمين من المنافقين وغيرهم؛ ولهذا كره انبعاثهم وثبطهم وأقعدهم، وبيّن الحكمة من ذلك، وحذر المؤمنين منهم.

١٩- بيان أن ديدن المنافقين ابتغاء الفتنة بين المؤمنين، والكيد للرسول ﷺ ولأصحابه ودعوته، وتدبير الحيل، وسوابقهم شواهد على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ ﴾.

٢٠- انكشاف أمر المنافقين وافتضاحهم، وتبين الحق، وظهور دين الله تعالى، رغم أنوفهم وكراهتهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾.

٢١- اختلاق المنافقين للأعذار العجيبة المتوهمة الكاذبة؛ من خوف الفتنة بنساء الروم،

وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾.

٢٢- التنبيه على أنهم وقعوا في الفتنة بتخلفهم عن رسول الله ﷺ، وبهذه الأعذار الكاذبة، وما هم عليه من النفاق.

٢٣- توعدهم بإحاطة جهنم بهم هم وغيرهم من الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة تخلف المنافقين عن الخروج، وابتغاءهم الفتنة، وتقليبهم الأمور بالكيد له ﷺ، ثم أتبع ذلك بذكر ما ينبئ عن شدة عداوتهم له ﷺ؛ وهو مساءتهم بحصول الخير له، وفرحهم بإصابته بمصيبة.

قوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾؛ «الحسنة»: تطلق على كل ما يَحسن ويَسر، أي: إن تصبك حسنة؛ من نصر، وفتح، وظفر، وغنيمة، وظهور لأمرك، ونحو ذلك مما يسرك ويسر أصحابك.

﴿تَسُؤْهُمْ﴾، أي: تحزنهم وتغمهم؛ لكراهتهم الخير لك ولأصحابك.

﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾؛ «المصيبة»: تطلق على كل ما يَسوء ويُحزن، أي: وإن تصبك مصيبة من إدالة للعدو عليك ونحو ذلك.

﴿يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾، أي: يقولوا متبجحين بسلامتهم: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾، أي: قد حذرنا وعملنا بما ينجينا من الوقوع في مثل هذه المصيبة بعدم متابعته، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨].

﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾، أي: ويرجعوا مسرورين بسلامتهم وبمصابك؛ لمحبتهم المصاب والسوء لك ولأصحابك؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، أي: قل لهؤلاء المنافقين الذين إن أصابتك حسنة ساءتهم، وإن أصابتك مصيبة فرحوا:

﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾؛ «ما» موصولة أي: إلا الذي قدره الله لنا من حسنات أو مصائب، ونحن راضون بما قدره الله تعالى، موقنون بالقضاء والقدر؛ كما قال ﷺ: «**لا يقضي الله قضاءً للمؤمن إلا كان خيرًا له؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(١).

﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾، أي: متولي أمورنا كلها، الذي بيده جلب النفع ودفع الضر، وضد ذلك، ونحن راضون بما قدره وقضاه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: وعلى الله وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: وعلى الله فليعتمد المؤمنون، ويفوضوا أمرهم إليه، مع تمام الثقة به في جلب النفع لهم، ودفع الضر عنهم، أي: ونحن متوكلون عليه، مفوضون أمورنا إليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾، أي: قل يا محمد للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر ويفرحون بمصابكم:

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩)؛ من حديث صهيب رضي الله عنه.

﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾؛ «هل»: حرف استفهام فيه معنى النفي، والتربص: الانتظار، أي: ما تنتظرون بنا.

﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾، أي: إحدى العاقبتين الحسنتين؛ إما الشهادة في سبيل الله التي هي أغلى المطالب وأعلى المراتب.

وإما النصر عليكم والظفر بكم، وكلاهما حسن، فنحن رابحون في الحالين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء:٧٤].

وقال ﷺ: «**تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيل الله؛ أن يبلغه الشهادة، أو يرجعه إلى أهله نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة**»(١).

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾، أي: ننتظر بكم.

﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾، أي: بعذاب سماوي من عنده لا سبب لنا فيه، كما حصل للأحزاب يوم الخندق، حيث سلط الله عليهم الريح «الصبا»، وهي الريح الشرقية؛ كما قال ﷺ: «**نصرت بالصبا**»(٢). قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥].

﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، أي: أو يصيبكم الله بعذاب بأيدينا؛ بالقتل، والسبي، والأسر، بأن يسلطنا عليكم ويظفرنا بكم إذا أظهرتم ما في قلوبكم من الكفر والنفاق.

والمعنى: ونحن ننتظر بكم أحد هذين الأمرين السيئين: إما إصابتكم بعذاب من عند الله، أو بأيدينا.

﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾، أي: فانتظروا إنا معكم منتظرون.

وفي الأمر في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ إشارة إلى عدم الاكتراث بتربصهم؛ لأن ما

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٤١٠٥)وغيره، ومسلم، في كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور (٩٠٠)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يتربصون به هو خير للمؤمنين في الحالين.

وفي قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ تهديد للمخاطبين، أي: فإنا متربصون بكم العذاب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بضم الكاف: «كُرها». وقرأ الباقون بفتحها: ﴿كَرْهًا﴾.

و«طوعًا» و«كرهًا»: مصدران في موضع الحال، أي: طائعين أو كارهين. وقوله: ﴿طَوْعًا﴾ من باب التنزل معهم؛ لأنهم في الغالب لا ينفقون إلا كرهًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

و«الطّوع»: ما كان عن طواعية وانقياد واختيار من النفس، و«الكره»: ما كان عن إكراه وإلزام لها.

﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ إنفاقكم، ولا شيء من أعمالكم.

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ تعليل لقوله: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾، أي: لأنكم كنتم قومًا فاسقين، أي: خارجين عن طاعة الله تعالى بكفركم ونفاقكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

هذه الآية تفصيل لقوله: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، أي: بيان للتعليل لعدم قبول نفقاتهم.

قوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾.

قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بالياء على التذكير: «يُقبل». وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿تُقْبَلَ﴾.

و«أن» والفعل «تقبل»: في تأويل مصدر في محل جر، أي: وما منعهم من قبول نفقاتهم.

﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل «كفروا» في محل رفع فاعل لـ«منع»، أي: إلا كفرهم بالله وبرسوله. والإيمان شرط لقبول الأعمال، وهم لا إيمان لهم ولا عمل صالح.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾، أي: ولا يأتون الصلاة، التي هي أفضل العبادات، والأعمال البدنية، وعمود الإسلام. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر.

﴿وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾، أي: إلا حال كونهم كسالى، أي: متثاقلين، لا يكادون يؤدونها من ثقلها عليهم.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله ﴿إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾؛ «إلا» أداة حصر، والجملة كالتي قبلها حالية، أي: إلا حال كونهم كارهين.

وإنما كان هذا حالهم؛ لكفرهم ونفاقهم، فهم لا يرجون على إقامة الصلاة، والإنفاق في سبيل الله، وغير ذلك من الأعمال الصالحة؛ ثوابًا، ولا يخشون بترك ذلك عقابًا، والله عز وجل إنما يتقبل من المتقين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾؛ الاعجاب: الاستحسان، يقال: أعجبني كذا، أي: استحسنته، وقد يكون الشيء ظاهره الإعجاب والحسن، ولكنه في الحقيقة ليس كذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠].

ومن هذا قوله تعالى هنا: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾، والخطاب في الآية للنبي ﷺ، وقد يكون له ولكل من يصلح خطابه، أي: فلا تعجبك أموالهم بكثرتها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾، أي: ولا يعجبك أولادهم أيضًا؛ بكثرتهم، ونضارتهم، وشهودهم معهم، ونحو ذلك.

والمراد أنه لا غبطة في أموالهم وأولادهم، بل هي استدراج لهم؛ لأنهم قدموها على طاعة الله تعالى، وعصوا الله تعالى لأجلها، وانشغلوا بها عن ذكره وطاعته، وأشقتهم في دنياهم، وصارت سببًا لعذابهم في الآخرة وشقائهم الأبدي؛ كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦]؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ «إنما» أداة حصر، واللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾ للتعليل، أي: لأجل أن يعذبهم عذابًا دنيويًّا بالمشقة في جمعها وتحصيلها.

كما في الحديث: «**السفر قطعة من العذاب**»(١)؛ وذلك لما فيه من المشقة غالبًا.

وهكذا فإن الانشغال بالدنيا بالأموال والأولاد عذاب وعناء، فلا أشقى في هذه الدار ممن جعل الله الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، فاجتمع عنده هم القلب وعذابه، ونصب البدن وتعبه.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾؛ معطوف على «يعذبهم»، أي: وأن تزهق أنفسهم، أي: تخرج أرواحهم ويموتون.

﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم كافرين، ولا عقوبة أشد من هذا؛ أن تكون أموالهم وأولادهم سببًا لموتهم على الكفر؛ الموجب للحسرة والندامة، والعذاب السرمدي في الآخرة بالنار؛ بسبب تقديمهم لها على مرضاة الله تعالى، وانشغالهم بها عن طاعته.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾؛ اللام في قوله: ﴿لَمِنكُمْ﴾ لام التوكيد، فهي مؤكدة للقسم، أي: لمنكم في الإيمان، أي: أنهم مؤمنون مثلكم.

﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾، أي: وليسوا منكم، أي: ليسوا مؤمنين في الحقيقة، بل أهل شك

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، السفر قطعة من العذاب (١٨٠٤)، ومسلم في الإمارة (١٩٢٧)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ونفاق وكفر.

﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾؛ «الفَرَق»: الخوف الشديد، أي: ولكن الذي دعاهم للتظاهر أنهم منكم والحلف على ذلك؛ أنهم قوم يخافون خوفًا شديدًا أن تدور الدوائر عليهم، بأن تظهر لكم أحوالهم؛ فتعادوهم وتقاتلوهم وتخرجوهم من بينكم.

كما قال تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

بيان وتفصيل لقوله تعالى: ﴿يَفْرَقُونَ﴾.

قوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾؛ «الملجأ»: مكان اللجأ والتحصّن، أي: لو يجدون مأمنًا وحصنًا يتحصنون به.

﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾، أي: أو يجدون مغارات، وهي الغيران والكهوف في الجبال.

﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾؛ قرأ يعقوب: بفتح الميم وإسكان الدال مخففة: «مَدْخلًا». وقرأ الباقون بضم الميم وفتح الدال مشددة: ﴿مُدَّخَلًا﴾.

والمعنى: أو يجدون ﴿مُدَّخَلًا﴾، أي: نفقًا وسربًا وسردابًا في الأرض يدخلونه.

﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾؛ الضمير في «إليه»: يعود إلى ما يجدونه من أحد المذكورات: الملجأ، والمغارات، والمدّخل، أي: لانصرفوا إليه وهم يسرعون ويهرعون من شدة خوفهم.

والمعنى: أنهم من شدة خوفهم من الخروج إلى الغزو؛ لو يجدون مكانًا يختفون فيه عن أنظار الناس لقصدوه مسرعين؛ خشية أن يعزم عليهم بالخروج إلى الغزو.

كما أنهم أيضًا في وجودهم بين المؤمنين على أحر من الجمر، فلو وجدوا ملجأ يخلو الجو لهم فيه لأسرعوا إليه؛ لكراهتهم للمؤمنين، وخوفهم من افتضاح أمرهم، ولما يرون من انتصارات الإسلام وعز أهله؛ فهم في كَمَدٍ وغيظٍ وغمٍّ وهمٍّ، حالهم أشبه بحال الطير في القفص، لو قدروا أن يطيروا إلى السماء لطاروا، ولكن هيهات لهم ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- شدة عداوة المنافقين للنبي ﷺ؛ ولهذا يسوؤهم أن تصيبه حسنة، ويفرحون عندما تصيبه مصيبة هو وأصحابه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾.

٢- تبجح المنافقين عندما تصيبه ﷺ مصيبة بسلامتهم، وأن ذلك بسبب احترازهم وحذرهم من متابعته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾، وما علموا أنهم إنما أخذوا بسبب هلاكهم.

٣- لا ينبغي الاعتماد على الأسباب المادية؛ من الاحتراز، والحذر، ونحو ذلك؛ فإنها لم تغن المنافقين شيئًا، بل يجب الاعتماد على الله تعالى وحده، مع فعل الأسباب.

٤- يجب الحذر كل الحذر من المساءة بحصول الخير للمسلمين، أو الفرح بمصابهم؛ فإن هذا من صفات المنافقين.

٥- إثبات القدر، ووجوب الإيمان به، ويقينه ﷺ بذلك هو والمؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

٦- تَوَلي الله عز وجل له ﷺ وللمؤمنين بولايته عز وجل الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾.

٧- وجوب التوكل على الله تعالى، والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٨- تربص المنافقين- ومن على شاكلتهم من الكفار- بالمؤمنين السوء، والهزيمة، والقتل، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾؛ أي: إذا كنتم تربصون بنا أن نقتل فذلك عندنا إحدى العاقبتين الحسنتين: الشهادة أو النصر، بل ذلك أحسنها وأعلاهما مرتبة، وهي الشهادة في سبيل الله.

٩- أن الذين يتربصون بالنبي ﷺ وأصحابه من المنافقين وغيرهم إنما يتربصون بهم إحدى العاقبتين الحسنتين؛ إما: الشهادة، وإما: النصر؛ فكلاهما خير للمؤمنين، وكلاهما حسن؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾.

١٠- انتظار النبي ﷺ والمؤمنين تعذيب الله المنافقين؛ بعذاب من عنده، أو بأيدي المؤمنين، بأن يسلطهم عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾.

١١- انتظار كل من المنافقين والمؤمنين عقبى أمرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

١٢- عدم قبول نفقات المنافقين لفسقهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

١٣- أن عدم قبول نفقات المنافقين، وتفسيقهم؛ لكفرهم بالله ورسوله، وكونهم لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون؛ فجمعوا بين كفر الباطن والظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

١٤- التلازم بين الكفر بالله والكفر بالرسول ﷺ؛ فمن كفر بالرسول ﷺ فهو كافر بالله، كما أن من كفر بالله فهو كافر بالرسول؛ لقوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾، بعطف «برسوله» على قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾، دون إعادة العامل «كفروا».

١٥- أن من أعظم الأعمال الظاهرة بعد إيمان الباطن: الصلاة والإنفاق؛ لهذا خصهما فقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

١٦- لا ينبغي الإعجاب بما لدى المنافقين من أموال وأولاد؛ فذلك لا يغني من الحق شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾.

١٧- أن أموال المنافقين وأولادهم إنما هي سبب لعذابهم في الحياة الدنيا؛ بما يحصل لهم من هم القلوب، وتعب الأبدان في جمع الأموال وتحصيلها، ولما يحصل لهم من الشقاء بسبب الأولاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٨- أن أموال المنافقين وأولادهم سبب لموتهم على الكفر؛ لتقديمهم لها على رضا الله تعالى، وانشغالهم بها عن طاعته وذكره؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

١٩- حلف المنافقين كذبًا أنهم لمن المؤمنين؛ ليحقنوا بذلك دماءهم، ويحفظوا أموالهم؛

لقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾.

كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٢].

٢٠- أن المنافقين في الواقع ليسوا من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾.

٢١- أن الذي حمل المنافقين على النفاق بإظهار الإيمان وهم كفار في الباطن، والحلف على أنهم من المؤمنين؛ هو خوفهم من افتضاح أمرهم، وتسلط المؤمنين عليهم بقتلهم وإخراجهم من بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾.

٢٢- شدة خوف المنافقين من الخروج إلى القتال، وأنهم لو يجدون مكانًا يختفون فيه عن أنظار الناس لقصدوه مسرعين؛ خشية أن يلزموا بالخروج.

كما أنهم لو يجدون مكانًا يلجؤون إليه ويتخلصون من مخالطة المؤمنين لأسرعوا إليه؛ لكراهتهم للمؤمنين، وخوف افتضاح أمرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة بعض صفات المنافقين موبخاً لهم، من التثاقل عن الجهاد والاستئذان والاعتذار عن الخروج إليه، وركونهم إلى الدنيا وعرضها القريب، وابتغائهم الفتنة، وتربصهم بالمؤمنين، وفسقهم، وعدم قبول نفقاتهم لكفرهم بالله ورسوله، وعدم إتيانهم الصلاة إلا وهم كسالى، وعدم إنفاقهم إلا وهم كارهون، وحلفهم أنهم من المؤمنين وليسوا منهم.

ثم أتبع ذلك ببيان أنهم مع ما سبق من الصفات الذميمة يتدخلون فيما لا يعنيهم فيعترضون على قسمته ﷺ للصدقات ويلمزونه في ذلك ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ مبيناً لهم ما ينبغي أن يكونوا عليه ولمن تكون الصدقات.

سـبب النـزول:

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: «بينا النبي ﷺ يقسم جاء عبدالله بن ذي الخويصرة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: «**ويحك، ومن يعدل إذا لم أعدل**» قال عمر بن الخطاب: ائذن لي فأضرب عنقه، قال: «**دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّميَّة، ينظر في قُذَذِهِ**[1] **فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نصله**[2] **فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه**[3] **فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيِّه**[4] **فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل إحدى يديه، أو قال: إحدى ثدييه مثل ثدي**

---

(١) قُذَذِهِ: القذذ: ريش السهم، واحده قذة. انظر: «النهاية» مادة «قذذ».

(٢) نصله: النصل: حديدة تكون فوق رأس السهم لينفذ في الغرض. انظر: «النهاية» و«اللسان» مادة «نصل».

(٣) رصافه: الرصاف: عقب يلوى على مدخل النصل في السهم. انظر: «النهاية» مادة «رصف».

(٤) نضيه: النضي: السهم قبل أن ينحت إذا كان قدحاً. انظر: «النهاية» مادة «نضا».

المرأة، أو قال: مثل البضعة تَدَرْدَرُ[١] يخرجون على حين فرقة من الناس».

قال أبوسعيد: أشهد سمعت من النبي ﷺ، وأشهد أن عليًّا قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل النعت الذي نعته النبي ﷺ، قال: فنزلت فيه ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾»[٢].

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾.

قرأ يعقوب: «يلمُزُك» بضم الميم، وقرأ الباقون بكسرها ﴿يَلْمِزُكَ﴾.

﴿مَّن﴾ موصولة والخطاب للنبي ﷺ، أي: ومن المنافقين الذي يلمزك في الصدقات.

واللمز: هو القدح والتعييب والتنقص، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة: ٧٩]، أي: يعيبونهم وينتقصونهم بالسخرية منهم.

﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾، أي: في قسم الصدقات بين الناس.

﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾، أي: فإن أعطوا من الصدقات رضوا.

﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾، أي: وإن لم يعطوا منها سخطوا وغضبوا و«إذا»: هي الفجائية، أي: يفاجئون بالسخط والغضب إذا لم يعطوا منها دون ترو أو تأمل؛ لجشعهم وشحهم، كما قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وهذا يدل على أن اعتراضهم على قسمه ﷺ للصدقات ولمزهم له في ذلك ليس لقصد صحيح، وإنما لأجل حظوظ أنفسهم، فهو عدل إن أعطاهم وغير عدل إن لم

---

(١) تَدَرْدَر: أي: ترجرج، تجيء وتذهب. انظر: «النهاية» مادة «دردر».

(٢) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين والمعاندين ومن ترك قتال الخوارج للتألف (٦٥٣٤)، ومسلم في الزكاة- ذكر الخوارج وصفاتهم (١٤٨)، والنسائي في الكبرى- **تفسير قوله تعالى:** ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ (١١١٢٠).

يعطهم، وهذا هو حقيقة اتباع الهوى، واشتراء الحياة الدنيا ومتاعها الزائل بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾، الواو: عاطفة، ﴿ وَلَوْ ﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿رَضُوا۟﴾ فعل الشرط، ﴿مَآ﴾ موصولة، وجواب «لو» محذوف دل عليه المعطوف عليه، أي: ولو أن هؤلاء المنافقين رضوا الذي أعطاهم الله ورسوله من قسم، قليلاً كان أو كثيراً لكان خيراً لهم.

وفي عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه في قوله: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ بالواو التي تقتضي التشريك، دون إعادة الفعل ﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾ دلالة على أن ما آتاهم الرسول ﷺ هو مما آتاهم الله، وأنه بوحي من الله.

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ ، أي: كافينا الله، فنرضى بما قسمه لنا.

﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ بيان لجملة ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾، والسين في قوله: ﴿سَيُؤْتِينَا ﴾ للاستقبال أي: سيعطينا الله مما عنده من الزيادة والخير العظيم.

فيكون رجاؤهم وثقتهم بما وعدهم الله به أوثق مما في أيديهم.

﴿وَرَسُولُهُۥٓ ﴾، أي: ويؤتينا رسوله من فضله- عز وجل؛ لأنه ﷺ هو المباشر لقسم الصدقات؛ ولهذا لم يقل من فضله وفضل رسوله.

قال ابن تيمية: «فذكر أن الرسول يؤتيهم، وأن ذلك من فضل الله وحده، ولم يقل من فضله وفضل رسوله»[(١)].

﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ تعليل، أي: لأننا إلى الله راغبون.

وقدم الجار والمجرور، لإفادة القصر،ن أي: إلى الله وحده راغبون لا إلى غيره.

والرغبة: الطلب بتضرع ورجاء، أي: راغبون إلى الله متضرعون إليه، راجون توفيقه لنا لطاعته، وأن يغنينا بفضله عمن سواه.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (٣/ ٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة لمز المنافقين للنبي ﷺ في قسم الصدقات، ثم أتبع ذلك بالرد عليهم ببيان أنه- عز وجل- هو الذي قسمها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية.

كما في حديث زياد بن الحارث الصدائي- رضي الله عنه- قال: «أتيت النبي ﷺ فبايعته- فذكر حديثاً طويلاً- قال: فأتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة. فقال له رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى- لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك»**[1].

وعن معاوية- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي»**[2].

وفي الآية حسم لأطماع المنافقين وبيان أنهم لا يستحقون شيئاً منها.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه. ويقال لها كافة ومكفوفة؛ لأن «ما» دخلت على «إن» فكفتها عن العمل، وهو نصب المبتدأ ورفع الخبر.

أي: ما الصدقات إلا لهؤلاء المذكورين الفقراء والمساكين. إلخ.

و﴿ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ جمع صدقة، والمراد بها: الزكاة الواجبة في الأموال: النقدين، والخارج من الأرض، وعروض التجارة، والسائمة من بهيمة الأنعام.

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: **«وأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ**

---

(١) أخرجه أبوداود في الزكاة- من يعطى الصدقة وحد الغنى (١٦٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في العلم- من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين (٧١)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٧).

من **أغنيائهم فترد على فقرائهم**»[١]. وسميت صدقة لأنها تدل على صدق إيمان باذلها، كما سميت زكاة؛ لأنها تزكي المال، وتزيده بركة، وتحفظه من الآفات، وتزكي نفس صاحبها من الشح والبخل وتزكي نفس من دفعت إليه فلا يحمل على إخوانه الأغنياء ولا يبحث عن المال بطريق غير مشروع بسبب الحاجة.

﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، اللام في قوله ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ وما بعده: للاستحقاق والتمليك، فهم يستحقون الزكاة ويملكونها ملكاً خاصًّا إذا أعطيت لهم.

و«الفقراء»: جمع فقير، وهو المعدم الذي لا شيء عنده، أو عنده أقل من نصف الكفاية، وسمي الفقير فقيراً لخلو يده أخذاً من القفر وهي الأرض الخالية، أو لشدة حاجته أخذاً من فقار الظهر، فهو لإعدامه يشبه من انقصمت فقار ظهره فأشرف على الهلاك. قال لبيد[٢]:

لما رأى لبد النسور تطايرت رفع القوادم كالفقير الأعزل

﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو من عنده نصف الكفاية فأكثر دون تمامها، وسمي مسكيناً من السكون، وهو اللصوق في الأرض وعدم الحركة؛ لأن الحاجة أذلته وأسكنته، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١٦].

وقُدم الفقراء على المساكين، كما قدموا على بقية الأصناف لشدة فاقتهم وحاجتهم وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال عدة أوصلها بعضهم إلى نحو أحد عشر قولاً[٣].

والأظهر أن الفقير المعدم الذي لا يجد شيئاً أو يجد قليلاً من الكفاية، والمسكين

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٥)، ومسلم في الإيمان (١٩)، وأبوداود في الزكاة (١٥٨٤)، والنسائي في الزكاة (٢٤٣٥)، والترمذي في الزكاة (٦٢٥)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «ديوانه» (ص ٢٧٤).

(٣) انظر: «الناسخ والمنسوخ» بتحقيقنا (٢/ ٤٤٢).

الذي لا يجد تمام الكفاية وإن وجد بعضها ونحو ذلك.

وقد استدل لهذا بقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، فسموا مساكين وهم يملكون سفينة.

كما استدل له بأن الرسول ﷺ استعاذ من الفقر، وفتنته، فعن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي ﷺ كان يقول: «**وأعوذ بك من فتنة الفقر**»(١).

وعن أبي بكرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر**»(٢).

وقد روي عنه ﷺ أنه سأل المسكنة، فقال: «**اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة**»(٣).

وعلى كل حال فمن كان عنده ما يغنيه لم تحل له الزكاة، وكذا من كان لديه قدرة على الكسب مع توفر أسبابه. عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سويّ**»(٤).

وعن عبدالله بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ- يسألانه عن الصدقة، فقلَّب فيهما النظر، فرآهما جلدين، فقال: «**إن شئتما أعطيتكما، ولاحظَّ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٦٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٥٨٩)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٨).

(٢) أخرجه النسائي في السهو (١٣٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٥٢)، من حديث أنس رضي الله عنه- وقال: «حديث غريب».

(٤) أخرجه أبوداود في الزكاة- من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٣٤)، والترمذي في الزكاة- ما جاء من لا يحل له الصدقة (٦)، وأحمد (٢/ ١٦٤، ١٩٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٥) أخرجه أبوداود في الزكاة- من يعطى من الزكاة وحد الغنى (١٦٣٣)، والنسائي في الزكاة- مسألة =

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه**»[١].

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾، وهم: الجباة والسعاة على قبضها وجمعها، وحفظها وتوزيعها، فيعطون من الزكاة للحاجة إليهم أجرة عملهم عليها، وإن كانوا أغنياء.

لكن لا يجوز أن يكونوا من قرابة الرسول ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة؛ لما جاء عن المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ، ليستعملهما على الصدقة، فقال: «**إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس**»[٢].

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الذين يعطون منها؛ لتأليف قلوبهم، ممن يرجى إسلامهم، أو قوة إيمانهم، أو كف شرهم عن المسلمين، ونحو ذلك.

فقد أعطى ﷺ صفوان بن أمية يوم حنين حتى أسلم، فعن صفوان بن أمية- رضي الله عنه- قال: «**والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ**»[٣].

وأعطى ﷺ يوم حنين جماعة من الطلقاء كل منهم مائة من الإبل، وقال: «**إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه، مخافة أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم**»[٤].

القوي المكتسب (٢٥٨٩)، وأحمد (٤/ ٢٢٤).

(١) أخرجه البخاري في **تفسير قوله تعالى:** ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (٤٥٣٩)، ومسلم في الزكاة- المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه (١٠٣٩)، وأبوداود في الزكاة (١٦٣١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧١)، وأحمد (٢/ ٢٦٠، ٣٩٣).

(٢) أخرجه النسائي في الزكاة- ترك استعمال آل النبي ﷺ على الصدقة (١٠٧٢)، والنسائي في الزكاة (٢٦٠٩)، من حديث المطلب بن ربيعة والفضل بن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٣١٣)، والترمذي في الزكاة- ما جاء في إعطاء المؤلفة قلوبهم (٦٦٦)، وأحمد (٦/ ٤٦٢).

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٧)، ومسلم في الإيمان (١٥٠)، وأبوداود في السنة (٤٦٨٣)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٢)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وعن علي- رضي الله عنه- «أنه بعث إلى النبي ﷺ بذهيبة في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال: أتألفهم»(١).

وفي حديث أنس- رضي الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «**فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم**»(٢).

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ بـ«في» الظرفية وكذا ما بعده للتنبيه على عظم حق هذه الأصناف، وأنهم كالوعاء للزكاة.

وفيه دلالة على أنه لا يشترط تمليكهم إياها، ودفعها لهم بأنفسهم، بل يجوز دفع ما يُعطى في الرقاب لأسيادهم، ودفع ما يُعطى للغارمين لغرمائهم ولو لم يعلموا بذلك، كما أن ما يدفع في سبيل الله لا يختص بملكه شخص بعينه بل هو في تجهيز الجيش عامة.

ومعنى ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، أي: وتعطى وتصرف الزكاة في عتق الرقاب، وتخليصها، بشراء الرقاب وإعتاقها من الرق، وعون المكاتبين على سداد ما كاتبوا عليه وتخليصهم.

فيدفع سهم من الزكاة لعتق الرقاب وتخليصها أو المساعدة في ذلك، وهذا يدل على تشوق الإسلام وتشوفه إلى تحرير الرقيق، وتمليكه منافعه، ولهذا جعل سهماً من الزكاة في عتق الرقاب، كما جعل كثيراً من الكفارات في ذلك مثل كفارة القتل، وكفارة الظهار، وكفارة اليمين، وغير ذلك. قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد: ١١-١٣].

وعن عمرو بن عبسة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أعتق رقبة مؤمنة كانت له فداءه من النار عضواً بعضو**»(٣).

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧٨)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣١)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٩)، والنسائي في الزكاة (٢٦١٠)، والترمذي في المناقب (٣٩٠١).

(٣) أخرجه النسائي في الجهاد (٣١٤٢).

الله، دلني على عمل يقربني من الجنة، ويباعدني عن النار. فقال: «**أعتق النسمة، وفك الرقبة**» فقال: يا رسول الله، أليسا واحداً؟ قال: «**لا، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها**»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف**»(٢).

وكما يعتق منها الرقيق والمكاتب فكذلك يفك منها الأسير المسلم عند بعض أهل العلم.

﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ جمع غارم، وهم الذين غرموا وتحملوا حمالات؛ لإصلاح ذات البين، بين المسلمين، أو ركبتهم ديون في غير معصية عجزوا عن أدائها، وكذا من أصابته جائحة اجتاحت ماله، ونحو ذلك.

فمن غرم لإصلاح ذات البين أعطي بمقدار ما غرم ولو كان غنياً، ومن غرم لإصلاح نفسه أو أصابته جائحة فيعطى ما يفي دينه، ويسد حاجته.

عن قبيصة بن مخارق الهلالي- رضي الله عنه- قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها. فقال: «**أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها**» قال: ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة، فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش، ورجل أصابته فاقة، حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال: سداداً من عيش، فما سواهن من المسألة سحتاً، يأكلها صاحبها سحتاً»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٩).

(٢) أخرجه النسائي في النكاح- معونة الله الناكح الذي يريد العفاف (٣١٢٠)، والترمذي في فضائل الجهاد- ما جاء في المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم (١٦٥٥)، وابن ماجه في الأحكام (٢٥١٨)، وأحمد (٢/ ٢٥١، ٤٣٧).

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة- من تحل له المسألة (١٠٤٤)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٠)، والنسائي في الزكاة (٢٥٩١).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: «**تصدقوا عليه**» فتصدق الناس فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «**خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك**»(١).

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وهم: الغزاة المجاهدون في سبيل الله- عز وجل، أي: لإعلاء كلمة الله؛ كما قال ﷺ: «**من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٢).

فيجعل سهم من الزكاة لتجهيز الغزاة والمجاهدين في سبيل الله؛ لأن الجهاد لا يقوم إلا على المال بل هو أهم من الجهاد بالنفس، ولهذا نجد القرآن الكريم- غالباً- يقدم في الذكر الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، وهو: المسافر المجتاز من بلد إلى بلد، المنقطع في سفره، أي: الذي نفذت نفقته، فيعطى ما يوصله إلى بلده، ولو كان غنيًّا.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف يدل عليه قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾، أي: فرض الله ذلك فريضة وأوجبه وقدره.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع وسع كل شيء. فعلمه- عز وجل- محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل وجودها، وبعد وجودها، وبعد عدمها. يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكاً جازماً.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو حكم تام وحكمة بالغة، له الحكم الكوني والحكم الشرعي والحكم الجزائي، والحكمة الغائية والحكمة الصورية.

فهو- عز وجل- ذو العلم الواسع والحكم التام والحكمة البالغة في قسمة الصدقات وفي كل ما قدر وشرع، يعلم أحوال خلقه وما هو أصلح لهم بعلمه وحكمه وحكمته.

ومن علمه- عز وجل- وحكمه، وحكمته أن جعل الزكاة في هذه الأصناف

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (١٥٥٦)، وأبوداود في البيوع (٣٤٦٩)، والنسائي في البيوع (٤٥٣٠)، والترمذي في الزكاة (٦٥٥)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٥٦).

(٢) سبق تخريجه.

الثمانية؛ الذين منهم من يعطى لحاجته كالفقراء والمساكين، وفي الرقاب، وابن السبيل، وكذا الغارمون إذا كان غرمهم لأنفسهم.

ومنهم من يعطى للحاجة إليه، كالعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي سبيل الله، وكذا الغارمون إذا كان غرمهم للإصلاح بين الناس تشجيعاً لهم على هذا العمل النبيل- وإن كانوا أغنياء.

ولو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم كما شرع الله- عز وجل- لم يبق في المسلمين فقير ولا محتاج، ولحصل من الأموال ما تكون به أعظم العدة والقوة والمنعة للأمة ضد أعدائها.

الفوائد والأحكام:

١- لمز بعض المنافقين للنبي ﷺ في قسم الصدقات، وتنقصهم وعيبهم له، لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

٢- أن هدف المنافقين في لمزهم وعيبهم له ﷺ في قسم الصدقات من أجل أن يعطوا منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾.

٣- أن نظرة المنافقين للحياة نظرة بهيمية مادية محضة، يرضيهم أن يعطوا من الصدقات، ويسخطهم أن لا يعطوا منها، ولا يفكرون فيما وراء ذلك.

٤- كان الأولى بهؤلاء الذين يلمزون النبي ﷺ في الصدقات الرضا بما آتاهم الله ورسوله، والتوكل على الله والثقة بكفايته وعطائه من فضله ورسوله مع الرغبة والتضرع إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾.

٥- أن ما يعطيه الرسول ﷺ هو من عطاء الله- عز وجل- وفضله؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسمه- عز وجل- بالواو التي تقتضي التشريك، دون إعادة الفعل ﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾، أي: ورسوله يؤتينا من فضل الله عز وجل.

٦- وجوب الرضا بما قسمه الله والثقة بكفايته وبما عنده من الفضل، وأنه نعم الحسيب، والحث على الرغبة والتضرع إليه ورجائه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ

﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية.

٧- تولى الله- عز وجل- وتفرده وحده بقسم الصدقات، وبيان أهلها، كما تولى قسمة المواريث؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ الآية.

٨- أن أهل الزكاة المستحقون لها ثمانية أصناف، وهم: الفقراء، والمساكين، والعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمون، وفي سبيل الله، وابن السبيل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

٩- لا يجوز صرف الزكاة لغير الأصناف المذكورة؛ لأن الله- عز وجل- حصرها فيهم، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ الآية. والحصر إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

والأولى صرفها لجميع الأصناف، ويجوز صرفها لصنف واحد؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وقال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**»(١).

بل يجوز صرفها لشخص واحد من صنف واحد؛ كما جعل ﷺ لسلمة بن صخر صدقة بني زريق(٢).

ولا تلزم التسوية بين الأصناف ولا بين أفراد الصنف الواحد إذا أُعطوا جميعاً.

ولا يجوز إعطاؤها من تلزمه نفقته كالأصول والفروع والزوجة، ولا لغني، ولا لمن كان ذا قدرة على الكسب مع توفر أسبابه، كما لا يجوز أن تعطى لقرابة النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٥)، ومسلم في الإيمان (١٩)، وأبوداود في الزكاة (١٥٨٤)، والنسائي في الزكاة (٢٤٣٥)، والترمذي في الزكاة (٦٢٥)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبوداود في الطلاق (٢٢١٣)، والترمذي في التفسير (٣٢٩٩)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهم بنو هاشم وبنو عبدالمطلب.

١٠- أن إخراج الزكاة وإعطاءها لمستحقيها دليل على صدق إيمان دافعها، لهذا سميت صدقة.

١١- أن الفقراء أشد حاجة وفاقة من المساكين؛ لأن الله- عز وجل- قدمهم على المساكين وعلى بقية الأصناف.

١٢- أن المساكين غير الفقراء؛ لأن الله- عز وجل- عطفهم عليهم، والعطف في الأصل يقتضي المغايرة، ولهذا لو أوصى شخص للفقراء مثلاً بسدس ماله، وأوصى للمساكين بسبع ماله وجب إعطاء الفقراء السدس والمساكين السبع كما في وصيته.

لكن لو أوصى لأحد الصنفين وحده دخل معه الآخر؛ لأن الفقير والمسكين من الأسماء المترادفة، التي إذا اجتمعت انفردت، وإذا انفردت اجتمعت كالإسلام والإيمان، والبر والتقوى، ونحو ذلك. ولهذا لو أوصى رجل بثلث ماله للفقراء دخل معهم المساكين، ولو أوصى بذلك للمساكين دخل معهم الفقراء- وهكذا.

١٣- أن العاملين على الزكاة يعطون منها أجرة عملهم، حتى ولو كانوا أغنياء، وكذا المؤلفة قلوبهم على الإسلام يعطون ولو كانوا أغنياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهذا مطلق.

وقد اختلف أهل العلم في بقاء سهم المؤلفة قلوبهم بعد النبي ﷺ، فروي عن عمر- رضي الله عنه- وجماعة من السلف أنهم لا يعطون من الزكاة بعد رسول الله ﷺ؛ لأن الله قد أعزَّ الإسلام وأهله، ومكن لهم في البلاد، فليسوا في حاجة إلى تأليف أحد على الإسلام.

وقال بعض أهل العلم إنهم يعطون منها عند الحاجة؛ لأن النبي ﷺ قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن وبعد ما أعز الله الإسلام. قالوا: وهذا أمر قد تدعو الحاجة والمصلحة إليه، فهو باق على جوازه[1]، وهذا هو الراجح.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٥١٩-٥٢٣)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٨٢٢-١٨٢٣)، «تفسير ابن
=

١٤- جواز أخذ الأجرة لكل من اشتغل بعمل من أعمال المسلمين كالقضاء والتعليم، وغير ذلك؛ لأن الله فرض للعاملين على الزكاة فيها حقًّا، فكذلك غيرها من أعمال المسلمين يجوز أخذ الأجرة عليها.

١٥- حرص الإسلام على تحرير الرقيق، وفك الرقاب من الرق؛ لهذا جعل لذلك سهماً من الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾.

١٦- ترغيب الإسلام وتشجيعه في إصلاح ذات البين بين الناس وتحمل الغرم في سبيل ذلك؛ لهذا جعل للغارمين سهماً من الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ تشجيعاً ومكافأة لهم.

١٧- تخفيف الإسلام عن أتباعه ما يقع عليهم من غرامات وديون وجوائح في أموالهم بإعطائهم نصيباً من الزكاة.

١٨- أهمية المال في الجهاد في سبيل الله، لهذا جعل الشرع سهماً من الزكاة لتجهيز الغزاة والمجاهدين في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وقد قيل: يعطى منها في الحج؛ لأنه من سبيل الله، كما يعطى منها من تفرغ لطلب العلم، ونحو ذلك. بل وفي بناء المساجد والمدارس والمستشفيات وحفر الآبار وغير ذلك.

ولكن هذا القول يضعفه الحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ الآية، فلو جعل معنى (في سبيل الله)، في الآية كل عمل بر وخير لما كان للحصر فائدة. وأيضاً: لو جعلت الآية عامة في كل بر لحُرِمَ من الزكاة من تُيقن أنه من أهلها. وخاصة أن بعض أعمال البر يبقى نفعها كبناء المساجد فيرغب الناس في وضع زكاتهم في مثل هذه الأعمال، فالصحيح أن المراد بقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تجهيز الغزاة والمجاهدين في سبيل الله خاصة.

١٩- عناية الإسلام بأبناء السبيل وهم المسافرون بإعطائهم نصيباً من الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

كثير» (٤/ ١٠٧-١٠٨).

٢٠- أن إعطاء الزكاة لمن ذكر الله- عز وجل- من الأصناف فرض واجب فرضه الله- عز وجل- وأوجبه وقدَّره؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٢١- إثبات أن الله- عز وجل- ذو العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٢٢- في اقتران العلم الواسع والحكم التام والحكمة البالغة في حقه- عز وجل- زيادة كماله- عز وجل- إلى كمال، وكمال ما قدره وشرعه من قسم الصدقات وغير ذلك.

٢٣- أن الدين الإسلامي دين التكافل الاجتماعي بأسمى معانيه حيث أوجب في أموال الأغنياء حقًّا لإخوانهم المحتاجين من الفقراء والمساكين ونحوهم مما لا نظير له في جميع الأديان والمذاهب.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾؛ الأذى: الإضرار، وأكثر ما يطلق على الإضرار بالقول والدسائس، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ [آل عمران:١١١].

والمعنى: من المنافقين قوم يؤذون النبي ﷺ بالكلام فيه.

وأظهر في مقام الاضمار، فلم يقل: «يؤذونك»؛ لتعظيمه ﷺ بوصف النبوة، وتهويل خطر أذيته ﷺ.

﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾؛ قرأ نافع بإسكان الذال في الموضعين: «أُذْن»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿ أُذُنٌ ﴾ .

والجملة بيان لقوله: ﴿يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾، أي: يؤذون النبي بهذه المقالة ونحوها.

ومعنى ﴿أُذُنٌ﴾، أي: يستمع لكل ما يقال له ويصدقه، ولا يميز بين الصادق والكاذب؛ فمن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا.

وفي هذا مسبة له ﷺ، وإشعار منهم بعدم الاكتراث والاهتمام به.

ولا زالت هذه المقالة النفاقية تجد رواجًا على ألسنة كثيرين، فإذا رأوا شخصًا صريحًا، واضحًا في تعامله، صادقًا في أقواله؛ قالوا هذا «صُحَيح» بالتصغير؛ للتحقير، يعنون أنه يُصدِّق ما يسمع، ويُخبر بالصدق فيما يقول؛ لأن الكيّس الفطن في نظرهم القاصر: من يجيد المكر والخداع ويتصف بالغموض، فلا يفهمه أقرب الناس إليه؛ زوجته وأولاده.

﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾، أي: هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب، ويقبل ما هو خير، ويرفض ما هو شر، يسمع ما يبلغه عنكم ولا يؤاخذكم، ويسمع معاذريكم ويقبلها منكم؛ لسعة خلقه ﷺ، وامتثالًا لأمر الله له بالإعراض عنكم؛ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ [النساء:٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ﴾ [التوبة:٩٥].

﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾، أي: يؤمن بالله؛ بقلبه، ولسانه، وجوارحه؛ بربوبيته، وإلاهيته، وأسمائه، وصفاته. وهذا تمهيد لقوله بعده:

﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: ويصدق المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]، أي: وما أنت بمصدق لنا، أي: وما أنت بمصدقنا ولو كنا صادقين.

ومعنى ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: يصدقهم فيما يخبرونه به؛ لصدقهم، دون المنافقين الكاذبين.

﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾؛ قرأ حمزة: «ورحمةٍ» بالجر، عطفًا على «خير». وقرأ الباقون: ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ بالرفع، معطوف على «أذن».

أي: ورحمة خاصة للذين آمنوا منكم؛ لاهتدائهم بهديه واقتدائهم به، دون غيرهم

ممن لم يهتدوا بهديه، وإن كانت رسالته رحمةً لجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء:١٠٧].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ رغبهم في الإيمان، ثم حذرهم من أذى رسوله ﷺ، أي: والذين يؤذون رسول الله بقولهم: «هو أذن»، أو بغير ذلك من أنواع الأذى.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ مؤلم موجع حسيًّا ومعنويًّا؛ في الدنيا: بتحتم قتل من سب النبي ﷺ، وما يلقاه من ألم المعصية في قلبه. وفي الآخرة: بعذاب النار، والتبكيت والتوبيخ فيها.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «والذين يؤذونك»؛ لتعظيمه ﷺ بوصف الرسالة، وتعظيم أمر أذيته ﷺ.

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٦٢)﴾.

قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾، أي: يحلفون بالله على نفي ما نسب إليهم من الأذى ونحوه، أو على الاعتذار عن ذلك، أو عن ترك الجهاد ونحو ذلك؛ وهم كاذبون، بدليل قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾، وبدليل قوله فيما سبق: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة:٤٢].

﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾، أي: لأجل أن يرضوكم بهذا الحلف، دون مراعاة لمن هو مطلع على سرائرهم؛ ولهذا قال:

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾، أي: أن يقدموا رضاه عز وجل ورضا رسوله ﷺ على رضا جميع الخلق، وذلك بالإيمان به عز وجل، وطاعته وطاعة رسوله ﷺ.

ورضا الله عز وجل ورضا رسوله متلازمان؛ ولهذا أفرد الضمير في قوله: ﴿أَن يُرْضُوهُ﴾، أي: فالله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك.

﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: كما يزعمون ويدعون؛ لأن المؤمن لا يقدم رضا أحد على رضا الله عز وجل ورضا رسوله ﷺ.

وفي هذا تعريض بعدم إيمانهم؛ حيث قدموا رضا غير الله ورسوله على رضا الله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

ذكر في الآيات السابقة كثيرًا من أحوال المنافقين الذميمة؛ مثل ابتغائهم الفساد والفتنة في المؤمنين، وفسقهم، وكفرهم بالله ورسوله واليوم الآخر، وكذبهم، وأذاهم للنبي ﷺ، وغير ذلك، ثم أنكر عليهم وتوعدهم- لمحادتهم الله ورسوله بهذه الأعمال- بنار جهنم خالدين فيها، وذلك الخزي العظيم.

قوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ ﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: فليعلموا.

﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ الضمير المنصوب بـ«أن»: ضمير الشأن، أي: أن الحال والشأن أنه: ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

و«المحادة»: المعاداة والمخالفة والمشاقة، مأخوذة من الحد والشق، أي: أنه من يشاق الله ورسوله، أي: يخالف أمر الله ورسوله، فيكون في حد مباين لحد الله ورسوله.

وعطف قوله «رسوله» على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن المحادة للرسول ﷺ محادة لله تعالى.

﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾؛ الفاء واقعة في جواب الشرط «من»، أي: فإن له مجازاة على محادته الله ورسوله: ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾، سميت النار نار جهنم؛ لجهمتها، أي: ظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

﴿ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ﴾، أي: حال كونه خالدًا فيها خلودًا أبديًّا؛ لأن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها ولا أهلها على الصحيح.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾؛ الإشارة للعذاب بنار جهنم. و﴿ٱلْخِزْىُ ﴾: الفضيحة والذل والهوان. ﴿ٱلْعَظِيمُ ﴾: البالغ الغاية في عظمته؛ إذ لا أخزى ممن خلد في نار جهنم.

قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾، أي: يخافون ويخشون.

﴿أَن تُنَزَّلَ ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«يحذر»، أي: يحذر المنافقون إنزال سورة.

و«السورة»: مجموعة من الآيات ذات بداية ونهاية؛ مثل سورة المنافقين. وهذه السورة سورة التوبة التي فضحتهم.

﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: تخبرهم وتبين لهم علم الله تعالى بالذي في قلوبهم، وتفضحهم وتظهر أسرارهم للناس.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة:٨].

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾، أي: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾؛ «ما»: موصولة، أي: إن الله مظهر الذي تحذرون من الإخبار بها في قلوبكم، وكاشف أستاركم وفاضح أسراركم؛ بما ينزله من الآيات والسور؛ كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾[محمد:٢٩-٣٠].

وكما توعدهم عز وجل أنزل فيهم سورة المنافقين، وسورة التوبة؛ التي فضحتهم، وهتكت أستارهم، وأظهرت أسرارهم؛ بذكر صفاتهم الذميمة، وتعداد أحوالهم السيئة: «ومنهم... ومنهم... ومنهم...»؛ ولهذا كان من أسمائها «الفاضحة»؛ لأنها فضحت المنافقين، وكشفت عوارهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال

رجل في المسجد: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله: وأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ، تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: «﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾»(١).

ورُويَ عن قتادة: «أن أناسًا من المنافقين قالوا: أيرجو هذا الرجل- يعنون النبي ﷺ- أن يفتح قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات. فقال لهم: النبي ﷺ: قلتم كذا، قلتم كذا، قالوا: يا نبي الله ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾. فأنزل الله فيهم ما تسمعون»(٢).

ومقصودهم في هذا وذاك التقليل من شأن جيش المسلمين، والتهويل من شأن الروم؛ إرجافًا بالمؤمنين وترهيبًا لهم.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾؛ الواو: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن سألت هؤلاء المنافقين؛ مقرعًا لهم ومنكرًا عليهم ما قيل عنهم من تقليل من شأن المؤمنين وجيشهم، وتهويل من شأن الروم.

﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم.

﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾؛ «إنما»: أداة حصر، أي: إنما كنا في حديثنا نخوض ونلعب، أي: نمزح، أي: لا نقصد الطعن والعيب، أو التنقص للمسلمين وجيشهم، وإنما نتحدث حديث الركب نقطع عنا الطريق.

﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتقريع، أي: قل لهم؛ منكرًا عليهم، ومقرعًا لهم، وموبخًا: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، الاستهزاء: السخرية والتنقص. والاستهزاء بآيات الله ورسوله استهزاء بالله تعالى.

﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾؛ الاعتذار: طلب العفو والتجاوز عن الذنب، أي: لا تطلبوا العفو

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥٤٣-٥٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٩).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥٤٤، ٥٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٠).

عما حصل منكم من استهزاء بالله وآياته ورسوله.

﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ في موضع العلة للنهي عن الاعتذار، أي: لا تعتذروا؛ لأنكم قد كفرتم بهذه المقالة، وبهذا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله.

و«قد» للتحقيق، أي: تحقق كفركم بعد إيمانكم الذي تظهرونه وتدّعونه.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ﴾ [التوبة:٧٤].

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾؛ قرأ عاصم بنون مفتوحة وضم الفاء: ﴿إِن نَّعْفُ﴾. وقرأ الباقون: «يُعفَ»، بياء مضمومة وفتح الفاء.

أي: إن نتجاوز عن طائفة منكم بتوفيقهم للتوبة، وقبولها منهم.

قيل: وممن عفا عنه رسول الله ﷺ: مخشي بن حُمَيِّر، فتسمى عبد الرحمن، أو عبد الله بن عبد الرحمن(١).

﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ مِّنكُمْ﴾؛ قرأ عاصم بالنون وكسر الذال: ﴿نُعَذِّبْ﴾، و﴿طَآئِفَةَۢ﴾ بالنصب مفعول به. وقرأ الباقون: «تُعذَّب» بتاء مضمومة وفتح الذال، و«طائفةٌ» بالرفع، نائب فاعل.

أي: نعذب طائفة لعدم توبتهم.

﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾؛ الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم كانوا مجرمين؛ لما صدر منهم من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، ولما هم مقيمون عليه من الكفر والنفاق.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، أي: أنهم صنف واحد، وعلى شاكلة واحدة، محادون لله ورسوله، وأعداء لله ورسوله وللمؤمنين. وفي هذا قطع الولاية بينهم وبين المؤمنين.

---

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٢٤-٥٢٥).

وفي العدول عن تغليب الذكور على الإناث في هذه الآية والتي بعدها، والتصريح بذكر «المنافقات»؛ زيادة التأكيد والاهتمام؛ لخطورة أمر النفاق.

وقال: ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾، ولم يقل: «أولياء بعض»؛ لأنه لا ولاية بينهم.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾؛ من الكفر بالله وآياته ورسوله، والكذب والفسوق والعصيان.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾؛ من الإيمان بالله وآياته ورسوله، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والآداب الحسنة.

فهم بضد المؤمنين الذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، أي: ويمسكون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله؛ من النفقات الواجبة كالزكاة ونحوها، ومن النفقات المستحبة.

فجمعوا بين ترك الإحسان في عبادة الله تعالى والقيام بحقه، وترك الإحسان إلى عباد الله بعدم أداء حقوقهم.

﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ بكفرهم به باطنًا، وعدم ذكره؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢]، وقال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة:١٩].

﴿فَنَسِيَهُمْ﴾؛ هذا من باب المشاكلة، أي: تركهم وعاملهم معاملة من نسيهم، أي: حرمهم من توفيقه، ورحمته، وجنته؛ فصاروا إلى الدرك الأسفل من النار.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية:٣٤].

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الفسق؛ ولهذا أكد ذلك بعدة مؤكدات، وهي: «إن»، وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم»؛ وذلك؛ لأن فسقهم أشد وأعظم من فسق غيرهم؛ لأنهم جمعوا بين الكفر والنفاق والمخادعة؛ ولهذا كانوا أشد الناس عذابًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾[النساء: ١٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ

حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

توعد عز وجل في الآيات السابقة- بعد ذكر عدد من أحوال المنافقين- من يحادد الله ورسوله بنار جهنم خالدًا فيها، في إشارة واضحة إلى المنافقين، ثم صرح في هذه الآية بوعدهم والكفار بذلك.

قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾؛ «الوعد»: يستعمل فيما يسوء ويضر، كما يستعمل فيما يسر وهو الغالب؛ بخلاف «الوعيد»، فإنه لا يستعمل إلا فيما يسوء.

و«المنافقون والمنافقات»: من يبطنون الكفر، ويظهرون الإسلام.

و«الكفار»: من يظهرون الكفر.

فهم في نار جهنم سواء، لكن المنافقين أشد عذابًا- كما تقدم- لأنهم جمعوا بين الكفر والنفاق.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية، لا تحول ولا تزول.

﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾، أي: هي كافيتهم في العذاب، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، أي: طردهم وأبعدهم عن رحمته وجنته.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ تأكيد لقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ولهم عذاب دائم مستمر لا ينقطع.

قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

لما ذكر أحوال المنافقين وتوعدهم هم والكفار بنار جهنم خالدين فيها؛ بيّن مشابهتهم لمن قبلهم ممن توفرت لهم أسباب الحياة المادية، واستمتعوا فيها كالبهائم، وخاضوا فيها بالباطل، وحبطت أعمالهم، وخسروا الخسران المبين.

قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ الكاف للتشبيه، وهي في محل رفع خبر لمبتدأ

محذوف، أي: أنتم كالذين من قبلكم. أو في محل نصب بفعل مقدر، أي: فعلتم كفعل الذين من قبلكم.

والمعنى: حالكم أيها المنافقون والكفار كحال أمثالكم ممن سبقوكم إلى النفاق والكفر؛ في أعمالكم، وجزائكم، ومصيركم؛ فمشابهتكم لهم في الأعمال اقتضت مشابهتكم لهم في الجزاء.

﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ﴾، أي: كانوا أقوى وأعظم منكم.

﴿وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾، أي: وأكثر أموالًا وأولادًا منكم، فلم تنفعهم قوتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم.

﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾؛ السين والتاء: للمبالغة في قوة التمتع، أي: فاستمتعوا بنصيبهم من ملاذ الدنيا وشهواتها، وآثروه على حظهم في الآخرة.

و«الخلاق»: النصيب والحظ المقدر من الخير؛ كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وقال ﷺ: «**إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة**»(١).

﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ﴾، أي: فاستمتعتم مثلهم، بنصيبكم من ملاذ الدنيا وشهواتها، وآثرتموه على حظكم في الآخرة.

﴿كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾؛ تأكيد للتشبيه في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ وما بعده، أي: كما استمتع الذين من قبلكم- من المنافقين والكفار- بنصيبهم وحظهم.

﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾؛ الكاف صفة لمصدر محذوف، أي: كالخوض الذي خاضوه، أو مصدرية، أي: كخوضهم، أي: وخضتم في الكذب والباطل كالذي خاضه من قبلكم في ذلك؛ فشابهتموهم في الاستمتاع بالخلاق، وفي الخوض بالباطل؛ فسيحيق بكم ما حاق بهم، وهو ما ذكره تعالى بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس، لبس الحرير للرجال (٥٨٣٥)؛ من حديث ابن عمر عن أبيه عمر رضي الله عنهما.

ﭐلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

قال ابن القيم: «والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب، وهو الاستمتاع بالخلاق؛ فالأول: البدع، والثاني: اتباع الهوى؛ وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كذبت الرسل وعصي الرب، ودُخلت النار، وجعلت العقوبات. فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات؛ ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه. وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم. فبالصبر تدفع الشهوات وباليقين تدفع الشبهات؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:٣]، وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة:٢٤]. فقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات، وهو داء العصاة، وقوله: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ إشارة إلى الشبهات، وهو داء المبتدعين وأهل الأهواء والخصومات، وكثيرًا ما يجتمعان؛ فقلّ أن تجد فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله. والمقصود أن الله أخبر أن في هذه الأمة من يستمتع بخلاقه كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم، ويخوضون كخوضهم، وأن لهم من الذم والوعيد كما للذين من قبلهم»(١).

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: بطلت أعمالهم وزالت، فلم تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، لا بطمأنينة ولا سعادة، بل كانت سببًا لشقائهم، ووبالًا عليهم في الدنيا، وسببًا لعذابهم بها في الآخرة، وشقائهم الأبدي في النار.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الخسران؛ ولهذا أكد

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٦٧).

خسرانهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: وأولئك هم الخاسرون حقًّا، الذين خسروا الخسران المبين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر:١٥].

والمقصود: وأنتم مثلهم في سوء الحال والمال والعاقبة الوخيمة، ولن تنفعكم قوتكم ولا أموالكم ولا أولادكم.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: «ما أشبه الليلة بالبارحة؛ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم، لا أعلم إلا أنه قال: والذي نفسي بيده لتتبعنهم، حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم؛ شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، وباعًا بباع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**».

قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟!**»(٢).

وفي رواية: فقال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم القرآن: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾. قالوا: يا رسول الله، كما صنعت فارس والروم؟ قال: «**فهل الناس إلا هم؟**»(٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتقرير والتقريع

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام بالسنة (٧٣١٩، ٧٣٢٠)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥٥١).

للمنافقين، أي: إنه قد جاءهم نبأ الذين من قبلهم، أي: بلغهم خبرهم العظيم، وما حل بهم من العقوبات لما كذبوا رسل الله.

﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾؛ الذين أغرقهم الله بالطوفان لما كذبوا نوحًا عليه السلام، أول رسل الله إلى أهل الأرض.

﴿وَعَادٍ﴾؛ الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية لما كذبوا نبيهم هودًا عليه السلام.

﴿وَثَمُودَ﴾؛ الذين أهلكهم الله بالصيحة والصاعقة لما كذبوا نبيهم صالحًا عليه السلام وعقروا الناقة.

﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ خليل الرحمن عليه السلام، الذي أيده الله بالمعجزات، ونصره على قومه، وأهلك ملكهم النمروذ بن كنعان.

﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾؛ الذين أهلكهم الله بالرجفة، والصيحة، وعذاب يوم الظلة؛ لما كذبوا نبيهم شعيبًا عليه السلام.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾؛ وهي قرى قوم لوط عليه السلام، التي جعل الله عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود؛ لتكذيبهم لوطًا عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، والحجج والدلائل القاطعات.

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾؛ الفاء عاطفة، واللام في قوله: ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ للتوكيد، أي: فما كان الله ليظلمهم بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل والآيات البينات.

﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ بتكذيبهم الرسل وما جاؤوا به من الآيات البينات، فحل بهم ما حل من أنواع العقوبات؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

الفوائد والأحكام:

١- أذية المنافقين للنبي ﷺ، ولمزهم له بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾، أي: أنه يستمع كل ما يقال له ويصدقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

٢- دفاع الله تعالى عن نبيه، وتوليه الرد على المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ الآية.

٣- أنه ﷺ أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب، ويصدق المؤمنين دون المنافقين، ويقبل ما هو خير، ويرفض ما هو شر، ولا يتعجل بالمؤاخذة، ويقبل العذر، ويعرض عمن أُمر بالإعراض عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٤- أنه ﷺ رحمة خاصة للذين آمنوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾، كما أنه رحمة عامة لجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

٥- الوعيد والتهديد للذين يؤذون رسول الله بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٦- تعظيمه ﷺ بوصفه بوصف النبوة بقوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾، وبوصف الرسالة بقوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، مع ما في ذلك من تعظيم خطر أذيته ﷺ.

٧- حلف المنافقين بالله كذبًا للمؤمنين؛ ليرضوهم ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم؛ لأن نظرتهم مادية فقط؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾.

٨- أن الأحق بأن يطلب رضاه هو الله تعالى ورسوله، وأن من قدم رضا غير الله على رضاه عز وجل ورسوله فليس بمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

٩- الإنكار على المنافقين محادتهم لله ورسوله، ووعيدهم- وكل محاد لله ورسوله- بنار جهنم خالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ

نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾.

١٠- أنه لا أعظم من خزي وذل من كان مصيره إلى النار والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

١١- حذر المنافقين من إنزال سورة تفضحهم، وتبين للناس ما في قلوبهم من الكفر الباطن، وما هم عليه من الاستهزاء؛ لقوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ الآية. فهم في خوف وقلق دائم؛ خشية افتضاح أمرهم، حالهم كما يقال: «كاد المريب أن يقول: خذوني».

١٢- وعيدهم وتهديدهم بإخراج ما يحذرون منه وفضيحتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾.

١٣- استهزاء المنافقين بالله وآياته ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ وقوله: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

١٤- اعتذارهم الكاذب أنهم فيما صدر منهم من مقالة؛ إنما قالوا ذلك من باب المزاح واللعب، ولم يقصدوا حقيقة التنقص والاستهزاء؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾.

١٥- توعدهم والانكار عليهم، وبيان أن حقيقة ما صدر منهم استهزاء بالله وآياته ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

١٦- رفض عذرهم، وبيان كفرهم بعد إيمانهم الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾.

١٧- أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج من الملة؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾.

١٨- سعة عفو الله تعالى، وفتحه باب التوبة لمن حصل منه ذلك، وتوفيقه عز وجل طائفة من المذكورين للتوبة، وقبولها منهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾.

١٩- الوعيد بتعذيب طائفة منهم ممن لم يوفقوا للتوبة؛ لما ارتكبوه من الإجرام؛ لقوله

تعالى: ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

٢٠- أن المنافقين بعضهم من بعض، صنف واحد، وعلى شاكلة واحدة، محادون لله ورسوله، وأعداء لله ورسوله وللمؤمنين، وفي هذا قطع الولاية بينهم وبين المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

٢١- أمر المنافقين والمنافقات بالمنكر ونهيهم عن المعروف، ضد حال المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾.

٢٢- شدة بخل المنافقين وشحهم في إنفاق ما عليهم من حقوق واجبة أو مستحبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.

٢٣- نسيان المنافقين لله عز وجل؛ بكفرهم به باطنًا، وعدم ذكره وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿نَسُوا ٱللَّهَ﴾.

٢٤- مجازاة الله عز وجل للمنافقين بحرمانهم من رحمته وتوفيقه وجنته، وجعلهم في الدرك الأسفل من النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾.

٢٥- بلوغ المنافقين الغاية بالفسق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

٢٦- وعد المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها، وكفايتها لهم، وطردهم من رحمة الله، واستمرار عذابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

٢٧- أن النار لا تفنى، ولا يفنى عذابها ولا أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

٢٨- مشابهة المنافقين والكفار من هذه الأمة- في استمتاعهم بحظوظهم الدنيوية الحقيرة، وخوضهم في الكذب والباطل- لمن قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالًا وأولادًا؛ في استمتاعهم بدنياهم، وخوضهم في الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾.

٢٩- بطلان أعمال المنافقين والكفار في الدنيا والآخرة، وخسرانهم غاية الخسران، كأمثالهم ممن قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، أي: وأنتم مثلهم.

٣٠- أن شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد لا تغني من الله شيئًا، ولا تدفع عذاب الله.

٣١- أن من تشبه بقوم في عملهم فهو منهم، ومصيره مصيرهم.

٣٢- تقريع المنافقين والكفار من هذه الأمة والإنكار عليهم؛ لعدم أخذهم العبرة مما حل بمن قبلهم من المكذبين للرسل وما جاؤوا به من البينات؛ من العقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

٣٣- إثبات ظلم الأمم المذكورة لأنفسهم وإهلاكهم إياها، بتكذيبهم رسلهم.

٣٤- إقامة الحجة على الخلق بالرسل والآيات البينات، وأنه عز وجل لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

لما ذكر أن المنافقين بعضم من بعض، وذكر صفاتهم الذميمة، وتوعدهم بنار جهنم خالدين فيها؛ أتبع ذلك بذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وذكر صفاتهم الحميدة، ووعدهم رحمته وجناته ورضوانه؛ على طريقة القرآن في ذكر الشيء وضده، والجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾؛ أفرد «المؤمنات» بالذكر: للتأكيد والاهتمام، أي: إنهم يوالي بعضهم بعضًا، وينصر بعضهم بعضًا؛ فيتوادون ويتناصرون ذكورهم وإناثهم؛ كما قال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر**»(١).

وقال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا**»(٢).

وهذا المعنى إنما يحصل بتوفيق الله تعالى للعبد، وقوة الإيمان، واستشعار قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، رحمة الناس والبهائم (٦٠١١)، ومسلم في البر، تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦)؛ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٦)، ومسلم في البر، تراحم المؤمنين وتعاطفهم (٢٥٨٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي لله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

أما في حال ضعف الإيمان وطغيان الأنانية فإن هذا المعنى يضعف، بل قد ينعدم، بل قد يحل مكانه ضده؛ وهو العداوة والبغضاء، كما هو حال كثير من المسلمين اليوم، والله غالب على أمره.

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، خبر ثان لـ«المؤمنون»؛ كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠] وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

و«المعروف»: ما عرف حسنه في الشرع وفي عرف المسلمين من الأقوال، والأعمال، والعقائد، والأخلاق.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ معطوف على «يأمرون»، و«المنكر»: ضد المعروف، فهو ما لم يعرف من الأقوال، والأعمال، والعقائد، والأخلاق.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: ويقيمون الصلاة- فرضها ونفلها- إقامة تامة؛ بشروطها، وأركانها، وواجبتها، وسننها.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: ويعطون زكاة أموالهم لمستحقيها، بلا مماطلة، ولا ممانعة. وهذا في مقابل قوله في المنافقين: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

وخص هاتين العبادتين؛ لأن الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم العبادات، وهي عمود الإسلام، وقاعدته التي يدور عليها رحاه.

ولأن الزكاة هي أعظم أركان الإسلام بعد الصلاة، وأعظم العبادات المالية؛ ففي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ معطوف على ما قبله، من عطف العام على الخاص؛ لأن كل ما سبق- من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة- من طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، أي: ويطيعون الله ورسوله، بفعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، وهذا في مقابل قوله في المنافقين: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [التوبة:٦٧].

وعطف قوله «رسوله» على اسمه عز وجل «الله» بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾

[النساء:٨٠].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ السين للاستقبال والتأكيد. وهذا وعد منه عز وجل لهم برحمته، في مقابل وعيده للمنافقين بقوله: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، وذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

وعدهم عز وجل رحمته، ثم فصل ما وعدهم به، وكله بسبب رحمته ومن آثارها.

قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾؛ الوعد- كما تقدم- يستعمل فيما يسر- وهو الأكثر- كما يستعمل فيما يسوء؛ كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة:٦٨]، وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج:٤٧].

وأظهر في مقام الاضمار فلم يقل: «وعدهم»؛ للعناية والاهتمام بهم.

﴿جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾، أي: بساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [الزمر:٢٠].

وهي كما ذكر الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

وهي تجري بغير أخدود، يصرفها أهل الجنة حيث شاؤوا، قال ابن القيم:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الفَيَضَانِ(١)

---

(١) «النونية» (ص٢٢٩).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين فيها أبد الآباد، لا يموتون، ولا يُخرجون منها.

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾، أي: منازل وبيوت يسكنونها، طيبة القرار، حسنة البناء، في غاية الصفاء، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»(١).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلًا في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضًا**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «**لبنة ذهب، ولبنة فضة، وبلاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وشرابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه**»(٣).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء**»(٤).

﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؛ «عدن» بمعنى «إقامة»، أي: في جنات إقامة أبدية، لا يتحولون عنها أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا هل مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي- ورب الكعبة- نور يتلألأ، وريحانة تهتّز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في**

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرحمن (٤٨٧٨)، ومسلم في الإيمان، إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرحمن (٤٨٨٠)، ومسلم في الجنة في صفة خيام الجنة (٢٨٣٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق، صفة الجنة والنار (٦٥٥٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٠).

دار سليمة، وفاكهة وخضرةٌ، وحَبْرَة ونعمة، في محلة عالية بهية». قالوا: نعم، يا رسول الله، نحن المشمرون لها. قال: «**قولوا: إن شاء الله**». فقال القوم: إن شاء الله [(١)].

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ الواو: مستأنفة، و«رضوان»: مبتدأ، ونُكِّر «رضوان» للتعظيم، ﴿أَكْبَرُ﴾ خبره، أي: أكبر وأجل وأعظم من الجنات، وكل ما ذكر، ومن كل ما هم فيه من النعيم، وكل ما وعدوا به من ذلك؛ لأن رضا الله تعالى أصل جميع الخيرات، وسببها كلها.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: نعم، لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»[(٢)].

وفي هذا دلالة على أن النعيم المعنوي- نعيم القلب- يفوق النعيم الحسي- نعيم البدن.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ الإشارة لجميع ما ذكر في الآية؛ من الجنات، والمساكن، وصفاتها، ورضوان الله تعالى عنهم.

وفي كون الجملة اسمية مع ضمير الفصل «هم»: توكيد وقصر، أي: ذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه.

الفوائد والأحكام:

١- أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يواد بعضهم بعضًا، وينصر بعضهم بعضًا؛ فيجب عليهم أن يقوموا بحق هذه الولاية فيما بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

٢- أن المؤمنين ذكورهم وإناثهم سواء في الخطاب الشرعي، إلا ما دل الدليل عليه من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد، صفة الجنة (٤٣٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، ومسلم في الإيمان (١٨٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٥).

تخصيص أحد الصنفين دون الآخر ببعض الأحكام، كما أنهم في الجزاء سواء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥].

٣- أن من صفات المؤمنين أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

٤- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الله قدمه في الذكر؛ لأنه سياج الدعوة إلى الله تعالى، وحصن الإسلام الحصين.

٥- أن من صفات المؤمنين أنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٦- أهمية الصلاة والزكاة في الإسلام؛ لأن الله خصهما بالذكر من بين العبادات.

٧- أن من صفات المؤمنين طاعة الله تعالى ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، وأن طاعته ﷺ طاعة لله تعالى.

٨- وعد الله عز وجل- الذي لا يخلف وعده- المؤمنين برحمته؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٩- الإغراء والحث على الاتصاف بالصفات المذكورة؛ لأن الله أثنى على المؤمنين بوصفهم بهذه الصفات العظيمة، وامتدحهم بها، ووعدهم بمجازاتهم عليها برحمته.

١٠- إثبات صفة العزة لله تعالى؛ فله سبحانه عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾.

١١- أنه عز وجل ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

١٢- في اقتران تمام الحكم، والحكمة، والعزة في حقه عز وجل؛ كمال إلى كمال.

١٣- وعد الله عز وجل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومساكن طيبة في جنات عدن، ورضوان منه أكبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً

﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾.

١٤- عظم ما في الجنة من ألوان النعيم؛ ففيها الأنهار الجارية من تحت أشجارها وقصورها وغرفها، والمساكن الطيبة، وغير ذلك، مع رضوان من الله تعالى أكبر.

١٥- خلود أهل الجنة، وإقامتهم فيها إقامة أبدية؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾، وعلى هذا أجمعت الأمة.

١٦- أن رضوان الله تعالى على أهل الجنة أكبر وأجل وأعظم من كل أنواع النعيم مما أوتوه ووعدوا به، لأن رضوانه عز وجل سبب ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾.

١٧- إثبات صفة الرضا لله عز وجل، على ما يليق بجلاله وعظمته.

١٨- أن النعيم المعنوي- نعيم القلب- قد يفوق النعيم الحسي- نعيم البدن- فليس في نعيم الجنة أعظم من رضاه عز وجل عنهم، ورؤيتهم له سبحانه.

١٩- أن الفوز العظيم إنما هو بدخول تلك الجنات، والتنعم بما فيها من ألوان النعيم من الأنهار والمساكن، والخلود فيها، مع رضوان الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) ۞ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣)﴾.

هذه الآية كقوله تعالى في سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩)﴾ [التحريم:٩].

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾؛ «يا» حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى في الأصل مفعول به، و«ها»: للتنبيه، و«النبي» بدل منه أو عطف بيان. وتصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام.

ونداؤه ﷺ بوصف النبوة في مثل هذا الموضع، وبوصف الرسالة في مثل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]؛ مما اختصه الله تعالى به من بين الأنبياء؛ تشريفًا وتكريمًا له ﷺ.

و«النبي» مشتق من «النبأ»، وهو: الخبر الهام؛ لأنه مُنْبَأ ومُخْبَرٌ من عند الله تعالى، وهو مُنْبِئٌ ومُخبِرٌ لقومه.

ومشتق أيضًا من «النَّبْوَة»، وهي: المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء عليهم السلام ذوو مكانة عالية رفيعة عند الله تعالى وعند المؤمنين.

﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ «المجاهدة»: بذل الجهد والطاقة والوسع، أي: ابذل وسعك وطاقتك في جهاد الكفار وقتالهم بالسيف والسنان، وفي جهاد المنافقين بالحجة والبرهان واللسان؛ فمن أظهر الكفر يجاهد بالسيف والسنان، ومن أبطنه وأظهر الإسلام، أو أذعن للإسلام بذمة أو عهد؛ فإنه يجاهد بالحجة والبرهان.

قال ابن القيم: «فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عددًا فهم الأعظمون عند الله قدرًا»(١).

﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ الضمير يعود إلى الفريقين: الكفار والمنافقين.

و«الغلظة»: الشدة، أي: واشدد عليهم بالقول والفعل. وهذا بخلاف الذين قال الله تعالى له فيهم: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾، أي: ومصيرهم الذي يأوون إليه جهنم.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: وساء وقبح المصير والمأوى جهنم.

قوله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ۝٧٤﴾.

لما أمر بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم؛ أتبع ذلك بذكر موجب ذلك، وهو قولهم كلمة الكفر.

قوله: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾؛ هذا من صفات المنافقين وأقوالهم الذميمة الدالة على كذبهم ونفاقهم، أنهم ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، أي: ما قالوا كلمة الكفر، وهم قد قالوها؛ لقوله بعده:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٧١).

﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾؛ من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، وقول بعضهم: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، ونحو ذلك، فإذا علموا أن الرسول ﷺ قد بلغه قولهم جاؤوا إليه يحلفون بالله ما قالوا(١).

وتطلق «الكلمة» على الكلام الدال على معنى؛ قال تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وفي الحديث: «**أصدق كلمةٍ قالها شاعرٌ قول لبيدٍ: ألا كلّ شيء ما خلا الله باطلٌ**»(٢).

ولقد أكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، الواو: استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد قالوا كلمة الكفر، فأقسم الله عز وجل على تأكيد صدور ذلك منهم وكذبهم في حلفهم على نفي ذلك، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾، أي: وكفروا بهذا القول، ﴿بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ الظاهر الذي يدعونه؛ نفاقًا منهم، مع ما هم عليه من الكفر في الباطن؛ كما قال تعالى: ﴿قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٦]، أي: بعد إظهاركم الإيمان في الظاهر.

﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾؛ الهَمُّ: نية فعل الشيء، سواء فعل أو لم يفعل. و«ما» في قوله: ﴿بِمَا﴾ موصولة، أي: وهموا بالذي لم ينالوه، أو نكرة موصوفة، أي: بشيء لم ينالوه، أي: لم يحصلوا عليه.

قيل: هموا بقتل النبي ﷺ، وأعم من ذلك وأشمل: همهم بإطفاء نور الله بأفواههم بشتى الوسائل، وهيهات لهم ذلك.

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾؛ الضمير في «نقموا»: يعود إلى المنافقين، أي: وما كرهوا وما عابوا على النبي ﷺ، ودخول الإسلام المدينة شيئًا

---

(١) انظر «جامع البيان» (١١/ ٥٦٩-٥٧٢)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ١١٩-١٢١).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٢٨٤١)، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦)، والترمذي في الأدب (٢٨٤٩)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يدعوهم إلى ما يظهرونه من الكراهية والعداوة.

﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«نقموا».

والضمير في قوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ يعود إلى الله عز وجل، فالمغني هو الله عز وجل وحده، وإنما عطف «رسوله» في قوله: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾؛ لأنه ﷺ سبب ذلك.

كما قال ﷺ للأنصار: «**ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟**» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَن(١).

والمعنى: وما نقموا وعابوا إلا أن أغناهم الله من فضله وزيادته وعطائه الجزيل؛ بسببه ﷺ، وقد كانوا قبل مقدمه ﷺ في ضنك من العيش وفقر، فأغناهم الله بسبب بركته ﷺ، وما جاء به من الهدى والحق؛ الذي جمعهم به بعد الفرقة، وألّف به بينهم بعد العداوة والاختلاف؛ فحصل الأمن، وكثرت الخيرات، وتوفرت الغنائم في الغزوات.

وهذه الصفة تقال حيث لا ذنب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ [البروج:٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ﴾ [الأعراف:١٢٦].

وكما قال ﷺ: «**ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه الله ورسوله**»(٢).

وكما يقال: مالي عندك ذنب إلا أني أحسنت إليك.

فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ استثناء تهكمي، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده؛ كقول النابغة في معلقته(٣):

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة الطائف (٤٣٣٠)، ومسلم في الزكاة، إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦١)، وأحمد (٤/ ٤٢)؛ من حديث عبد الله بن يزيد بن عاصم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٨)، ومسلم في الزكاة، تقديم الزكاة (٩٨٣)، والنسائي في الزكاة (٢٤٦٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» (ص ٤٥).

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، أي: فإن يرجع هؤلاء الكفار والمنافقون عما هم عليه من الكفر والنفاق. ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ «يك»: أصلها «يكن»، وحذفت النون للتخفيف، أي: يكن ذلك- أي: توبتهم ورجوعهم- خيرًا لهم، خيرية مطلقة؛ في دينهم، ودنياهم، وأخراهم.

فعرض عز وجل عليهم التوبة ورغبهم فيها، وفي هذا دلالة على سعة عفوه ورحمته، وأن المقصود بالغلظة عليهم ووعيدهم: دفع ضررهم وإصلاح حالهم.

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾، أي: وإن يعرضوا عن التوبة، ويستمروا على ما هم عليه من الكفر والنفاق.

﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾، أي: يعذبهم الله عذابًا مؤلمًا موجعًا حسيًّا للأبدان في الدنيا، بقتل وأسر من أظهر الكفر منهم، ومؤلمًا وموجعًا للقلوب، بما ينالهم من الهم والغم والحزن والكمد على نصرة الله لدينه وإعزاز نبيه والمؤمنين، وعدم نيلهم مطلوبهم وما هموا به.

﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾، أي: وفي الآخرة بالعذاب الحسي في النار باصطلاء سعيرها ولظاها، والمعنوي بالتبكيت والتقريع لهم فيها، وتحطيم معنوياتهم.

﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ معطوف على ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾، و«من»: للاستغراق في العموم، أي: وما لهم في الأرض- إذا حل بهم عذاب الله- من أيِّ ولي يتولاهم بجلب الخير والنفع لهم، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرهم بدفع العذاب والضر عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾، أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾، «من»: موصولة، أي: الذي أعطى الله عهده وميثاقه، والعهد: الميثاق المؤكد.

﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أعطانا الله من فضله. والفضل: الزيادة، أي: لئن أعطانا من فضله وزيادته مالًا، ووسع علينا الرزق.

﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، و«نصدقن» أصلها «نتصدقن»،

فأدغمت التاء في الصاد؛، للتخفيف، أي: لنتصدقن مما أعطانا الله من الفضل.

﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ معطوف على ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾، أي: ولنكونن من الصالحين الذين جمعوا بين الإخلاص لله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ.

ولكنهم لم يفوا بما قالوا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، أي: فلما أعطاهم عز وجل ﴿مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: أمسكوا بما أعطاهم الله من فضل، ولم يتصدقوا؛ فلم يفوا بعهدهم وقولهم: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾.

﴿وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، أي: تولوا بأبدانهم عن الانقياد والطاعة، ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ بقلوبهم عن الإيمان، فجمعوا بين التولي بأبدانهم والإعراض بقلوبهم، ومن أعرض بقلبه فلا أمل في رجوعه.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾، أي: صيَّر عاقبتهم وعقابهم وجزاءهم. وفاعل «أعقبهم» يعود إلى عدم وفائهم بما عاهدوا الله عليه من التصدق والصلاح، أي: إلى بخلهم وتوليهم وإعراضهم، أي: فأعقبهم وأورثهم ذلك- أي: ما صدر منهم من عدم الوفاء بعهدهم وبخلهم وتوليهم وإعراضهم- ﴿نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

ويجوز أن يعود فاعل «أعقبهم» إلى الله عز وجل، أي: فأعقبهم الله- أي: صير عاقبتهم وعقابهم وجزاءهم على فعلهم ذلك- ﴿نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾، أي: نفاقًا متمكنًا، ثابتًا في قلوبهم، مستمرًّا إلى يوم يلقون الله؛ بموتهم على النفاق، ولقاء الله تعالى يوم القيامة وهم على ذلك، فيجازيهم على أعمالهم. وهذا قد يقوي أن فاعل «أعقبهم» هو الله عز وجل.

﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾؛ الباء في الموضعين: للسببية، و«ما» في قوله: «بما» في الموضعين: مصدرية، أي: بإخلافهم الله ما وعدوه.

و«ما» في قوله: ﴿مَا وَعَدُوهُ﴾ موصولة، أي: الذي وعدوه، أو مصدرية، أي: وعده.

﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، أي: وبسبب كذبهم.

وقوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ يدل على تمكن الكذب فيهم وتجدده منهم؛ كما قال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»(١).

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)﴾.

قوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾؛ الاستفهام: للتقريع والتوبيخ.

﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ﴾، أي: ما يسرونه ويضمرونه في أنفسهم فلا يظهرونه لأحد، فيعلم عز وجل ما في بواطنهم من النفاق، وأنهم- وإن آتاهم الله تعالى من فضله- لن يتصدقوا، ولن يكونوا من الصالحين كما يزعمون.

﴿وَنَجْوَاهُمْ ﴾، أي: وما يتناجون ويتحدثون به بينهم خفية، فلا يطلع عليه غيرهم؛ من الكيد والطعن للإسلام ونحو ذلك.

وقدم علمه بـ«سرهم» في إشارة إلى أن السر والجهر عنده سواء؛ كما قال تعالى: ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد:١٠].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾؛ «علاّم»: على وزن «فعال»، صيغة مبالغة. و«الغيوب»: جمع «غيب»، وهو: ما غاب وخفي عن العيان ولم تدركه الحواس.

والمعنى: أن علمه عز وجل واسع لجميع الغيوب، لا يخفى عليه منها شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)﴾ [إبراهيم:٣٨].

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، علامة المنافق (٣٣)، ومسلم في الإيمان، بيان خصال المنافق (٥٩)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سبب النزول:

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: «لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل بشيء كثير؛ فقالوا: مراء. وجاء رجل فتصدق بصاع؛ فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾»(١).

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

قرأ يعقوب بضم الميم: «يلمُزون». وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَلۡمِزُونَ﴾، أي: الذين يعيبون وينتقصون، ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

و«المطوعين»، أصلها: «المتطوعين»، فأدغمت التاء في الطاء للتخفيف، أي: يعيبون الذين يتطوعون بالصدقة بالمال الكثير، ويطعنون فيهم بأنهم مراؤون.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾؛ عطفهم على «المطوعين» وهم منهم؛ اهتمامًا بشأنهم، أي: ويلمزون- أي: يعيبون- الذين ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾، أي: إلا طاقتهم، أي: إلا شيئًا يسيرًا، أو جهد أبدانهم.

﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾؛ السخرية: الاستهزاء، أي: يستهزئون بهم من قلة صدقتهم، بقولهم: إن الله غني عن صدقة هذا. ونحو ذلك، وما علموا أن «**أفضل الصدقة جهد المقل**»(٢) كما جاء في الحديث.

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾؛ مجازاة لهم على سخريتهم بالمؤمنين المتصدقين، وهذا من باب المقابلة والمجازاة على صنيعهم، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع؛ حسًّا ومعنى، في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٤٩)، والنسائي (٢٥٢٦)؛ من حديث عبد الله بن حبشي الخثعمي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر- فضل التطوع في البيت (١٤٤٩)، والنسائي في الزكاة – جهد المقل (٢٥٢٦)، وأحمد (٣/ ٤١١)، من حديث عبد الله بن حبشي رضي الله عنه، وأخرجه أيضاً (٢/ ٣٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و(٥/ ١٧٨)، (١٧٩)،(٢٦٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ صيغة الأمر في قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ مستعملة في معنى التسوية؛ كقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور:١٦].

والمعنى: اطلب المغفرة لهم أو لا تطلبها.

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، أي: أنهم ليسوا أهلًا للمغفرة، وأنك لو استغفرت لهم- ولو سبعين مرة- فلن يغفر الله لهم.

ولا يفهم من ذلك أنه لو زاد على السبعين لغفر لهم، وإنما ذكرت السبعين- والله أعلم- حسمًا لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها؛ ولهذا قال ﷺ: «**لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر لهم؛ لزدت عليها**»(١). يعني: عبد الله بن أبي بن سلول.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ الإشارة: لانتفاء الغفران المستفاد من قوله: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، والباء: للسببية، و«أن» والفعل «كفروا» في تأويل مصدر في محل جر، أي: بسبب كفرهم بالله ورسوله.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: والله لا يوفق الفاسقين الخارجين عن الإيمان وعن طاعة الله تعالى ورسوله بالكفر والمعاصي.

وأظهر في مقام الاضمار، فلم يقل: والله لا يهديهم؛ للتسجيل عليهم بوصفهم بالفسق، كما وصفهم بالكفر، وليشملهم هذا الوصف بالفسق هم وغيرهم من الفاسقين.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾.

٢- تشريف الله عز وجل وتكريمه للنبي ﷺ بخطابه بوصف النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٦)، والنسائي في الجنائز (١٩٦٦)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٧)؛ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ﱡﭐﱹﱺﱠ، مما لم يخاطب به عز وجل أحدًا من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

٣- وجوب بذل الجهد في مجاهدة الكفار والمنافقين والغلظة عليهم؛ فالكفار الذين أظهروا الكفر يقاتلون بالسيف والسنان، والمنافقون الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام يجاهدون بالحجة والبرهان واللسان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

٤- الوعيد الأكيد للكفار والمنافقين بالمصير إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

٥- إثبات وجود جهنم، وأنها بئس المأوى والمصير.

٦- حَلِف المنافقين كذبًا على نفي قولهم كلمة الكفر، وتأكيد الله عز وجل أنهم قالوها وكفروا بعد إسلامهم؛ لقوله تعالى: ﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾.

٧- أن الإنسان قد يتكلم بكلمة يخرج بها من الإسلام إلى الكفر، وفي الحديث: «**لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته**»(١).

٨- بلاغة القرآن الكريم وإيجازه؛ لقوله تعالى: ﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، فحذف مفعول «قالوا» في الجملة الأولى- وهو «كلمة الكفر»- اكتفاءً بذكره في الجملة الثانية.

٩- أن ديدن المنافقين الحلف بالله كذبًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [المجادلة:١٤]، وقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ [المجادلة:١٦، المنافقون:٢].

١٠- أن المنافقين ظاهرهم الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾.

١١- فضح المنافقين ببيان همهم بما لم ينالوه من قتل الرسول ﷺ، أو إطفاء نور الله تعالى، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٣)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، وأخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٠١)؛ من قول أبي هريرة رضي الله عنه.

١٢- أن المنافقين ليس لديهم ما يعيبون به الرسول ﷺ ودعوته؛ إلا أن ذلك كان سبب إغناء الله تعالى لهم من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾.

١٣- سعة عفو الله ورحمته، حيث رغَّب المنافقين بالتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾.

١٤- تحذير المنافقين من التولي، والوعيد لمن تولى بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾.

١٥- أنه لا ولي للمنافقين إذا نزل بهم عذاب الله يتولى جلب الخير لهم، أو دفع الضر والعذاب عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

١٦- الترغيب في التوبة، وأنها خير خيريّة مطلقة في الدين والدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾.

١٧- التحذير من التولي؛ لأنه سبب للعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وفقدان الولي والنصير؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

١٨- معاهدة بعض المنافقين الله إن آتاهم من فضله أن يتصدقوا ويكونوا من الصالحين، ونقضهم العهد وبخلهم وتوليهم وإعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

١٩- أن من صفات المنافقين الغدر ونقض العهود؛ كما قال ﷺ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(١).

٢٠- أن الفضل والرزق من الله تعالى وحده، وإقرار المنافقين بذلك، ولو ظاهرًا؛ لقوله

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤)، ومسلم في الإيمان (٥٨)، وأبو داود في السنة (٤٦٨٨)، والنسائي في الإيمان (٢٦٣٢)؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

تعالى: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٢١- جمع المنافقين بين التولي بأبدانهم والإعراض بقلوبهم، مما لا يؤمل معه رجوعهم إلى الحق.

٢٢- عقوبة المنافقين لنقضهم عهد الله وبخلهم وتوليهم وإعراضهم؛ بأن أورثهم ذلك نفاقًا ثابتًا في قلوبهم متمكنًا منها، مستمرًّا إلى يوم موتهم ولقائهم الله تعالى؛ بسبب إخلافهم وعد الله وكذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

٢٣- أن السيئة سبب للسيئة بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

٢٤- إثبات القيامة ولقاء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾.

٢٥- تقريع المنافقين وتوبيخهم على ما يسرونه من النفاق، ومن إضمارهم خلاف ما عاهدوا الله عليه، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

٢٦- سعة علم الله تعالى واطلاعه على جميع الغيوب، وأن السر والجهر عنده سواء؛ ولهذا قدم قوله: ﴿سِرَّهُمْ﴾.

٢٧- لمز المنافقين المتطوعين في الصدقات المكثرين منها، وسخريتهم من الذين لا يجدون إلا القليل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾.

٢٨- سخرية الله تعالى من هؤلاء الساخرين على سبيل المجازاة لهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وتوعدهم بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لتتبعهم أحوال المؤمنين ولمزهم لهم، وهذا من كبائر الذنوب، بل هو من أكبر الكبائر؛ لأنه لمز لهم على فعلهم الطاعات، وفيه تثبيط عن فعل الخير والصدقة.

وأيضًا حكمهم على المتطوع بالصدقة بأنه مراء، وهذا رجم بالغيب، وقولهم للمتصدق بجهده اليسير: «إن الله غني عن صدقة هذا». والله عز وجل غني عن

صدقة الجميع وعن أهل السموات والأرض.

٢٩- تيئيس المنافقين من مغفرة الله تعالى، وأن استغفار الرسول ﷺ لهم لو استغفر لهم وعدمه سواء في عدم انتفاعهم بذلك؛ لأن الله لن يغفر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

٣٠- أن سبب نفي مغفرة الله للمنافقين: كفرهم بالله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٣١- حرمان المنافقين وغيرهم من الفاسقين من هداية الله تعالى وتوفيقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

٣٢- أن السيئات والمعاصي سبب للحرمان من هداية الله تعالى وتوفيقه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠].

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)﴾.

قوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾، أي: المنافقون الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وأطلق عليهم «المخلّفون»؛ لأنهم استأذنوا النبي ﷺ بالقعود فأذن لهم وخلّفهم، أي: سروا وابتهجوا وتبجحوا.

﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾، أي: بقعودهم في المدينة، وعدم خروجهم للغزو بعد خروج رسول الله ﷺ، ففرحوا بقعودهم خلافه وعدم خروجهم معه، وفرحوا بمخالفتهم أمره.

وهذا بخلاف حال المؤمنين، كما حصل من الثلاثة الذين خلفوا، فلم يهدأ لهم بال حين تخلفوا عن الخروج، وأقلقهم ذلك حتى قفل رسول الله ﷺ راجعًا، فبادروا إليه معلنين ندمهم وتوبتهم.

﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«كرهوا»، أي: وكرهوا الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله؛ لنفاقهم وكفرهم وعدم إيمانهم.

وقدم الجهاد بالأموال؛ لأنه أهم؛ لأن الجهاد بالنفس لا يقوم إلا على المال.

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾، أي: قال بعض المنافقين لبعض: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾؛ النفير: الخروج للقتال، أي: لا تخرجوا في الحر؛ وذلك أن الخروج لغزوة تبوك كان في شدة الحر والقيظ عندما طابت الظلال والثمار.

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾، أي: قل لهم يا محمد: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي ستصيرون إليها؛ بسبب نفاقكم وكفركم وقعودكم عن الخروج؛ ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من حر القيظ؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٦﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج:١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج:٢١، ٢٢].

بل نار جهنم أشد حرًّا من نار الدنيا؛ كما قال ﷺ: «**ناركم التي توقدون عليها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**». فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. قال: «**إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا**»(١).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وأنه لأهونهم عذابًا**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أدنى أهل النار عذابًا ينتعل بنعلين من نار، يغلي دماغه من حرارة نعليه**»(٣).

﴿لَوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾؛ الفقه: الفهم، أي: لو كانوا يفقهون ويفهمون الفهم الذي ينفعهم ويهتدون به إلى الحق ويتعظون.

«لو»: حرف امتناع لامتناع، فامتنع تذكرهم واتعاظهم واهتداؤهم إلى الحق؛ لعدم

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٣)، والترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، أهون أهل النار عذابًا (٢١٣).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢١١).

فقههم وفهمهم الفهم الذي ينفعهم.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، واللام: للأمر، وفيه معنى التبكيت، أي: فليضحكوا في هذه الحياة الدنيا الحقيرة الفانية، ويتمتعوا بلذتها ويلهوا ويلعبوا ويفرحوا بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٨١]، وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد:٢٦].

﴿قَلِيلًا﴾، أي: ضحكًا قليلًا؛ لأن لذات الدنيا كلها محفوفة بالمنغصات والمكدرات، لا تستقيم على حال؛ كما قيل:

وَمَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَرَى ... مِنَ العَيْشِ مَا يَصْفُو وَمَا يَتَكَدَّرُ(١)

وقال الآخر:

فَمَنْ أَكْرَمَتْ يَوْمًا أَهَانَتْ ضُحَى غَدٍ ... وَمَنْ أَضْحَكَتْ قَدْ آذَنَتْ بِبُكَائِهِ(٢)

وأيضًا: فليضحكوا زمنًا قليلًا؛ لأن الدنيا كلها قليل، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

وقال ﷺ: «**ما لي وللدنيا؟! إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**». ولهذا كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء»(٣).

﴿وَلْيَبْكُوا۟﴾، أي: وليبكوا غدًا في الآخرة في نار جهنم، التي إليها مصيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر:٣٧].

﴿كَثِيرًا﴾، أي: بكاءً كثيرًا متواصلًا لا ينقطع؛ لأن عذابهم في النار لا ينقطع، ولا

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «المستطرف» (ص٤٣).

(٢) البيت لابن مشرف. انظر: «ديوانه» (ص٣٨).

(٣) سبق تخريجه.

نهاية له؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف:٧٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧].

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾؛ الباء: للسببية، و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: مجازاة لهم؛ بسبب كسبهم، أو بسبب الذي كسبوه من النفاق، ومخالفة أمر الله ورسوله، والتخلف عن الجهاد.

قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أي: فإن أرجعك الله وردك.

﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: من هؤلاء المنافقين الذين اختاروا القعود على الجهاد في سبيل الله، وتخلفوا بغير عذر، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله.

﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾، أي: فطلبوا منك الإذن لهم للخروج معك إلى غزوة أخرى؛ إما طمعاً في غنيمة، أو لسهولة الخروج إليها في نظرهم، أو غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الفتح:١٥].

﴿فَقُل﴾، أي: فقل لهم، ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ﴾، أي: لن تخرجوا للقتال معي، ﴿أَبَدًا﴾؛ تأكيد لنفي خروجهم معه في المستقبل.

﴿وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾؛ «عدوًا»: نكرة في سياق النفي؛ فتعم، أي: ولن تقاتلوا معي أيَّ عدو. وفي هذا تأكيد لما قبله.

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ تعليل لنفي خروجهم وقتالهم معه، أي: لأنكم رضيتم بالقعود أول مرة، أي: أحببتم القعود واخترتموه وآثرتموه على الخروج. ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: أول مرة طلب منكم الخروج.

ووراء هذا ما يشير إلى عدم جدوى خروجهم ما داموا بهذه المثابة، وأن خروجهم قد

يكون عبئًا على المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة:٤٧].

﴿فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ﴾؛ في هذا تعيير وتبكيت لهم، أي: فاقعدوا مع الخالفين عقوبة لكم، و«الخالفين» جمع خالف، وهم المتخلفون عن الغزو والجهاد من أهل الأعذار من الرجال والنساء والصبيان.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لما مات عبد الله ابن أبي بن سلول دعي له رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه، فقلت: يا رسول الله، أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا؟! أعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «**أخِّر عني يا عمر**». فلما أكثرت عليه قال: «**إني خيّرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها**». قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم انصرف. فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾، فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال ﷺ: «**إنما خيرني. فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وسأزيده**

---

(١) سبق تخريجه قريبًا، وقد روي نحوه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه، وفيه قول عمر رضي الله عنه: «فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله» أخرجه أحمد (١٦/١)، والترمذي في تفسير سورة براءة (٥٠٩٥) وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

على السبعين». قال: إنه منافق. قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل آية: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾» (١).

قوله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾، أي: ولا تصل على أحد من المنافقين مات أبدًا.

﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾، أي: ولا تقم على قبره بعد الدفن مستغفرًا له وسائلًا له التثبيت، كما يشرع ذلك في حق المؤمنين.

عن عثمان رضي الله عنه قال: «كان ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «**استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت؛ فإنه الآن يسأل**»(٢).

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾؛ تعليل للنهي عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم، أي: لأنهم ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾، الواو حالية، أي: وهم خارجون عن طاعة الله ورسوله إلى الكفر والنفاق.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

هذه الآية: تأكيد لما دلت عليه الآية السابقة ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة:٥٥] من أنه لا ينبغي أن يغتر أحد بما متع به المنافقون من أموال وأولاد، وبيان أنها فتنة لهم، ونقمة عليهم، وسبب لعذابهم وخسرانهم في الآخرة.

وقد أعاد «لا» بعد واو العطف في قوله في الآية الأولى: ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ﴾؛ تأكيدًا للنفي، وحذفها هنا فقال: ﴿وَأَوْلَٰدُهُمْ ﴾؛ اكتفاء بما سبق. وقال في الآية السابقة: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، وقال هنا: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا ﴾؛ اكتفاء بما ذكر في الآية الأولى.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة براءة (٤٦٧٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٠)، وأحمد (١٨/٢).

(٢) أخرجه أبو داود في الجنائز، الاستغفار عند القبر للميت (٣٢٢١).

وقال في الآية الأولى: ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾، وقال هنا: ﴿أَن يُعَذِّبَهُم﴾، وكلاهما بيان للعلة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾؛ المراد بها هذه السورة «سورة براءة».

﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾؛ «أن»: تفسيرية، فالجملة تفسير لما حوته السورة، أي: سورة فيها أمرهم بالإيمان بالله والجهاد مع رسوله.

﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾، أي: طلب منك الإذن في القعود والتخلف عن الجهاد.

﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾، أي: أصحاب الغنى والسعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء:٢٥].

﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا﴾، أي: اتركنا.

﴿نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾، أي: القاعدين عن الخروج للجهاد؛ إيثارًا منهم للسلامة والدعة والراحة، مع قدرتهم المالية والبدنية على الجهاد، وفي هذا دلالة ظاهرة على أن عذرهم ينحصر في رغبتهم في القعود ليس إلا؛ وذلك لشدة جبنهم وخوفهم.

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأحزاب:١٩].

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾، أي: أحبوا واختاروا وآثروا ﴿بِأَن يَكُونُوا۟﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، أي: رضوا بكونهم مع الخوالف. و«الخوالف» جمع «خالفة»، صفة للنساء؛ لأنه لا جهاد عليهن؛ ولهذا قال ﷺ: «**عليهن**

جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة»(١).

قال الشاعر:

كُتِبَ القَتْلُ وَالقِتَالُ عَلَيْنَا ... وَعَلَى الغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ(٢)

وقيل: المراد بالخوالف: من لا جهاد عليه من أصحاب الأعذار من الرجال، وكذا النساء والصبيان. والمعنى: رضوا لأنفسهم بالعار والقعود في المدينة مع من عذر الله في ترك الجهاد من النساء وغيرهن.

وفي هذا ما فيه من الإهانة لأنفسهم؛ كما قال الحطيئة(٣) في هجاء الزبرقان بن بدر:

دَعِ المَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: وختم على قلوبهم وطمس عليها؛ بسبب نفاقهم وكفرهم، ونكولهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ، ورضاهم بالقعود واختيارهم له.

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا يفهمون الفهم الذي ينتفعون به في دينهم ودنياهم وأخراهم، والذي يحملهم على فعل الخير، ويحجزهم عن الشر؛ وذلك بسبب الطبع على قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

لما ذم المنافقين على قعودهم، وعدم خروجهم مع رسول الله ﷺ، ونكولهم عن الجهاد معه، وتوعدهم؛ أتبع ذلك بالثناء عليه ﷺ والمؤمنين معه بجهادهم بأموالهم وأنفسهم، ووعدهم بما لهم من الخيرات والفلاح، وما أعد لهم من الجنات والخلود فيها، والفوز العظيم.

قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ «لكن»: حرف استدراك، وفي هذا الاستدراك إشارة إلى الاستغناء عن المنافقين ونصرتهم؛

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المناسك (٢٩٠١).

(٢) البيت لعمرو بن ربيعة، انظر «ديوانه» (ص٣٣٨).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٥٣).

بجهاد الرسول ﷺ والمؤمنين معه بأموالهم وأنفسهم ونصرتهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء:١٠٧].

والمعنى: لكن الرسول والذين آمنوا معه بذلوا جهدهم وطاقتهم بأموالهم وأنفسهم؛ لنصرة دين الله عز وجل، وإعلاء كلمته.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾، أي: وأولئك لهم- خاصة- الخيرات الكثيرة في الدنيا والآخرة، من النصر والغنيمة في الدنيا، والأجر والكرامة في الآخرة.

وأشار إليهم في هذا الموضع والذي بعده بإشارة البعيد؛ تنويهًا بعلو منزلتهم ورفعتهم، وأكد حصول الخيرات لهم خاصة بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبتقديم الخبر «لهم».

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أكّد فلاحهم، وحصر الفلاح فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: وأولئك هم الفائزون بالمطلوب، والناجون من المرهوب، الفائزون بالجنة، الناجون من النار؛ فخصهم بالخيرات، وحصر الفلاح فيهم.

قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

هذا بيان وتفصيل لما وعدهم به من الخيرات والفلاح في الآية السابقة.

قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾، أي: هيأ وجهز لهم جنات، أي: بساتين ومساكن طيبة في جنات عدن.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات»، أي: تجري وتسيل من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار المختلفة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ خلودًا أبديًا، لا انقطاع له.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ الإشارة: لما لهم من الخيرات والفلاح، وما أعد لهم من الجنات والخلود فيها. و﴿ٱلْفَوْزُ﴾: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ في كيفه، وكمه، ونوعه، وغير ذلك.

وإذا كان عز وجل وصف هذا الفوز بالعظيم فلا يقدر قدر عظمته إلا من وصفه بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

الفوائد والأحكام:

١- فرح المخلفين وسرورهم وتلذذهم بقعودهم خلاف رسول الله ﷺ، وعدم الخروج لغزوة تبوك، ومخالفته ﷺ، وركونهم إلى الراحة والدعة؛ لقوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾.

٢- كراهية المنافقين الجهاد في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣- أن من فرح بمخالفة أمر الله ورسوله وتلذذ بذلك، أو كره شيئًا مما أمر الله تعالى به ورسوله من الجهاد وغيره؛ فقد اتصف بصفات المنافقين.

ولا يبعد أن يتناول هذا من يتنعمون بالنوم على فرشهم، وبالمآكل والمشارب، ومجالس اللهو، أو اللهث وراء الدنيا؛ ومنادي الله يناديهم: حي على الصلاة، حي على الفلاح؛ فلا يجيبون، ويؤخرون الصلاة عن وقتها، أو يتخلفون عن صلاة الجماعة. فأولئك تنعموا وتمتعوا بقعودهم عن الجهاد، وهؤلاء تنعموا وتمتعوا بقعودهم عن أمر أعظم من الجهاد، وهو أداء الصلاة في وقتها.

٤- أن الجهاد بالمال قد يفوق الجهاد بالنفس؛ ولهذا قدم عليه في الآية.

٥- أن الجهاد المعتبر شرعًا ما كان في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله تعالى، ووفق شرعه.

٦- نهي المنافقين بعضهم لبعض من النفير متعللين بالحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾.

٧- الوعيد والتهديد للمتخلفين بنار جهنم التي هي أشد حرًّا من حر الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾.

٨- أن نار جهنم موجودة أعدها الله تعالى للكفار والعصاة.

٩- ذم هؤلاء القاعدين خلاف رسول الله بعدم فقههم؛ إذ كيف يتخلفون عن الخروج

مع رسول الله بحجة الحر، مع أن نار جهنم التي سيصيرون إليها بسبب ذلك أشد حرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾.

١٠- الوعيد للمتخلفين عن الخروج، وأنهم وإن ضحكوا قليلًا في هذه الدنيا الحقيرة وتمتعوا بلذاتها الفانية فسيبكون كثيرًا في الآخرة في النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾.

١١- أن مجازاة المتخلفين عن الجهاد بنار جهنم، وبالبكاء كثيرًا؛ بسبب كفرهم ونفاقهم، وفرحهم بالقعود خلاف رسول الله، وضحكهم وابتهاجهم بذلك، والجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

١٢- حرمان المتخلفين أول مرة من الخروج للغزو بعد ذلك؛ عقابًا لهم على تخلفهم الأول؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾.

١٣- تبكيت الذين رضوا بالقعود وإهانتهم وإذلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾.

١٤- أن المعاصي سبب للحرمان من الخير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾، وفي الحديث: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»(١).

١٥- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ عن الصلاة على المنافقين، وعن القيام على قبورهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾.

١٦- أن العلة لنهيه ﷺ عن الصلاة عليهم هي كفرهم بالله ورسوله، وموتهم على الفسق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾؛ ولهذا لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

١٧- مشروعية الصلاة على المؤمن إذا مات، والقيام على قبره للاستغفار والدعاء له؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠٢٢)؛ من حديث ثوبان رضي الله عنه.

فمفهوم هذا النهي أن المؤمن يصلى عليه، ويقام على قبره، وعلى هذا دلت السنة النبوية.

١٨- أن أموال المنافقين وأولادهم مهما كثرت لا تثير العجب؛ لأن الله يريد تعذيبهم بها في الدنيا وموتهم على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

١٩- أن الأموال والأولاد قد تكون سببًا للعذاب؛ لأنها قد تشغل عن طاعة الله، وقد تحمل على مخالفة أمر الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال:٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٤-١٥]، وذكر عز وجل عن المخلفين والأعراب أنهم يقولون: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ [الفتح:١١].

٢٠- استئذان أولي الطول من المنافقين في عدم الخروج للجهاد، وإيثارهم أن يكونوا مع القاعدين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾.

٢١- تعيير المستأذنين عن الخروج للجهاد برضاهم أن يكونوا مع الخوالف؛ لقوله تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾.

٢٢- عقوبة من رضوا بالقعود وآثروه على الخروج للجهاد؛ بالطبع على قلوبهم، وجعلهم لا يفقهون؛ لأن المعصية سبب للمعصية بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥].

٢٣- أن هؤلاء الذين اختاروا القعود ورضوه لأنفسهم لا يفقهون، أي: لا يفهمون الفهم الذي يهتدون به إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

٢٤- ثناء الله عز وجل على رسوله ﷺ والذين آمنوا معه بجهادهم بأموالهم وأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾.

٢٥- بشارة الرسول ﷺ والذين أمنوا معه باختصاصهم بالخيرات، وحصر الفلاح

فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

٢٦- أن مما أعده الله تعالى للرسول ﷺ والمؤمنين من الخير والفلاح: الجنات وما فيها من النعيم والخلود، والفوز العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

٢٧- الترغيب في الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس؛ لعظيم ما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)﴾.

قوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قرأ يعقوب بتخفيف الذال: «المعذِرون» وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾.

و«المعذِّرون»: جمع «معذِّر»، أي: المعتذرون، أي: وجاء المعتذرون الصادقون المحقُّون في أعذارهم من الأعراب، مبينين ضعفهم وعدم قدرتهم على الخروج؛ بدليل مقابلته بقوله: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

وقيل: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ المتكلفون للعذر، أي: المعتذرون بلا عذر. والأعراب: هم سكان البادية.

﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يؤذن لهم في ترك الخروج للجهاد ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي: وقعد الذين كذبوا الله ورسوله في دعواهم الإيمان وإظهارهم له، أو في وعدهم النصر، أي: قعدوا عن المجيء والاعتذار، وعن الخروج إلى الغزو.

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾ ممن اعتذروا أعذارًا كاذبة، والذين كذبوا الله ورسوله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩١﴾.

لما ذم المنافقين ووبخهم على استئذانهم للقعود، وعدم الخروج للجهاد، مع ما هم عليه من الغنى والقدرة على الجهاد؛ أتبع ذلك بذكر الأعذار التي لا حرج على من قعد عن الخروج بسببها.

قوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾، الضعفاء: جمع ضعيف، وهو من به ضعف، وهو وهن القوة البدنية، كالشيخ الكبير، وكذا الأعمى والأعرج؛ كما قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ﴾ [الفتح:١٧، النور:٦١].

﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾، «المرضى»: جمع «مريض»، وهو من به علة في بدنه لا يستطيع معها الجهاد.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ «ما» نكرة موصوفة، أي: لا يجدون شيئًا ينفقونه، أو موصولة، أي: لا يجدون الذي ينفقونه للتجهز للحرب، من الزاد والراحلة والسلاح؛ بسبب فقرهم.

﴿حَرَجٌ﴾ «الحرج»: الضيق، والمراد ما عليهم إثم في عدم الخروج للغزو والجهاد. وقد أعاد حرف النفي في عطف المرضى والذين لا يجدون ما ينفقون؛ لتوكيد نفي المؤاخذة عن كل فريق بخصوصه، ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ «إذا»: ظرفية شرطية، أي: ما عليهم من حرج بشرط نصحهم لله ورسوله بصدق الإيمان والإخلاص، وفعل ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد، وخَلَفهم الغزاة بخير في أهليهم وأموالهم.

﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖ﴾ الجملة واقعة موقع التعليل لما قبلها، أي: ما على هؤلاء من حرج في ترك الجهاد إذا نصحوا لله ورسوله؛ لأنهم محسنون، وما على المحسنين من سبيل، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه سقط عنه ما لا يقدر عليه.

و«من» في قوله: ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما على المحسنين من أي سبيل و«السبيل» في الأصل الطريق، أي: ما على المحسنين من طريق لمؤاخذتهم ومعاقبتهم ولومهم، و«المحسنون»: المتبعون شرع الله، فوصفهم بالنصح لله ورسوله- وهو الإخلاص- ووصفهم بالإحسان، وهما شرطا صلاح العمل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥].

وقال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، وذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي.

ومن مغفرته ورحمته عفا عن العاجزين، وأثابهم بنصحهم وإخلاصهم وإحسانهم ثواب القادرين الفاعلين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ﴾ الآية معطوف على قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

و«إذا»: ظرف للمستقبل، متضمن معنى الشرط، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

والمعنى: ولا على الذين إذا أتوك لتحملهم. واللام في قوله: ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ للتعليل، أي: لأجل أن تحملهم، أي: لأجل حملهم.

والمعنى: لتعطيهم ظهرًا يركبونه، ويحملون عليه زادهم وسلاحهم، ويجاهدون عليه.

﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ جواب الشرط «إذا»، أو بدل من «أتوك»

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أي: قلت معتذرًا لهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ «ما»: نكرة موصوفة، أي: لا أجد شيئًا أحملكم عليه، أو موصولة، أي: لا أجد الذي أحملكم عليه، أي: من الإبل أو غيرها من الدواب.

﴿تَوَلَّواْ﴾ جملة مستأنفة، أو جواب «إذا» أي: رجعوا.

﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾، الواو: حالية، أي: حال كون أعينهم تفيض من الدمع، أي: تسيل ويخرج منها الدمع والماء، أي: تولوا وهم يبكون ﴿حَزَنًا﴾ مفعول لأجله، أي: بسبب الحزن.

﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾، أي: لأنهم لا يجدون ما ينفقون، و«ما» نكرة موصوفة، أي: لا يجدون شيئًا ينفقونه، أو موصولة، أي: لا يجدون الذي ينفقونه في سبيل الله من توفير الزاد لهم والراحلة والسلاح.

فهؤلاء لا حرج عليهم، بل هم مأجورون أجر المجاهدين؛ لصدقهم في إرادة الخروج لو تيسر لهم ووجدوا النفقة والمركب؛ ولهذا رجعوا وهم يبكون، وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون.

وقد قال الله عز وجل: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ [النساء:٩٥].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة، فدنا من المدينة فقال: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**» قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**نعم بالمدينة حبسهم العذر**»(١)

وفي حديث جابر رضي الله عنه: «**حبسهم المرض**»(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٢٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٦٤).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر (١٩١١)، وابن ماجه في الجهاد، من حبسه العذر عن الجهاد (٢٧٦٥)، وأحمد (٣/ ٣٠٠).

مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

نفى في الآيتين السابقتين الحرج عن الضعفاء، والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون، والذين لا يجدون ما يحملهم؛ في عدم الخروج للجهاد، إذا نصحوا لله ورسوله، وبيّن أنه ما على المحسنين من سبيل، ثم حصر السبيل في هذه الآية على الذين يستأذنون في التخلف وهم أغنياء، وفي هذا تأكيد للنفي السابق.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: إنما يتوجه الإثم والمؤاخذة والعقاب واللوم ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾، أي: يطلبون منك الإذن في عدم الخروج للقتال ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾، أي: حال كونهم أغنياء، قادرين على الخروج، لا عذر لهم.

كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾.

وفي هذا وذاك دون ذكر القدرة البدنية إشارة إلى أهمية القدرة المالية، فذو الغنى والطول لا يعذر بترك الجهاد بماله ونفسه، أو بماله إذا لم يستطعه بنفسه، بخلاف من لا يجد النفقة فقد يعذر بتركهما معًا.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ كرر هذا تأكيدًا لذمهم وتعييرهم، أي: رضوا لأنفسهم بكونهم مع الخوالف من النساء والصبيان ونحوهم.

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: ختم الله على قلوبهم، فلا تعي الحق ولا تقبله.

﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهديهم إلى معرفة الحق واتباعه والعمل به؛ عقوبة لهم على نفاقهم وقعودهم عن الجهاد ومخالفتهم أمر الله تعالى ورسوله.

قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

لما ذكر تخلف المنافقين عن الخروج من أولي الطول والغنى، وأنه لا عذر لهم أخبر أنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا إليهم من غزوهم.

قوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين، أي:

يعتذر إليكم كذبًا هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الخروج للجهاد إذا رجعتم إليهم بالمدينة من غزوة تبوك.

﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾ النهي مستعمل في معنى التأييس ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ في موقع التعليل؛ لنهيهم عن الاعتذار، أي: لأنا لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب. يقال: آمن له، إذا صدقه. قال تعالى: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١].

﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ﴾ تعليل لنفي تصديقهم، أي: لأن الله قد نبأنا من أخباركم بما يقتضي تكذيبكم، أو بأنكم كاذبون.

«قد»: حرف تحقيق، ﴿نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾، أي: أعلمنا الله، وأخبرنا بالوحي، ﴿مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ﴾ «من»: تبعيضية، أي: بعض أخباركم الكاذبة، وأن ديدنكم الكذب. كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]، وقال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾، أي: وسيرى الله ورسوله ما يصدر منكم من عمل بعد اعتذاركم هذا، ويُظهر أنكم تقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم، ولا تُتْبعون القول بالعمل، الذي هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال فلا دلالة فيها على شيء، وكما قيل:

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلًا بِلَيْلَى ... وَلَيْلَى لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا(١)

وقال المتنبي(٢):

لَوْلَا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... أَلْجُودُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

(١) البيت لمجنون بني عامر، المعروف بمجنون ليلى. انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٧١).
(٢) انظر: «ديوانه» (ص٥٣١).

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: ثم ترجعون وتصيرون بعد الموت والبعث ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ إلى الله عز وجل عالم الغيب والشهادة؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢].

و«الغيب»: ما غاب عن علم الناس وعن حواسهم، و«الشهادة»: المشاهدة، و«ال»: فيهما للاستغراق، أي: عالم كل غيب وكل شهادة. ولم يقل ثم تردون إليه؛ لما في الإظهار من التنبيه على أنه لا يعزب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم زيادة في الترغيب والترهيب.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: فيخبركم بالذي كنتم تعملون، أي: بعملكم من خير وشر، ويحاسبكم ويجازيكم عليه.

قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ السين: للاستقبال والتأكيد، أي: سيحلفون لكم معتذرين إليكم، إذا رجعتم إليهم من غزوكم.

﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تعرضوا عنهم، أي: تتركوهم فلا تعاتبوهم ولا تعاقبوهم؛ لأنهم يخشونكم ما لا يخشون الله.

﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾، أي: فأعرضوا عنهم إعراضًا تامًّا واتركوهم احتقارًا لهم، ولا تبالوا بهم؛ ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تعليل للأمر بالإعراض عنهم، أي: لأنهم رجس، أي: نجس نجاسة معنوية؛ لكفرهم ونفاقهم وخبث بواطنهم.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾، أي: ومصيرهم في آخرتهم ومرجعهم.

﴿جَهَنَّمُ﴾، أي: النار.

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، الباء: للسببية، أي: مجازاة لهم بسبب الذي كانوا يكسبونه، أي: بسبب كسبهم، أي: عملهم السيئ.

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ

﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾.

قوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢].

﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ بحلفهم لكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

أي: الخارجين عن طاعته بالكفر والنفاق ومخالفة أمره.

وأظهر في مقام الاضمار فلم يقل: فإن الله لا يرضى عنهم؛ للتسجيل عليهم بوصف الفسق، وليشملهم الحكم هم وغيرهم من الفاسقين، ولفتح باب التوبة لهم، وأنهم إن تابوا تاب الله تعالى عليهم ورضي عنهم.

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾(١).

الفوائد والأحكام:

١- رفع الحرج والإثم عمن لا يستطيعون الجهاد في عدم الخروج للغزو من الضعفاء، والمرضى، ومن لا يجدون النفقة، أو لا يجدون ما يحملهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾، وقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ الآية.

٢- مراعاة الشرع الحكيم في التكاليف لأحوال المكلفين البدنية والمالية، وأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤١٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٠٢).

٣- أن الأعذار في ترك الجهاد منها ما يعود إلى البدن كالضعف والمرض، ومنها ما يعود إلى القدرة المالية من النفقة ووجود المركب.

٤- أن رفع الحرج عن أصحاب هذه الأعذار إنما يتم إذا نصحوا لله ورسوله بصدق الإيمان والإخلاص، وتشجيع غيرهم من القادرين على الجهاد، وخَلَفِهم المجاهدين بخير في أهليهم وأموالهم، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾.

٥- أن العبد إذا نصح لله ورسوله، وقام بما يستطيع من العمل فقد أحسن، ولا سبيل عليه، وسقط عنه ما لا يقدر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾.

٦- أن الإنسان إذا أحسن إلى غيره بنفسه أو ماله، ونحو ذلك وترتب على إحسانه نقص أو تلف؛ فإنه لا يضمن ذلك؛ لأنه محسن وما على المحسنين من سبيل، كما أنه إذا فرط لزمه الضمان.

٧- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٨- حرص بعض الصحابة رضي الله عنهم على الخروج للجهاد مع رسول الله ﷺ، وإتيانهم إليه ليحملهم، أي: يعطيهم ما يركبونه من الدواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ الآية.

٩- ما كان عليه ﷺ من قلة ذات اليد وعدم الجدة، وعدم القدرة على أن يؤمن لمن يأتيه من أصحابه ممن لا يجدون مركبًا ما يحملهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾.

١٠- رجوع الصحابة الذين لم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه وهم يبكون حزنًا؛ لعدم تمكنهم من الجهاد معه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

١١- شتان بين المنافقين الذين يُلَفِّقون الأعذار الكاذبة للقعود والتخلف عن الجهاد،

وبين المؤمنين الذين يبكون ويحزنهم عدم قدرتهم على الخروج.

١٢- أن السبيل والمؤاخذة والمعاقبة على الذين يستأذنون في التخلف عن الجهاد وهم أغنياء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾.

١٣- أن من كان من أولي الطول والغنى لا يعذر بترك الجهاد بحال من الأحوال، إما بماله ونفسه إن استطاعه بنفسه، أو بماله. أما من كان ممن لا يجدون ما ينفقون فهو معذور في ترك الجهاد حتى بنفسه، إلا إذا وجد من يجهزه.

١٤- تعيير المستأذنين للقعود، والتخلف عن الخروج للجهاد برضاهم أن يكونوا مع الخوالف ممن عذر الله من النساء والصبيان وأهل الأعذار من الرجال؛ لقوله تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾.

١٥- عقوبة الله تعالى لهم بالختم على قلوبهم، فلا تعي الحق ولا تقبله؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٦- نفي العلم عن هؤلاء المستأذنين وهم أغنياء للتخلف عن الجهاد؛ لأن الله طبع على قلوبهم، فلا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهديهم إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم:٧].

١٧- اعتذار المتخلفين من المنافقين كذبًا من الرسول ﷺ والمؤمنين إذا رجعوا إليهم من غزوة تبوك؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ فاعتذروا قبل الخروج، واعتذروا بعد الرجوع.

١٨- تأييس المتخلفين من المنافقين من قبول أعذارهم، ونفي تصديقهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾.

١٩- إخبار الله المؤمنين بالوحي بإن ديدن المنافقين الكذب؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

٢٠- تنبيه المنافقين بأن المهم اتباع القول بالعمل، وأن عملهم بعد اعتذارهم سيراه الله ورسوله فيتبين صدقهم من كذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

٢١- إخبار المنافقين وتوعدهم بأن مرجعهم إلى عالم الغيب والشهادة، الذي لا يخفى عليه شيء؛ فيخبرهم بأعمالهم، ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٢٢- في قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ إشارة إلى فتح باب التوبة لهم ليتوبوا، وترغيبهم بها وبالعمل الصالح، وتوعدهم وتحذيرهم من الدوام على حالهم.

٢٣- إثبات علم الله عز وجل الواسع والمحيط بكل شيء من الأشياء الغائبة والمشاهدة؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٢٤- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

٢٥- إخبار المؤمنين بأن هؤلاء المتخلفين سيحلفون بالله لهم إذا رجعوا إليهم؛ ليعرضوا عنهم، فلا يعاتبوهم، ولا يعاقبوهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾.

٢٦- أن المنافقين يحلفون بالله؛ لأنهم في الظاهر مؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾.

٢٧- الأمر بالإعراض عن المنافقين إعراضًا تامًّا؛ إحتقارًا لهم، إذ لا أمل فيهم ولا فائدة منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾.

٢٨- أن العلة في الأمر بالإعراض عنهم؛ لأنهم رجس، أي: نجس نجاسة معنوية بسبب كفرهم ونفاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾.

٢٩- وعيد المنافقين وتهديدهم بمصيرهم إلى جهنم؛ مجازاة لهم بما اكتسبوه من الكفر والنفاق والأعمال السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

٣٠- أن المنافقين في حلفهم للمؤمنين لا يقفون عند حد إرادة إعراض المؤمنين عنهم، بل يريدون ما هو فوق ذلك، وهو رضا المؤمنين عنهم، وهيهات لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾.

٣١- خشية المنافقين من المؤمنين أشد من خشيتهم من الله، وحرصهم على رضاهم

أشد من حرصهم على رضا الله بسبب نفاقهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة:٦٢].

٣٢- تحذير المؤمنين من الرضا عن المنافقين المتخلفين عن الجهاد، بالإخبار بأنهم إن رضوا عنهم فإن الله لا يرضى عنهم، بل يسخط عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

٣٣- إثبات صفة الرضا لله تعالى كما يليق بجلاله؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ومفهوم هذا إثبات رضاه عن المؤمنين الطائعين.

كما يفهم من نفي رضاه عن القوم الفاسقين إثبات صفة الغضب له على ما يليق بجلاله.

والرضا والغضب من الصفات الاختيارية الثابتة لله عز وجل المتعلقة بمشيئته.

٣٤- التحذير من النفاق والفسق؛ لأن ذلك سبب لغضب الله وعدم رضاه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾، «الأعراب»: هم سكان البادية والبراري ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾، أي: أعظم كفرًا ونفاقًا من أهل الحضر، سكان المدن والقرى.

وإنما كان الأعراب أشد في كفرهم ونفاقهم بسبب غلظة قلوبهم، وجفائهم، وما ورثوه من عادات جاهلية عن أسلافهم، ولبُعدهم عن مشاهدة النبي ﷺ وأخلاقه، والتلقي عنه، وبُعدهم عن الحاضرة ومجالس العلم والذكر، قال ﷺ: «**من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم أناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: ولكنا والله ما نقبل. فقال رسول الله ﷺ: «**أوأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة**»(٢).

ولهذا رُويَ عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه لما عزم على سكنى الربذة: «**تعهد المدينة كيلا ترتد أعرابيًّا**»(٣).

ولما كانت الغلظة في أهل البادية لم يبعث الله منهم رسولًا، وإنما كانت بعثة الرسل

---

(١) أخرجه أبو داود في الصيد، اتباع الصيد (٢٨٥٩)، والنسائي في الصيد، اتباع الصيد (٤٣٠٩)، والترمذي في الفتن (٢٢٥٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٩٩٨)، ومسلم في الفضائل، رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٥).

(٣) انظر: «التحرير والتنوير» (١١/ ١٢).

من أهل القرى، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف:١٠٩].

﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، أي: أحرى وأقرب بأن لا يعلموا حدود الذي أنزل الله على رسوله، من أصول الإيمان، والأحكام الشرعية من الأوامر، والنواهي، وغير ذلك؛ لبعدهم عن مجالس العلم والذكر.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾، أي: ذو العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة فيما قدر وشرع، وفي كل شيء.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨ ﴾.

قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا ﴾، أي: ومن الأعراب من يجعل ويعتبر الذي ينفقه من زكاة ونفقة في سبيل الله غرامة وخسارة، ويعده نقصًا؛ لأنه لا يحتسب به الأجر من الله، ولا يريد به وجه الله، و«المغرم» ما يدفع من المال قهرًا وظلمًا.

ولهذا امتنع من امتنع من أداء الزكاة بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه والمسلمون معه، وأخذ الزكاة منهم.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾، التربص: الانتظار، و«الدوائر»: جمع دائرة، وهي ما يحيط بالإنسان من مصيبة ونكبة، والمعنى: ينتظرون بكم المصائب.

قال الشاعر:

تَـرَبَّصْ بِهَـا رَيْـبَ المَنُـونِ لَعَلَّهَـا ... تُطَلَّقُ يَوْمًـا أَوْ يَمُـوتُ حَلِيلُهَـا(١)

والمراد: ينتظرون بكم الحوادث والآفات وتغير الحال واختلالها، إما بضعفكم، أو بموت النبي ﷺ، أو غير ذلك.

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين: «السُّوء»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ٱلسَّوۡءِ﴾.

---

(١) انظر: «لسان العرب»، مادة: «ربص».

وهذا حكم من الله بأن دائرة السوء وما ينتظرونه من الشر بالمؤمنين عائد ودائر عليهم أنفسهم، ومن حفر لأخيه حفرة وقع فيها.

و«دائرة السوء» من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ لأن الدائرة لا تكون إلا في السوء.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي: ذو السمع الواسع لكل الأصوات، والأقوال، وما يتناجى به الكائدون، وما يدعو به الداعون، وغير ذلك.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع لكل شيء من أعمال العباد، وغير ذلك، وسينصر أولياءه، ويخذل أعداءه، ويجازي كلا بما عمل.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

لما ذكر أن الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا، وأن منهم من يتخذ ما ينفق غرمًا وخسارة، ويتربص بالمؤمنين الدوائر، وتوعدهم أثنى على فريق من الأعراب وهم المؤمنون منهم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويتقربون بما ينفقون في سبيل الله إلى الله تعالى.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، أي: ومن الأعراب من هم مؤمنون يؤمنون بالله واليوم الآخر، بخلاف من ذكروا قبلهم.

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: ويجعل ويعتبر الذي ينفق من زكاة ونفقات في سبيل الله ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: قربات يتقربون بها إلى الله عز وجل رجاء ثوابه وخوفًا من عقابه، وابتغاء القرب منه عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر:٥٤-٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة:١٠-١٢].

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ معطوف «ما»: الموصولة، والتقدير: ويتخذ الذي ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول، أي: ويتخذ صلوات الرسول، أي: دعوات الرسول ﷺ لهم قربات يتقربون بها إلى الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣].

وكان ﷺ إذا جاءه أحد بصدقته دعا له، ولما جاءه والد عبد الله بن أبي أوفى بصدقته قال: «**اللهم صل على آل أبي أوفى**»(١).

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾، «ألا»: أداة تنبيه، و«إن»: للتوكيد، أي: ألا إنها، أي: نفقاتهم قربة لهم حقًّا، وذلك حاصل لهم، وهذا وعد من الله عز وجل لا يتخلف، وبشارة لهم. ونُكِّرت «قربة»: للتعظيم، أي: ألا إنها قربة عظيمة لهم.

﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾، السين: للاستقبال وتحقيق الوعد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيها معنى التعليل لما قبلها، أي: لأن الله غفور رحيم، أي: ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده، يستر الذنب، ويتجاوز عن العقوبة، وذو رحمة واسعة، وهي سبب مغفرته لعباده.

الفوائد والأحكام:

١- أن الكفر والنفاق كما يوجد كل منهما في المدينة وفي أهل الحضر يوجدان أيضًا في الأعراب، وهم أشد من حيث العموم؛ بسبب غلظة قلوبهم، وجفائهم، ووراثتهم بعض العادات الجاهلية عن أسلافهم، ولبعدهم عن مجالسة الرسول ﷺ، والتلقي عنه، والتأثر بأخلاقه في حياته، وعن مجالس العلم والذكر بعد وفاته.

وهذا لا يمنع أن يكون في أهل الحاضرة من هو أشد كفرًا من بعض الأعراب، وقد يدل على هذا قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة:١٠١].

كما لا يمنع أن يكون في الأعراب من هو أقوى إيمانًا من بعض أهل الحاضرة.

ولا ينكر ما لدى الأعراب من صفات محمودة من الشجاعة، والنجدة، وإباء الضيم، والصراحة، والكرم، بل ومن القرب إلى الخير إذا اعتقدوه وآمنوا به.

والمقصود أنه لا ينبغي أن يتخذ من هذا ذمًّا للأعراب ولا مدحًا للحاضرة، فمن أحسن من الفريقين فله أجره وثوابه، ومن أساء منهما فعليه إثمه وعقابه، وأكرم الخلق عند الله أتقاهم؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

---

(١) سيأتي تخريجه.

٢- أن الكفر والنفاق كل منهما يشتد ويخف، ويزيد وينقص حسب الأحوال.

٣- أن الأعراب أحرى وأقرب إلى عدم العلم بحدود ما أنزل الله على رسوله من أصول الدين والإيمان، وفروع الشريعة والأحكام؛ لبعدهم عن مجالس الذكر، ومخالطة أهل العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

٤- فضيلة العلم الشرعي، وأنه هو أنفع العلوم وأجلها؛ لأن به معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ من أصول الدين وفروعه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه، علو الذات، وعلو الصفات، وإثبات أن القرآن منزل من عنده عز وجل وكلامه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، وفي هذا الرد على الحلولية، وعلى المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٦- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

٧- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾.

٨- أن لله عز وجل الحكم التام: الحكم الكوني، والشرعي والجزائي، وله الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

٩- اعتبار بعض الأعراب ما ينفقونه من زكاة ونفقات في سبيل الله غرامة وخسارة ونقصًا عليهم؛ لأنهم لا يريدون بذلك وجه الله، ولا يرجون به لأنفسهم ثوابًا، ولا أن يدفعوا بها عنهم عقابًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمًا﴾.

١٠- تربص هؤلاء الأعراب بالمؤمنين الدوائر، وانتظارهم بهم حوادث الزمان؛ ولهذا لما توفي ﷺ سرعان ما ارتد بعضهم عن الإسلام ومنعوا الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾.

١١- حكم الله تعالى قدرًا وكونًا أن دائرة السوء على هؤلاء الأعراب المتربصين الشر بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾.

١٢- أن الله عز وجل ذو السمع الواسع لجميع الأصوات وأقوال العباد وتناجيهم ودعائهم وغير ذلك، وذو العلم الواسع لكل شيء من أعمالهم وغير ذلك،

وسينصر أولياءه، ويخذل أعدائه، ويجازي كلًّا بما عمل.

١٣- أن من الأعراب من هم مؤمنون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويتقربون إلى الله تعالى بما ينفقونه، رجاء ثوابه، وخوفًا من عقابه، وطلبًا لقربه وجواره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

١٤- أن أعظم أصول الإيمان وأركانه الإيمان بالله تعالى؛ ولهذا ابتدأ الله تعالى بذكره في الآية، فقال: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وشرعه، فمن لم يؤمن بها شرع الله تعالى ويعمل به فليس بمؤمن بالله.

١٥- أن من أهم أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان به من أعظم ما يحمل على العمل؛ لأن فيه الحساب والجزاء على الأعمال؛ ولهذا يقرن كثيرًا في القرآن الكريم الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله.

١٦- تقرب هؤلاء المؤمنين المنفقين من الأعراب إلى الله تعالى بصلوات الرسول ﷺ عليهم، ودعائه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

١٧- وعد الله تعالى لهؤلاء المنفقين بأن نفقاتهم قربة لهم عنده؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾.

١٨- وعده عز وجل لهم بإدخالهم في رحمته ومغفرته ورحمته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٩- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

في هذه الآية تنويه بفضيلة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وامتداح لهم، وثناء على الذين اتبعوهم بإحسان، وترغيب في اتباعهم، وبشارة لهم ولأتباعهم برضا الله تعالى عنهم ورضاهم عنه، وما أعد لهم من الجنات والنعيم المقيم.

قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾، أي: في الإيمان والجهاد ونصر دين الله وإقامة شرعه.

﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، الذين هاجروا من مكة إلى المدينة؛ فرارًا بدينهم، ونصرة لله ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر:٨].

﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ قرأ يعقوب الحضرمي: «والأنصارُ» بالرفع عطفًا على «السابقون»، وقرأ الباقون: ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ بالكسر عطفًا على «المهاجرين» أي: ومن الأنصار أهل المدينة الذين استقبلوا إخوانهم المهاجرين، وأحبوهم، وأشركوهم معهم في أموالهم، وآثروهم على أنفسهم؛ كما قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٩].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾، أي: والذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة.

﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾؛ الباء: للمصاحبة والملابسة، أي: اتباعًا بإحسان في الإيمان والعمل الصالح.

والإحسان كما قال ﷺ «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وذلك ينتظم الإخلاص لله تعالى في العبادة، واتباع شرعه، والإحسان إلى عباده بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ خبر قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، أي: رضي الله عنهم؛ لإيمانهم وجهادهم وإحسانهم.

ورضاه تعالى عنهم أكبر وأعظم من كل نعيم الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢].

﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾؛ لتوفيقه لهم إلى الإيمان والعمل الصالح، ورضاه عنهم، وإدخالهم جنته.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قرأ ابن كثير: «من تحتها» بزيادة «من» وخفض تاء «تحتِها»؛ كما ورد ذلك في جميع المواضع في القرآن الكريم، وقرأ الباقون: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا﴾ بحذف «من»، وفتح تاء ﴿تَحْتَهَا﴾.

أي: وهيأ لهم بساتين لا يقدر قدرها إلا الله تعالى، تجري تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، أي: مقيمين فيها، لا يتحولون عنها أبدًا، ولا يطلبون بها بدلًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الحصول على رضا الله تعالى وجناته، وما فيها من النعيم والخلود الأبدي.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، أي: الفلاح العظيم، الذي لا يقدر قدر عظمته إلا الرب العظيم سبحانه وتعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة:١٠-١٢].

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ الواو: عاطفة، «ممن»: مكونة من «مِنْ» التبعيضية، و«مَنْ»: الموصولة، أي: وبعض الذين حولكم، والخطاب في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ للنبي ﷺ والمؤمنين، أي: وممن حول المدينة.

﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين أسلموا؛ كجهينة وأسلم وأشجع ولحيان وغفار وعصية. و«من»: بيانية.

﴿مُنَٰفِقُونَ﴾، أي: يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: ومن أهل المدينة الذين أسلموا منافقون ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ لأنه تأصل فيهم منذ دخل الإسلام المدينة، ومعنى.

﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، أي: مرنوا فيه، ودربوا عليه، واستمروا ومهروا فيه، ومنه قوله تعالى في وصف الشيطان: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ [الصافات:٧].

وقوله: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ يجوز أن يكون مستأنفًا، وأن يكون نعتًا لـ«منافقون».

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: لا تعلمهم أنت بأعيانهم، فتعاقبهم أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، وذلك لشدة تمردهم وخبثهم وإظهارهم ما لا يبطنون.

قال ابن كثير(١): «وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ الآية [محمد:٣٠] لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب

(١) في «تفسيره» (٤/ ١٤٢).

على التعيين، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقًا، وإن كان يراه صباحًا ومساءً».

﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ في هذا وعيد وتهديد لهم؛ ولهذا أتبعه بقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، أي: سنضاعف العذاب عليهم ونكرره، ونغلظه عليهم في الدنيا بما ينالهم من المصائب، ومن الهم والغم؛ بسبب نصر المسلمين والفتح لهم، وفي القبر بما ينالهم من عذاب القبر؛ من التضييق عليهم فيه، وعرضهم على النار؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦].

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، أي: ثم يرجعون إلى عذاب عظيم، وهو عذاب النار، وبئس القرار، ونكر «عذاب»: للتعظيم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

بين في الآيات السابقة حال المنافقين المتخلفين عن الجهاد رغبة عنه وتكذيبًا وشكًّا، ثم بين في هذه الآية حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلًا وميلًا إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق.

قال ابن كثير[1]: «قال ابن عباس وآخرون: نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن غزوة تبوك- قيل: خمسة، وقيل: سبعة، وقيل: تسعة-فلما رجع النبي ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا ألا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم النبي ﷺ، وعفا عنهم».

قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي: وقوم آخرون أقروا بذنوبهم بينهم وبين ربهم؛ من التخلف عن الجهاد، وغير ذلك، والاعتراف بالذنب توبة.

فالمعنى: اعترفوا بذنوبهم، أي: أقروا بها ولم ينكروها، وتابوا منها، ولم يكونوا كحال المنافقين؛ ولهذا قال: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أخلصوا فيه لله تعالى، واتبعوا شرعه

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ١٤٥).

وهدي نبيه ﷺ.

﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، أي: وعملًا آخر سيئًا، خالفوا فيه شرع الله تعالى وأمره؛ من التخلف عن الجهاد، وترك الإنفاق في سبيل الله، ونحو ذلك.

والمعنى: خلطوا السيئات بالحسنات، كما هو حالنا وحال كثير من المسلمين، خلطوا الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة؛ من ارتكاب بعض المنهيات، والتقصير في بعض الواجبات مع الاعتراف بذلك، ورجاء أن يغفر الله لهم.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ هذا وعد من الله تعالى أن يتوب عليهم، بأن يوفقهم للتوبة، ويقبلها منهم؛ لأن «عسى» من الله واجبة؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأن الله غفور رحيم، ذو مغفرة واسعة، يستر الذنب عن الخلق، ويتجاوز عن العقوبة عليه، وذو رحمة واسعة بعباده.

قال ابن كثير(٢): «وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين».

وعلى هذا يدل ما رواه سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لنا: **«أتاني الليلة آيتان فابتعثاني، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء. قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه. ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة. قالا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالا: أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا؛ تجاوز الله عنهم»**(٣).

قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾.

قوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ الأمر للنبي ﷺ ولولي أمر المسلمين من بعده،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» (٤/ ١٤٥).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة براءة (٤٦٧٤).

والأموال: كل ما يتمول ويملك. لكن المراد بها قوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ الأموال الزكوية التي تجب فيها الزكاة، وهي: النقدان، وعروض التجارة، والخارج من الأرض من الحبوب والثمار، والسائمة من بهيمة الأنعام.

والمراد بقوله: ﴿صَدَقَةٗ﴾ الزكاة المفروضة.

﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾، أي: من الذنوب، والبخل والشح، والأخلاق الرذيلة.

﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ الزكاء: النماء والزيادة، أي: تنمي وتزيد بها في أخلاقهم الحسنة، وفي أعمالهم الصالحة، وفي أموالهم، فيبارك لهم فيها، وفي ثوابهم الدنيوي والأخروي، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ [الأعلى:١٤-١٥] وقدم «تطهرهم» على «تزكيهم»؛ لأن التخلية قبل التحلية.

﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ الصلاة في اللغة: الدعاء، أي: ادع لهم بالمغفرة والقبول والبركة في أموالهم. وفي الحديث: «**إذا دعي أحدكم إلى الطعام فليجب، فإن كان صائمًا فليصل**»[(١)]، أي: فليدع.

وهكذا كان يفعل ﷺ، كما قال عبد الله بن أبي أوفى: «كان النبي ﷺ إذا أتي بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته، فقال: «**اللهم صل على آل أبي أوفى**»[(٢)].

﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿صَلَوٰتَكَ﴾ على الإفراد وفتح التاء، وقرأ الباقون: «صلواتك» بالجمع وكسر التاء.

﴿سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾، أي: رحمة وطمأنينة لهم، تسكن بها نفوسهم، وتطمئن إليها قلوبهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك سمع إجابة وقبول، وسميع لجميع الدعاء والأقوال والأصوات.

﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد وأعمالهم وبكل شيء وسيجازي كلًّا بعمله، وعلى قدر نيته.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٣١)، وأبو داود في الصوم (٢٤٦٠)، والترمذي في الصوم (٧٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: ألم يعلم هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم، والذين أمر ﷺ بأخذ الصدقة منهم وغيرهم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، أي: أن الله عز وجل؛ لسعة رحمته ومغفرته ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ التائبين من أيِّ ذنب كان، مهما كان؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

وفي الحديث: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح**»(١).

﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، أي: ويقبل الصدقات منهم بيمينه، ويربيها ويضاعفها لهم، ويثيبهم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦].

وقال ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل**»(٢).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ معطوف على ما قبله؛ للتأكيد وزيادة التقرير، و«التواب»: اسم من أسماء الله على وزن «فعّال» صيغة مبالغة، يدل على توبته على العبد مرات وكرات كثيرة، وعلى كثرة عدد من يتوب عليه من العباد. وتوبة الله على العبد قسمان: توفيقه للتوبة، وقبولها منه؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠)، ومسلم في الزكاة (١٠١٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٢٥)، والترمذي في الزكاة (٦٦١)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على أنه ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه.

ومن رحمته فَتَحَ باب التوبة، ووفق من شاء إلى التوبة، وقبلها منه.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾، أي: وقل لهؤلاء المنافقين والكفار: اعملوا ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم.

﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ بعرضكم عليه يوم القيامة وأعمالكم.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة:١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق:٩]، وقال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات:١٠] أي: أظهر ما فيها.

وفي الحديث في معنى الإحسان، قال ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: وسيرى عملكم رسوله ﷺ والمؤمنون؛ بفضحكم يوم القيامة بين الخلائق بأعمالكم.

ويحتمل أن المعنى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في الدنيا؛ لأن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وسيراه رسوله والمؤمنون؛ بإظهار الله لهم عليه؛ لأنهم بين ظهراني الرسول ﷺ والمؤمنين.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال «**لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب، ولا كوة؛ لخرج عمله للناس كائنًا من كان**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨).

وفي هذا وعيد لهم بالفضيحة في الدنيا قبل الآخرة، ولا منافاة بين المعنيين.

وفي الآية مع الوعيد ما يشعر بالوعد لمن أحسن العمل؛ ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «إذا أعجبك حسن عمل امرئ فقل: ﴿ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾»(١).

﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾، أي: وسترجعون ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: عالم كل ما كان غائبًا، وكل ما كان مشاهدًا.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل وستردون إليه؛ للتنبيه إلى إحاطة علمه بالغيب والشهادة، وأنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وفي هذا وعد ووعيد.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، أي: فيخبركم بالذي كنتم تعملونه، أو بعملكم، ويحاسبكم ويجازيكم عليه، خيرًا كان أو شرًا.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦﴾.

قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وأبو جعفر وخلف: ﴿مُرۡجَوۡنَ﴾ بسكون الواو بدون همزة، وقرأ الباقون: «مرجؤون» بهمز بعد الجيم.

ومعنى ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، أي: وقوم آخرون، أو وأناس آخرون.

﴿مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، أي: مؤخرون ومؤجلون ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، أي: لحكمه الكوني، لم تنزل توبتهم أو وعدهم بالتوبة، كما نزلت توبة الذين قال الله فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة:١٠٢].

ولم يقبل ﷺ عذرهم كما قبله ممن حلفوا له من المنافقين، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ [التوبة:٤٢].

والمراد بهؤلاء الذي ارجئوا: الثلاثة الذين خلفوا، وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. وسيأتي ذكر تفصيل قصتهم في الكلام على قوله تعالى:

---

(١) ذكره البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة:١١٨].

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ بيان لقوله: ﴿مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، أي: مؤخرون لأمر الله وحكمه، وإما التوبة عليهم، أي: هم تحت مشيئة الله؛ إن شاء عذبهم، وإن شاء تاب عليهم، ورحمته سبحانه تغلب غضبه؛ ولهذا تاب عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: عليم بمن يستحق العذاب والعقوبة ممن يستحق التوبة والعفو ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع وقدر، وخلق ودبر، وفي كل شيء.

الفوائد والأحكام:

١- التنويه بشأن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار إلى الإيمان والجهاد، والثناء عليهم، وعلى الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة، وبشارتهم برضا الله تعالى عنهم، ورضاهم عنه وما أعد لهم من الجنات، وما فيها من النعيم المقيم والفوز العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

٢- فضيلة المهاجرين؛ لأن الله قدمهم على الأنصار.

٣- فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على من جاء بعدهم.

٤- الترغيب في اتباع المهاجرين والأنصار، والثناء على من اتبعهم بإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾.

٥- أن من شرط اتباع السلف من المهاجرين والأنصار الإحسان بالإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾.

٦- الرد على الرافضة- أخزاهم الله- الذين يطعنون في صحابة رسول الله ﷺ ويبغضونهم ويكفرونهم.

قال ابن تيمية[١]: «هم أضل الناس في المنقولات، وأجهلهم في المعقولات. قال عامر الشعبي رحمه الله: «إذا دخلت حيًّا من أحياء الرافضة، فقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث»، وقال أيضًا: «والله الذي لا إله إلا هو، لولا أني على وضوء وأخشى أن ينتقض وضوئي، لأخبرتكم ببعض كلام الرافضة»، وقال: «قاتل الله الرافضة، لو كانوا من الطيور لكانوا رخمًا، ولو كانوا من الوحوش لكانوا حُمُرًا؛ سخطوا على أصحاب محمد ﷺ وقد عدلهم الله ورضي عنهم، وتبرؤوا من الصادقة الصديقة بنت الصديق وقد زكاها الله وعدلها، واتهموا الصحابة وقد زكاهم الله وكفل أقوالهم في أكثر من موضع، وخرجوا على جماعة المسلمين، وسلوا سيف البغي والعدوان، وحقدوا وحسدوا».

وقد أحسن القحطاني رحمه الله حين قال في وصفهم والتحذير منهم[٢]:

لا تعتقد دين الروافض إنهم ... أهل المحال وحزبة الشيطان

إن الروافض شر من وطئ الحصا ... من كل إنس ناطق أو جان

مدحوا النبي وخونوا أصحابه ... ورموهم بالظلم والعدوان

حبوا قرابته وسبوا صحبه ... جدلان عند الله منتقضان

فكأنما آل النبي وصحبه ... روح يضم جميعها جسدان

٧- إثبات صفة الرضا لله تعالى، وهي من الصفات الاختيارية المرتبطة بالمشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾.

٨- أن من نعيم أهل الجنة تمام رضاهم عما أعد لهم من النعيم؛ ولهذا لا أحد منهم يرى أن في الجنة من هو أفضل وأعلى نعيمًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾.

٩- إثبات وجود الجنة، وأنها معدة ومهيأة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ١/ ٢٨، ٤/ ٤٧٢. وانظر: «السنة» للخلال ١/ ٤٩٧، «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» ٦/ ٣٩٣، «السنة» لعبدالله بن الإمام أحمد ٢/ ٥٤٨.

(٢) «نونية القحطاني» ص٢٢.

تَجۡـرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

١٠- أن من أعظم نعيم الجنات ما فيها من الأنهار الجارية تحت أشجارها وقصورها وغرفها؛ لقوله تعالى: ﴿تَجۡـرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

١١- خلود أهل الجنات فيها خلودًا أبديًّا؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾.

١٢- أن الفوز برضا الله عز وجل، ودخول الجنات، والتمتع بما فيها من النعيم والخلود الأبدي؛ هو الفوز العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

١٣- الإخبار بأن ممن حول المدينة من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة منافقون كذلك، مردوا على النفاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾.

١٤- أن النبي ﷺ لا يعلم المنافقين على التعيين؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡ﴾.

وهذا لا يمنع أن يكون يعرف بعضًا منهم بعلاماتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾.

ولهذا ورد أن الرسول ﷺ أعلم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه صاحب سر رسول الله ﷺ بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقًا(١).

قال قتادة: «ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثني عشر رجلًا من المنافقين، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان إذا مات رجل ممن يَرَى أنه منهم نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه صلى عليه، وإلا تركه، وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة: «أنشدك بالله أمنهم أنا؟ قال: لا والله، ولا أؤمِّن منها أحدًا بعدك»(٢).

١٥- علم الله تعالى بالمنافقين، وما تنطوي عليه قلوبهم من النفاق؛ لقوله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ﴾.

١٦- تهديد المنافقين، ووعيدهم بمضاعفة العذاب عليهم في الدنيا بما يصيبهم من

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٢٢، ١٤٣).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٦٤٧)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٤٤).

المصائب والهم والغم؛ بسبب نصر المسلمين، وغير ذلك، وفي القبر من تغليظ عذاب القبر عليهم وتضعيفه؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾.

١٧- وعيد المنافقين؛ بردهم في الآخرة إلى عذاب عظيم، وهو عذاب النار وبئس القرار؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

١٨- أن من بين المسلمين قوم اعترفوا بذنوبهم، ليسوا بمنافقين؛ ولكنهم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وهم موعودون بتوبة الله تعالى عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

١٩- إثبات صفة المغفرة والرحمة الواسعتين لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٠- وجوب الزكاة في الأموال الزكوية، وأمره عز وجل للنبي ﷺ بأخذها من أموال المسلمين، وهو أمر له ﷺ ولولاة أمور المسلمين من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ ولهذا لما منع أقوام الزكاة بعد وفاة رسول الله ﷺ، واحتجوا بقوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾.

قائلين: لا ندفعها إلا لمن كانت صلاته سكنًا لنا- وهو النبي ﷺ- أما بعده فلا ندفعها لأحد. وقد أنكر عليهم هذا التأويل الفاسد أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وسائر الصحابة رضي الله عنهم، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق رضي الله عنه: «والله لو منعوني عقالًا- وفي رواية: عناقًا- يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه»(١).

٢١- أن الزكاة طهرة وزكاء للمزكين ولأموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.

٢٢- أمر الله عز وجل له ﷺ بالدعاء لأهل الأموال عند أخذ الزكاة منهم، وهكذا يشرع لمن يتولى أخذ الزكاة من ولاة الأمر من بعده، أن يدعو لأهل الأموال بالقبول

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٠)، وفي الاعتصام (٧٢٨٥)، ومسلم في الإيمان، الأمر بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله محمد رسول الله (٢٠)، وأبو داود في الزكاة (١٥٥٦)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٣)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٤٥).

والبركة في أعمالهم وأخلاقهم وأموالهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾.

٢٣- أن صلاته ﷺ ودعاءه لأصحاب الأموال سكن لهم، تسكن له نفوسهم، وتطمئن به قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، كما أن الدعاء لأصحاب الأموال- حتى من ولي الأمر الذي يأخذها بعد رسول الله ﷺ، أو من غيره من المؤمنين- له أثره عليهم.

٢٤- إثبات صفة السمع الواسع لله عز وجل، وأنه سميع لجميع الدعاء؛ سمع إجابة وقبول، ولجميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾.

٢٥- إثبات صفة العلم الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٢٦- إثبات وتقرير قبول الله التوبة عن عباده، وقبوله الصدقات؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

٢٧- إثبات اسم الله تعالى: «التواب» وما يدل عليه من إثبات صفة التوبة الواسعة، وكثرة من يتوب عليهم، وتوبته عليهم مرات وكرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾.

٢٨- إثبات اسم الله تعالى «الرحيم»، وأنه ذو الرحمة الواسعة، التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٩- الترغيب في التوبة والصدقة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٣٠- الوعيد والتهديد للمنافقين والكفار بأن الله سيرى ما هم عاملون، وسيردون إلى عالم الغيب والشهادة، فيخبرهم بعملهم، ويحاسبهم ويجازيهم عليه، وسيظهره لرسوله ﷺ والمؤمنين في الدنيا والآخرة، ويفضحهم به بين الخلائق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٣١- إثبات المعاد وحساب الخلائق، ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٣٢- أن ممن تخلفوا عن غزوة تبوك واعتذروا أناس أرجئوا لأمر الله وحكمه فيهم؛ إما

يعذبهم، أو يتوب عليهم، وهم الثلاثة الذين خلفوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ وقد تاب الله عليهم بعد ذلك.

٣٣- إثبات صفة الحكم التام لله تعالى، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾ فله عز وجل الحكم والحكمة في تعذيب من شاء، والتوبة على من يشاء.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)﴾.

سبب النزول:

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدًا، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتٍ بجند، وأخرج محمدًا وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

قال ابن كثير: «كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: «أبو عامر الراهب» وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٦٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٨، ١٨٨١).

الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم الرسول ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر؛ شرق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش، فألبهم على حرب رسول الله ﷺ في أحد، وشهدها معهم، وكان الرسول ﷺ قد دعاه قبل فراره، وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا، فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر النبي ﷺ في ارتفاع وظهور؛ ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومنّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب، يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصدًا إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروجه ﷺ لتبوك، وطلبوا منه أن يصلي فيه، فقال: «**إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**» فلما قفَل راجعًا وقرب من المدينة نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضرار، فبعث إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة»(١).

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: «الذين» بغير واو، وقرأ الباقون ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ بالواو عاطفة.

أي: والذين جعلوا مسجدًا ضرارًا، وهم جماعة من المنافقين؛ من بني غنم بن عوف، وبني سالم بن عوف من أهل العوالي ﴿ضِرَارٗا﴾ مفعول لأجله، أي: لأجل المضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه، وهو مسجد قباء ﴿وَكُفۡرٗا﴾ معطوف هو وما بعده على «ضرارًا» أي: ولأجل الكفر بالله.

﴿وَتَفۡرِيقَۢا﴾، أي: ولأجل التفريق بين المؤمنين؛ ليتشعبوا ويختلفوا ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾، أي: ولأجل الإرصاد، أي: تهيئة، وإعدادًا، وإعانة، وانتصارًا.

﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾، «من»: موصولة، أي: للذي حارب الله

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٤٨-١٤٩).

ورسوله ﴿مِن قَبۡلُ﴾، أي: فيما سبق، ومن قبل بناء هذا المسجد.

والمراد به أبو عامر الراهب؛ لأنه ألَّب المشركين في أحد، وشارك معهم، كما حارب مع الأحزاب، ومع ثقيف وهوازن.

﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر و«إن»: نافية، أي: ما أردنا إلا الحسنى، أي: ما قصدنا في بنائنا هذا المسجد إلا الإحسان والخير والرفق بالناس، الضعفاء منهم، وأهل العلة في الليلة الشاتية.

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، أي: في حلفهم وقولهم: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، واللام للتوكيد.

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾، أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضرارًا أبدًا.

فالمراد بالقيام: الصلاة؛ لأن أولها، وأعظم أركانها القيام، وفيه قراءة القرآن وهذا النهي نهي له ﷺ ولأمته.

﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾، اللام: للتوكيد، أي: لمسجد ابتدئ أساسه وقواعده وأصله على تقوى الله وطاعته، والإخلاص له، ولإقامة ذكره وشعائر دينه من أول يوم أسس.

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾، أي: أجدر وأولى أن تصلي فيه، وتتعبد، وتذكر الله تعالى فيه. والمراد به: مسجد قباء، أسسه ﷺ وبناه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف.

ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة في مسجد قباء كعمرة**»[(١)]. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكبًا وماشيًا، ويصلي فيه ركعتين[(٢)].

﴿فِيهِ﴾ الضمير يعود إلى المسجد الذي أسس على التقوى، والذي هو أحق بالقيام والصلاة فيه، وهو مسجد قباء؛ لأن السياق فيه.

---

(١) أخرجه الترمذي في الصلاة (٣٢٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، ما جاء في الصلاة في مسجد قباء (١٤١١) من حديث أسيد بن ظُهير الأنصاري. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٩٤)، ومسلم في الحج، فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه (١٣٩٩)، وأبو داود في المناسك (٢٠٤٠)، والنسائي في المساجد (٦٩٨)، وأحمد (٢/ ٤٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«يحبون» أي: رجال يحبون التطهر، أي: يحبون الطهارة من الذنوب والنجاسات والأحداث، ونكّر «رجال»؛ لتأكيد الثناء عليهم.

وإنما أثنى الله على أهل قباء في محبتهم التطهر؛ لأنهم كانوا يستنجون بالماء، أي: يتبعون الاستجمار بالحجارة الاستنجاء بالماء؛ حرصًا منهم على تمام الطهارة وكمالها، وهذا مروي عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم؛ ابن عباس، وأبو هريرة، وعويم بن ساعدة الأنصاري، وخزيمة بن ثابت وغيرهم، وعن جمع من التابعين(١).

وروي أيضًا أن المراد بقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ مسجد رسول الله ﷺ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل عن المراد من المسجد الذي أسس على التقوى في هذه الآية، فقال: «**هو مسجدكم هذا**».

يعني: المسجد النبوي بالمدينة(٢).

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء. فأتيا النبي ﷺ فسألاه، فقال: «**هو مسجدي هذا**»(٣).

وبهذا قال جمع من الصحابة والتابعين؛ منهم عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم، وسعيد بن المسيب، واختاره الطبري(٤).

قال ابن كثير(٥): «وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٣٩٨)، والنسائي في المساجد (٦٩٧)، والترمذي في تفسير سورة التوبة (٣٠٩٩)، وأحمد (٣/ ٧، ٢٣).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١). وأخرج أحمد أيضًا (٥/ ١١٦) عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا».

(٤) انظر «جامع البيان» (١١/ ٦٨١-٦٨٨)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٨٨١-١٨٨٢)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٥٠-١٥٢).

(٥) في «تفسيره» (٤/ ١٥٢).

في جوف المدينة هو الذي أسس على التقوى»؛ قال ابن كثير: «وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى».

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾، أي: المتطهرين معنويًّا من الشرك والذنوب والمعاصي، وحسيًّا من الأوساخ والنجاسات والأحداث.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

نهى الله عز وجل النبي ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار، ورغبه في الصلاة في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، ثم أتبع ذلك ببيان أنه لا وجه للمفاضلة بين مسجد أسس على تقوى من الله ورضوان، ومسجد أسس على شفا جرف هار، فشتان بين المسجدين، والغرض من هذا زيادة وتأكيد أحقية المسجد المؤسس على التقوى بالصلاة فيه.

قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾.

قرأ نافع وابن عامر: «أُسِّس» بضم الهمزة وكسر السين، وضم نون «بنيانُه» على البناء للمفعول في الموضعين، وقرأ الباقون: ﴿أَسَّسَ﴾ بفتح الهمزة وفتح السين، ونصب نون ﴿بُنْيَٰنَهُۥ﴾ على أنه مفعول ﴿أَسَّسَ﴾.

والاستفهام في قوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ تقريري، و«من» اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ، و«التأسيس» بناء الأساس والقواعد التي يقوم عليها البنيان.

﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾، أي: على نية صالحة، وإخلاص لله تعالى، وتقواه، وطلب رضاه ﴿خَيْرٌ﴾ خبر المبتدأ «من»، أي: أفضل؛ لأنه راسخ ثابت موصل إلى الجنة؛ لمقابلته بقوله: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، «أم»: حرف عطف، و«من»: موصولة، أي: أم الذي أسس بنيانه ﴿عَلَىٰ شَفَا﴾ «الشفا»: حرف البئر، وحرف الحفرة.

﴿جُرُفٍ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر عن عاصم وخلف بسكون الراء: «جُرْف»

وقرأ الباقون بضمها: ﴿جُرُفٍ﴾، والجرف: جانب الوادي، وجانب الهوة. ﴿هَارٍ﴾ متصدع، متداع، غير ثابت؛ لأنه بُني على مقصد سيئ.

﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾، أي: فانهار بصاحبه، أي: أفضى به إلى نار جهنم.

والمعنى: أن من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان فهو خير وأفضل؛ لرسوخه وثباته وإيصاله إلى الجنة، بخلاف من أسس بنيانه على شفا جرف هار، متصدع متداع، ومفض بصاحبه إلى النار.

والمفاضلة قد تكون بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل؛ كما قال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان:٢٤] أي: خير يومئذ مستقرًّا، وأحسن مقيلًا من أهل النار، ومعلوم أن النار لا خير فيها ولا حسن البتة، بل هي شر محض.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: لا يوفق القوم الظالمين بكفرهم ونفاقهم، ومضارتهم للمؤمنين، وسعيهم بالتفريق بينهم، وانتصارًا لمن حارب الله تعالى ورسوله.

قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾، أي: سيورثهم بنيانهم الذي بنوا، ويدوم ﴿رِيبَةً﴾، أي: شكًّا ونفاقًا ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: ثابتًا في قلوبهم، أُشربوه في قلوبهم، كما أُشرب عبدة العجل حب العجل في قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣].

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قرأ يعقوب: «إلى» بتخفيف اللام، فجعله حرف جر، وقرأ الباقون بتشديده على أنه حرف استثناء: ﴿إِلَّآ﴾.

وقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب وحمزة وحفص بفتح التاء: ﴿تَقَطَّعَ﴾، وأصلها: «تتقطع» بتاءين، فحذفت إحداهما تخفيفًا.

وقرأ الباقون بضمها: «تُقَطَّع» مضارع «قطَّع» بالتشديد.

أي: إلا أن تقطع قلوبهم بالموت والفوت والندامة على ذلك، أي: أن فعلهم

وبناءهم لما كان لغرض فاسد كان سببًا لبقاء الريب والنفاق في قلوبهم، ما دامت قلوبهم في أجسادهم؛ لتمكنه منها.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: واسع العلم بجميع الأشياء من أعمال العباد؛ خفيها وجليها، ظاهرها وباطنها، سرها وعلانيتها، وغير ذلك.

﴿حَكِيمٌ﴾ له الحكم التام والحكمة البالغة في قدره وشرعه وجزائه، وفي كل شيء.

الفوائد والأحكام:

١- فضيحة المنافقين الذين اتخذوا مسجدًا للمضارة والكفر، والتفريق بين المؤمنين، ومناصرة من حارب الله ورسوله من قبل، وذمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

٢- أن بناء مسجد لغير الله، بل للمضارة، والتفريق بين المؤمنين، ونصرة من حارب الله ورسوله يعد كفرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُفْرًا﴾.

وهكذا كل عمل فيه مضارة للمؤمنين، وتفريق بينهم، ومناصرة لمن عادى الله ورسوله؛ فهو محرم ممنوع.

٣- حلف المنافقين كذبًا أنهم ما أرادوا ببناء هذا المسجد إلا الحسنى وعمل الخير؛ كما هو ديدنهم الحلف بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

٤- تفنيد قولهم، وتكذيب حلفهم بشهادة الله تعالى بكذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

٥- نهي النبي ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار، وهو نهي له وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

٦- النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها وعن قربها، وأن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار فنُهِي عن القيام فيه.

٧- وجوب الحذر من اتخاذ مسجد لقصد الضرار؛ فإن هذا أمر محرم لا يجوز، فإن من الناس من يعمد إلى هذا المسلك إذا وقع بينه وبين الإمام والمؤذن، أو بينه وبين جماعة المسجد اختلاف.

ولقد ذكر لي أحد الإخوة الثقات رحمه الله أنه كان عنده مبلغ من المال لبعض المحسنين، أودعه عنده ليجعله في بناء مسجد، قال: فجاء إليَّ رجل، وذكر أنه بصدد بناء مسجد، وألح عليّ مرات وكرات حتى أعطيته ذلك المبلغ وبعد فترة صليت في مسجد في أحد الأحياء، فلما خرجت من المسجد، وإذا مقابل محرابه مسجد آخر، فسألت عنه فقيل لي: إن فلانًا حصل بينه وبيننا اختلاف فبنى هذا المسجد، وذكروا لي ذلك الرجل الذي أخذ مني المبلغ.

وهذا جمع بين محظورين: الأول أنه بنى هذا المسجد بقصد الضرار بالمسجد الأول وجماعته؛ حيث بناه بجواره، ولا حاجة له، والواجب على الجهات المسؤولة في البلاد الإسلامية منع مثل هذا، والمحظور الثاني: تغريره بالمحسنين بأخذ الأموال منهم لهذا الغرض السيئ.

٨- لا يجوز بناء مسجد بهدف تفريق جماعة المسجد، كما لا يجوز القيام بأي عمل من شأنه التفريق بين المسلمين، ويجب العمل على ما فيه جمعهم.

٩- الإشارة إلى ما ذكره المفسرون في تفسير الآية، من محاربة «أبو عامر الراهب» لله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

١٠- أن الأولى بالقيام والصلاة فيه المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم مسجد قباء، والمسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾.

١١- أن الطاعة تؤثر في البقاع؛ ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما كان، وكان ﷺ يزوره كل سبت، ويصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.

١٢- فضل الصلاة في المساجد القديمة العريقة المؤسسة على تقوى الله والإخلاص له.

١٣- الثناء على أهل مسجد قباء، وامتداحهم برجولتهم، ومحبتهم للتطهر؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ وفي هذا تعريض بأن أهل مسجد الضرار ليسوا كذلك.

١٤- محبة الله تعالى للمتطهرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ ومفهوم هذا عدم محبته لغير المتطهرين.

١٥- إثبات صفة المحبة لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته.

١٦- الترغيب في التطهر، والحث عليه، تطهرًا معنويًّا من الشرك والمعاصي، وتطهرًا حسيًّا من الأدران والنجاسات والأحداث؛ لأن الله أثنى على أهل قباء بذلك، وذكر أنه يحب المطهرين.

١٧- شتان بين مسجد أو عمل أسس وبني على تقوى الله، والإخلاص له، وطلب رضوانه، وبين مسجد أو عمل أسس وبني على مقصد سيئ.

فالأول خير وأفضل؛ لأنه بني على أساس ثابت سليم، مفض بصاحبه إلى جنات النعيم.

والثاني شر محض؛ لأنه بني على شفا جرف هار، ومفض بصاحبه إلى نار الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾.

١٨- أن الأعمال بالنيات، فالعمل وإن كان فاضلًا قد تغيره النية، فيكون منهيًّا عنه.

١٩- حرمان الظالمين بالنفاق والكفر، والمضارة للمؤمنين، والعمل على التفريق بينهم، والانتصار لمن حارب الله ورسوله؛ من هداية الله وتوفيقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

٢٠- عقوبة هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار، بدوام بنيانهم الذي بنوا، ريبة وشكًّا ونفاقًا في قلوبهم؛ بالموت وهم عليه، والندامة على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾.

٢١- أن المعصية سبب للمعصية بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ وقوله: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية.

٢٢- إثبات صفة العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

هذا خبر ووعد من الله تعالى مؤكد محقق، بأنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، فهو سبحانه المشتري، والمؤمنون هم البائعون، والمثمن أنفسهم وأموالهم، والثمن والعوض هو الجنة، وما فيها من ألوان النعيم، التي هي أجل عوض وأعظمه وأغلاه؛ كما قال ﷺ: «**ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»(١).

قال ابن القيم(٢):

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَسْتِ رَخِيصَةً ... بَلْ أَنْتِ غَالِيَةٌ عَلَى الكَسْلَانِ

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلا واحد لا اثنان

واللام في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ للاستحقاق والتمليك.

وفي هذا ما لا يخفى من الترغيب في الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأموال، كما أن فيه تنويهًا بالمؤمنين الذين خرجوا لغزوة تبوك في جيش العسرة.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) في النونية (ص٢٤٨).

وهذه هي الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي قدم فيها ذكر الأنفس على الأموال في الجهاد، ولعل من الحكمة في هذا- والله أعلم- التنبيه على شرف الأنفس على الأموال، وبخاصة أنفس المؤمنين.

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيان وتفسير لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾، أي: يقاتلون في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «فيُقتلون ويَقتلون» بضم الياء من الأول وفتحها من الثاني، وقرأ الباقون بالعكس: ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ بفتح الأول وضم الثاني.

أي: سواء قَتلوا أو قُتلوا، أو حصل لهم هذا وهذا؛ فقد وجبت لهم الجنة، قال ﷺ: «**تكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي؛ بأن توفاه الله أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة**»(١).

﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾، «وعدًا»: مفعول مطلق، ﴿عَلَيۡهِ﴾، أي: على الله تعالى، ﴿حَقّٗا﴾ صفة لـ«وعدًا»، أي: وعد به عباده المؤمنين، وأوجبه، وأحقه لهم على نفسه.

﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ متعلق بمحذوف صفة لـ«وعدًا» أي: وعدًا مكتوبًا في التوراة والإنجيل والقرآن، أشرف كتب الله وأعظمها، والتي أنزلها على أفضل رسله، موسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم.

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾، الاستفهام: بمعنى النفي، أي: ولا أحد أوفى بعهده من الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء:١٢٢].

وأظهر مقام الإضمار في قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ للتعظيم والاهتمام.

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٢٣)، ومسلم في الإمارة، فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٨٧٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ﴾، أي: أظهروا البشر والسرور بهذا البيع.

والخطاب للمؤمنين، وهو عام لكل من قام بمقتضى هذا العقد، أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد، ووفى بهذا العهد؛ بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

﴿ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾، أي: الذي عاوضتم به.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، الإشارة: إلى البيع، أي: وذلك البيع والعقد هو الفوز، أي: الفلاح العظيم الذي لا يقدر قدر عظمته إلا من وصفه بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى، وقد أكد وصفه بذلك بضمير الفصل «هو»، وبكون الجملة اسمية.

قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾.

ذكر عز وجل أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله، ثم أتبع ذلك بالثناء عليهم بذكر صفاتهم التي جعلتهم أهلًا للوفاء بهذا العقد.

قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف هو وما بعده، والتقدير: هم التائبون العابدون... إلخ. وهي أوصاف للمؤمنين في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وأصلها الجر، لكنها فصلت عن الوصفية، وجعلت أخبارًا؛ اهتمامًا بهذه النعوت والصفات.

ومعنى ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ الراجعون من الذنوب كلها، الملازمون للتوبة في جميع الأوقات.

﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾، أي: العابدون لله تعالى، القائمون بما أوجب الله عليهم من العبادات، المحافظون على الطاعات.

﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ لربهم؛ بالاعتراف بنعمه عليهم، وشكره عليها، واستعمالها في طاعته.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ تطلق السياحة على الصيام، وجمهور السلف على أن المراد بـ«السائحون» هنا: الصائمون.

كما تطلق السياحة على السفر في القربات؛ كالجهاد، والهجرة، والحج، والعمرة،

وطلب العلم، وصلة الأقارب، وغير ذلك.

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى**»(١).

والسياحة في الآية تشمل كل ما ذكر، بل وتشمل سياحة القلب واللسان والجوارح في ذكر الله تعالى، ومحبته، والثناء عليه، والإنابة إليه، والشوق إلى لقائه وطاعته.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾، أي: المصلون، المكثرون من الركوع والسجود؛ لأن الركوع والسجود من أعظم أركان الصلاة.

﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، المعروف: ما عرف في الشرع، والمنكر: ما أنكره الشرع، أي: الآمرون بما أمر به الشرع، والناهون عما نهى عنه الشرع، فقاموا بعبادة الحق، ونصح الخلق.

﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ صفة جامعة للعمل بكل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه؛ ولهذا ختمت بها هذه الأوصاف.

والمعنى: والملازمون للعمل بما أمر الله تعالى به؛ استجابة لقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا**﴾ [البقرة:٢٢٩] ولترك ما نهى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾ [البقرة:١٨٧].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، البشارة: الإخبار بما يسر، مأخوذة من البشرة؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره اتسعت بشرة وجهه واستنار، كما قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «وكان- يعني: النبي ﷺ- إذا سر استنار وجهه، كأنه قطعة قمر»(٢).

ولم يذكر المُبَشّر به في الآية؛ ليذهب الذهن في تصور عظمته كل مذهب، وأنه مما لا يحيط به الوصف؛ كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» قال ﷺ: «**اقرؤوا إن شئتم:**

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٤٨٦)، وأحمد (٣/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٢٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩).

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة:١٧]» (١).

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله تعالى المؤمنين المقاتلين في سبيله وعدًا محققًا، وإخبارهم خبرًا مؤكدًا بأنه عز وجل اشترى منهم أنفسهم وأموالهم؛ بأن لهم الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

٢- عظم هذا العقد الذي عقده الله تعالى مع المؤمنين المجاهدين، فإن الله تعالى أكده بـ«إن»، وأضافه إلى نفسه الشريفة، وجعله بصيغة الماضي الثابت المستقر، وجعل شرطه غاليًا، وهو بذل النفس والمال، وجعل عوضه أغلى عوض، وهو الجنة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾.

وأكده عز وجل، وأوجبه على نفسه، وأحقه في أفضل كتبه، فقال تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ والتزم بالوفاء به، وبشر به، وأبان بأنه الفوز العظيم، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

٣- أن سلعة الله تعالى الجنة غالية، لا تنال إلا بالتضحية والجهاد، وبذل ما يستطيع الإنسان من جهد بنفسه وماله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾.

٤- أن القتال المعتبر في الإسلام ما كان في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

٥- أن المقاتل في سبيل الله موعود بالجنة، سواء قَتَل أو قُتِل، أو حصل له الأمران؛

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة (٢٨٢٤)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لقوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

٦- تأكيد تحقيق هذا الوعد للمؤمنين، بذكر الله عز وجل له في أفضل كتبه؛ التوراة، والإنجيل، والقرآن الكريم.

٧- أنه لا أحد أوفى بعهده من الله؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٨- البشارة العظمى للمؤمنين بهذا البيع، وبيان وتأكيد أنه هو الفوز العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٩- الثناء على المؤمنين بذكر صفاتهم العظيمة، التي استحقوا بسببها إكرامهم بهذا العقد بالقتال في سبيل الله، والمعاوضة على ذلك بالجنة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾.

١٠- الحث على الاتصاف بهذه الصفات العظيمة، والترغيب فيها من التوبة والإنابة إلى الله تعالى، والقيام بعبادته، وحمده وشكره، والسياحة في طلب مرضاته بالصيام، والجهاد، والحج، والعمرة، وطلب العلم، وسياحة القلب واللسان والجوارح في ذكره عز وجل وطاعته، والإكثار من الصلاة والركوع والسجود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحفظ لحدود الله تعالى كلها عمومًا.

١١- أن من هذه الصفات التي امتدح الله بها المؤمنين، وأثنى عليهم بها ما يتعلق بإصلاح النفس بالتوبة، والعبادة، وحمد الله، والسياحة في طلب مرضاته، والصلاة، وحفظ حدود الله تعالى، وهذه جل الصفات المذكورة، ومنها ما يتعلق بالعمل على إصلاح المجتمع، بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله عز وجل، وذلك صمام سعادة الأمة، وسفينة نجاتها.

١٢- البشارة العظيمة للمؤمنين بهذا البيع والعقد العظيم الذي عوضه أعظم عوض وهو الجنة وما فيها من ألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾.

عن سعيد بن المسيب، عن أبيه رضي الله عنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «**أي عم، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل**». فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب. قال: فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطب. فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**». فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ قال: ونزلت فيه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾(١).

قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾؛ «ما»: نافية، واللام في قوله: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ لام الجحود والابتداء والتوكيد، ﴿أَن يَسْتَغْفِرُواْ﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان».

والمعنى: ما كان جائزًا للنبي والذين آمنوا الاستغفار للمشركين والكفار؛ لأن ذلك لا ينفعهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التوبة (٤٧٧٢)، ومسلم في الإيمان، أول الإيمان قول: لا إله إلا الله (٢٤)، والنسائي في الجنائز (٢٠٣٥)، وأحمد (٥/ ٥٣٣).

[التوبة:٨٠] .

وجاء النهي بصيغة النفي مبالغة في التنزه عن هذا الاستغفار.

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾، أي: ولو كان المستغفر لهم من المشركين أصحاب قرابة، فلا يجوز الاستغفار لهم، وفي هذا توكيد للنفي والنهي عن ذلك، فإذا كان لا يجوز الاستغفار للمشركين من أولي القربى، فمن عداهم من باب أولى.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: من بعد ما ظهر لهم أنهم من أصحاب الجحيم؛ بموتهم على الشرك والكفر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ .

لما بين أنه لا يجوز شرعًا الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولي قربى؛ أتبع ذلك ببيان السبب في استغفار إبراهيم لأبيه؛ حتى لا يُتخذ ذريعة للاستغفار للمشركين.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الجملة مستأنفة، أو معطوفة على قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٣] أي: وما كان طلب إبراهيم المغفرة لأبيه آزر؛ كما في قوله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٨٦].

﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾، «إلا»: أداة حصر، و«موعدة»: اسم للوعد، أي: إلا عن وعد وعده إبراهيم لأبيه أن يستغفر له؛ كما في قوله تعالى عنه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧] وقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة:٤].

وقيل: إن الوعد صادر من أبي إبراهيم، وليس من إبراهيم عليه السلام.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾، أي: فلما ظهر لإبراهيم أن أباه عدو لله؛ بموته على الشرك والكفر، أو بوحي الله تعالى لإبراهيم أن أباه سيموت على الكفر، ولن يتنفع بالوعظ والتذكير، أو بنهي الله تعالى له عن الاستغفار له ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أعلن البراءة منه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين

له أنه عدو لله تبرأ منه» وفي رواية: «لما مات تبين له أنه عدو لله»(١).

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ هذا ثناء على إبراهيم عليه السلام، ومعنى «أواه»: موقن، كثير الإنابة، رجاع إلى الله تعالى، كثير الضراعة والخشوع، والذكر والاستغفار، كثير الدعاء للناس والرحمة بهم.

﴿حَلِيمٌ﴾، أي: ذو حلم وعفو وصفح عما يصدر إليه من الزلات، فلا يستفزه جهل الجاهلين، بل يقابل الإساءة بالصفح والإحسان؛ لما قال له أبوه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم:٤٦] قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم:٤٧].

وصفة الحلم لا تنافي القوة في الحق كما قيل:

حَلِيمٌ إِذَا مَا الحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ ... مَعَ الحِلْم في عَيْنِ العُدَاةِ مَهِيبُ(٢)

وقال الآخر:

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْم إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ ... بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ ... حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرَا(٣)

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾، أي: وما كان الله ليكتب الضلال على قوم بعد إذ هداهم؛ بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم.

﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾؛ «ما» موصولة أو نكرة، أي: إلى غاية أن يبين لهم الذي يتقونه، أي: الأشياء التي يريد منهم أن يتقوها، أي: يجتنبوها، ويقيم الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧].

قال ابن القيم: «فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم فلم يقبلوا ما بينه لهم،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٢/ ٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٤، ١٨٩٥).

(٢) البيت لكعب بن سعد. انظر: «ديوان المعاني» (٢/ ١٧٨).

(٣) البيتان للنابغة الجعدي. انظر: «الشعر والشعراء» (١/ ٢٨٠).

ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدًا قط إلا بعد هذا البيان»(١).

قال السعدي(٢): «يعني: أن الله تعالى إذا منَّ على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الطريق المستقيم، فإنه تعالى يتم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه وتدعوا إليه ضروراتهم، فلا يتركهم ضالين جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية، بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال؛ جزاء لهم على ردهم الحق المبين. والأول أولى».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، «إن»: حرف توكيد، وفيها معنى التعليل، أي: لأنه بكل شيء عليم، أي: أن علمه عز وجل محيط بكل شيء.

وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بالخبر «عليم»، وقدم عليه؛ لتأكيد شمول علمه لكل شيء.

ومن كمال علمه عز وجل علّم عباده ما لم يكونوا يعلمون، وبين لهم ما ينبغي أن يتقوه؛ من الاستغفار للمشركين، وغير ذلك من المنهيات والمعاصي، ولا يضل قومًا حتى يبين لهم طريق المحجة، ويقيم عليهم الحجة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

تذييل فيه معنى التوكيد لما قبله.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، «إن»: كالتي قبلها للتوكيد، وفيها معنى التعليل، وقدم الخبر «له»؛ للدلالة على اختصاصه بذلك، أي: أن لله وحده ملك

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٨٠-٣٨١).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ٣٠٧).

السموات والأرض، خلقًا وملكًا، وتصريفًا وتدبيرًا؛ ولهذا قال بعده:

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ﴾، أي: يحيي من شاء، ويميت من شاء، أي: بيده الإحياء والإماتة.

وفي هذا تصوير لمعنى الملك في أتم مظاهره المحسوسة بين الناس، لا يستطيعون لذلك دفعًا ولا منعًا.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: سوى الله ﴿مِن وَلِيّٖ﴾ يتولاكم بجلب الخير لكم ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾ ينصركم بدفع الضر والشر عنكم، و«من»: لتأكيد العموم في النفي، أي: وما لكم غير الله من أيّ ولي، ولا أيّ نصير. وكرر النفي بذكر «لا» في قوله: ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾؛ للتوكيد.

الفوائد والأحكام:

١- عدم جواز الاستغفار للمشركين والكفار الذين ماتوا على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

٢- تأكيد تحريم الاستغفار للمشركين؛ بمجيء النهي بصيغة النفي بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مبالغة في التنزه عن هذا الاستغفار، وبقوله: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ لأنه إذا كان لا يجوز الاستغفار للمشرك القريب فالبعيد من باب أولى.

٣- أن للمؤمنين أسوة وقدوة بنبيهم ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٤- مشروعية الدعاء للمؤمنين عامة وللأقارب خاصة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾.

٥- خطر الشرك والكفر؛ لأنه يقطع الصلة والمودة بين الناس، بل بين الأقارب.

٦- جواز الدعاء للمشركين والكفار الأحياء بالهداية؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، أي: بموتهم على ذلك وقد قال ﷺ: «**اللهم اغفر**

لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»(١)، وقال ﷺ: «**اللهم اهد دوسًا، وأت بهم**»(٢) وقال ﷺ: «**اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك؛ بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب**». قال: وكان أحبهما إليه عمر (٣).

٧- أن مآل المشركين والكفار إلى النار، وهم أصحابها المخلدون فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٨- إثبات النار وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٩- الاحتراس ببيان سبب استغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك؛ لئلا يتخذ ذلك ذريعة للاستغفار للمشركين، ببيان أن إبراهيم عليه السلام إنما استغفر لأبيه؛ لأنه وعد أباه بذلك قبل أن يعلم أنه عدو لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

١٠- أن من حق الوالدين الاستغفار والدعاء لهما، ودعوتهما إلى الهدى، كما فعل إبراهيم عليه السلام.

١١- وجوب الوفاء بالوعد؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾.

١٢- أن المشرك عدو لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾.

١٣- وجوب البراءة من المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

١٤- فضيلة إبراهيم عليه السلام، وكونه قدوة في إخلاصه لله تعالى، وفي حرصه على هداية أبيه، ووفائه بوعده، وفي إعلانه البراءة من أبيه لما ظهر له أنه عدو لله بموته على الشرك، وفي إنابته إلى الله تعالى وحلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٧٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٢)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٦٨١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

١٤- الترغيب في الإنابة إلى الله تعالى وذكره وطاعته، وفي الحلم؛ لأن الله امتدح بذلك إبراهيم عليه السلام.

١٥- إقامة الله تعالى الحجة على الخلق وبيان الطريق المستقيم لهم؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيي من حيّ عن بينة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، فمن سلك طريق الخير يسره لليسرى، ومن سلك طريق الشر يسره للعسرى.

١٦- علم الله تعالى الواسع المحيط بكل شيء، ومن ذلك علمه بمن هو أهل للهداية، ومن هو أهل للإضلال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٧- سعة ملكه عز وجل، واختصاصه بملك السموات والأرض، وبالإحياء والإماتة، وأنه لا ولي لأحد من دونه ولانصير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، وفي هذا وعد ووعيد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

سبب النزول:

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، إلا في غزوة تبوك، غير أني تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاقَب أحدٌ تخلف عنها».

وذكر الحديث بطوله إلى أن قال: «فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إليَّ رجل فرسًا، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنوني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب: دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبد الله يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «**أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك**» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: «**لا، بل من عند الله**» وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله. قال رسول

الله ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**». قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر الله، أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وارجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه»(١).

قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ قرأ يعقوب برفع الراء: «والأنصارُ» على الاستئناف، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ عطفًا على المهاجرين.

واللام في قوله: ﴿ لَّقَد ﴾ لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد تاب الله على المهاجرين والأنصار، أي: وفقهم للتوبة.

و«المهاجرين»: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة مع رسول الله ﷺ حفاظًا على دينهم، ونصرة لله تعالى ورسوله، و«الأنصار»: هم أهل المدينة الذين آووا الرسول

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة تبوك (٣٩٥١)، ومسلم في التوبة، حديث كعب بن مالك وصاحبيه (٢٧٦٩)، والترمذي في تفسير سورة التوبة (٣١٠٢)، وأحمد (٣/ ٤٥٦-٤٥٩).

ﷺ وأصحابه، ونصروا دين الله.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾، أي: اتبعوا النبي ﷺ، وأطاعوه، وخرجوا معه لغزوة تبوك، ولم يخالفوه، ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾، أي: في ساعة زمن العسرة الشديدة، أي: في وقت استنفار الناس لغزوة تبوك في شدة الحر، وضيق الحال، وقلة الزاد والركاب والماء، وكان جيش العسرة أكثره من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ قرأ حمزة وحفص وخلف بالياء: ﴿يَزِيغُ﴾ على التذكير، وقرأ الباقون بالتاء: «تزيغ» على التأنيث.

أي: من بعد ما قارب أن ﴿يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: يميل قلوب جماعة منهم عن الحق؛ بالتثاقل والقعود، وعدم الخروج للغزو؛ بسبب المشقة وشدة العسرة، وميلًا إلى الدعة والسكون.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: على الفريق الذي كادت أن تزيغ قلوبهم.

ويحتمل أن يعود الضمير على المهاجرين والأنصار، فتكون الجملة تأكيدًا لقوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾.

والمعنى: ثم تاب عليهم؛ أي، وفقهم للتوبة، وثبتهم، وأيدهم، وقواهم ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل للجملة قبلها، أي: لأنه بهم جميعًا ﴿رَءُوفٌ﴾، أي: ذو رأفة عظيمة، والرأفة: شدة الرحمة، فهي أخص من الرحمة؛ ولهذا أتبع ذلك بقوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾ من ذكر العام بعد الخاص، أي: ذو رحمة بهم واسعة.

ومن رأفته ورحمته بهم أن وفقهم للتوبة، وقبلها منهم، وثبتهم، وحفظ قلوبهم من الزيغ والزلل.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾، أي: لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار، وتاب على الثلاثة

الذين خلفوا، والثلاثة الذين خلفوا هم: كعب بن مالك من بني سلمة، وهلال بن أمية الواقفي، ومرارة بن الربيع العمري، وكلهم من الأنصار رضي الله عنهم.

و«ال» في قوله: ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ للعهد الذهني؛ لأنهم كانوا معهودين معروفين بين الناس.

ومعنى ﴿خُلِّفُواْ﴾، أي: ارجئوا عن القضاء في حكمهم، فلم يعذرهم رسول الله ﷺ مع من عذر ممن حلفوا له كذبًا من المنافقين، فقبل علانيتهم، ووكل باطن أمرهم إلى الله تعالى.

وليس المراد أنهم خلفوا عن الغزو، قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل رسول الله توبتهم حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه»(١).

قال ابن القيم: «قد فسرها كعب بالصواب، وهو أنهم خلّفوا من بين من حلف لرسول الله ﷺ واعتذر من المتخلفين، فخلف هؤلاء الثلاثة عنهم وأرجأ أمرهم دونهم، وليس ذلك تخلفهم عن الغزو؛ لأنه لو أراد ذلك لقال: تخلفوا؛ كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]»(٢).

وقيل: المراد: الذين خلفهم الله عن التوبة، فأرجأهم عمن تاب عليهم ممن تخلف عن رسول الله ﷺ؛ كأبي لبابة، وأصحابه الذين نزل فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ «حتى»: للغاية، أي: إلى أن ضاقت عليهم الأرض؛ لما هم فيه من الحزن والقلق، والهم والغم على تخلفهم عن الجهاد، وإرجاء الرسول ﷺ أمرهم، إضافة إلى نهيه ﷺ الناس عن محادثتهم ومجالستهم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٨٢).

﴿بِمَا رَحُبَتۡ﴾، الباء: للملابسة، و«ما»: مصدرية ﴿رَحُبَتۡ﴾، أي: اتسعت

والمعنى: ضاقت عليهم الأرض مع رحبها وسعتها، أي: تخيلوها ضيقة، وهي رحبة واسعة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ [العنكبوت:٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ [الزمر:١٠].

﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾، أي: وضاقت قلوبهم وصدورهم؛ لفرط ما هم فيه من الحزن والغم والهم والجفوة.

وفي هذا ترق من ضيق الأرض إلى ضيق النفس، الذي هو في الحقيقة سبب ضيق الأرض قال الشاعر:

كَأَنَّ فِجَاجَ الأَرْضِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ ... عَلَى الخَائِفِ المَذْعُورِ كِفَّةُ حَابِلِ(١)

﴿وَظَنُّوٓاْ﴾، أي: وأيقنوا وعلموا، ﴿أَن لَّا مَلۡجَأَ﴾، أي: لا مفر، ولا مهرب، ولا محيص، ولا محيد.

﴿مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾، أي: إلا إليه وحده، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله وحده، وفروا منه تعالى إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [الذاريات:٥٠].

وقال ﷺ: «**وأعوذ بك منك**»(٢).

ومكثوا في هذه الشدة خمسين ليلة، حتى أنزل الله التوبة عليهم؛ كما في حديث كعب رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: وفقهم للتوبة، ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن يتوبوا، ويرجعوا إلى الله تعالى، فيقبل الله تعالى منهم، ويتوب عليهم؛ كما قال تعالى:

---

(١) البيت للطرماح. انظر: «التذكرة الحمدونية» (٥/ ٤٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ كثير التوبة على عباده يتوب على العبد مرات وكرات، ويتوب على الكثيرين من عباده، يوفق العبد للتوبة، ويقبلها منه.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة الواسعة لجميع خلقه، رحمة عامة، وبالمؤمنين رحمة خاصة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

ذكر عز وجل توبته على الثلاثة الذين خلفوا، ثم أمر المؤمنين بتقواه، وأن يكونوا مع الصادقين في إشارة إلى أن سبب توبة الله تعالى عليهم هو صدقهم، كما دل عليه حديث كعب رضي الله عنه.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: اصدقوا والزموا الصدق، وكونوا من جملة الصادقين في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين في مقدمتهم أصحاب رسول الله ﷺ؛ من المهاجرين، والأنصار، وغيرهم، فهم أئمة الصدق؛ وذلك لفضيلة الصدق، وعظيم أثره، وجزيل ثوابه وأجره، فبسببه خلّد الله ذكر توبته على الثلاثة الذين خلفوا في القرآن الكريم.

ولهذا قال كعب رضي الله عنه: «فوالله ما أعلم أحدًا أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وأنزل الله على رسوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (٦٠٩٤)، ومسلم في البر، قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (١٩٧١)، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٩)، وأحمد (١/ ٣٨٤).

الفوائد والأحكام:

١- التنويه بتوبته تعالى على النبي والمهاجرين والأنصار، وتوفيقه لهم، وعظيم منته عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾.

٢- عظم هذه التوبة، وشمولها لجميع الذنوب؛ لأن النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

٣- الثناء على المهاجرين والأنصار، وامتداحهم في اتباعهم النبي ﷺ في ساعة العسرة والضيق، وخروجهم معه لغزوة تبوك، وعدم مخالفتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾.

٤- أن الأجر على قدر المشقة، والمثوبة على قدر النصب والتعب؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ﴾ [الحديد:١٠].

٥- الامتنان عليهم بتداركه عز وجل لفريق منهم، ووقايتهم من زيغ القلوب، وميلها عن الحق- بإيثار القعود، وعدم الخروج للغزو، ومخالفته ﷺ- وتوبته عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾.

٦- تأكيد توبته عز وجل عليهم جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾.

٧- أن توفيق الله العبد للإيمان توبة من الله تعالى عليه، وأن كل إنسان مفتقر إلى توبة الله تعالى عليه، حتى الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد:٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر:٣].

وقال ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله تعالى في اليوم والليلة مائة مرة**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، استحباب الاستغفار والإكثار منه (٢٧٠٢)، وأبو داود في الصلاة، تفريع أبواب الوتر، باب في الاستغفار (١٥١٥)، وأحمد (٤/ ٢١١) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

٨- فضل التوبة، وعظم قدرها، وأنها غاية كمال المؤمن؛ لامتنان الله تعالى بها على خير خلقه نبينا محمد ﷺ، وعلى أصحابه؛ من المهاجرين، والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وعلى الثلاثة الذين خلفوا؛ لصدقهم رسول الله ﷺ؛ ولهذا جعل ﷺ توبة الله تعالى على كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه.

٩- رأفته عز وجل بالمهاجرين والأنصار، ورحمته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

١٠- إثبات صفتي الرأفة والرحمة الواسعتين لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

١١- إعلان توبته عز وجل على الثلاثة الذين خلفوا وارجئوا، فلم يعذرهم النبي ﷺ مع من عذر ممن حلفوا له كذبًا من المنافقين فقبل علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، ولا آيسهم من التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾.

١٢- شدة ما حصل لهؤلاء الثلاثة من الابتلاء؛ تمحيصًا لهم، فضاقت عليهم الأرض مع سعتها، وضاقت عليهم أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾.

١٣- أن الابتلاء بالشدائد والمحن فيه تمحيص للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾.

١٤- أنه لا ملجأ من الله، ولا مفر، ولا محيد إلا إليه عز وجل.

١٥- تأكيد توبته عز وجل على الثلاثة الذين خلفوا، وتوفيقه لهم ليتوبوا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾.

١٦- إثبات اسم الله «التواب»، وأنه ذو التوبة الواسعة، يتوب على العبد فيوفقه للتوبة، ويقبلها منه مرات وكرات، ويتوب على الكثيرين من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾.

١٧- إثبات اسم الله «الرحيم»، وأنه ذو الرحمة الواسعة؛ رحمة صفة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية، يوصلها إلى من شاء من خلقه، رحمة عامة وخاصة، وهي سبب توبته

على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٨- أن سبب توبة الله تعالى على هؤلاء الثلاثة هي صدقهم الرسول ﷺ؛ حيث أبانوا له أنه لا عذر لهم في تخلفهم عن الخروج معه إلى غزوة تبوك، كما جاء في حديث كعب رضي الله عنه؛ ولهذا أتبع الله ذكر توبته عليهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

١٩- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وامتثال الأمر بعده، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢٠- وجوب تقوى الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٢١- وجوب الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٢٢- أن الصدق منجاة لصاحبه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:١١٩]، وقال تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب:٢٤]. فكفى الصدق أن يكون سبباً للتوبة، ومن أخص صفات المؤمنين وهاديًا إلى الجنة.

٢٣- الحذر من الكذب؛ لأن عاقبته الهلاك في الدنيا والآخرة؛ لمفهوم قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وكفى الكذب أن يكون من أخص صفات المنافقين وهاديًا إلى النار.

٢٤- ينبغي عدم الاغترار بما يحصل عليه الذين يعيشون على الكذب والاحتيال، واللف والدوران، وعدم الوضوح من نفع زهيد في الظاهر يعقبه ضرر عظيم، فما أغنى عن المنافقين اعتذارهم كذبًا، وحلفهم عند رسول الله ﷺ؛ حيث أعقب ذلك أن فضحهم الله تعالى في القرآن الكريم، وتوعدهم بالعذاب الأليم، والسعيد من وعظ بغيره.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) ﴾.

لما ذكر عز وجل منته بالتوبة على المهاجرين والأنصار في اتباعهم النبي ﷺ، وخروجهم معه إلى غزوة تبوك، وأثنى عليهم؛ أتبع ذلك بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ﴾ الآيتين تأكيدًا للثناء عليهم، وتحريضًا على ملازمة الجهاد مع رسول الله ﷺ، وتعريضًا بالمتخلفين عن رسول الله ﷺ، وعتابًا لهم.

قوله: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ﴾.

«ما»: نافية، أي: ما كان لائقًا، بل ولا جائزًا شرعًا لأهل المدينة من المهاجرين والأنصار ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ الذين أسلموا، وحسن إسلامهم.

﴿أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم

كان مؤخر، أي: ما كان لهم التخلف عن رسول الله، وعدم الخروج معه إلى الجهاد.

﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ معطوف على ﴿يَتَخَلَّفُواْ﴾، أي: ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، أي: ولا رغبة بأنفسهم عن نفسه، بأن يؤثروا أنفسهم بالبقاء والسلامة دونه، بل الواجب الخروج معه، وعدم التخلف عنه، وأن يفدوه بأنفسهم، فهو أولى بهم من أنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى المفهوم مما سبق، وهو عدم رغبة أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب في التخلف عن رسول الله، وعدم رغبتهم بأنفسهم عن نفسه.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾، الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم، ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾، أي: عطش، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾، أي: تعب ومشقة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾، أي: مجاعة. والخمص: ضمور البطن بسبب الجوع.

وفي الحديث: «**تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»(١).

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: في سبيل إعلاء كلمة الله؛ كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٢).

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ معطوف على ﴿يُصِيبُهُمْ﴾.

أي: ولا يطؤون بأقدامهم وجيشهم موطئًا يغضب الكفار ويغمهم، من كونه في منزل ومكان يرهبهم ويخيفهم، أو من كونه على أرضهم وديارهم بعد الاستيلاء على أوطانهم.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولا يصيبون ﴿مِنْ عَدُوٍّ﴾ ونُكِّر؛ لإفادة العموم؛ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم.

﴿نَّيْلًا﴾، أي: ولا يصيبون من عدو نيلًا، أي: ظفرًا عليه، ونصرًا؛ من قتل أو

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

هزيمة أو أسر أو سبي أو غنيمة.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾، «إلا»: أداة حصر، والضمير في «به» يعود إلى قوله: ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ﴾، وما عطف عليه، أي: إلا كتب لهم بذلك المذكور من الظمأ، أو النصب، أو المخمصة، أو وطئهم موطئًا يغيظ الكفار، أو نيلهم من عدو نيلًا، أي: إلا كتب لهم بكل ذلك عمل صالح يثابون عليه ثوابًا جزيلًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأن الله لا يضيع أجر المحسنين، أي: لا يسقط، ولا يهدر ثواب المحسنين الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى، بالإخلاص له عز وجل، والمتابعة لنبيه ﷺ.

وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾.

قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ﴾، أي: ولا ينفقون نفقة قليلة ولا كثيرة. وبدأ بقوله: ﴿صَغِيرَةٗ﴾ ترغيبًا في النفقة مهما قلّت.

وقد كان لعثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية أوفر الحظ والنصيب؛ فعن عبد الرحمن بن خباب السلمي رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال ثم حث، فقال عثمان: علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مرقاة من المنبر، ثم حث فقال عثمان بن عفان: علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا يحركها: **ما على عثمان ما عمل بعد هذا**[1].

وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٧٥).

في ثوبه، حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبها في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده، ويقول: «**ما ضر ابن عفان ما فعل بعد اليوم**» يرددها مرارًا (١).

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾، أي: ولا يجتازون واديًا في مسيرهم للجهاد في سبيل الله تعالى. والوادي: هو المنفرج بين الجبال والآكام تمر منه السيول.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾، «إلا» أداة حصر، والتقدير: إلا كتب لهم عمل صالح؛ بدليل قوله فيما سبق: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾، وقوله بعد هذا: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فالمعنى: إلا كتب لهم عمل صالح يثابون عليه، ويجازون أحسن الجزاء. ولم يقل: «به» لأن هذه الأفعال صادرة عنهم.

قال ابن القيم: «فأخبر في الآية الأولى أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح، وأخبر في الثانية أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسها. والفرق بينهما: أن الأول ليس من فعلهم وإنما تولد عنه، فكتب لهم به عمل صالح، والثاني نفس أعمالهم فكتب لهم» (٢).

واللام في قوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ للتعليل، أي: لأجل أن يجزيهم الله، أي: يثيبهم ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: أحسن الذي كانوا يعملون، أو أحسن عملهم.

وأضيف الحسن إلى العمل؛ للتنبيه إلى أن الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن العمل أُحسن له الجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن:٦٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ هذا في مقابل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٦٣).

(٢) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٨٣).

﴿ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٢٠] ففي هذا تحريض على الجهاد، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ تحريض على العلم.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ معطوف على قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾.

والمعنى: وما كان المؤمنون ليخرجوا للجهاد جميعًا، وهو نفي بمعنى النهي، أي: لا ينبغي أن ينفر المؤمنون كافة، أي: جميعًا.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ يعني: ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا ويتركوا رسول الله ﷺ في المدينة وحده»(١).

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾، الفاء استئنافية، و«لولا» للتحضيض، أي: فهلا خرج ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾، أي: من كل فريق، أو قبيلة، ونحو ذلك.

﴿مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾، أي: جماعة وسرية تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يتفقهوا في الدين، أي: ليتفهموا ويتعلموا أحكام الدين، وما ينزل على النبي ﷺ من القرآن.

والفقه: العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، والمراد به هنا: فهم ومعرفة أحكام دينهم من الحلال، والحرام، وغير ذلك.

والضمير في قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ للذين لم يخرجوا من كل فرقة، أي: لأجل أن يتفقه هؤلاء القاعدون في الدين، أي: يتفهموا، ويتعلموا أحكام الدين وشرائعه من النبي ﷺ.

﴿وَلِيُنذِرُوا۟﴾ معطوف على ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾، والضمير راجع إلى القاعدين أيضًا، أي: ولأجل أن ينذر هؤلاء القاعدون بعد تفقههم في الدين ﴿قَوْمَهُمْ﴾ الذين نفروا للجهاد

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٠٩).

﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾، إذا رجعوا من الجهاد إليهم، أي: يخوفوهم مخالفة أمر الله، بتفقيههم في الدين، وتعليمهم أحكامه.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾، أي: لأجل أن يحذروا عذاب الله وعقابه.

والمعنى: فهلا خرج من كل فرقة طائفة تحصل بهم الكفاية، وجلس من عداهم؛ ليتفقهوا في دينهم، ويتعلموا أحكامه من النبي ﷺ، ومن ثم ينذروا قومهم الذين خرجوا بعد رجوعهم إليهم بتعليمهم أحكام الدين؛ ليحذروا بمخالفة أمر الله وعذابه.

وقيل: المراد بالنفير في الآية: النفير في العلم، أي: ما كان المؤمنون لينفروا كلهم للتفقه والتعلم، بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة، تتفقه تلك الطائفة ثم ترجع تعلم القاعدين.

والصحيح القول الأول؛ لأن الآية في سياق الجهاد، والنفير إنما يكون في الغزو والجهاد؛ كما قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة:٤١].

وقال ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»(١) والآية على هذا تكون كما قال ابن القيم: «قد اشتملت على بيان حكم النافرين والقاعدين، وعلى بيان اشتراكهم في الجهاد والعلم، فالنافرون أهل الجهاد، والقاعدون أهل التفقه، والدين إنما يتم بالجهاد والعلم، فإذا اشتغلت طائفة بالجهاد وطائفة بالفقه في الدين، ثم يعلم أهل الفقه المجاهدين إذا رجعوا إليهم؛ حصلت المصلحة بالعلم والجهاد؛ وهذا الأليق بالآية، والأكمل لمعناها»(٢).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، أي: القريبين منكم

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، لا هجرة بعد الفتح (٢٧٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبو داود في الجهاد (٢٤٨٠)، والنسائي في البيعة (٤١٧٠)، والترمذي في السير (١٥٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٨٧-٣٨٨).

مكانًا، وهم مشركو العرب؛ لأن خطرهم على المسلمين أعظم، وهم أيضًا أولى بالدعوة قبل القتال ممن وراءهم.

وليس معنى هذا أن لا يُقاتل غيرهم، وإنما معناه أن يُقاتل الكفار أولًا بأول، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام.

قال ابن كثير(١): «ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم، وفتح مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضر موت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجًا شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام؛ لأنهم أهل الكتاب؛ فبلغ تبوك، ثم رجع؛ لأجل جهد الناس، وجدب البلاد، وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام.

ثم اشتغل في السنة العاشرة في حجته حجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد الحجة بأحد وثمانين يومًا، فاختاره الله لما عنده، وقام بالأمر بعده ﷺ الخلفاء الراشدون، فأكملوا بقية الفتوح».

﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، الواو: عاطفة، واللام: لام الأمر، و«الغلظة»: الشدة أي: وليجد الكفار فيكم شدة عليهم في قتالكم لهم، انتصارًا منكم لله عز وجل ودينه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٢، التحريم:٩]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ افتتحت الجملة بقوله ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾؛ للاهتمام بما يراد العلم به، أي: واعلموا أن الله مع المتقين معية خاصة بالنصر والتأييد، والتوفيق والتسديد.

أي: قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وتوكلوا على الله، واتقوه، واعلموا أن الله

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ١٧٤).

معكم إن اتقيتموه، وأن نصره لكم بحسب تقواكم له.

قال ابن كثير[1]: «وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى؛ لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك؛ طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا؛ لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانًا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمته في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم».

وأقول: صدق الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١].

فإن الأمة الإسلامية لم تصب بمصاب أعظم من مصيبتها في دينها، وكما قيل:

مَا يَبْلُغُ الأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ ... مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ[2]

ورحمك الله يا ابن كثير لو ترى حال المسلمين اليوم، وقد ازدادوا انقسامًا واختلافًا، وتفرقوا شيعًا وأحزابًا وجماعات، يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام، وزاد الأمر خطورة قوة شوكة أهل البدع ممن يحسبون على الإسلام، والإسلام منهم براء، من المجوس، والصفوية، والنصيرية، والرافضة، والحوثيين، ممن يطعنون في ألوهية الله عز وجل، ويشركون معه الأئمة في الخلق والتدبير والعبادة، ويطعنون في كتاب الله تعالى، ويزعمون فيه التحريف، ويطعنون في صحابة رسول الله ﷺ، ويتهمونهم بالخيانة والردة، ويطعنون في عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ويكفرونها، فقد شوهوا صورة الإسلام، وصاروا غصة في حلوق المسلمين، وخنجرًا

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ١٧٥).

(٢) البيت لعبد الملك بن عبد الرحيم الحلاج. انظر: «الإعجاز والإيجاز» (ص١٦١).

في أيدي أعداء الإسلام، وسيفًا مصلتًا على المسلمين في شتى البلاد الإسلامية؛ فهم الذين مكنوا لأعداء الإسلام من احتلال كثير من بلاد المسلمين فيما مضى، وهم الذين مكنوهم في عصرنا من احتلال أفغانستان والعراق، وهم الذين خربوا كثيرًا من بلاد المسلمين وأشاعوا فيها الفتن والطائفية المقيتة، كما فعلوا في العراق وسوريا ولبنان واليمن، وبعض دول الخليج العربي وأفريقيا، وكثير من الدول الآسيوية وغيرها. وقد قتل على أيديهم وبأبشع صور القتل من المسلمين ما لم يقتل على أيدي غيرهم من أعداء الإسلام، وكفاهم ذلك مقتًا وسحقًا وبعدًا عن الإسلام؛ فهم أشد أعداء الإسلام، كفى الله المسلمين شرورهم، وعاملهم بما يستحقون. وصدق القحطاني رحمه الله(١):

إِنَّ الرَّوَافِضَ شَرُّ مَنْ وَطِئَ الحَصَا ... من كل إنس ناطق أو جان

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

في هاتين الآيتين وما بعدهما إلى قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:١٢٧] عود إلى بيان أحوال المنافقين وصفاتهم.

قوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾، الواو استئنافية، و«إذا»: ظرفية شرطية، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وإذا ما أنزلت سورة ما، من سور القرآن فيها الأخبار، والأحكام، والحث على الجهاد، وغير ذلك.

﴿فَمِنْهُم﴾، أي: فمن المنافقين؛ بدلالة المقام، وقوله بعد هذا: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [التوبة:١٢٥] ﴿مَّن يَقُولُ﴾، أي: الذي يقول إنكاراً ونفياً، واستهزاء وتهكما بالقرآن:

﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾، ﴿أَيُّكُمْ﴾ الخطاب من بعضهم لبعض، ﴿زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ﴾، أي: هذه السورة ﴿إِيمَٰنًا﴾، أي: أنها لم تزد أحدًا منا إيمانًا، قال الله: ﴿فَأَمَّا

(١) انظر: «نونية القحطاني» (ص٢٢).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ إلى إيمانهم؛ لأنهم آمنوا بها، وصدقوا ما فيها من أخبار، وعملوا بما فيها من أحكام.

﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، السين والتاء للتأكيد، أي: وهم يبشر بعضهم بعضًا بنزول السورة؛ لانشراح صدورهم، وطمأنينة قلوبهم بآيات الله، ورغبتهم في فهمها والعمل بها، فحصل لهم بنزول السورة زيادة الإيمان والبشارة، وفي هذا إبطال لقول المنافقين: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾ إمعانًا منهم في نفي ذلك، قياسًا على أحوال قلوبهم المريضة؛ كما قيل:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلَالَا

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾، أي: شك ونفاق ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾، والرجس: الشيء الخبيث، حسيًّا كان أو معنويًّا، والمراد به هنا الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠].

والمعنى: فزادتهم شكًّا إلى شكهم، ونفاقًا إلى نفاقهم، وكفرًا إلى كفرهم؛ بسبب تكذيبهم بها، وجحودهم لها، وإعراضهم عنها، مما أدى بهم إلى الاستمرار على ذلك؛ ولهذا قال:

﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، أي: حال كونهم كافرين، أي: ماتوا على الكفر، فحصل لهم بنزول السورة زيادة كفرهم، والاستمرار على ذلك حتى ماتوا على الكفر، عقوبة لهم بسبب تكذيبهم وشكهم ونفاقهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ۝٨٢﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٤٤﴾ [فصلت:٤٤].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾.

قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ﴾ قرأ حمزة ويعقوب بالخطاب: «ترون».

وقرأ الباقون: ﴿يَرَوۡنَ﴾ بالغيب.

والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجيب، أي: أولا يرى هؤلاء المنافقون: ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾، أي: يبتلون ويختبرون بالمصائب.

﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ تارة بالجدب والقحط والشدة، وتارة بالأمراض، وتارة بفضيحتهم وإظهار ما يبطنون، وغير ذلك؛ ليستيقظوا من رقدتهم، وليفيقوا من غفلتهم، ولكن هيهات؛ ولهذا قال:

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾، أي: لا يرجعون عما هم عليه من النفاق والكفر إلى الإخلاص والإيمان، ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، لم يقل «ولا يذكرون» بل قال: ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ لتأكيد انتفاء تذكرهم، أي: ولا هم يتعظون ويعتبرون بتلك البلايا والمصائب، وأنها بسبب نفاقهم وكفرهم ومعاصيهم؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾، أي: وإذا ما أنزلت سورة ما، مما فيه الأمر بالجهاد، أو بغير ذلك، أو مما فيه فضح أسرارهم، أو غير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة:٦٤].

﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي: التفت بعض المنافقين إلى بعض، وتغامزوا بالعيون سخرية وإنكارًا للوحي ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، أي: قائلين بلسان المقال ولسان الحال؛ تهيؤًا للاختفاء واللواذ والانصراف: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للعموم من حيث المعنى، أي: هل يشاهدكم أي أحد من الناس.

﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ عن مجلس الرسول ﷺ وتولوا، وأعرضوا عما أنزل الله من الحق. كما قال تعالى عن المشركين: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾

فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر:٤٩-٥١].

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، أي: صرف الله قلوبهم صرفًا كونيًّا، فلا تقبل الحق، ولا تنتفع بالآيات والمواعظ؛ عقوبة لهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠].

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا يفقهون ولا يفهمون الذي ينفعهم في أخراهم؛ كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم:٧].

الفوائد والأحكام:

١- بيان أنه ما كان سائغًا ولائقًا لأهل المدينة، ومن حولهم من الأعراب، بل ولا جائزًا لهم شرعًا أن يتخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ للجهاد، ولا يؤثروا أنفسهم بالسلامة على نفسه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

وفي هذا امتداح لهم، وثناء عليهم، وإغراء لهم بلزوم اتباعه ﷺ واقتدائه بأنفسهم، كما أن فيه تحذيرًا لهم من التخلف عنه، وإيثار أنفسهم بالسلامة دونه.

وفيه أيضًا حث على مناصرة الحق والقائمين به، وتحذير من ترك مناصرة الحق وخذلان أهله.

وليس في هذه الآية ما يدل على وجوب النفير على جميع الأمة، كما أنه ليس في قوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة:٤١] ما يدل على ذلك أيضًا، وإنما معناها: انفروا على أي حال كنتم من الخفة والثقل.

وعلى هذا فلا صحة لما قيل: إن هاتين الآيتين منسوختان بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة:١٢٢].

٢- التشجيع على الخروج مع رسول الله ﷺ، وعلى الجهاد في سبيل الله بذكر عظيم ما

أعد الله تعالى للمجاهدين في سبيله من الأجر، وأنهم يؤجرون على كل ما يصيبهم من المصائب في ذلك، مما لا يد لهم فيه؛ من ظمأ، أو نصب، أو مخمصة، كما يؤجرون على كل ما يقومون به من أعمال تغيظ الكفار؛ من الترصد لهم، ومحاصرتهم، ووطء أرضهم، والاستيلاء عليها، والنيل منهم قتلًا وسبيًا وسلبًا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾.

٣- الحث على الصبر على ما يصيب المجاهد في سبيل الله من المصائب؛ من ظمأ، أو نصب، أو مخمصة، وغير ذلك؛ لأنه مأجور على كل ما يصيبه في ذلك، ومكتوب له به عمل صالح؛ إضافة إلى كون المصائب مكفرات؛ كما قال ﷺ: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب، ولا هم ولا غم حتى الشوكة يشاكها؛ إلا كفر به من خطاياه**»(١).

٤- أن الجهاد المعتبر ما كان في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله، ووفق شرعه.

٥- الترغيب في إغاظة الكفار في الترصد لهم، ووطء أرضهم، وغزو ديارهم، والنيل منهم قتلًا وأسرًا وسبيًا وسلبًا.

٦- الحث على الإحسان بنوعيه: الإحسان في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله؛ لأن الله لا يضيع أجر المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

٧- تكفله عز وجل وضمانه لثواب المحسنين؛ تفضلًا منه وكرمًا؛ ولهذا أسماه أجرًا مع أنه لا يجب عليه شيء لخلقه.

٨- الحث على الإنفاق في سبيل الله، وأن المنفق يؤجر على النفقة صغيرة أو كبيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾.

٩- أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأن النفقة الصغيرة قد تفوق النفقة الكبيرة في

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض (٥٦٤٠)، ومسلم في البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه... (٢٥٧٢)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها، والبخاري أيضًا (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣)؛ من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، رضي الله عنهما.

الأجر، وخاصة إذا كانت جهد المقل؛ لأن الله قدّم في الذكر النفقة الصغيرة.

١٠- الترغيب في تحمل السير والسفر، وقطع الأودية والقفار في الجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾، أي: إلا كتب لهم عمل صالح.

١١- أن الجزاء من جنس العمل، وأن من أحسن العمل أحسن الله له الجزاء، وأن الله كتب للمجاهدين عملًا صالحًا بكل ما أصابهم وما قاموا به؛ ليكون جزاؤهم أحسن ما كانوا يعملون؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

١٢- أنه لا يشرع أن ينفر المؤمنون كافة ويتركوا الرسول ﷺ وحده، أو يتركوا ولي الأمر من بعده، أو يتركوا البلد ومصالح الأمة، وإنما يكون النفير بقدر الحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾.

١٣- أن الأولى أن ينفر من كل فرقة طائفة للجهاد، كالسرايا، ونحوها، ويبقى من عداهم؛ للتفقه في الدين، ورعاية مصالح الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

١٤- أن طلب العلم والفقه في الدين فرض كفاية على الأمة، يجب العناية به، وأن على من تعلم وفقه في دين الله أن يعلم غيره.

١٥- أن على الفرقة التي لم تخرج وجلسوا للتفقه في الدين؛ إنذار قومهم الذين خرجوا إذا رجعوا إليهم من مخالفة أمر الله؛ بتفقيههم في الدين، وتعليمهم أحكامه؛ لأجل أن يحذروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

١٦- أن الأمة في حاجة إلى الجهاد في سبيل الله؛ لنشر الدعوة إلى الله تعالى، والدفع عن بلاد المسلمين، وحماية حدودهم.

كما أنها في حاجة إلى العلم والتفقه في الدين، قال ابن القيم بعد ما ذكر أن من أهل العلم من قال: المراد بالنفير في الآية نفير العلم والتفقه في الدين، وأن أكثرهم- وهو الصحيح- على أن المراد به نفير الجهاد، قال: «وعلى القولين فهو ترغيب في التفقه في

الدين، وتعلمه وتعليمه، فإن ذلك يعدل الجهاد، بل قد يكون أفضل منه»(١).

١٧- ينبغي أن ينتدب لكل مهمة من المهمات، ومصلحة من مصالح الأمة من يقوم بها، ويفرغ لها وقته، ولا يلتفت إلى غيرها؛ لتقوم مصالح الأمة.

١٨- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ لتكريمهم وتشريفهم، والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وامتثال ما بعده؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

١٩- وجوب مقاتلة الكفار الأقرب فالأقرب منهم لبلاد المسلمين؛ لفتح بلادهم للدعوة إلى الله تعالى، ودرء خطرهم عن المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾.

٢٠- ينبغي ترتيب الأعمال والمهمات، وتقديم الأولويات، والبداءة بالأهم فالأهم.

٢١- ينبغي الغلظة والشدة على الكفار في قتالهم؛ انتصارًا لله عز وجل ولدينه، وترهيبًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾.

٢٢- أن الله عز وجل مع المتقين بعونه وتوفيقه، ونصره لهم، وينبغي أن يعلموا ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٢٣- فضل تقوى الله تعالى؛ لأن الله تعالى مع من اتقاه بمعيته الخاصة.

٢٤- استهزاء المنافقين بما ينزل من سور القرآن وإنكارهم ونفيهم أنها تزيد في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾.

٢٥- إزدياد المؤمنين إيمانًا بنزول السور، واستبشارهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

٢٦- ازدياد المنافقين ومرضى القلوب بنزول السور نفاقًا إلى نفاقهم، وكفرًا إلى كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾.

٢٧- أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وهذا مذهب أهل

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٨٥).

السنة والجماعة، وقول عامة السلف، بل حكي الإجماع عليه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال:٢].

٢٨- أن الطاعة سبب للطاعة بعدها، وأن المعصية سبب للمعصية بعدها.

٢٩- عقوبة المنافقين ومرضى القلوب؛ بسبب تكذيبهم بالسور واستهزائهم بها بالموت على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

٣٠- عدم اتعاظ المنافقين واعتبارهم بما يبتلون به من المصائب وغيرها، وعدم توبتهم وتذكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾.

٣١- أن من الحكمة فيما يحصل من الابتلاء والمصائب أن يتوب الناس، وينيبوا إلى ربهم، ويتذكروا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾.

٣٢- كراهية المنافقين لنزول السور، وثقل ذلك عليهم؛ إنكارًا منهم لها، فإذا أنزلت سورة التفت بعضهم إلى بعض، وتغامزوا، وتهامسوا: هل يراكم من أحد، ثم انصرفوا وأعرضوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾.

٣٣- عقوبة المنافقين؛ بسبب انصرافهم وإعراضهم عن السور، بصرف الله لقلوبهم صرفًا كونيًّا، بحيث لا تقبل الحق مطلقًا، ولا تنتفع به؛ لقوله تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾.

٣٤- أن انصراف المنافقين وإعراضهم عن السور، وصرف الله تعالى لقلوبهم بسبب أنهم قوم لا يفقهون الفقه الذي ينفعهم في أخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

ختم الله عز وجل هذه السورة العظيمة بالامتنان على الناس ببعثته ﷺ، والتنويه بصفاته الجامعة للكمال؛ من حرصه على دفع المشقة عنهم، وعلى هدايتهم، وكونه ذا رأفة ورحمة بهم؛ في إشارة إلى أن كل ما أمر الله به من الجهاد والغلظة والشدة ما هو إلا لاستصلاح الأمة، وهو من مظاهر الرحمة التي أرسل بها ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ حتى خاتمة براءة»(١).

قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، اللام لام القسم لقسم مقدر، والخطاب لجميع الأمة؛ بدليل قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾.

أي: لقد جاءكم بالدعوة إلى الله وإلى دينه ﴿رَسُولٌ﴾ نُكِّر للتعظيم، ولا غرو في هذا، فهو ﷺ أفضل رسل الله تعالى، وسيد الأنبياء والمرسلين.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: منكم ومن جنسكم، وبلغتكم، قرشي هاشمي عربي، ليس ملكًا، ولا من غيركم؛ استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

وقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي رحمه الله، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه لرسول كسرى: «إن الله بعث فينا رسولًا منا نعرف نسبه وصفته ومدخله

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٥)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٠٣).

ومخرجه وصدقه وأمانته»(١).

﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ﴾ «عزيز» إذا عدي بـ«على» كان معناه: الشدة والمشقة والثقل على النفس، قال الشاعر:

يَعِـزُّ عَـلَى الأَوْسِ بْـنِ تَغْلِـبَ مَوْقِـفٌ   يَسُـلُّ عَـلَيَّ السَّـيْفَ فِيـهِ وَأَسْـكُتُ(٢)

أي: يثقل ويشق عليهم.

ومعنى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ﴾، أي: شاق وصعب عليه.

﴿مَا عَنِتُّمۡ﴾، «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: عنتكم ومشقتكم، أو الذي يعنتكم ويشق عليكم.

ولهذا قال ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»(٣) وقال ﷺ: «**إن الدين يسر**»(٤).

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج:٧٨].

﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾، أي: على هدايتكم ومصلحتكم، وإيصال الخير والنفع لكم، فلم يدع ﷺ خيرًا إلا دل الأمة عليه، ولا شرًّا إلا حذرها منه.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه في الهواء إلا وهو يذكّرنا منه علمًا»(٥).

وعنه قال رسول الله ﷺ: «**ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بُين لكم**»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٢) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٧٧).

(٢) البيت لتميم بن جميل. انظر: «العقد الفريد» (٢/ ٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه و(٦/ ٢٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان، الدين يسر (٣٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٧٨).

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ شديد الرأفة، وشديد الرحمة بهم، فهو أرأف وأرحم بهم من أنفسهم، وأشفق عليهم منها؛ كما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦].

وقدم قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ على عامله ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾؛ للاهتمام بالمؤمنين، وتأكيد رأفته ﷺ بهم، ورحمته بهم رحمة خاصة؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وهو ﷺ رحمة للعالمين عامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧)﴾ [الشعراء:٢١٦-٢١٧].

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾، أي: فإن أعرضوا عن اتباعك والانقياد لك، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، أي: كافيني الله، أي: فامض في سبيل دعوتك، ولا تبالهم، وقل: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، أي: كافيني الله.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: عليه وحده اعتمدت وفوضت في جميع أموري؛ كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾ [المزمل:٩].

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، أي: وهو سبحانه ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وأكبرها، وأعظمها.

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله تعالى على الأمة ببعثة محمد ﷺ، وعلى العرب خاصة بكونه منهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: تعرفون حاله ولغته، وتتمكنون من الأخذ منه؛ كما قال تعالى ممتنًّا عليه ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ

وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف:٤٤].

٢- شرفه ﷺ، وعلو مكانته، وعظم منزلته؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولٞ﴾ بالتنكير؛ فهذا تعظيم له.

٣- شفقته ﷺ على أمته والتيسير عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾، أي: يعز ويشق عليه الذي يشق عليكم.

٤- حرصه ﷺ على هداية أمته، وصلاح أمر دينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾.

٥- رأفته ﷺ الشديدة بالمؤمنين، ورحمته بهم رحمة خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ وهو ﷺ رحمة عامة لجميع الخلق.

٦- تسليته ﷺ وتقوية قلبه تجاه تولي قومه وإعراضهم؛ بإخباره بكفاية الله تعالى له، فلا يبالي بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾.

٧- تمام ثقته ﷺ بكفاية الله تعالى له، واعتماده عليه، وتفويض أمره إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾.

٨- أن الله عز وجل نعم الحسب والكافي، ونعم الوكيل لمن استكفاه واعتمد عليه، مما يوجب الاعتماد والتفويض عليه وحده.

٩- إثبات وحدانية الله تعالى وتفرده بالإلهية، لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

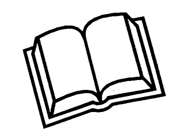
١٠- ربوبية الله تعالى للعرش العظيم، ولجميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ وإذا كان الله عز وجل ربًّا للعرش الذي وسع السموات والأرض وجميع المخلوقات، والذي هو سقف المخلوقات وأعظمها فربوبيته لغير العرش من المخلوقات أولى وأحرى.

١١- عظمة العرش، وأنه أكبر المخلوقات وأعظمها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

* * *

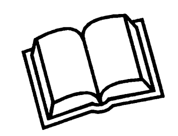
فهرس الموضوعات

* * *



مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

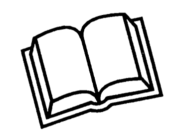
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

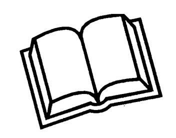
✍

✍

✍

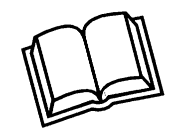
✍

✍



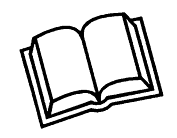
مفكرة





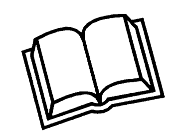
مفكرة





مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

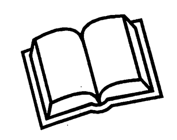
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

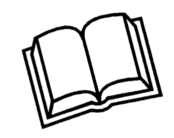
✍

✍

✍

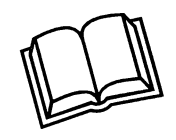
✍

✍



مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

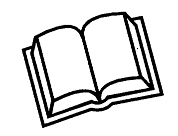
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍


دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958